

مِنْ الْهِجِي الْأَحْمِينَ الْهِجِيلِ الْكُوْرِينَ الْهِجِيلِ الْكُوْرِينَ الْهِبِيلِ الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِ الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِ الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْمُؤْرِينَ الْمُؤْرِينَ الْمُؤْرِينَ الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِينِ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينَ الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِي الْمُؤْرِينِي الْعِبِيلِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِيلِيلِيلِي الْعِبِيلِيلِي الْعِبِيلِيلِيلِيلِي الْعِبِيلِيلِي الْعِبِيلِي الْعِبِيلِيلِي الْعِبِيلِيلِيلِي الْعِبِيلِيلِي الْعِبِيلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلْمِيلِيلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلْمِيلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلِيلِيلِي الْعِيلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلْمِيلِيلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلِيلِيلِي الْعِلْمِيلِيلِيلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلْمِيلِيلِيلِيلِي الْعِلْمِيلِي الْعِلِيلِي الْعِلْمِيلِيلِيلِيلِيلِيلِيل

ترجمة وتقديم فكتور <mark>صبرى محمله حس</mark>ي





WWW.BOOKS4ALL.NET





کتاب

يوني و٢٠١٠

www.gombook.net.eg

in diagonal land

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

ڪــل*ي هانٽــــــــم* ALIHASHEM@ELTAHRIR.NET

E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg

من البحر الأحمر إلى النيل الأزرق مغامرات في الحبشة

> تألیف ، **روزیتا فوربس** ترجمة وتقدیم الدکتور/ **صبری محمد حسن**

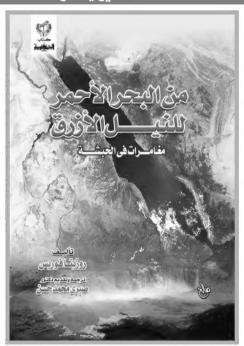
دار الخواهورية للصحافة

۱۱۱ ــ ۱۱۵ ش رمسیس ت: ۲۵۷۸۳۳۳۳

أعضاء مجلس التحرير

محمد فسودة ناجى قمحدة محمد جبريل محمد جبريل عثمان الدلنجاوي مصطفى القاضيي محمد إسماعيل

يونيــو ۲۰۱۰



تصميم الغلاف الفنان : صالح صالح

سكرتيرالتحرير سيدعبدالحفيظ

حقوق النشر محفوظة لـ (كتاب البه هورية)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن سلسلة (كتاب الجمهورية)، بل هي مسئولية أصحابها. ولا يجوز نهائياً نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أي جزء من الكتاب دون الحصول على إنن من الناشر.

أسعار البيع في الخارج

۳۰۰ ل.س سوريا J. J 17 .. لبنان ٥ر٤ دينار الأردن ۳ دنانير ۳۰ ريالا الكويت السعودية ٣دنانىر البحرين ٣٠ ريالاً قطر ٣٠ درهما الإمارات سلطنة عمان ٣ريالات ٦دنانير تونس ٩٠درهما المغرب اليمن ٩٠٠ريالا فلسطان ٦ دولارات لندن ٦جك ١٥ دولاراً أمريكا ١٥دولارا استرالييا استراليا ١٥فرنكأ سويسرياً سويسرا

الاشتراكالسنوي

داخل جمهورية مصر العربية ١٨٠ جنيها الدول العربية ١٨٠ جنيها الدول العربية ١٨٠ دولاراً أمريكيا ١١٥ دولارا أمريكيا أمريكا وكندا ١٣٥ دولارا أمريكيا باقى دول العالم ١٧٥ دولارا أمريكيا باقى دول العالم ١٧٥ دولارا أمريكيا

إذا وجدت أى مشكلة فى الحصول على فى الحصول على «كتاب الحكودة » وإذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات فلا تتردد فى الاتصال على أرقام: مراكم مراكم مراكم مراكم الملك ا

من البحر الأحمر إلى النيل الأزرق مغامرات في الحبشة

تأنیف، **روزیتا فوریس** ترجمة وتقدیم اندکتور/ **صبریمحمد حسن**

مقدمةالترجمة

بقلم د. صبري محمد حسن

روزيتا فوريس

اسمها بالكامل جوان روزيتا فوربس؛ وهي رحالة وكاتبة، ولدت في اليوم السادس عشر من شهر يناير من العام ١٨٩٣ في لينكون Lincoln، التي تربت ونُشِئت فيها تتشئة تقليدية، تمتعت خلالها بالقراءة والكتابة.. تزوجت روزيتا فوربس من العقيد رونالد فوستر فوربس، وترحلت معه في الهند، والصين وأستراليا، وجنوب أفريقيا. لكنهما طُلقا في العام ١٩١٧، وفي العام ١٩١٩، أي بعد انتهاء الحرب العالمة الأولى، قامت روزيتا فوربس بجولة حول العالم؛ انتهت هذه الجولة في شمال أفريقيا؛ الذي يعد أول ملتقى لروزيتا بالعالم العربي، عاشت هذه السيدة مع الشخصيات المحلية، واختلطت بهم وكانت تتردد على الأسواق الشرقية وتصادق العرب، والأفغان، والهنود، والتاجيك، والأوزبك والكزخانيين، التقت هذه السيدة ببعض الشخصيات البارزة في كل من القاهرة، ودمشق، وبيروت، واكتسبت اهتماماً بالعرب دام معها بقية حياتها، الكتاب المعنون – جوالون بلا مرشد – الذي صدر في العام ١٩١٩ يصف تلك الراحلة التي قامت بها هذه السيدة حول العالم.

روزيتا وواحة الكفرة

فى شتاء العام ١٩٢٠ – ١٩٢١ وضعت روزيتا فوربس خطة للقيام بعبور الصحراء الليبية على ظهر جمل بحثاً عن واحة الكفرة التى كانت تقع ضمن حدود سايد Sayed، إدريس السنوسى Senussi (الذى أصبح فيما بعد الملك إدريس السنوسى)، حتى ذلك الوقت كان جرهارد روز Rohlfs، هو الأوروبى الوحيد الذى زار واحة الكفرة؛ كان ذلك فى العام ١٨٧٩، تنكرت روزيتا فوربس فى زى مسلمة، وأطلقت على نفسها اسم خديجة، لكن لغتها العربية لم تكن بجودة لغة السيدة آن بلنت، صاحبة كتاب الحج إلى نجد (ألم)، وأحست روزيتا فوربس أنها مضطرة إلى الادعاء بأن أمها شركسية، الأمر الذى يبرر عيوبها اللغوية، سافرت روزيتا فوربس بصحبة أحمد حسانين، الباحث والمستكشف المصرى، الذى كانت معارفه وخبرته أمراً حيوياً فى نجاح هذه الأحيان. الرواية التى أوردتها روزيتا فوربس عن الرحلة فى كتابها: سر الصحراء: الكفرة، الذى صدر فى العام ١٩٢١ تدل على صدق مزاعم هذه السيدة بأنها مستكشفة جادة.

روزيتا وآرثر توماس

فى العام ١٩٢١ تزوجت روزيتا من العقيد آرثر توماس ماكجرات، لكنها واصلت الاحتفاظ بالاسم روزيتا فوربس، ليكون اسماً مهنياً لها، وواصلت ترحالها مثلما كانت تفعل من قبل، لكن خططها التى وضعتها للسفر إلى جنوب الجزيرة العربية بصحبة والد كيم Kim فيلبى باعت بالفشل، والسبب في ذلك أن سلطات عدن رأت أن الرحلة ستكون جد خطيرة، وكبديل عن هذه الرحلة، قامت بالتجوال خلال الحبشة، بصحبة هارولد جونز، وهو مصور سينمائي، قامت روزيتا فوربس هي وزوجها الثاني آرثر توماس ماكجراث بكثير من الأسفار، وعندما كانا في لندن حظيا باهتمام كبير، ترحلت روزيتا فوربس في العام ١٩٣٠ في بلاد فارس وقد سافرت إليها عن طريق المرور خلال كل من سوريا وفلسطين والعراق وشرق الأردن، كما ترحلت أيضاً في أمريكا الجنوبية وروسيا، كما ترحلت أيضاً من كينيا إلى ساحل العاج.

هذا الكتاب من منشورات المركز القومى للترجمة فى جمهورية مصر العربية، وترجمه إلى
 العربية الدكتور صبرى محمد حسن .

فى أثناء الحرب العالمية الأولى كانت روزيتا فوربس تقود سيارات الإسعاف فى فرنسا وحصلت على ميداليتين من الحكومة الفرنسية، وأثناء الحرب العالمية الثانية ساعدت فى المجهود الحربى عن طريق إلقاء المحاضرات فى أمريكا، استقرت روزيتا فوربس خلال السنوات الأخيرة من عمرها مع زوجها فى جزر البهاما، توفيت روزيتا فوربس فى برمودا فى اليوم الثلاثين من شهر يونيو من العام ١٩٦٧، لم تحظ روزيتا فوربس بالنفوذ الذى حظيت به جرترود بل العالم العربى، لكنها كانت رحالة واسعة الحيلة جرى تسجيل حياتها المليئة بالمغامرات فى كتابين من كتب السيرة.

روزيتا فوربس في عيون الآخرين

اشتهرت هذه السيدة بحق بترحالها فى الأجزاء الخطيرة من العالم، واقع الأمر أن هذه المرأة الإنجليزية الجسورة اعتادت على امتداد سنوات طويلة على زيارة الأماكن النائية والخطيرة، وخاطرت أيضاً بالذهاب إلى أماكن أخرى ممنوعة.

هناك من يقول: إن أفغانستان جرى غزوها مرات عدة: الإسكندر الأكبر، على سبيل المثال، سبير قواته الإغريقية بين جبالها، وجنكيز خان هرول خلال شوارعها هو وجحافل قواته، وجاء بعد ذلك الراج Raj البريطانى القوى ليأمر طائراته الحربية بالتحليق فوق مملكة الناسك المعزولة، وعلى الرغم من ذلك كله، لم يستطع أى أحد تجريد الأفغان من أسلحتهم بلا مجهود سوى روزيتا فوريس.

روزيتا فوريس وبيشاور

بدأت روزيتا رحلتها من بيشاور، تلك المدينة الساحرة، الخارجة في معظمها على القانون، والتي تقع مثل بيضة الحمام على قاعدة ممر خيبر القريب منها، تعين على روزيتا فوربس بطبيعة الحال المغامرة بالدخول إلى أسواق العاديات في المدنية، كيما تتحرى الشائعات الذائعة عن "أسرار بيشاور التي يعرفها الناس جميعاً"، ومع ذلك، فإن رغبة روزيتا كانت تذهب إلى ما وراء الخطيئة الثقافية لتلك البلدة الحدودية سيئة السمعة، من هنا استأجرت هذه الرحالة الشجاعة سائقاً وسيارة، وألقت بحقائبها في شنطة السيارة، وارتدت

قفازها، ووضعت قبعتها الرائعة اللائقة على رأسها، وركبت السيارة، متجهة إلى كابول، ثم مزار شريف لتصل فى نهاية المطاف إلى سمرقند البعيدة، وأسفرت هذه الرحلة عما يعد أبهج الرحلات التى أجريت فى فترة الثلاثينيات، والسبب فى ذلك أن عينى روزيتا فوربس الفاحصتين لم يغب عنهما شىء على الإطلاق، تحدثت روزيتا فوربس مع البدو الرُّحل، وتتاولت الطعام مع أفراد الأسر المالكة، وكشفت عن قصص ملأت كتابين، ومن يمن الطالع أن صورها وأحسن قصصها لا تزال تجمع هنا فى الكتاب المعنون "الطريق المنوع"، هذا الكتاب البهيج، لا يزال عامراً بالحياة، وله سحره الخاص، شأنه فى ذلك شأن مؤلفته المغامرة الجميلة.

أسفرت هذه الرحلة فى عشرينيات القرن العشرين عن سفر يعد من أشهر أسفار المغامرة فى ذلك التاريخ، بحكم أن الكتاب عامر بالملاحظات السياسية والمقابلات المهمة التى جعلت من هذه المرأة رحالة شهيرة بحق وحقيقة، يزاد على ذلك أن هذه السيدة تقدم للقارئ أيضاً مقطوعات شعرية عن جمال عالم الصحارى التى تجولت خلالها.

من البحر الأحمر إلى النيل الأزرق

قسمت المؤلفة الكتاب إلى عشرين فصلاً، جاء أولها تحت عنوان «التوقع»، في حين يحمل الفصل الثاني عنواناً هو «توابيت العهد في هرار»، بَركة الماء، هو عنوان الفصل الثالث؛ وأفردت المؤلفة الفصل الرابع لـ «الضيافة في الجبال»، أما الفصل الخامس فيحمل عنوان «البغال والزواج بصفة أساسية»، وأفردت المؤلفة الفصل الخامس من الكتاب لـ «ما يخص النساء»، «فزع دنكالي بين المرشدين» هو عنوان الفصل السابع، واختارت المؤلفة «أنكوبر ووفاة عمر» عنواناً للفصل الثامن، ويقع الفصل التاسع تحت عنوان «مدينة الغابة: أديس أبابا»، «قدس الحبشة» هو عنوان الفصل العاشر، ويقع الفصل الحادي عشر تحت عنوان «أول لقاء مع النيل الأزرق»؛ «ليلة مخيفة» هو عنوان الفصل الثاني عشر حول «الأشباح عنوان الفصل الثاني عشر، ورزيتا فوربس «من النيل إلى شوشا الخالية من الماء» عنواناً للفصل الرابع عشر، «لالبيلا الحمراء» هو عنوان الفصل الخامس عشر، في حين يتناول الفصل السادس عشر «أخطار الطريق المختصر،

«قصور جُندار» هو عنوان الفصل السابع عشر؛ ويحمل الفصل الثامن عشر عنواناً هو «المعارك مع الشماليين»، وأوردت المؤلفة الفصل التاسع عشر تحت عنوان «أكسيوم، عاصمة ملكة سبأ»، وفي الفصل العشرين تتأمل المؤلفة ما مضي، وتنهى المؤلفة الكتاب بملحق وخارطة عن خط سير الرحلة.

لما كان هارولد جونز، ذلك المصور السينمائي، مرافقاً لروزيتا فوربس في هذه الرحلة، فقد زود الكتاب باثنتين وأربعين صورة التقطها بآلة تصوير سينمائي، فجاءت مفسراً وشارحاً وموثقاً غاية في الأهمية لهذه الرحلة الثمينة، بخاصة في ضوء مصاعب النقل والتنقل على ظهور البغال حاملين معهم أمتعتهم وبخاصة علب الأفلام الخام التي استعملها ذلك الفنان في تلك اللقطات الفريدة.

قطعت روزيتا فوربس هى وقافلتها ورفيقها هارولد جونز هذه الرحلة فى واحد وستين يوماً، أو بالأحرى فى أربعمائة وخمسين ساعة ونصف الساعة، قطعت خلالها ألفاً وتسعة وثمانين ميلاً وربع الميل.

شهريناير

بدأت قافلة الرحلة مسيرها إلى داير داوا في اليوم السادس عشر من شهر يناير عند الساعة السابعة والنصف صباحاً لتصل إلى بحيرة آراميا عند الساعة الثانية بعد الظهر، وفي اليوم السابع عشر، تتحرك عند الساعة الشامنة صباحاً لتصل هرر عند الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر يناير وعند الساعة السابعة الخمس وأربعين دقيقة يممت القافلة مسيرها إلى كيرسا لتصلها عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة، وعند الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة من اليوم الثاني والعشرين من شهر يناير تتحرك القافلة صوب كلوبي لتصلها عند الساعة الواحد والربع ظهرا، وتنطلق القافلة عند الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة من اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير قاصدة ديور وخمس وثلاثين دقيقة من اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير قاصدة ديور الساعة الثالثة وعشر دقائق عصراً قادمة إليها من ديدرك التي تحركت منها عند الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة صباحاً. وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير، وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة تتحرك

القافلة من تولُّو قاصدة دباسو لتصلها عند الساعة الثانية والنصف عصراً، ويشهد اليوم السادس والعشرون من شهر يناير تحرك القافلة من دباسو عند الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة قاصدة كُنتَى التي تصلها عند الساعة الثالثة عصراً، وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه، وعند الساعة السابعة والربع صباحاً تفادر القافلة كَنتِّي متجهة إلى هايرو لتصلها عند الساعة الثالثة والنصف عصراً، وعند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة من صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير تغادر القافلة هايرو قاصدة جالاسو لتصلها عند الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، أي بعد مسير دام أربع ساعات، وعند الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التاسع والعشرين تيمم القافلة وجهها شطر آرداحا لتصلها عند الساعة الثالثة والربع عصراً، أي بعد مسير دام ثماني ساعات وربع الساعة، وفي اليوم الثلاثين من شهر يناير، وعند الساعة السابعة وخمس دقائق تتحرك القافلة قاصدة هواش، لتصلها عند الساعة الواحدة ظهراً، أي بعد مسير دام ست ساعات، وفي اليوم الحادي والثلاثين من الشهر نفسه، تتحرك القافلة عند الساعة الواحدة وعشر دقائق ظهراً قاصدة – أوارا ملكيا – لتصلها عند الساعة السادسة وخمس دقائق مساء أي بعد مسير خمس ساعات تقريباً.

هذا يعنى أن القافلة سارت ثلاثة عشر يوماً من شهر يناير قطعت خلالها مائتين وتسعة وعشرين ميلاً قطعتها في ست وثمانين ساعة وخمس دقائق أي بمعدل ميلين أو ما يزيد على ذلك قليلاً في الساعة الواحدة.

شهرفبراير

فى اليوم الأول من شهر فبراير وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة تحركت القافلة قاصدة آرجوبا لتصلها عند الساعة السادسة مساء أى بعد مسير دام عشر ساعات وأربعين دقيقة، وعند الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة من صباح اليوم الثانى من شهر فبراير اتجهت القافلة صوب آليو آمبا لتصلها عند الساعة الثالثة وعشر دقائق عصراً، وفى اليوم الثالث من شهر فبراير شدت القافلة رحالها عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة فاصدة آنكوبر، لتصلها عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، وعند الساعة التاسعة من صباح اليوم الرابع من شهر فبراير، قصدت القافلة منطقة ثارا

لتصلها عند الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة عصراً، شهدت الساعة الثامنة وعشر دقائق من صباح اليوم الخامس من شهر فبراير تحرك القافلة إلى وادى إنجفان وضاحية شانو، لتصلها عند الساعة الرابعة والنصف عصراً، وفي اليوم السادس من الشهر نفسه، تتحرك القافلة عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً قاصدة الكنيسة الموجودة في باكي مريم لتصل إليها عند الساعة الثالثة وخمس دقائق عصراً، وتتحرك القافلة من باكي مريم عند الساعة السابعة وعشرين دقيقة من اليوم السابع من شهر فبراير قاصدة أديس أبابا التي تصلها عند الساعة الثالثة عصراً.

بعد سبعة أيام، أي في اليوم السادس عشر من شهر فبراير، وعند الساعة الثامنة صباحاً تتوجه القافلة إلى كاجاواها لتصلها عند الساعة الرابعة عصراً، ويشهد اليوم السابع عشر من شهر فبراير وعند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة تحرك القافلة إلى منطقة قريبة من مجرى وُشالى، لتصلها عند الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، وفي اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه، وعند الساعة السادسة وخمس دقائق صباحاً تتجه القافلة صوب دبرا ليبانُس على نهر جمًّا لتصلها عند الساعة التاسعة والربع صباحاً، أي بعد مسير دام ثلاث ساعات وعشر دقائق، وعند الساعة العاشرة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر فبراير تتحرك القافلة قاصدة قرية فيش، لتصل إليها عند الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة ظهراً. ويشهد اليوم العشرون من الشهر نفسه وصول القافلة مجرى مائي بين جرسو آبوت، عند الساعة الرابعة عصراً، متحركة إليها من فيش عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، في اليوم الحادي والعشرين من شهر فبراير وعند الساعة السادسة وعشرين دقيقة، تتوجه القافلة إلى نهر أدباي لتصله عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة ظهراً، كانت دجم، مقصد القافلة في اليوم الثاني والعشرين من شهر فبراير. بدأت القافلة تحركها في ذلك اليوم عند الساعة السادسة وعشرين دقيقة، لتصل دجم عند الساعة الرابعة عصراً، عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير، تحركت القافلة قاصدة دبرا ماكس لتصلها عند الساعة السابعة مساءً، أي بعد مسير دام اثنتي عشرة ساعة، وتصل القافلة إلى دبرا ماركوس في اليوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه، كانت حلتوم مقصداً للقافلة في اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير؛ وقد وصلت إليها عند الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة، من بداية تحركها عند الساعة السابعة والربع صباحاً، في اليوم السادس والعشرين من شهر فبراير، وعند الساعة السابعة وخمس دقائق يممت القافلة مسيرها إلى سلطان إيل، التي وصلت إليها عند الساعة الثالثة وعشر دقائق عصراً، كانت قرية موتا مقصداً للقافلة في اليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه؛ بدأت القافلة تحركها عند الساعة السابعة وسباحاً، ووصلت إلى موتا عند الساعة الثانية وخمس دقائق، يشهد اليوم الأخير من شهر فبراير، أي اليوم الثامن والعشرين، تحرك القافلة عند الساعة السابعة وخمسين دقيقة عصراً.

هذا يعني أن الرحلة استغرقت تسعة عشر يوماً من شهر فبراير قطعت فيها مسيراً يقدر بنحو مائة وست وثلاثين ساعة وخمس عشرة دقيقة قطعت خلالها ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ميلاً، أى بمعدل اثنى عشر ميلاً فى اليوم الواحد.

شهرمارس

استغرقت الرحلة سبعة وعشرين يوماً أيضاً من شهر مارس، قطعت خلالها أربعمائة وتسعين ميلاً ونصف الميل، في غضون مائتين وثمان وعشرين ساعة وخمس وخمسين دقيقة، جاءت على النحو التالى:

تحركت القافلة عند الساعة السابعة صباحاً من اليوم الأول من شهر مارس قاصدة منطقة نهر قوطة، التى وصلتها عند الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة ظهراً، ويشهد اليوم الثانى من شهر مارس تحرك القافلة عند الساعة السابعة والربع صباحاً قاصدة مباديرا مريم، لتصلها عند الساعة الرابعة إلا ربعاً عصراً؛ وكانت دبرا تابور على موعد مع القافلة التى وصلتها عند الساعة الواحدة والربع ظهراً قادمة إليها من مباديرا مريم التى تحركت منها عند الساعة السابعة والربع صباحاً، وعند الساعة السادسة إلا عشر دقائق من صباح اليوم الرابع من شهر مارس تحركت القافلة إلى حافة واد ضيق، وصلتها عند الساعة الشاعة الثالثة والنصف عصراً؛ كانت شوشا على موعد مع

القافلة عند الساعة الخامسة إلا الثلث من عصر اليوم الخامس من شهر مارس، وفي اليوم السادس من الشهر نفسيه، وعند الساعة السابعة صباحاً تحركت القافلة إلى قرية تلجأ التي وصلتها عند الساعة الرابعة إلا ربع عصراً، أما اليوم السابع من شهر مارس فكان على موعد مع ثلاث قرى من قرى – الجرا جتامب – ؛ فقد تحركت القافلة صوب هذه القرى عند الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة لتصلها عند الساعة الرابعة عصراً، في اليوم الثامن من الشهر نفسه وعند الساعة السادسة وعشر دقائق صباحاً تحركت القافلة إلى لالبيلا لتصلها عند الساعة العاشرة والربع صباحاً، أي بعد مسير أربع ساعات تقريباً، عند الساعة السابعة إلا ربعاً من صباح اليوم التاسع من شهر مارس، قصدت القافلة قرية دمبيتا التي وصلتها عند الساعة الرابعة عصراً، وكانت قرية كوا آمبا هي الأخرى على موعد مع القافلة التي بدأت تحركها صوبها عند الساعة السابعة صباحاً من اليوم الحادي عشر من شهر مارس، لتصلها عند الساعة الرابعة إلا ربعاً من عصر اليوم نفسه، تحركت القافلة عند الساعة السابعة وأربع دقائق من صباح اليوم الثاني عشر من شهر مارس لتصل إلى قرية كواليسا عند الساعة الرابعة إلا خمس دقائق من عصر اليوم نفسه، وصلت القافلة بعد تحركها عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثالث عشر من شهر مارس إلى منطقة نهر - نايلي أوالي - عند الساعة الخامسة والربع، وتحركت القافلة عند الساعة السابعة وخمس دقائق صباح اليوم الرابع عشر من شهر مارس قاصدة آمبوس جاربا، التي وصلتها عند الساعة الرابعة والثلث من عصر اليوم نفسه، يشهد اليوم الخامس عشر من شهر مارس وصول القافلة بعد تحركها عند الساعة السابعة وعشر دقائق صباحاً، إلى قرية – كيل مدين آلم – عند الساعة الرابعة عصراً، تتحرك القافلة عند الساعة السابعة إلا عشر دقائق من صباح اليوم السادس عشر من شهر مارس قاصدة وادياً أسفل جُندار، وصلت إليه عند الساعة الخامسة والربع مساءً؛ يشهد اليوم السابع عشر من شهر مارس تحرك القافلة عند الساعة السادسة وعشر دقائق صباحاً صوب جُندار التي تصل إليها عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، أي بعد مسير دام ساعتين وثلث الساعة، وفي اليوم الثامن عشر من شهر مارس تتحرك القافلة عند الساعة الثامنة وعشر دفائق صباحاً لتصل إلى المنطقة المجاورة لمجرى اجيرارو عند الساعة

الخامسة والنصف من مساء اليوم نفسه، يشهد اليوم التاسع عشر من شهر مارس تحرك القافلة عند الساعة السابعة والثلث صباحاً قاصدة الجانب الشمالي من ريدة وايكن، التي تصل إليها عند الساعة الرابعة إلا ربعاً عصراً، كان اليوم العشرون من شهر مارس علي موعد مع القافلة التي بدأت تحركها عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، عندما نصبت خيامها عند الساعة السادسة والنصف مساء على بعد أربعة أميال خلف وأسفل دبيبهد، وعند الساعة الثامنة إلا الربع من صباح اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس تتحرك القافلة لتصل إلى قرية بور مريم عند الساعة السادسة إلا عشر دقائق من مساء اليوم نفسه، وفي اليوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه، تصل القافلة بعد تحركها عند الساعة السابعة والربع إلى ميتامرت عند الساعة الخامسة إلا الربع من عصر اليوم نفسه، تصل القافلة إلى ميتامكت عند الساعة الرابعة من عصر اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس بعد أن بدأت تحركها عند الساعة السابعة وأربع دقائق صباحاً، كانت قرية ميتامم مقصداً للقافلة التي وصلت إليها عند الساعة السادسة إلا الربع، بعد أن بدأت تحركها عند الساعة السابعة والربع صباحاً، وكانت مجموعة قرى أداجا سُنِّي على موعد مع القافلة التي بدأت تحركها عند الساعة السابعة والربع من صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس؛ وقد نصبت القافلة مخيمها بالقرب من هذه القرى عند الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة عصراً، في اليوم السادس والعشرين، وعند الساعة السابعة إلا الربع تحركت القافلة قاصدة أكسيوم التي وصلت إليها عند الساعة الثالثة عصراً، كانت آدوا على موعد مع القافلة، التي تحركت صوبها عند الساعة الثامنة إلا ثلثاً من صباح اليوم السابع والعشرين من شهر مارس؛ وقد وصلت القافلة إلى آدوا عند الساعة الواحدة والربع ظهراً، أي بعد مسير دام خمس ساعات وخمس وثلاثين دقيقة، وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس تحركت القافلة عند الساعة السابعة صباحاً قاصدة نهر مارب الذي وصلته عند الساعة الخامسة والنصف مساءً، وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس، وعند الساعة السابعة والنصف صباحاً، تتحرك القافلة قاصدة أدّى كوالا التي تصلها عند الساعة الواحدة والنصف ظهراً، منهية بذلك خط سير هذه الرحلة المتعة.

لغة الكتاب

لغة الكتاب الإنجليزية سليمة بشكل عام، وفيها كثير من المفردات والتعبيرات والمصطلحات الأمهرية، التي حرصت على توضيح معانيها حتى يتمكن قارئ الترجمة من فهم الكتاب، على صعيد اللغة الانجليزية أوردت المؤلفة على الصفحة رقم ٣ من النص الانجليزي، الكلمة Boogie بالهجاء الخاطئ Boogie، وقد تكون روزيتا فوربس قصدت بذلك الإفصاح عن جنسية الناطق بهذه الكلمة، من خلال لغته، فالرجل سورى وريما تكون استعملت حرف لا بدلاً من G ومعروف أن الجيم السورية تختلف عن الجيم القاهرية، لكن الاستعمال اللغوى هنا فيه شيء من القصور، إذ لابد من إضافة الظرف Down إلى هذه الكلمة كيما تعطى معنى "المضاجعة".

أوردت المؤلفة الكلمة Halt، وهي صفة لا تستعمل سوى في تعبير قديم بطل استعماله The halt and the blind بمعنى - العُمى والعُرْج -.

فى الفصل الثانى عشر، وعلى صفحة ٢٠١ من النص الإنجليزى أوردت المؤلفة الجملة التالية

They blinked at me stupidly, but zabaniers and cook, even Graz match, were already dragging in the animals who were so surprised that they kick.

مستخدمة بذلك ضمير الوصل Whoاستعمالاً قديماً بطل منذ زمن طويل، والصحيح هنا استبدال هذا الضمير بالضمير That.

استعملت المؤلفة Tisane ويصح فيها أيضاً Ptisan و Tizanne وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية إغريقية الأصل Ptisanéالتي تعنى – الشعير المقشور – ؛ واستقر استعمالها للدلالة على – نقيع الشعير، لكن المؤلفة هنا تستخدمها للدلالة على نقيع يصنعه أهل الحبشة من زهور عناقيد شجر الكوسو حمراء اللون.

يبدو أن روزيتا فوربس كانت متمرسة على كثير من مفردات وتعبيرات اللغة الأمهرية، وكانت تفيد من الأحباش المرافقين لها في القافلة، في الوقوف على معانى الكثير من هذه التعبيرات والمفردات التي منها على سبيل المثال Addis Ababa – الزهرة الجديدة، Khabral – قائد القافلة،

حاكم، Gabra — عبد، كلمة Gabra هذه يمكن استعمالها فى تفسير بعض الأسماء الحبشية فالشخص الذى يحمل اسم Gabra Gorgis، يكون معنى اسمه عبدالقديس جورج، والشخص الذى اسمه Timkat الأمهرية معناها عيد الغطاس عند النصارى، كلمة اسمه عبدالثالوث، كلمة Timkat وفى ضوء هذا حرصت على أن أضع فى نهاية الكتاب المترجم قائمة بتلك المفردات والتعبيرات الأمهرية ومعانيها.

الكلمة العربية «سوق» لها الدلالة نفسها في اللغة الأمهرية Suq، كلمة -Ma- الكلمة العربية «سوق» لها الدلالة العامية – ما علش – بمعنى – ما عليك من شئ – أو – ولا يهمك – كلمة Shabaan في اللغة الأمهرية لها الدلالة العربية نفسها، كلمة كلمة العربية – تملّص، الكلمة الأمهرية Sliss، والمأخوذة من اللغة العربية، تعنى عند الأحباش، كل ما هو سلبي؛ مقاولو البغال عندما يستخدمون هذه الكلمة مع مرؤوسيهم تفيد – الوقوف، وإنزال الأحمال، والجلوس أرضاً، كما تعنى أيضاً الحديث والتسامر حول النار المشتعلة.

المصطلح الأمهري: Vetrari Bazab يعنى طائفة من البشر الأقرباء للإمبراطور والمقربين إليه، وهم من أصحاب الهيبة والمكانة، الكلمة :Dergo للإمبراطور والمقربين إليه، وهم من أصحاب الهيبة والمكانة، الكلمة -Ne- Negus تدل على "الطعام"، كلمة "Negus الحبشة" (إمبراطور)، Rebra Negest مصطلح أمهرى يدل على مخطوطة "عظمة الملوك"، كانت هذه المخطوطة موجودة في كلية الملك تيودور، وأعيدت إلى ديبرا ليبانوس بعد أن جرى الاحتفاظ بها سنوات عدة في المتحف البريطاني، كلمة Anjera أمهرية تعنى "خبز حبشى"، كلمة غلال الأزرق"، كلمة أمهرية وتعنى "الجزء العلوى من النيل الأزرق".

بقى أن أقول: إن الحملات البرتغالية كانت هى الأسبق فى الوصول إلى الحبشة، وبعد ذلك بثلاثة قرون نشطت ذاكرة الغرب، وتركزت على لالبيلا بسبب العدد الضخم من الكنائس، غريبة الشكل، وغريبة الإنشاء، والمنحوتة فى الجبال فى تلك البلدة، وقام القنصل الفرنسى فى مستّاوا، أكيل رافراى ومعه جبرائيل سيمون، الذى كان ضابطاً خيالاً من قبل، قاما باختراق جبال

لاستا، وترك كل منهما سجلاً لمدينة لالبيلا فى كتب نشرت فى العام ١٨٨٢ و١٨٨٥، جاء بعدهما المستكشف الألمانى الشهير، الذى لم تأت بعده أية قوافل غربية أو أمريكية إلى أن قام الوزير الفرنسى فى أديس أبابا السيد/ دى كوبيت، هو وزوجته بالمرور خلال لالبيلا وهما فى طريقهما إلى إريتريا فى العام ١٩٢٣، ومن بعدهما جاء هارلان الأمريكى، ومن بعده هارولد جونز، ثم روزيتا فوريس.

ترى ما سر اهتمام البرتغاليين بالحبشة؟ وما هو السر وراء تركيز الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين على هذا البلد؟.. ولماذا عجلت إسرائيل بالبحث لها عن موطئ قدم هناك؟ ولماذا ركزت إسرائيل على الحبشة دوناً عن سائر بلاد إفريقية الشرقية (*)؟ من يقرأ هذا الكتاب يقف إلى حد بعيد على إجابة الكثير من هذه الساؤلات.

الله عِلْب يهود الفلاشا إلى إسرائيل له صلة بهذا الأمر؟ ثم، ابن نحن من كل ذلك؟

إلى الحبشة وولى عهدها راس تفارى

וסעוגת

منا الكتاب ليس عن الحبشة؛ وإنما هو سجل لرحلة استمرت ثلاثة أشهر على ظهر بغل، الكتاب هو قصة ما جرى للسيد هارولد جونز، المصور السينمائي، وأنا معه، طوال مسافة تقدر بنحو ألف ومائة ميل، قطعناها خلال الجبال والغابات، والأنهار والصحراوات، بحثاً عن مادة صالحة للتصوير. الكتاب، عبارة عن قصة مغامرات خطيرة، ورعناء، لكل ما رأيناه وسمعناه وما فعلناه في المسافة ما بين البحر الأحمر والنيل الأزرق، لكن هذه الرحلة هي مجرد انطباع عن الحبشة، كما بدت لنا من الخيمة ومن فوق ظهر البغل.

روزيتا فوريس 66

♦ الفصل الأول

التوقع

قال البارسى (﴿ مَتشككاً "هذا قارب طيب جداً، لكنه ليس للركاب"، تجاوزتنى حملقته التائهة إلى حيث توجد سفينة شحن غير نظامية ونحو ١٣٠طناً وقائمة شحن لا تخطر على بال، كانت تقف في الميناء بغية تحميل هذه الأشياء، واصل البارسي كلامه، وهو يدفع إلى الخلف طربوشه المتعرق كيما يهرش رأسه بفرشة من فرش الأسنان – القارب ليس فيه سوى كابينة واحدة.

قلت محتجة، وقد خطر على بالى هارولد جونز المصور السينمائى، هو وعلب الأفلام الضخمة، التى رفض الافتراق عنها: نحن لا يمكن أن ننام معاً في هذه الكابينة.

رد البارسيّ مفزوعاً - تقولين تنامان في الكبينة! لكن لا أحد يستطيع النوم فيها.

غادرت المكتب، وأنا حائرة بعض الشئ، ومعى قصاصة من الورق توجهنى إلى عنوان ضيافة سفينة نقل فارسية تعمل بين عدن وجيبوتى، لكن انحل اللغز بعد ذلك بساعات قلائل، كانت – الكابينة – تعنى، حفرة فى جوف السفينة، يدوم فيها الماء بلطف جيئة وذهاباً فى قاع السفينة، كان لون البطانيات الموضوعة على الرف، الذى كان يستخدم سريراً مثبتاً فى جانب السفينة، وردياً زاهياً، ويبدو أن الفراشات قد وجدت لها مكاناً وثيراً فوق تلك البطاطين، إذ كانت على شكل أكوام، وهى تحرك شواربها بترقب مشوب

[🖈] البارسيُّ: بتشديد الياء، هو واحد من اتباع الديانة الزرادشتية او المجوسية. (المترجم)

بالخوف، الأمر الذي يحعل منها شبئاً تعافه النفس، وإن هي إلا نظرة واحدة حتى تبادلت أنا وهارولد جونز عرض استخدام واحد منا لتلك الكابينة، وعليه ركبنا على ظهر المركب، كان القمر فانوساً سحرياً راح يعرض لنا صخور عدن المنسطة والسوداء على خلفية مُلاءة من الفضة، كانت السماء مثل شبكة محملة بحمل ثقيل من النجوم التي جعلتها السماء تتدلى من فوقنا، بدا لي أن الإنسان إذا ما وقف على أطراف أصابع قدميه، قد يستطيع سرقة ضوء من أضواء درب اللبَّانة (﴿ ويضعه متلألتًا على الطاولة، على أضواء هذه الشموع السماوية المتباينة، ونحن متدثرين بتلك البطاطين في ذلك النسيم المنعش، أكلنا مادة رمادية الشكل مفرومة فرماً غير طبيعي، أكد لنا أحد الأعراب أنها سمك، كان معى جوال من التمر تشاركت فيه مع مشرقي، وسيِّد الحضرموتي البدين الذي كان مسافراً إلى أديس أبابا لزيارة ولد عمِّه، كان سيِّد الحضرموتي محزوناً تماماً لأنه لم يستطع أن يتبين من رحل قصير وجهه عامر بالتجاعيد، ويتحدث اللغة الدمشقية، ما إذا كان الحبشيون متحضرين بما فيه الكفاية كيما يعرفون طريقة عمل فطيرة معينة من الدقيق المزود بنكهة الزيت، والفلفل والمكسرات، يعدها الرجل أمراً مهماً في غذائه، غلبني النوم في وسط الحديث، واستيقظت لأرى ذلك المشرقي يهش الذباب عنى بطريقة مؤدبة، كانت أرض الصومال تبدو عند الأفق وكأنها حوض من أحواض زهور البنفسج، في حين كان سيِّد يتحدث عن الكلاب، سمعته يقول وأنا ذاهبة للبحث عن الإفطار: "الكلب السلوقي لابد أن تكون حواف أقدامه مثل عيون المرأة».

بينما كانت السفينة غير النظامية تشق طريقها، وسط همهمة، وانزلاق فوق بحر من الزجاج، أحضر الرجل صاحب الوجه العامر بالتجاعيد لفافة من اللحُف، ليخرج من داخلها جرواً صغيراً من جروان الصيد، يقترب اثنان من الوطنيين من الرجل، وقد فغرا فاهيهما، وكان واضحاً أنهما يتطلعان إلى ذلك الرجل وكأنه شكل جديد من أشكال الحواة، قال السورى، لكن سيد اكتفى بالشخير "انظروا الآن، هذا كلب حقيقى." كان من رأى السورى أن الكلب السلوقى هو وحده الجدير بهذا الاسم.

أه مجرّة من المجرات الفلكية. (المترجم)

قال السورى: "إنه ليس كلباً مطلقاً، إنه معاشرة جنسية" بلغت الإهانة من الكبر حداً فترت معه قوة الحديث، إلى أن سمعنا خشخشة المرساة إيذانا بوصولنا إلى جيبوتى، قال سيِّد وهو يتتحنح محدثاً ضوضاء الإرهاق والتعب "الحمد لله"، جازفت بالموافقة على ما قاله الرجل، لكنى سرعان ما أُخْضعت لاستجواب حول كيف ولماذا جئت إلى "أرض الغرباء" هذه، وعندما اعترفت بطريق غير مباشر بأنى جئت عن طريق فلسطين وسوريا، والعراق وبلاد فارس، نظر الرجل العجوز إلى نظرة توحى بخيبة الأمل، قال متعجباً: "الله يعينك، الترحال أمر لا يناسب النساء".

اصطحبنا الطبيب العربي في لنشه إلى الشاطئ، يزاد على ذلك أن الوثيقة التي يمكن التأكد من صحتها، والمعنونة "سمسم مفتوح" تلك الوثيقة التي أهدتني إياها السلطة الفرنسية، منعت رجال الجمارك من غمس أصابعهم في الأفلام الخام، ظناً منهم أنها ربما تكون تبغاً أو أفيوناً، توجهنا إلى الفندق عبر ممرات وشوارع عامرة بنباتات الهايبسكس ذوات الزهور وردية اللون، وهنا وجدتني أقر أن جيبوتي، بلونها الأبيض وأناقتها وعدم ازدحامها، بدت لي وكأنها قد غُسلت وجري وضعها في الشمس كيما تجف، وهذه شراشف الأسرَّة التي عليها رسوم على شكل مربعات، وهذا هو رغيف الخبر المقرمش الذي يصل طوله إلى نحو نصف باردة هو وقوارير النبيذ الأحمر التي ذكرتني بجنوب فرنسا؛ وهذا هو راعي الفندق، يصر على حتمية أن بنام هارولد جونز في "غرفة ملايس النساء" طالما أن الفندق كان مشغولاً بكامله، وإنه سيجرم إذا ما أرسل هارولد جونز إلى وحشة وتعاسة اللوكاندة المنافسة؛ هذا الراعي صاحبُ لكنة غربية. كانت جيبوتي مشغولة بتصدير الجلود والبن، واستيراد دولارات ماريا تريزا، وكانت تقوم بأعمالها بلغات مختلفة جعلتها تبدو وكأنها مدينة عالمية كبيرة، كان الصوماليون أيضاً يرتدون ثيابهم Tobhs التي يلفونها حول وسطهم ويطرحونها على أكتافهم -وغطاء الرأس والتنورة - مما يضفى عليهم مسحة التقدم، التي لا أعرف إن كانت القبعة المصنوعة من اللِّباد داخله في هذه المسحة أم لا، وعلى الفور، بدأت أفهم الرعب الناجم عن القنصل البريطاني، خاصة عندما رأيت شيئاً جميلاً بمشى مشية - امرأة رياضية تماماً، يتوجه إلى القنصل البريطاني

لتسأله إن كان بوسعها ارتداء بنطال قصير فى القطار وهى فى طريقها إلى أديس أبابا ذلك القطار يغادر عند الفجر، وعليه تذوقنا طعم القهوة المضبوطة التى تُصلِّحها هذه السيدة، ودفعنا آخر ما تتوقعه هذه السيدة المدبرة، وخرجنا بحثاً عن حصان Gharry، قال الحمَّال الصومالى "أفضل لكما أن تأخذا حصانين بدلاً من واحد"، قالها وهو ينظر إلينا كما لو أن حملنا الذى يصل إلى نحو ستة عشر ثقلاً، أكبر من أن يجره حيوان لوحده، رحت انظر فى صمت إلى حصان مكسر مربوط بلجام وحبل، وبالطريقة نفسها راح هارولد جونز ينظر فى صمت أيضاً إلى شبح لشئ ربما كان حصانا لحمل أمتعة المسافر أو لعبة من لعب المكعبات.

قلت: "نعم، سيدهب كل منا على حدة، والأفضل أن يكون الإنسان فى الوسط." وقد ثبت تخوُّفي، فقد انخلعت عجلة من العجلات بعد نحو مائتى ياردة، وأكملنا الرحلة سيراً على الأقدام.

لم يكن هناك أى شئ طيفى حول المحطة، اللهم باستشاء ذلك الضوء الضعيف الذى حوَّل ذلك الجمع الصاخب من الحمالين إلى موجة بيضاء من البشر، الذين هددوا بجرفنا، مثلما فعلوا مع أمتعتنا، كانت فكرة الصومالى تقضى بوزن أكبر قدر من الأصناف التى معنا ثم نقوم بعد ذلك بوضعها بعنف على هرم الكراتين الموجودة داخل العربة.

تأوه هارولد جونز قائلا: "آلة تصويرى" وعشرات الأيدى تتخاطفها منه، ألقى الحمالون بحامل آلة التصوير على رأس تاجر يلبس عمامة ذهبية اللون، الذى رفض هذا العصمل، وراح يلقى بالحامل على الأرض، وهنا وصلت الضوضاء إلى مسامعى، لأنى وجدت نفسى أقفز من فوق الطاولة محاولة أن أختطف بالقوة ممتلكاتنا القابلة للكسر، من أيدى المجموعة، التى كانت مصممة على تمزيق وتقطيع تلك الممتلكات بحجة الوزن، أخيراً، اندفعنا معا وحملنا آلات التصوير ومررنا بها من خلال البوابة، ورحنا نكومها على الرصيف، ونحن نلهث، وغضبانين، وقد أصيبت آلات التصوير بردود، وجلسنا فوقها إلى أن جاء ناظر المحطة لإنقاذنا.

بدأنا بعد ذلك تقدماً هيناً عبر بلاد الصومال، كان القطار يهدئ من سرعته قبل السواد الأعظم من التلال وعند كل منحنى من المنحنيات العنيفة،

كان القطار يتوقف كلما أراد سائق القطار أن يشرب، وعندما كان الميكانيكى نفسه، ينزل لاختبار عجلات القطار بمفتاح يصل حجمه إلى حجم الميكانيكى نفسه، كان القطار يتوقف، اضطرارياً عند الظهيرة في ظل أشجار ست الحسن (ألم) أمام كوخ صغير فيه بار، كنا نتناول فيه المكرونة ولحم الماعز بشهية كبيرة، حياني السيد بحرارة من مقعده الذي كان يجلس عليه ويتسامر مع نساء كن يلبسن عمائم فوشياوية اللون ورد نجوتات Frock coat، الطلاق يمارس على نطاق واسع في جنوبي الجزيرة العربية، ولذلك لم أندهش عندما كنت أرافقه، عندما أعلن أن لديه بالفعل ما يزيد على ثمانين زوجة، شهقت بشدة من ذلك المعمم، لكن السد Sayed كان ساخطاً على ما قاله هذا الرجل أن شاء الله سيمتد بك الأجل إلى أن تكمل المائة زوجة." ركزت انتباهي على قهوتي، إذ توالت بعد ذلك تفاصيل كثيرة.....

راح القطار طوال فترة العصر يتلكأ عبر الرمال والصخور، دوّمت شياطين التراب" كما لو كانت أعمدة من الدخان، وكانت تتكسر بين الحين والآخر على القطار مغطية إيانا بحبيبات الرمل الخشن، بعد أن تجاوزنا تلال الحدود بدت البلاد رتيبة إذ كانت عبارة عن حجارة سوداء وتربة حمراء، في حين كان الغزال يخاطر على بعد مسافة يصعب النيل منه عندها، وكان هناك صقر أو صقران يحومان فوق فريسة غير مرئية، وقبيل الغروب بدأ حرس المقدمة الخاص بالجبال الإثيوبية، يكسر خط السهل، كانت هناك فيما بين سفوح التلال المتدحرجة نحو الأعلى، وغير مستوية السطح وكهرمانية اللون، كانت هناك غابة من الشجيرات القصيرة والكثيفة، هذه الشجيرات الخضراء الكثيفة، ذات الأوراق الغضة، وهذه المسحة من أشجار السنط رمادية اللون، والأشواك العامة، والتي تحتوي أيضاً على مئات الأعشاش المعلقة الخاصة بالطيور، كانت تعد بريف متغيرا يقع خلف داير داوا Dire Dawa وبوابات الثيوبيا.

قلت: "هذا مكان جيد للتخييم: فيه ظل وارف"، لكن هارولد جونز تكلم كلاماً علمياً عن الرؤية والقيم الضوئية، وعليه تراجعت عما قلت ورحت أفرد أكبر خريطة معنا وأبحث عن مسارات توحى بالتفاؤل والأمل، هذا هو سحر

[🖈] نبات مزهر من فصيلة السنطيات. (المترجم)

الخارطة، الخارطة تمثل الجانب الآخر من الأفق، حيث يصبح كل شيء فيها أمراً ممكناً. الخارطة تنطوى على سحر التوقع بلا تعب ولا يحتاج الإدراك من خلالها إلى جهد كبير، أعظم الحواديت تذوى أمام احتمالات المغامرة التي تقع في نطاق التحركات الزرقاء الخافتة من البحر إلى البحر، الرحلة الكاملة لا تتهى مطلقاً، لأن الهدف يكون دوماً عبر النهر التالى، حول كتف الجبل التالى، هناك دوماً مسار آخر لا بد من السير فيه، وسراب آخر لابد من استكشافه، الإنجاز هو الثمن الذي يدفعه الجائل ثمناً للمغامرة والمخاطرة.

وعليه أصبحت المسارات التى حددتها للوصول إلى لالبيلا أكثر تعقيداً على تعقيدها، الحبشة فيها كثير من التباينات؛ فيها الجبال، والوديان، والصحراء، وفيها النهر، وفيها الغابة، وفيها مدينة مسورة من العصور الوسيطة، وفيها البيوت المصنوعة من القش والعشب في القرى، وفيها سكان الكهوف، وفيها سكان التلال، وفيها القساوسة، وفيها المحظيات، وفيها غير المتحضرين، وفيها الضيافة البسيطة، وفيها بريق العنف القديم، لكن لالبيلا هي جوهرة الحبشة السرية والفريدة، يزاد على ذلك أن الكنائس الإحدى عشرة، مثل كنيسة بترا Petra"الحمراء حمرة الورد والقديمة نصف قدم الزمن" كلها مخبأة بين صخور لاستا Lastaوأشواكها، وسواء بنيت تلك الكنائس بواسطة العبيد أو الملائكة، أم بواسطة المصريين، والفينيقيين أم العرب، فإن عظمة هذه العجائب التحت - أرضية كانت قوية عندنا شأنها شأن القس البرتغالي الفاريس الذي مات منذ أربعمائة عام، والذي كان أول من وصف تلك الكنائس قبل مماته، منذ ذلك الحين، بدأت الجبال الحمراء تكشف عن سرها لمجموعة قليلة من الأوروبيين لا يزيدون بأي حال من الأحوال على سنة أفراد، يضاف على ذلك أن الرهبان الذين يقومون على أمر الحديث عن الأعمدة والمسلات، المتعلقة بالإنشاء المعجزاتي لتلك الكنائس، والذين أيضاً يزيدون من غموض أسرار تلك الكنائس عن طريق الكشف عن تسجيلات وسجلات قديمة تماماً إلى حد أن مجرد النفس البشري يمكن أن يدمرها، ومن بين هذه السجلات فقرات من اللغة العربية تنتشر بين اللغة الجعزية (木)، هذا يعنى إذن أن - لالبيلا - كانت هدفنا ومبتغانا، وهي تقع

اللغة الجعزية: واحدة من اللغات الأثيوبية. (المترجم)

فى قلب الحبشة، وفيها عدد لا يحصى من السلاسل الجبلية التى هى بمثابة الأسوار، والنهر هو ذلك الخندق المملوء بالماء الذى يحيط بلالبيلا، وعدت من جديد إلى صداقة خارطتى، واخترت مساراً، تمثل سحره فى الأرض التى كان يخترقها، والتى كان السواد الأعظم منها عمودياً على المسار!

وصلنا إلى داير داوا Dire Dawaفى الوقت الذى كنت فيه مترددة بين ماستًاوا Massaua على البحر الأحمر أو وادى مدنى Wadi Medeni على النيل، باعتبار ذلك النهاية البعيدة لرحلة بلغ مسارها من التعرج حداً جعلنى أتوقف عن التماس الأعذار لذلك المسار.

حدثت مشادة أخرى حول متاعنا، تسربت على إثرها أشياء مختلفة من حقيبة الأشياء الصغيرة التى انقطع حزامها، ثم قام تاجر أرمينى بمرافقتنا إلى الفندق بعد أن وقع بصره علينا، كانت غرفت نومى فى الفندق تطل على أجمة بوغنفيلية (*) تتخللها أشجار البونسيانا (**)، فضلاً على نبات متسلق زكى الرائحة يتعلق مثل الستارة حول باب غرفتى.

حذرنا صديقنا الجديد "من لحظة دخولكم الحبشة إلى لحظة مغادرتكم لها، لن تلتقوا رجلاً أميناً مطلقاً".

توصلت بعد ذلك إلى قرار مفاده أن كثيراً من الحبشيين أمناء فيما يتعلق بالمسائل النقدية، أما فيما يتعلق بأفكارهم فهى على النقيض من ذلك تماماً، لكن، في الوضع الذي كنت عليه، صدَّقت ذلك الحكم تصديقاً حرفياً، وعليه اتخذت لنفسى حارساً شخصياً قوياً يدعى إشيتى.

ذهبنا فى صبيحة اليوم التالى إلى السوق ومعنا كيس من العملات المعدنية الصغيرة جداً، وهو ما استطعت الوصول إليه فى ظل الظروف القائمة، كانت تلك العملات عبارة عن قروش قيمة الواحد منها ثلاثة دايمات (المهله)، لكنها كانت لها قوة شرائية كبيرة، اشترينا حبوباً، وبناً، وسكراً للقافلة، وأكياساً كبيرة من الملح لمقايضته بالبيض والبن فى الداخل، ثم تمشينا حول الميدان، المزدحم بمزيج مشوش من الأعراق نصف المتحضرة ونصف التجارية

[🖈] نبات امریکی معترش. (المترجم)

^{🖈 🖈} شجرة مزهرة مكسيكية. (المترجم)

^{*} الدايم عملة امريكية تساوى عشرة سنتات. (المترجم)

التي تحوم حول مواقع السكك الحديدية المتقدمة في أفريقيا. كانت النساء الصوماليات جالسات تحت مظلات مصنوعة من القش، وقد لففن شعورهن في شباك، في حين كانت أزوارهن محملة بالخرز، وبيدو أن اللون الأصفر كان هو لون الموضة - في ذلك الوقت - في حين كان هناك شريط أحمر من القطن ملفوفاً بطريقة أنيقة على كتف واحد من أكتاف كل امرأة من هؤلاء النساء، كانت النساء بيعن زيدة الماعز في أوعية مجدولة، وكانت رائحة اللبن مشوبة برائحة الدخان المستخدم في تجفيف القرع المفرَّغ الذي يستخدم أوعية، وكن يبعن أيضاً قبضات سميكة من التبغ الذي على عوده، وهؤلاء هم رجال القبائل الذين يرتدون الزي الأبيض، يمرون ممسكين بأيدي بعضهم البعض، وعلى رءوسهم صلصال أصفر اللون، حاملين رماحهم عبر أكتفافهم، ويمرجحون عاموداً معلقاً في كل طرف من طرفيه مجموعة من الطيور الحية، أما الحضريون والحضريات فيمكن تمييزهم بتلافيفهم، التي يسمونها الشماسات Chammas ، بيضاء اللون وشعرهم المقصوص على شكل خصل هفهافة، وهاتان أرملتان أو ثلاث، وقد قصصن شعورهن من المقدّمة، تتقين الشمس بواسطة مظلات عجيبة الشكل مصنوعة من القش، يمشين وهن يجرجرن وراءهن على الرمل أطراف ثيابهن زعفرانية اللون، وهذا معتوه ملفوف بالحبال إلى أن أصبح شبيهاً بطرد أسود انفجر خارجاً من لفافاته، يصيح طالباً الصدقة والإحسان، وهذا موسيقي يرتدي عمامة قرمزية اللون يجلس تحت شجرة بوغنفولية يعزف على قرعة مفرَّغة مركب عليها أوتار، وبالقرب منه كلب يقضم في رأس ثور ملقاة في التراب، كانت تلك بوابة إفريقيا بلهبها وحرارتها ورائحتها، وعندما تناهت إلى مسامعنا فجأة أصوات موسيقى الفرح من خلف أسوار المُركّب السكني، كان في ذلك تلميح إلى التعويذة التي تكمن وراء هذه الأشياء،

قال آشيتى Esheti وقرع الطبول ينساب على شكل ضوضاء إيقاعية: "هذا صديق من أصدقائي يزوّج ابنته، عمرها خمسة عشر عاماً، والعريس عمره اثنان وعشرون عاماً، هيا تعالوا لتروا ما يحدث، سيكون هناك رقص كثير، وهرج».

سار أمامنا، مبتسماً، في فناء مملوء بالخادمات، والعبيد، والشحاذين،

وعازفى النايات، صغار يحدثون القرقرات المخيفة وهم يضعون أصابعهم فى حلوقهم، كان نصف الفناء قد حُول إلى خيمة كبيرة، وعندما طلب منا المضيف الذى كان يرتدى ثوباً أبيض شديد النظافة وله حواف خضراء اللون، الدخول وجدنا مئات من الناس: رجالاً ونساءً، كانوا جميعاً جالسين على الأرض حول مكان مفتوح، كانت هناك دائرة داخلية من الرجال الذين يحملون بنادق، ووسط هؤلاء الرجال كانت ترقص أشكال من الأبنوس، ترتدى عمائم بيضاء، ملفوفة بأربطة بيضاء، ويحملون قوارير طويلة الأعناق فيها زيت، راحوا يرشونه وينثرونه على الجمهور، الذي كان يصفق تصفيقاً إيقاعياً مدوياً طوال الوقت، هذه الوجوه السوداء تماماً، وهذه الملابس شديدة البياض من الظل والخيال تتجرف إلى الأعلى والأسفل على بحر متجمد، هذه من الظل والخيال تتجرف إلى الأعلى والأسفل على بحر متجمد، هذه مجموعة من النساء تشكل في ركن من الأركان مربعاً من الموسلين الأبيض، مجموعة من النساء تشكل في ركن من الأركان مربعاً من الموسلين الأبيض، وفي داخل هذا المربع توجد العروس، على حد قول آشيتي، قال: "الرجال الذين يقفزون عند ذلك المربع هم الأقارب، هم يرقصون ويصيحون لإبعاد الذين يقفزون عند ذلك المربع هم الأقارب، هم يرقصون ويصيحون لإبعاد الأرواح الشريرة، لكنهم سيشربون حالاً التدج Tedj إلى أن ينسوا أنفسهما".

قبل أن أتمكن من طرح سؤال آخر طلباً للمزيد من الشرح، بدأ الجمهور يتجمع في الفناء حيث كانت توجد مجموعة من البغال التي وضعت فوق سررُجها أغطية مزركشة زركشة بهيجة، كان العريس يرتدى قناعاً أزرق في أبيض، وعباءة غامقة اللون، وجرت مساعدته بواسطة ثلاثة من الأصدقاء على ركوب بغل من البغال، ويبدو أن هؤلاء الأصدقاء كانوا من أصدقاء العريس، ولذلك كانوا يتصرفون على نحو يوحى بأنهم من أهله، وتبعت العروسة العريس، كانت هناك قطع طويلة من الشاش الخفيف مفرودة مثل الخيمة، من فوق العروسة، لكن في اللحظة التي ركبت فيها على البغل جرى لف هذا الشاش الخفيف من نوع الروديكو والمصنوعة من اللباد، على رأسها! وضع العريس هو ورفاقه أغطية رأس على رءوسهم فوق الأقنعة التي كانوا يرتدونها، وسار الموكب في المر الضيق، وكانت هناك مجموعة من الأشكال التي تقفز هنا وهناك، وكانت الموسيقي تسبق هذه المجموعة وتعزف على آلات وترية عجيبة الشكل، وكان حملة

الزيت المقدس، والأشخاص الذين يرتدون ألبسة مهلهلة ويحملون صوانى الطعام المغطاة بأغطية من القماش قرمزى اللون، وددت لو أنى تابعتهم لحضور الوليمة، لكن آشيتى كان صارماً فى كلامه، قال مؤنباً "لقد انتهت فترة الصباح، وهناك أمور كثيرة تخص القافلة ينبغى الانتهاء منها". من الواضح أن آشيتى كان يعبر عن وده لنا، وربما كان ذلك بدافع من المصلحة المالية، لأنه أعلن أنه سوف يبحث لنا عن خدم وعن بغالة، فضلاً على حيوانات لحمل الأمتعة و "حيوانات قوية نركبها ومناسبة لمقامنا».

التقيت بعد ذلك المرشدين الذين لم يكونوا على استعداد للذهاب إلى المدى الذي وددت الوصول إليه، والتقيت مرشدين آخرين، أكثر مكراً، وعدوني بكل شيَّ، في إطار حلاوة اللسان التي لم تخف نظراتهم الخبيثة، وتعاملت مع طباخين لا يعرفون الفرق بين الدجاجة والبيضة، وتعاملت أيضاً مع خبراء في الطهي كانوا يودون أن يأخذوا معهم مخزونات من البقالة، كانت البغال تقف بالعشرات في الشارع، لكنها جميعاً كانت عرجاء أو محتقنة الظهور، كنا بحاجة أيضاً إلى حرس مرافق من الجنود، لكن عندما رأينا أولئك الذين كانوا يجرون عرضاً على شكل كتيبة يجرى التفتيش عليها كان السواد الأعظم منهم غير متأكدين من صلاحية بنادقهم، لم تكن هناك سُرُج إنجليزية يمكن استعمالها، أما السُّرُّج الحبشية فكانت غير مريحة، وكانت الركاب (ألم) من النوع الذي يدخل فيما بين أصابع القدم، أما قائد القافلة-الذي يعرف باسم -الجنرال- والذي جاء إلى بتزكية من بعض الناس فقد اختفى في الجبال، وكل ما عرفته عنه أنه سيعود بالتأكيد غداً أو بعد غداً، أو في وقت ما، واقع الأمر، وكما هو الحال في تجهيز قافلة أفريقية، كانت اللحظة التي قمنا خلالها بفحص كل أشكال النقل بدءاً من الإبل إلى الحمير الصغيرة رمادية اللون التي لها خطوط سوداء على أكتافها، وبعد أن التقينا آخر المرشدين الذين يعرفون البلاد كلها فيما عدا ذلك المكان الذي وددنا الذهاب إليه، تبدو لنا وكأننا لن نبدأ المسير مطلقاً.

ظهر آشيتي بعد ذلك، في صباح أحد الأيام، ومعه نسخة منه شخصياً

الركاب: بتشديد الراء وكسرها، هو ذلك الجرء من السرج الذي يضع فيه راكب البغل أو الحصان قدمه. (المترجم)

لكنها كانت أكثر منه نحافة واسوداداً، قال آشيتى، وبعدها بدأت تتحسن الأمور: "هذا هو جابرا Gabra جُرجس -Gorgis سيكون لك طاهياً." نظر جابرا إلى بضاعتى ومؤنى مشفقاً "سنذهب الآن إلى السوق للشراء ونشترى ما هو مفيد بحق"؛ وأمضيت صباحاً مفيداً في المساومة على الزيوت والتوابل، وحزم من الأشياء المكسبة للطعم والنكهة، والمواعين عجيبة الشكل، والأوانى التي أصر جابرا جُورجس على أنها هي الأكثر مالاءمة لنيران الخشب، من آنياتنا المطلية بالميناء، اشترينا طاقماً من الأكواب عالية الزينة تحسباً "لأن يأتى العظماء لزيارة مخيمنا"، كما اشترينا أيضاً بعض الحقائب التي تغلق بالأقفال لمنع الجنود أو البغالة من أن يتيهوا عجباً بطعامنا، حدث كل شيء فجأة في اليوم التالي، قام التاجر الأرميني بإحضار الجنود، كما أحضر ستة آخرين ليحلوا محل الجنود في حال غيابهم، هذه المنظومة تسهل، السير مع مرافق غير معروف لكل خادم، وجندي، أو مرشد اعتباراً بلا شك، السير مع مرافق غير معروف لكل خادم، وجندي، أو مرشد اعتباراً من نقطة البداية، وبحيث يكون له ضامناً أو بديلاً أو بالأحرى يكون له دلمنا المركزية عن تصرفات صديقه. المين له وعليه ويكون مستولاً أمام السلطة المركزية عن تصرفات صديقه.

عقب انصراف الجنود مباشرة لشراء الصنادل (本) والبطاطين التي هي جزء من أجورهم، على الرغم من علمى بأنهم يبيعون هذه الأشياء قبل بداية الرحلة – أحضروا أمامى "صبياً"، أصر جاربا جورجس أن هذا الصبى هو جوهرة الخدم، وكان الصبى يرد على كل سؤال أطرحه عليه قائلاً: "أستطيع غسل الملابس غسلاً جميلاً"، وبناء على هذا التصميم وذلك التعبير استأجرته، على الرغم من أنه كان يحمل اسماً هو جابرا ميكائيل جلان، الذي لم أتمكن من نطق الكلمة الأخيرة منه.

سرت شائعة مفادها أن قطيعاً مكوناً من خمسة بغال وصل من هرار، ثم اندفعنا إلى سوق الحبوب لاستئجار هذه البغال فور تنزيل حمولتها، بينما كنا في طريقنا إلى السوق حيّا رجل طويل رفيقى، والقى جاربا بنفسه عليه ممسكاً به من كتفيه كما لو كان يتخوف من هريه منه، وراح يهزه حتى يتأكد من شخصيته الحقيقية، تعجب وهو يفسر ما يحدث "هناك ثلاثة رجال

الصُّندل: حذاء مكشوف في معظمه حفاظاً على تهوية القدمين. (المترجم)

يبحثون عنك فى الجبال، أيها الثعلب! تعال معنا الآن، واختر معنا البغال."
وبهذه الطريقة جرى ضم عمر الجنرال إلى جماعتنا، كان عمر الجنرال لا
يزال يحتج عندما وصلنا إلى مجموعة أشجار السنط التى كانت البغال
تتمشى تحتها بعد إنزال حمولتها عنها، غمغم جابرا جورجس "أرجوك ألا
تتجهمى بهذا الشكل أيتها السيدة." لكنها معجزة أن نتمكن من انتقاء ستة
بغال متينة؛ وعندما وجدنا، عند عودتنا، أن ذلك الترزى الهندى الحزين قد
قام بإحضار شباك البعوض المطلوبة لنا، وعندما وجدنا أن السَّمكرى قام
بتنظيف الركاب الإنجليزية، ارتفعت روحنا المعنوية أمللاً فى الإسراع
بالرحيل.

من الطبيعي أن يحدث المزيد من التأخير، واقع الأمر أن العملة المعدنية المستخدمة في الحبشة هي دولار ماريا تريزا، الذي تصل نسبة الفضة فيه إلى ثمانين في المئة، ويساوي نحو ثلاثة شلنات وحجمه كبير ووزنه كبير أيضاً، والكيس الذي يحتوي على ما قيمته ٥٠ جنيهاً إنجليزياً من هذه الدولارات، يكفي لأن أحمله وليس شيئاً غيره، وأربعة أكياس من هذه الأكياس تشكل حمولة بغل من البغال، لكن نظراً لعدم وجود فكة في المناطق الداخلية من البلاد، فإن هذه الدولارات لا تستخدم ويقتصر استعمالها على الأثرياء. بوسعك شراء عشرين بيضة أو دجاجتين بالقرش الواحد، وتستطيع شراء خروف نظير ثلاثة أرباع الدولار، لكن من سوء الطالع أن هذه العملات المعدنية كلها تعد شيئاً خرافياً أولاً وقبل كل شئ، وعليه تستطيع الذهاب إلى السوق ومعك دولاراتك البيضاء البراقة وتروح تبحث عن القروش والأرباع بقيم مبالغ فيها، هناك فخ آخر يقع فيه الغافلون والمتهورون، ربع الدولار مدموغ بأسد متوج، لكن إذا كان فم الأسد مفتوحاً ورافعاً ذيله فإن القبلي لن يقبله ويرفض أخذه، وعليه رحت أنا وهارولد جونز نبحث وننفق ساعات في البحث عن أرباع لا يكون الأسد المدموغ عليها فاتحاً فمه أو رافعاً ذيله، أخيراً عدنا ونحن، محملون بأكياس صغيرة، قمنا بوضعها داخل جوال كبير، وتتهدت تنهيدة ارتياح وحاولت وضع هذا الجوال الكبير في ركن من الأركان، أدى ثقل ذلك الجوال، وإن شئت فقل الحقيبة، إلى انكسار مقبضيها على الفور، وجلسنا على الأرض ورحنا ننظر إلى بعضنا البعض في صمت، تتاهي إلينا صوت قادم من الخارج – "سيدتى، الجنود يقولون إن الجو سيكون رطباً على الجبال وإنهم لم يتمكنوا من شراء أى شىء ليصنعوا منه خيمة، كما أن الأعمدة التى طلبت شراءها من السوق، طويلة جداً ولا تصلح لشباك الناموس، إضافة إلى أن جلان مصاب بالحمى ويرتعش". قاطعه صوت آخر يقول: "إنه ليس مصاباً بالحمى – هذا الرجل السيئ أكل القات! (ألم) سيدتى، هل تأذن لى بربط الركاب فى السير لأن رجليك طويلتان على هذا السرج". ويذلك نكون قد كسرنا الصمت.

فى عصر ذلك اليوم راح كل واحد من أفراد القافلة يطلب دفعة مقدمة من أجره، متعللاً بأن زوجته مريضة أو طفله عليل، وعندما جاء الرجال ومع كل واحد منهم حزمة من الأوراق الخضراء يربطها إلى وسطه، سرح بالى فى أن القسم الأكبر من النقود جرى إنفاقه على شراء القات، ذلك المخدر الذى يثير ويؤدى إلى الاكتئاب، والذى يقال إنه لا يأكله سوى المسلمين.

القات: نبات مسكر يمضغه أهل اليمن والحبشة وكثير من سكان القسم الجنوبي من الجزيرة العربية كما ينتشر مضغه أيضاً في الصومال (المترجم).

♦ الفصل الثانى

نو (بین (العهر فی هرر

اتخذنا الترتيبات اللازمة لتحركنا عند الساعة السادسة، وعليه عند الساعة الخامسة صباحاً، وأثناء الظلام الدامس، وقبل أن تبدأ الديكة صياحها، كنا قد ارتدينا ملابسنا ورحنا ننتظر وصول البغال، قام كل من جاربا جورجس هو وجلان بحمل الأمتعة إلى خارج الفندق وهما غير راضيين، أكدت لهارولد جونز "كل شيء في هذا البلد يبدأ متأخراً ساعة عن موعده". كان الضوء الرمادي قد زحف إلى الشرفة، ولم نر أي حيوان من الحيوانات.

قال عمر، وهو عائد من المرة الخامسة لاستطلاعه للشارع: "أنا لا أظن أن البغال قد وصلت بعد إلى البلدة". أوضح عمر أنه من باب الاقتصاد في الإنفاق يقوم رؤساء البغالة Nagadis بإرسال حيواناتهم لتتغذى من التلال ويقومون بإحضارها في الوقت الذي تُطلب فيه.

وبعد شروق الشمس كنا جالسين على أكوام الأمتعة على جنب الشارع، وقد بدا علينا البله والحماقة اللذان كانا بداخلنا.

قلت لهارولد جونز "ما رأيك فى إفطار آخر؟" قلت ذلك وأنا أستعيد ذكر القهوة المتازة التى تتاولناها فى الفندق، أحسسنا بالسرور ونحن نناقش المثل العربى الذى يقول: "ثلاث بدايات ثم بداية حقيقية بعد ذلك".

قال جونز: "أستطيع القول إننا سنبدأ المسير عند الظهر".

راجت عند الساعة التاسعة شائعة مفادها أن آخر مرة شوهدت فيها بغالنا كانت عندما كانت تجرى بطريقة هوجاء بعيداً بين الجبال، وقبيل

الظهر، عاد الرُّسل الذين كنا قد أوفدناهم لتحرى هذا الأمر، وهم يتصنعون الاكتئاب وخيبة الأمل، لكنهم فى واقع الأمر كانوا مسرورين من مفاجأة المعلومات التى جاءوا بها، قالوا: إن البغال هاجمتها الضباع أثناء الليل، وقد أكلت الضباع رجل بغل من هذه البغال وأصيبت البغال الأخرى بجراح، وأن أصحاب البغال كانوا لا يزالون يُطبِّبونها، راجت هذه الشائعة بسرعة، وكان آخر ما سمعته من هذه القصة أن الأسد أكل صاحب البغال Nagadi.

قمنا بلا فضول أو تطفل قدر المستطاع، بإعادة متاعنا إلى غرفنا، واستبدلنا ملابسنا بملابس عادية وخرجنا لمشاهدة وصول دجزماتش إيمارو Dejezmatch Imaru، حاكم هرر المناب، الذى كان يحضر حفل زفاف ابنة راس تفارى Ras Tafari في أديس أبابا.

كان الموكب جذاباً، مر في بداية الموكب الجنود على اختلاف أحجامهم وأشكالهم "ملفوفين في جبخانات (*) حسب كلام هارولد جونز، فيما بين فترات تشغيله لآلات التصوير (الكاميرات)، كان هؤلاء الجنود يمثلون الحرس الخاص لراس تفارى، وقد جرى تدريبهم بواسطة ضباط الصف السابقين في وحدة البنادق الأفريقية الخاصة بالملك، وكانوا يرتدون زياً أوروبياً موحداً كاكي اللون، جاء الدجزماتش ماشياً على قدميه بعد الجنود، وهو رجل نحيف مميز القامة، وكان غطاء رأسه الأسود العريض وقبعته الرودية Rodeo مميز القامة، وكان غطاء رأسه الأسود العريض وقبعته الرودية المتشحين بالقماش شديد البياض، وكانت هناك بقع قرمزية منثورة على حافة العباءات، كانت هناك نسوة يمسكن مظلات نسائية صغيرة مضحكة على شكل باغودات (* شمل الني يجعلها تبدو كما لو كانت شبكة من الشباك، كان من الشعر، الأمل الذي يجعلها تبدو كما لو كانت شبكة من الصلب، أو ربما الحمالون يترنحون بسبب أحمالهم من الأطباق المصنوعة من الصلب، أو ربما كانت تلك تُرُساً \$hields، كان أفراد الحاشية المسلحون بالبنادق والرياح يقتادون الخيول التي كانت الشراشيب تتدلى من قماش السنُّرُج المطرز برسوم يقتادون الخيول التي كانت الشراشيب تتدلى من قماش السنُّرُج المطرز برسوم يقتادون الخيول التي كانت الشراشيب تتدلى من قماش السنُّرُج المطرز برسوم يقتادون الخيول التي كانت الشراشيب تتدلى من قماش السنُّرُج المطرز برسوم

جبخانة: كلمة تركية الأصل، تعنى شريطاً من الجلد فيه مواضع لطلقات البنادق ويلفه الجندى
 حول وسطه أو على كنف من كنفيه، وحول وسطه. (المترجم)

^{🖈 🖈} واحدة - باغودة-: معبد صيني او ياباني مكون من ادوار عدة. (المترجم)

الأسود، فى حين كانت مؤخرة الموكب مكونة من متسلقى الجبال، والمجذومين، والشحاذين الذين كانوا يلبسون أغطية رأس مصنوعة من الوبر، كما كانت فى المؤخرة بعض الكلاب وعنزة ضالة".

بعد أن أعدنا آلة التصوير إلى مكانها جاءتنا رسالة تفيد أن صاحب السعادة يود لقاءنا، وعليه صعدت مع هارولد جونز إلى مقر الحكومة الصغير المبنى على تلة في وسط الداير Direداوا، وتحيط به شرفات يرى الواقف فيها منظراً رائعاً للتلال والوديان، هذا المقر يمكن الوصول إليه عن طريق مجموعة قمم ملتحمة على شكل درج (سُلَّم)، يرتفع بطريقة عمودية فيما بين ما يشبه الأسود المخدَّرة، غمغم هارولد جونز، ونحن نصعد درجة إثر أخرى، بين الجماهير الغفيرة المحبطة التي كانت تحاول أن تحظى بحضور صاحب السعادة "هذه الحيوانات ينقصها شيً، لكني لا أعرف ما هو".

استقبلنا الدجزماتش إيمارو في غرفة كبيرة تكاد تكون خالية مكسوة باللون الأحمر، وكانت صورة الأسد هي الغالبة على مظلة العرش بل وعلى كرسى العرش نفسه، كان الدجزماتش يتكلم قليلاً من الفرنسية، وسرعان ما تبينا سر استدعائنا.

قال الدجزماتش: "فى استعراض العرش فى العام الماضى رأيت صورتكما مع شيخ hief كعربى، وقد تذكرت هذه الصورة نظراً لأن هذا الرجل كان أضخم رجل رأيته فى حياتى، أنا لم أعرف أحداً مارداً على هذه الشاكلة".

ضحكت وحدثته عن الشريف الريسونى Raisuni المغربى الذى بلغ وسطه من الكبر حداً حتم عليه أن يكون له باب خاص يدخل منه، وكرسى خاص يجلس عليه، كان وجه إيمارو نحيفاً ينم عن الذكاء، وكانت ابتسامته على نحو تجعل الناظر إليه يقف على جاذبيتها، وبعد أن تطوع الدجزماتش بإرسال برقية إلى راس تفارى يطلب منه فرماناً خاصاً يسهل علينا ترحالنا خلال الجبال، دعانى إلى مقابلة زوجته.

كانت هناك فى الغرفة المزودة بكراسى فرنسية مطلية بالذهب، وطاولات مطلية بالذهب أيضاً، امرأة تجلس غارقة فى كرسى ذى مسندين، وبلا حراك وسط لفائفها، التى كانت تلامس شفتيها ومكونة من ثنية فوق أخرى، كانت عيناها سوداوين ولها رموش كثيفة مثل رموش الغزال وكان شعرها مجدولاً

ومضفوراً بطريقة توحى وكأنه شيء مطرزز، لكنها كانت مُتَعَبة بعد رحلة طويلة، وريما كانت مكسوفة ومستحية، الأمر الذي جعلها لا تقول سوى كلمات رسمية قليلة على سبيل التحية، أحضر الخدم أكواب مشروب التدج ذهبى اللون، ذلك المشروب الذي يصنع من العسل والأعشاب المرة والذي قال عنه بودلير -Baudelaire" إنه الأكثر فخامة، هو مشروب نبيذ العسل في مذاق الطفل الصغير".

تحدثنا عن الترحال وكان من رأى الدجزماتش أن قافلة البغال أفضل فى الترحال من القطار، قال: "المرء وهو فى القطار لا يرى من البلد سوى قذارته، ولا يأكل أو يتنفس سوى هذه القذارة أيضاً، من الحكمة أن تركبى؛ ستكسبين كل شىء ما عدا الوقت". وابتسم مُضيفاً "أنا أتساءل، هل ننظر إلى هذا الأمر مثلما تنظرين إليه؟".

عندما عدنا إلى الفندق وجدنا مجموعة كئيبة من الحيوانات مُجَمّعة بجوار السلم، وفي عهدة رئيس من رؤساء البَّغَّالة ربما كان هو حام ولد سيدنا نوح، كان وجهه بأجمته من الشعر الأبيض توحى بالنبل، وكان وجهه مربعاً تتخلله وديان عريضة كانت توحى بتناسق عظامه، كانت عيناه غائرتين وصريحتين وتوحيان بأنه لم يكن كبيراً أو شاباً، لكنه عاقل تماماً، من سوء الطالع أن لهجته لم تكن مفهومة للجميع اللهم باستثناء البغَّالة، الذين كان من مصلحتنا أن يقوموا بترجمة وشرح كلماته القليلة لنا، وأنا لا أظن أنه كان بستعمل أكثر من ست كلمات.

كان من الصعب توبيخ أو توجيه اللوم إلى إنسان من هذا القبيل عن أمر لا يفهمه مثل تأخر يوم كامل عن الموعد المحدد، وكان محرجاً أيضاً أن أبرز له أنى قد اخترت بغالاً سليمة في حين جاءني هو ببغال ظهورها شبيهة بدكان القصااب.

قال بان Pan صاحب الرأس الأسود مجعد الشعر، والذى من المفترض أن يعلق ناياً فى حزامه: "هو يقول: ما عليك". شاهدنا فى يأس البغال وهى يجرى دفعها داخل الحوش، ثم أغلق الباب، وأعلنا من جديد أننا سنبدأ التحرك عند الساعة السادسة.

طُرق الباب عند الساعة الثالثة والنصف طرقاً مرعباً، ولابد أن يكون هذا الطرق قد أيقظ كل النائمين في الشارع.

سألنى جابرا جورجس "ألم يئن الموعد، يا سيدتى؟"

رددت عليه "ليس بعد". وددت لو أنى كنت قد تذكرت لعنة عربية تناسب هذا المقام، بعد ذلك بساعة انتعشنا بفعل الأغانى الصادرة عن المرافقين الذين كانوا ينتظروننا في الشارع، استسلمنا بعد ذلك للأمر الواقع.

جاء القسم الأكبر من أهل داير داوا لرؤيتنا ونحن نبدأ التحرك، أحسست أن الطريقة التي سرنا بها في مجرى النهر الجاف خارج البلدة كانت جديرة بالاهتمام الذي أوليناها إياه، سار أمامنا جنديان حاملين بندقيتيهما في أيديهما، وسيفين معقوفين يتدليان خلف ظهريهما كما لو كانا ذيلين، وسارت البغال على غير هدى خلفهما وهي محملة بكل أنواع الصناديق، والحزم، والجوالات، حاول هارولد جونز وأنا معه المحافظة على ركوبتينا في خط مستقيم، لكن بعد الميل أو الميلين الأولين فهمنا أننا لا يمكن أن نركب البغال إلا إذا كنا قد ولدنا وتربينا معها، - ما عليك سوى أن تركبها وتحاول تحاشي أرجل البغال المجاورة لها، طوال مسيرنا في رمال وادى هرري Harri، عاودني الحنين إلى قوافل الإيل، نظراً لأن الجمل لا يرفس إلا في اتجاه واحد فقط، في حين يتمتع البغل بشئ سحري في مفاصله، إذ يستطيع الرفس في جميع الاتجاهات وبكفاءة واحدة وبكل أرجله، وقد أفلت هارولد جونز من رفسة وجهها بغل أبيض مشلوح الأذن إلى كتفه، كما التمع حافر مرَّ بسرعة أمام قماش السرج الذي كنت أركب عليه، قبل أن أحاط علماً بتلك التصرفات البغلية الشاذة، كان الجو شديد الحرارة، مما أدى إلى انصهار قالب الشيكولاتة الذي كان بداخل الحقيبة التي أحملها على ظهري، وسالت الشيكولاتة على فرشاة أسناني وعلى المشط قبل أن ألاحظ نقط الشيكولاتة تسقط على حذائي.

كان التراب كثيفاً في مجرى النهر الجاف نظراً لأن هذا المجرى هو الطريق الرئيسة التي يستخدمها قرويو التلال في المجئ إلى المدينة لتسويق منتجاتهم، التقينا قطعاناً من الحمير المحملة بالعلف والتبن، وشاهدنا الإبل وهي مربوطة بحبال رأس إلى ذيل، ويقودها رجال سود شبه عراة، وضعوا كل أمتعتهم، المشط، وخلة الأسنان والتبغ، ونباشة الأذن، كل ذلك مغروس في شعر كل جماً لل من الجمالين، كانت النساء يحملن أشياءً أكثر مما تحمله

البغال، كن يمررن علينا على شكل جماعات ترتدى ملابس قرمزية اللون، وهن يحملن أحمالاً كبيرة من الحطب على رءسهن فى حين يوجد طفل أو حزمة من الدجاج متدلية على ردفيها، قد تكون أيديهن فى بعض الأحيان مملوءة بالقرع القللى، فى حين توجد قرعة حمراء، وإن شئت فقل قرعة عسلية متزنة على رأسها، أو قد تكون هناك عنزة ملفوفة فى الحزام الموجود حول وسطها، كانت هناك قطعان من الماشية ترعى فى ظل شجرة الست المستحية (أم)، وعندما بدأت تزداد كثافة الأشجار القصيرة عند سفوح التلال، كنا قد وصلنا إلى فحامات الفحم النباتى التى تحيط بها جذوع مشتعلة، وشاهدنا أبضاً قطعاناً من الماعز برعاها أولاد صغار عراة.

زاد اقتراب الأشواك الكبيرة بعضها من بعض إلى أن صنعت من فوق رءوسنا ستارة يزيد من رونقها تلك الأجنحة قرمزية اللون، أو تتخللها نباتات متسلقة كثيرة، بدأنا الصعود بعد ذلك وانفتح المكان من أمامنا كما لو كان خارطة، كان المسار الذى أخذناه ضيقاً، ومفزعاً بسبب الصخور والجلاميد المنخلعة من الجبال، في أماكن شبه عمودية على المسار، الذي كان يتلوى ويعود إلى الخلف إلى أن بدأنا نرى الجزء الذي قطعناه منه على شكل سلسلة لا يتصورها عقل من الحلزونات، التي تنحدر من صخرة إلى أخرى في الأسفل، كانت البغال تتزحلق وتترنح في بعض الأحيان، انقطعت الحبال مرتين وتناثرت الحمولات بين الأحجار، في الوقت الذي راحت البغال فيه تنتفض إحساساً بتحررها من حمولتها.

أبطأنا التقدم بعض الشئ، والسبب في ذلك أننا كنا، عند كل منعطف يشرف فيه مسارنا على حافة مكان مفتوح، نلتقى جمعاً كبيراً من الحمير صغيرة الحجم، المحملة بأكياس البن التي تزيد على طاقتها، والتي تتشر خلال قافلتنا، الأمر الذي يزيد من ارتباك بغالنا المجهدة، وتنتج عنه عاصفة من السباب واللعان التي تصدر عن البغالين، عندما كانت القافلة تتجه نحو الأسفل بين الجذور الممزقة والجلاميد الصخرية المعلقة، كنا نواصل المسير، مخافة أن تنزلق السنريج إلى روس البغال، في إحدى المرات، وعندما كان هارولد جونز يركب البغل، انقطع حزام بطن البغل، وسقط هارولد جونز على

[🖈] الست المستحية: شجرة من السنطيات. (المترجم)

كتفه فى الخلف، طقم البغل الحبشى هش وثقيل وكل سير وحزام فيه يجرى ربطه على شكل عقدة، ويجرى إصلاحه وتقويته باستعمال الخيوط، باستثناء التغاضى بصورة مؤقتة عن هذه التناقضات فى العرَّاقة (*) الموجودة أسفل السرج.

أخيراً وجدنا أنفسنا فجأة على قمة السلسلة الجبلية الأخيرة، وعندما نظرنا في الخلف، إلى زرقة الوادى الشبيه بالفنجان، وإلى الجبل الذي تكسوه الغابات، وينزل نحو الأسفل إلى السهل الموجود خلف دايرا داوا، شاهدنا هضبة أمامنا، عبارة عن أرض زراعية فيها التماع بحيرة فيما بين الأكواخ المصنوعة من قش نبات عش الغراب، كانت نباتات الفرييون المزهرة هي ونبات الصبار تحد جانبي الطريق الذي كنا نسير فيه، كانت الطيور والقطعان هاجعة بسبب حرارة الظهيرة في أماكن تشوين قصب السكر أو الذرة التي توفر لها الظل، كان الرجال والنساء ينامون ويضعون علي رءوسهم الذرة التي توفر لها الظل، كان الرجال والنساء ينامون ويضعون أن المُطلع أصبح بعض الملابس، وراح مرافقونا، الواحد بعد الآخر، يوضحون أن المُطلع أصبح أكثر انحداراً، تمتم أشد الجنود سواداً، وهو يدعى أيضاً جاربا جورجس، وعربيد شرير، على وجهه شلخ يمتد من أعلى صدغه إلى ذقنه، بأن راح يقول شيئاً عن الحمى. كان هناك جندى آخر أكثر صراحة، ضحك ذلك الجندى "نحن كلنا تعبانين، نظراً لأننا شربنا بالأمس الكثير من مشروب التدج، غنينا الليل بطوله أمس، أما اليوم فنحن حزناء في هذا الصباح".

تحولت بحيرة بلا Balla إلى ما يشبه الضباب الذى كان يترأرأ فوق القرى المبعثرة، ودوائر الفطر التى على المنحدرات، التى يحيط بها سياج من أشجار الفرييون التى يصل طول الواحدة منها إلى عشرين قدماً، بعد مسير دام سبع ساعات، وصلنا إلى بحيرة أخرى تدعى الآرامية Arameya، تعكر سطح مائها بسبب هبوب ريح مفاجئة، وكانت عامرة بالبط، كان من بين هذه الطيور، أنواع من قبيل طائر أبى ملعقة أحمر العينين، وطيور الغراء (المسلم التى كانت تبدو وكأنها بلا أعناق؛ كانت هناك أيضاً طيور وطيور الغطس التى كانت تبدو وكأنها بلا أعناق؛ كانت هناك أيضاً طيور

 [★] العرّاقة: قطعة من قماش أو خيش توضع على ظهر الحمار أو الحصان أو البغل قبل وضع السرج على ظهر الحيوان. (المترجم)
 ★★ طير مائي من فصيلة البط. (المترجم)



مطلع شديد الانحدار

مخوِّضة بكميات كبيرة، ومنها الأبيض والأسود، تمشى متأنقة على أرجل نحيفة وردية اللون.

دفعنا افتناننا بالإمكانات التصويرية لتلك الطيور إلى التخييم على أرض منخفضة قريبة من الماء، تحيط بها أشجار الحور (ألم)، التى شكلت مصداً غير كاف للرياح، كان جاربا جورجس قد ذهب لشراء الطعام على الطريق، وعاد إلينا ومعه قرعة مجوفة مجففة مليئة بالحليب والبيض، كما أحضر أيضاً دجاجة نحيفة. قام جاربا بعدئذ بجمع بضعة أحجار قليلة، وقبضة ذراع من الخشب، وبعد أن كوم كل شيء حوله بطريقة غير منظمة استطاع في غضون نصف ساعة إعداد وجبة رائعة، بعد تناول الصنف الثالث، الذي تمثل في الدجاجة الرياضية، أحسسنا بالشبع ولم نعد جوعانين، أحضر هارولد جونز الغليون الذي لا مفر منه – الذي لم يكن يبعده عن فمه إلا عندما كان يأكل أو عندما يضع وجهه على مؤخرة آلة التصوير (الكاميرا) – في حين قمت أنا بتدخين واحدة من آخر سجائري الثمينة، تحدثنا عن الصور الرائعة التي سنقوم بالتقاطها، إلى أن غربت الشمس وبدأت العاصفة تهدد خيامنا.

كان الجنود والبغالة قد نظموا أنفسهم على جانب الطريق المحمى من مهب الريح استعداداً لوليمة الشاة، جرت العادة، عند قيام قافلة من القوافل برحلة طويلة، أن يطلب القائمون بتلك الرحلة ذبح شاة على سبيل الأضحية لجلب الحظ السعيد، هذه العملية تعد أضحية في الحبشة، إذ يجرى اقتياد الشاة إلى وسط الحلقة، ويجرى ذبحها، وقبل أن يتوقف جسم الشاة عن الارتعاد تكون حوالي ستة سكاكين قد امتدت إلى جنب الذبيحة للسلخ والتقطيع، ويجرى التخلص من اللحم الساخن بتقطيعه إلى قطع صغيرة، وبعد خمس دقائق من بداية ضربة السكين الأولى لا يتبقى من الشاة سوى العظم والدم الذي يلطخ الخدود والأصابع، شاهدت عمر وهو يقتاد شاة في الظلام.

كانت ليلة تعيسة نظراً لأن المرافقين كانوا بلا مأوى، واضطررنا إلى تقاسم البطاطين، عند الساعة الحادية عشرة انخفضت درجة الحرارة أكثر مما كانت عليه وتزايد ذلك الانخفاض مع اقترابنا من طلوع الفجر، لم نكن

[🖈] نوع من الأشجار من فصيلة الصفصافيات. (المترجم)

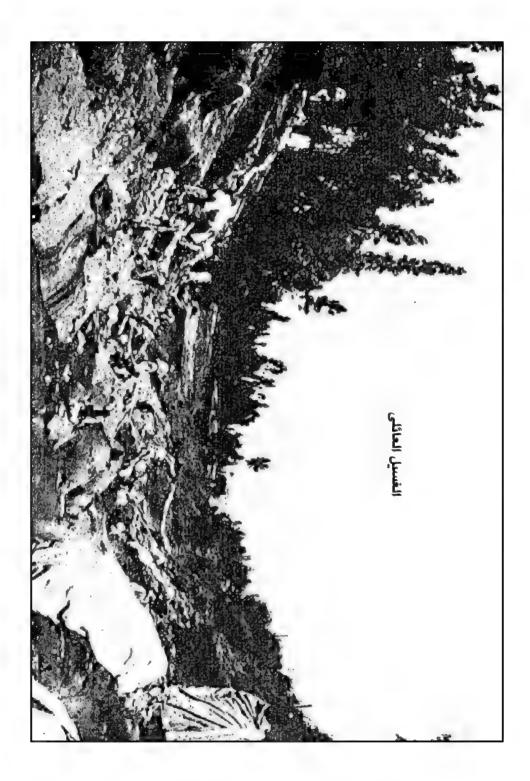
نتوقع وجود البعوض فى ظل مثل هذه الريح القوية، لكن الخيام كانت عامرة بالبعوض قال جلان: "بعوض كبير بحجم الفئران"، قالها وهو يشعر بالضيق داخل شبكته، صحوت عشرات المرات للقيام بمذبحة لذلك البعوض، كما كنت أصحو أيضاً لأرى ما إذا كان هناك شىء آخر يمكن أن أرتديه، كان الجنود يسعلون سعالاً خشناً فى الجانب الآخر من المخيم، وعلى شكل تشنجات، تخيلتها ألحاناً تراجيدية حزينة، لكنى لم أستطع فهم لغتهم الأمهرية، أحسسنا جميعاً بالسعادة والفرح عندما طلع الفجر علينا، على الرغم من أن أرابطاطين، ونأكل الخبر البايت والبيض المسلوق، ورحنا نخفى ارتعادنا، وانتهينا بأن رحنا نقارن بين القضمات.

جرى في حماية مجموعة من أشجار الصبار تحميل البغال التي كانت تصهل وترفس، بدأنا تحركنا، نازلين إلى المر العريض الموجود بين عيدان الذرة العويجة والأرض المحروثة، مرربًا على الأجران التي كان الناس فيها يدرسون الحبوب عن طريق عصى الدرس، ومررنا أيضاً على أكوام متحركة من الدريس اتضح، في نهاية الأمر، أنها كانت حميراً محملة بالدريس، كان الطريق يعج بالحركة، هؤلاء هم الرؤساء (الشيوخ) يركبون الخيول وتحيط بهم البنادق، ورجال يركبون البغال، ورجال يمشون على أقدامهم، والكل يسارعون إلى لقاء الدجيـز Dejez إيمـارو، أو حتى مجـرد مشاهدته أثناء مروره، مر علينا شخص يرتدي عباءة مذهبه الحواف، ويركب مهراً عربياً أبيض، استدرت لأنظر إلى حامل الرمح الذي كان يجري خلف هذه الشخصية، بدأت أقول: "هذه الرماح أكثر فاعلية من البنادق-" لكني لم أكمل جملتي، لأن ركوبتي، من باب الاعتراض، انحرفت جانباً، وأنقطع حزام السَّرج، وينهار السرج مثل جرف من الثلج، وزمزمية الماء، وحقيبة القماش التي أعلقها على ظهري، وسقطت على الأرض وسط أيكة في بداية الأمر، تبعتنى جلبة من أصوات كثيرة، وهرولة أقدام كثيرة، لكن أعقاب البغل هي التي أخرجتني من تلك الأيكة، بلا ضرر اللهم باستثناء وسادة من الأشواك، التي راح جاربا جورجس ينتزعها الواحدة بعد الأخرى، وهو يعزيني في كل مرة.

لم تقع أية حوادث أكثر من ذلك في فترة الصباح، ومع دخول وقت الظهيرة كنا نخيم وسط مزارع البن على جرف جبلى يطل على مدينة هراً و Harrar كانت أشجار الفلفل توفر الحماية للخيام، كان هناك ممر تحده من جانبيه الورود البرية والليلج البرى أيضاً، وينزل منحدراً إلى كتلة الجدران القديمة، ذات اللون البنى المشوب باللون الذهبي، وتوشك على التداعي، والتي جرى بناؤها في القرن الخامس عشر، وعلى مسافة بعيدة من هذا المكان كانت هناك بنايات بيضاء حديثة مغمورة بضوء الشمس، وكانت أبراج تخترق ضباب الجبل.

كان هناك خارج منطقة التخييم، ومفصولاً عنها بواسطة ضفة من نبات متسلق مزهر، مجرى مائي توسع ليصبح بركة من برك الماء، في هذه البركة كان السواد الأعظم من السكان يستحمون أو يفسلون ملابسهم، كانت خيالات الأشكال الأبنوسية منعكسة على الماء، كانت الحلود مفرودة داخل تحاويف مناسبة، كيما تستخدم لتكون طشوتاً مملوءة برغوة الصابون التي تقوم النسوة بنقع الغسيل وشطفه إلى أن تجرى تغطية سطح الأرض بأكوام من الكتان الأبيض، كان ذلك الكتان الأبيض يُنشر على الإيكات، أو فوق الأغصان، أو قد ينشر على الضفة أو في الأخاديد، كان الصبية الأشقياء ينزلون الكثير من هذه الحيال الطويلة، كانت الملابس تتساقط من فوق الجدران، بينما كنا في طريقنا إلى هرر Harrar، كان كل منحنى من منحنيات تلك البركة، وكل حفرة من حفرها، بها حصتها من الفسيل، كان كل آدمي يدعك ويفسل نوعاً معيناً من القهاش، طلبنا تفسيراً، عندما كانت النساء يفتن علينا، وأكوام من الفسيل الذي يتقاطر منه الماء، فوق رءوسهن، ورائحة الصابون تسبقهن، وعرفنا أن تلك الليلة كانت ليلة التمكات Timkat، أي ليلة عيد الغطاس، الذي تقوم فيه توابيت العهد من مختلف الكنائس، بالذهاب على شكل مواكب إلى تلك البركة للحصول على البركة السنوية للماء، ويتحتم في ذلك العيد أن يلبس كل إنسان ثوباً "أبيض خاليا من البقع"، كما ينبغي على كل واحد أن يسارع للحصول على نقط قليلة من الماء المقدس.

الحبشة مسيحية منذ نحو ١٦٠٠ عام، وكانت هي بطلة العقيدة على امتداد قرون وهي تدعى أن هذه العقيدة ليست أقدم وحسب وإنما هي مفهوم أنقى



أيضاً، هناك أسطورة تقول: إن ماكيدا Makeda، حاكمة أكسيوم Axum، كانت هى ملكة سبأ التى زارت (سيدنا) سليمان قبل ألف عام قبل الميلاد، وأن ماكيدا أنجبت ولداً من سليمان، هو منليك الأول، الذى يعد سلف البيت (الأسرة) الحاكمة حالياً، ومؤسس اليهودية فى إثيوبيا، وقد تلقى منليك الأول تعليمه فى القدس، إلى أن بلغ الثامنة عشرة من عمره، كما يعتقد الأثيوبيون، أن منليك الأول عندما عاد إلى أكسيوم، جلب معه بصفته مؤسساً لأسرة مالكة تبلغ من العمر ثلاثة آلاف عام، ألواح موسى، بل وريما أيضاً تابوت العهد الذى حفظت فيه تلك الألواح، هناك قصة مضادها أن ألواح موسى الأصلية محفوظة فى العاصمة القديمة، وهناك قصة أخرى تقول إن تابوت العهد مدفون فى مكان ما تحت القديمة، وهناك قصة أخرى تقول إن تابوت العهد مدفون فى مكان ما تحت الحبشية لديها نسخة من هذه الألواح القانونية (الشرعية)، وفى عيد الغطاس يجرى حمل توابيت العهد فى موكب خلال المدينة.

وقفنا عند غروب الشهس على التل الذي يعلو مخيمنا ورحنا نراقب الجماهير وهي تتوافد على الملجأ المفروش بقماش أحمر استعداداً لتلقى الألواح، كان ذلك الملجأ يبدو من بعد كما لو كانت الرمال قد زهرت. أصوات الطبول، أصوات موسيقي الناي الحادة، والأغاني الصاخبة كانت تتاهي إلى مسامعنا قادمة من الحدائق التي كان نبات الرتل فيها شبيها بالفراشات ذهبية اللون، والليلج الشبيه بالقنا (ملاله الذي كان يحذر القادمين من أشجار البوغنفيلة، سارع العبيد حاملين آخر لفة من لفات السجاد المطلوب لخيام المؤمنين. جاءت النساء بعد ذلك، وهن يحملن سلال الخبز أو القرع على رءوسهن، أقترب صوت الطبول أكثر وأكثر، وجاء القساوسة من كل جانب، وهؤلاء هم الأتباع يحملون المساند التي يضطجع عليها أولئك القساوسة أثناء الصلوات الكنسية الطويلة.

غلت الجماهير إلى أن أصبحت مثل بحر من زبد، وتحولت الأغانى فجأة إلى نوع من صيحات الإعجاب، بدا كل شخص منتصباً واقفاً، ثم أحنى كل واحد منهم رأسه عند قدمه اعترافاً بوصول توابيت العهد، يصل ببطء شديد عازفو النايات من بين الأشجار ومعهم عازفو الطبول البراميلية الكبيرة، لمعت القرون من فوق بنادق المرافقين، ووسط ضوضاء الأصوات وضوضاء الموسيقى،

القنا: عشب استوائى مزهر عريض الأوراق. (المترجم)

ووسط دوى البنادق وصليل الرماح والسيوف، كانت المظلات الضخمة من القطيفة، والمطرزة بالذهب، وبألوانها الحمراء، والبيضاء، والأرجوانية، تتهادى ويمشى تحتها كبار القساوسة، انتقى غروب الشمس الذهب الموجود فى الرِّداءات الكهنوتية البراقة، والتمعت شمس الغروب على الصلبان المنحوتة فى الميدان، وأنارت كل حافة وكل حلية من الحلى الرخيصة، وأمام كتلة الألوان التى كان يتبارز فيها كل من الحرير والقطيفة والقماش المطرز بالمجوهرات، كان حملة المباخر يؤرجحون دخان مباخرهم، بينما كانت الصلبان الضخمة تتمايل.

فيما بين المظلات ذات الرعوس الحمراء حمرة فاتحة، كان هناك شخصان، كانت إنسانيتهما كتيمة في صلابة وبهاء مطرزاتهما، يحملان الألواح على رأسيهما، مغطاة بقماش فاخر حتى لا يظهر منها شيء سوى شكلها.

غربت الشمس دون أن يدرى أحد، وراء التل، لكن الضوضاء ثارت من جديد فى الأماكن التى نصبنا فيها الخيام قريبة من بعضها مثل عيش الغراب، مرت توابيت الثالوث ومخلصنا فى اتجاه البركة ومن خلفها كان يمشى الحاكم إيمارو مع رؤسائه Chiefs وجنوده، ظننت للحظة أن غروب الشمس انعكس على موجة أخرى من البياض، جاءت من المدينة، لكن آلاف الأصوات كانت تُحَيِّي صائحة "القديس ميخائيل!" مر التابوت الثالث لينضم إلى بريق الذهب والمجوهرات بجانب الماء.

أثناء عودتنا عن طريق مسار أشجار البن، تمكنا من رؤية الموكب الأخير، موكب القديس جورج وهو ينحرف نازلاً من الجبل قادماً من الكنيسة الموجودة أعلى الجبل، هذا العويل النسائى المتقطع، الذى يعد صياحاً منذ قديم الزمان، والذى هو نبض الفرح الأفريقى، جاء بمثابة تذكار مسيحى على خلفية عنف وثنى، حدث فى ذلك الوقت قتال فى الوادى، لكن أحداً لا يعرف سبباً لذلك القتال، ولماذا بدأ، خرج أحد الرجال مترنحاً ورأسه ينزف، كانت هناك مجموعة من الشخصيات المكافحة تتمايل حول المقاتلين الأصليين....

ظلت الطبول تقرع طوال الليل من جانب التل، بينما كان القساوسة سهارى بجوار التوابيت، في حين كان المؤمنون يراقبون، ويصلون، ويأكلون كسراً رقيقة من خبز الصوم الكبير، وكان الرجال العظام في خيامهم، والجنود جالسين بجوار أسلحتهم المكدسة، بينما كان الفقراء يتجولون بثيابهم التي غسلوها مؤخراً.

♦ الفصل الثالث

بركة (الساه

استحال علينا النوم داخل مخيمنا، وعليه تناولنا الإفطار في رمادية الفجر، وفور انبلاج الضوء وعندما أصبح مناسباً للتصوير، قمنا بالتمركز على الجسر الذي يعبر المجرى المائي، بدأ بالفعل جمع من الناس يسيرون على صفحة ماء على ضفتى المجرى، وانعكست بذلك صور ضخمة للملابس على صفحة ماء البركة الموجودة في الأسفل، كان كبير القساوسة يرتدى عباءة من القطيفة بنفسجية اللون، وتنورة داخلية من القطيفة بنفسجية اللون أيضاً، كان الشماسان، اللذان يحملان الأجبيَّة وإن شئت فقل الفنداق، أمام كبير القساوسة، أقل أهمية وقيمة في ثيابهما ذات اللون الأصفر الباهت، والذهبي والأزرق، في الوقت الذي كانت تنبعث فيه ألوان قوس قرح بدءاً من اللون القرمزي إلى اللون البرتقالي، تتوهج من تحت المظلات التي على شكل زهرة، كان المشهد على خلفية مدرج طبيعي، فيه التلال المرتفعة في الخلف، وسرعان ما بدأ كل منحدر يعمر بالأشكال، مثلما يضفي المن اللون الأبيض على الصحراء في ساعة بعينها.

ساد الصمت عندما كان القساوسة والمتعبدون ينتظرون وصول الحاكم، وإذا كانت البهجة والرونق قد اختفيا وذويا، في شمس الصباح، فقد تبقى انطباع واحد قوى، شعب مقاتل، فيه كل شخص غير ملون مسلح ببندقية، بسيطة مثل الملابس التي يرتدونها، وبدائية مثل الصخور التي وهبتهم الحياة، على هذه الخلفية من البساطة، وبطريقة طفولية إلى حد بعيد، ونبوئية إلى حد ما، تجلت روعة الكنيسة التي تحكم الحبشة، وتمتلك قسماً كبيراً من الأرض الطبيعية على شكل عقارات وتملى آراءها على الملوك وعلى الفلاحين أيضاً.

بعد أن غادر الحاكم إيمارو خيمته ونزل إلى ضفة المجرى المائي مصحوباً بالسئولين والضباط، راح الشماسان يغنيان أغاني دينية، ارتفع دخان المبخرين، ورفعت الصلبان من جديد، راح عشرون شماساً، تلك الشخصيات الصغيرة التي ترتدي عباءات مركبا على أطرافها أشرطة من القطيفة، يدقون أجراسهم ويهزون شخاليل من النحاس الأصفر، التي هي من قبيل الشخاليل التي عثر عليها في مقابر الملوك المصريين، وينحني كبير القساوسة ببطء على الماء، ثم يغمس صليبه في الماء، وفي اللحظة نفسها، ينحني الجمهور إلى الأمام إلى أن تلامس شفاههم الأرض، وفي كوب من الذهب المحفور، يجرى إحضار الماء إلى القائم بعمل الحاكم، وبعد ذلك، وعندما ينصرف البلاط العابس من حول الحاكم المناب، وبعد انصراف الحاكم المناب نفسه، يحدث اندفاع نحو المجرى المائي، يروح الصبية يلقون بأنفسهم في البركة، وتهدد ضفاف البركة بالانهيار بفعل تدافع الجمهور على الماء طلبا لملء القوارير وحبات القرع المفرُّغ، تسابقت الجماهير قادمة من التلال، ومن الفضاء الموجود في الأسفل، على الوصول إلى البركة، والجميع يتدافعون ويناضلون من أجل الحصول على قطرات قليلة من الماء يسكبونها على رءوسهم، إلى أن أصبح عدد البشر في البركة أكبر من عدد الواقفين على الأرض!

عند هذه المرحلة كانت الساعة قد دقت الثامنة، وبدأت الشمس تكتسب قوتها، ومن يمن الطالع دعانا الحاكم للفرجة على رقصة القساوسة من خيمته، التى كانت عبارة عن شرفة مفتوحة مفروشة بالسجاد، كان الحاكم إيمارو يجلس في منتصف الخيمة، وكانت عباءته مفتوحة، كاشفة بذلك عن حوافها قرمزية اللون، وعلى كل جانب من جانبيه كانت تجلس بطانته وإن شئت فقل حاشيته، وكل واحد منهم واضعاً ساقاً على ساق، بين طيات من حرير الساتان أسود اللون، كان الجمهور واقفاً على الجانبين، ورحنا لمدة ساعة نشاهد تحيات الكرماء والمضيافين، والعظماء، الذين يتمتعون بقدر كبير من الرقة في التعامل.

عندما جاء رئيس لتحية الحاكم، كان يحنى ركبة من ركبتيه إلى أن تصل إلى الأرض، ثم يحنى جبهته أمام ركبته، لكن هذه العملية كانت تتنهى وتكتمل بحركة كاسحة واحدة بما يشبه اعتراض المشية، وهنا يجئ قس يرتدى عمامة مرتفعة

وعباءة سوداء فوق ملابسه الخضراء خضرة التفاح والمذهبة ليطرح سؤالاً، ويضع ثنية من ثنيات إيشاربه على شفتيه، وينحنى ليقبِّل ساق الحاكم.

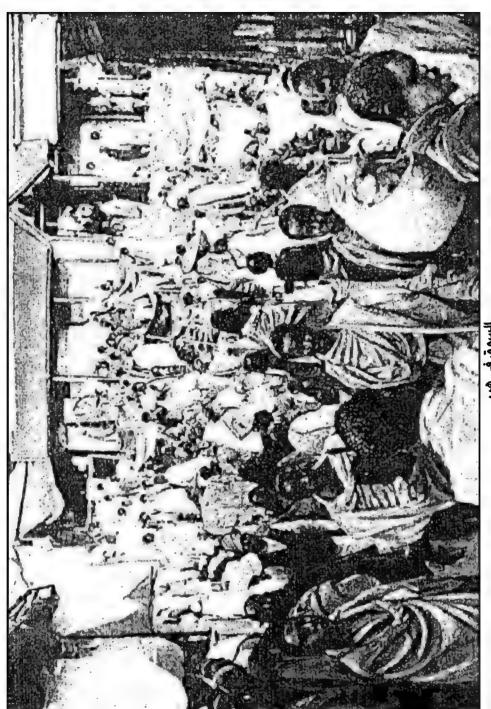
الاقتراب من أية شخصية من الشخصيات المهمة يحتم، وهذا من باب التأدب، وضع قطعة من القماش على فم المقترب باعتبار ذلك نوعاً من الوقاية من اتصال الأنفاس، الأحباش المهمون قليلو الكلام وكتومون، ويصرون على نوع من الخصوصية عندما يكونون بين عامة الناس، لكنهم يشاركون عامة الناس في مسألة خرافات عين الحسود. وفي اللحظات التي يمكن أن يؤخذوا فيها على غرة، يتدخل خادم أو صديق بقطعة من القماش أو المنسوجات، من هنا يفضل الأحباش أواني الشرب المسنوعة من القرون على تلك المصنوعة من الزجاج، نظراً لأنه ليس من الصحيح أو الضروري أن يُرى الفم أثناء الشرب، والحاكم عندما يركب جواده، أو عندما يُقُبِّل الرئيس صديقاً من أصدقائه، أو عندما يتوقف المضيف عن الحديث أثناء تناول الطعام، أو حتى عند القيام بأي عمل من الأعمال عندما يكون الحارس في فترة راحته، هنا يقوم الخدم اليقظون بإلقاء قطعة من القماش الأبيض على فمه، وعليه، وبينما كنا ننتظر ظهور التوابيت قادمة من معبد القش، الذي تمضى فيه التوابيت فترة الليل، وبينما كان القساوسة يرتدون الملابس الخاصة برقصة الأضحية، لاحظت بعض الرجال وهم يلتفون ويفترقون، أحياناً بسلسلة من الانحناءات، وأحياناً أخرى بالقبلات، وفي معظم الأحيان بأيد متشابكة ورءوس منحنية شفة إلى أذن، ويغمغمون قائلين: "كيف حالك؟ هل أمورك على ما يرام؟ كيف الحال؟ هل أنت بخير؟" وعادة ما يجري رفع ثنية من ثنيات العباءة أو الثوب بغية المحافظة على سرية عملهم.

كان الجو حاراً حتى فى الجناح الخاص، عندما أعلن الشمامسة فى نهاية المطاف وصول التوابيت، جرى نقل التوابيت إلى خارج المعبد المؤقت على أصوات الأجراس والطبول، والنايات والقرون، وقف جمهور الألوان على خلفية من أشجار الفلفل، كان هناك رجال يقفون فى المنتصف حاملين الألواح على رءوسهم، لكن الستائر الذهبية طفت على منظرهم، إذ كانت تبدو كما لو كانت معدناً منسوجاً وتسقط غليظة عند أقدامهم، كان على الجانبين صبية يرتدون ملابس أرجوانية اللون، ويمسكون صناديق كبيرة تحتوى على قربان الصباح،

كان القساوسة يرتدون ملابس خليطاً من الأبيض والأسود، وكانت الشمامسة يرتدون ملابس خليطاً من الأحمر والأبيض، وكانوا مصطفين على شكل رتب متقابلة، وعلى أنغام طبلة جلدية كبيرة عملاقة راحوا يرقصون مثلما فعل سيدنا داود (قبل تابوت العهد، وبخطوات بطيئة، وتمايل بطئ، ودون أن يتوقفوا عن الغناء، وبينما كانت عصى الصلاة يُلوَّح بها من فوق رءوسهم، راح الشمامسة يتحركون جيئة وذهاباً فيما بين الظل وضوء الشمس.

كانت هناك مظلات صغيرة مصنوعة من القش تقفز إلى أعلى من بين الجمهور، كان هناك حفيف خفيف بين المسئولين الجالسين فى الخيام، وكانت رءوس الشمامسة الصغار تومئ بفعل مغالبة النوم لهم، فى حين كانت الشماسى تتدلى مثل بتلات الزهور قرمزية اللون، سرَّعت الطبول إيقاعها فى نهاية المطاف، وصعدت الشخاليل أيضاً إلى مستوى ذلك الإيقاع، وقبل أن يقوم هارولد جونز بضبط آلات تصويره (كاميراته)، تشكل من جديد موكب الليلة السابقة، نزلت ثلاثة توابيت من فوق التل لتستقر فى كنائسها المختلفة، لكن تابوت القديس ميخائيل بقى ليلة أخرى من ليالى الصلاة.

أمضينا أربعة أيام فى مخيمنا بين مزارع البن الشهيرة، التى تعد هرر مدينة لها بجزء كبير من تجارتها، وفى ساعة متأخرة من عصر كل يوم كنا نذهب إلى المدينة ذات الأسوار القديمة، التى صمدت أمام هجمات كثيرة، وانتصرت وانه زمت فى كثير من المعارك على امتداد أحد عشر قرناً من الصراع بين العرب والأحباش، كانت هرر عاصمة لهاديه Hadiyeh، التى كانت مقاطعة من بين سبع مقاطعات، وإن شئت فقل أقاليم، كانت تشكل الإمبراطورية العربية التى تأسست فى القرن السابع، وعلى الرغم من أنها، فى فترات مختلفة، كانت تحكم بواسطة أتراك اليمن، وبواسطة الجلا Galla، وبواسطة مصر، إلا أنها لم تعقط مطلقاً فى أيدى الحبشة المسيحية، إلا بعد أن قام منليك بهزيمة أميرها فى العام ١٨٩٠ الميلادى، جعل السير ريتشارد Richard بيرتون أول هدف له أثناء قيامه باستكشاف شرق أفريقيا؛ ومن وصف الرجل لمدينة هرر، نجد أن ألمدينة لم تتغير تغيراً كبيراً بعد أن دخلها بعد رحلة عامرة بالأحداث بدأت من زيلا Zeila، حيث وجد الرجل نفسه فى مواجهة مع مُضيف غير مرغوب فيه زيلا Zeila، هو الأوتوقراطى الأمير أحمد سلف أبى بكر.



كانت البوابات الخمس لا تزال مغلقة عند غروب الشمس، وعلى الرغم من أنه عن طريق الديبلوماسية يمكن الخروج من المدينة حتى الساعة الثامنة مساء، فإن كل من يريد الدخول بعد القفل بالمفاتيح يتعين عليه الانتظار إلى الصباح، ومع ذلك، كانت الجدران المتداعية، وكذلك الحجر الرملي والجرانيت، مع بعض المزاغل المستديرة الصغيرة، يجرى إصلاحها بنوع من الأسمنت البدائي، ويجرى تركها على حال يستطيع معه أي لص نشيط من هدمها بلا مجهود كبير، كان أهل مدينة هرر لهم لهجتهم الخاصة، وإن شئت فقل لهجة "هرر" التي لا يفهمها أي أحد من خارج منطقة الجوار المباشر، النساء في هرر لهن لباسهن الخاص بهن، وهو عبارة عن عباءة Abba قصيرة الأكمام ومطرزة وحمراء اللون، وتلبس مع بنطال ضيق قرمزي اللون بالإضافة إلى شال أحمر قانى أو بلون زهرة البتيونيا، ولا يختلف عن السارى الهندى، شعر نساء هرر يعطي انطباعاً بأنه جرى تقصيره، نظراً لأن الشعر ينتهي في منطقة القفا بخصلات كثيرة، خصلات الشعر هذه تشكل مجموعة من الطرطشات اللونية على خلفية الثوب الأبيض الذي ترتدبه الحيشيات، والصوماليات شبه العاربات، أما الرحال فيلسون حزاماً من الحلد أو قميصاً داخلياً منقوعاً في الزيت، ويلبسه الرجل إلى أن تتهاوي خيوطه كلها، أما النساء فيلبسن أثمالا بنية اللون مزينة بالخرز والزينات المصنوعة من قرون الحيوانات، وشعرهن سائب على رءوسهن ومقسوم على شكل ضفيرتين عند مؤخرة العنق.

لا يزال القسم الأكبر من سكان هرر من الأجانب، صوماليين، وعربا، وزنوجا، وقلة قليلة من يهود اليمن الذين يعملون في سبك وتجارة الفضة، فضلاً على عرق هجين منحدر من التجار الهنود والتجار الآخرين؛ وفيها أيضاً بعض من الجلا Gallas الذين وفدوا إليها من إقليم مجاور، هؤلاء الجلا اجتاحوا الحبشة في القرن السادس، واستوطنوها، وبعد أجيال من الحظوظ المتغيرة، والتي حكم الجلا، خلال فترة منها، الجزء الشمالي من البلاد، من خلال عاصمة الجلا في جندار Gondar، جرت هزيمتهم مؤخراً بواسطة منايك Menelik، مؤسس الحبشة الحديثة.

من هنا نجد أن سوق هرر تعد سوقاً فريدة نظراً لوجود هذه الأعراق

المتباينة، نزلنا عن طريق الشوارع الضيقة المرصوفة بالحصى ولا تتسع لثلاثة أشخاص يسيرون جنباً إلى جنب، إلى سوق مسقوفة بالحصير أو شرائح الكتان، ثم إلى ميدان توجد فيه طبقة واحدة كاملة من البشر، الرابضين حول البضائع المتنوعة التى تباع فى هذه السوق، وذهبنا إلى ميدان آخر كان المشترون فيه واقفين على رأس هذا الميدان، كان واضحاً أن الأصوات كانت متداخلة، نظراً لعدم وجود متسع للحركة، بسبب وجود شحاذين من مختلف الأنواع، ومجذومين، وهياكل لما يمكن أن يكونوا من قبل رجالاً، والمصابين بداء الفيل، والعميان، والمشوهين، والمسجونين الذين كانوا يتجولون فى حرية اللهم باستثناء السلاسل المربوطة بها أقدامهم، أيديهم المكلبشة إلى بعضها بالحديد، والمدينين، والمرابين، والدائنين، والمتهمين بالقتل هم وأقرب أقارب القتيل، حتى يؤكد المدعى لنفسه أن المتهم محبوس إلى أن يجئ يوم المحاكمة.

كان سوق اللحم على مبعدة من هذه السوق، وقد وجدنا فيها نحو نصف فدان من الجحوش المصنوعة من القش وتمتد من الجدار إلى الجدار ومحملة باللحم النيئ الذي يغطيه الذباب، وسمعنا أصوات سكاكين القصابين وهي تستخدم في تقطيع ذلك اللحم، لم تكن أصوات السكاكين بغرض تقطيع اللحم وإنما لجذب انتباه المتسوقين، كان عنبر الجمارك، وعليه العلم الحبشي بلونه الأخضر، والأصفر، والقرمزي يقع في الميدان الرئيسي من مدينة هرر، وكان العلم يرفرف على قطعان الدواب غير المحملة، وعلى كنيسة المخلُّص، ذلك المبنى مثمن الأضلاع المدهون باللون الأحمر، والأزرق والأصفر مع شيء من الخشب المزخرف عن طريق الحفر أسفل السقف المعلق عليه صليب أرثوذوكسي مربع. يحتل قدس الأقداس وسط الكنيسة من الداخل، وقدس الأقداس لا يدخله سوى القساوسة فقط، قدس الأقداس هذا فيه أيضاً المكان الذي يوضع فيه التابوت، ومن أمامه يقام القداس وسط سحاب البخور وأصوات الشخاليل، يوجد ممران حول هذا المكان، الجزء الداخلي من هذين الممرين يحتوي على بعض الصور المقدسة، والأعلام، والرسائل المملة، والصلبان، والممر الخارجي يبلغ من القذارة حداً يوحي بأنه حظيرة للدجاج وليس ممرا.

هرر فيها أيضاً قبر الأمير نور Amir Nur، الذي أحاط مدينة هرر

بأسوارها الحالية، بعد الانتصار الكبير على الحبشة المسيحية (في العام 100٩)، والذي قُتل فيه الإمبراطور كلوديو Claudius، هذا البطل المسلم مدفون بالقرب من أكبر وأعرق المساجد، الذي يقال له مسجد الجميل، وهو عبارة عن مُنشأ شبيه بالجرن ومبنى من الحجر الرملى والأسمنت الصلصالي، اعتدنا على سماع صوت المؤذن الذي يأتينا من فوق مآذن المسجد المخروطية الشكل، في الوقت تبدأ فيه أجراس الكنيسة تدق في الطرف الآخر من البلدة، هذا شيء جديد على البلدة بعد زيارة بيرتون لها، الطرف الآخر من البلدة، هذا شيء جديد على البلدة بعد زيارة بيرتون لها، لايزال سكان هرر واحدة من أشد المدن المقدسة التزاماً بالإسلام، ومع ذلك لايزال سكان هرر يمسحون أنفسهم بالغراء ويمضغون القات (أله)، الذي ينمو على ارتفاع يتردد بين ثلاثة أو أربعة آلاف قدم، وينتج عنه ثلاث مراحل ذهنية متميزة هي: الإثارة، والقلق والفتور، جربت مضغ القات مرة واحدة في اليمن ولم أحصل منه على أية نتيجة مهمة سوى النعاس والتهاب الحلق.

صناع الفضة يأتون إلى هرر من اليمن، والسواد الأعظم منهم من اليهود، المقتصدين والجادين في عملهم، إلى حد أن دكاكين اليهود هي الوحيدة التي تظل مفتوحة حتى في ساعات الحر القائظ؛ لكن هرر توقفت عن إرسال حصتها من العبيد إلى ساحل الجزيرة العربية، يقول المؤرخ العربي المقريزي: إن هرر اعتادت على توفير المخصيين أو بالأحرى الطواشي السود، لحرملكات الشرق، وأنها قبل خمسين عاماً، كانت سوقاً للعبيد الذين كانوا يأتون من كل أنحاء إفريقيا، وهناك مثل شرقي يقول: "إذا ما أصبحت غنياً أشترى عبداً حبشياً؛ وإذا أردت أخاً (في السلاح) فاشترى نوبياً؛ وإذا ما احتجت إلى حمار فاشترى سواحيلياً".

فى تلك الأيام كان عدد سكان هرر يقدرون بنحو ٨٠٠٠ ثمانية آلاف نسمة، وهرر فيها الآن نحو ٤٥٠٠٠ نسمة، وهى بالإضافة إلى محصول البن الرئيسى، تتاجر أيضاً فى التبغ، وزيت الزباد (الذى يعد أساسًا للعطر أو الطيب الشرقى)، كما تتاجر أيضاً فى الزعفران (الذى يستخدمه العرب صبغاً ذهبياً كما تستخدمه نساؤهم مستحضراً من مستحضرات التجميل)، كما تتاجر أيضاً فى الشحم الحيوانى الذى يستخدم فى صناعة الشموع،

المترجم) Gathula Aedulis (المترجم) الاسم العلمي لنبات القات هو:

وتتاجر أيضاً فى العلك (اللبان) والعسل، والإنسان يستطيع الاعتماد على أنفه فى تمييز هذه السلع التجارية لأن رائحة العطر تفوح على المرء فى المدينة، ونكهة البن تصادف الإنسان عند أعتاب المنازل عندما تقوم النساء بتصنيف حبات البن عن طريق هزها فى صوان ضحلة، ورائحة لحم الضأن تطالع الإنسان حول الأسواق.

منظر هرر رائع أيضاً من المصرات الموجودة في التلال التي تعلوها، يلي ذلك جدرانها القديمة ركائزها المستديرة التي تذوب في الأرض بنية اللون المحيطة بها؛ ومنازلها مربعة الشكل الخالية من النوافذ، والتي تتخللها الأكواخ المصنوعة من القش هي بمثابة لوحة من النسيج الصوفي لها ضوء الكهرمان وظله، درجت على الذهاب إلى حافة الرف الجبلي الذي كنا فوقه عند غروب الشمس، ومن تلك الحافة وعبر أشجار الليلج البرى وأشجار صنوبر الآلام المثمرة، ومن خلال أشجار الدفلي المبذولة (﴿ كُنْ كُنْتُ أَلْقَي نَظْرَة على البلاة وهي تذوب مع الأرض المبنية منها، إلى أن لا يتبقى منها سوى مقر الحكومة والكنائس وبعض المبانى الحديثة المسقوفة بالصفيح التي تبرز من الأرض ذات اللون البني المعتفر.

كان آخر يوم لنا فى هرر مشغولاً بشكل غير متوقع، جاء ألاكا مستا، سكرتير الحكومة، وقسيس كنيسة القديس ميخائيل لزيارتنا فى الصباح بينما كنت أقوم بتكديس كل شىء داخل حقيبة ملابسى، اللهم باستثناء الملابس، التى لم يكن لدى منها سوى بنطال ركوب الدواب، والمُعرِّق، والمعطف المصنوع من الجلد، لم يكن لدينا سوى كرسى واحد، قام جلان بإحضاره لضيفنا كيما يجلس عليه، بينما جلست أنا على صندوق من صناديق الأفلام، التى كانت صناديق مفيدة مربعة الشكل ومصنوعة من الصفيح، واستعملنا أربعة منها لصناعة طاولة، على الرغم من احتجاجات خدمنا.

كان آلاكا يتحدث بالعربية تحدثاً ممتازاً، ولذلك أضعنا نحو عشر دقائق في تبادل التحية، وقبل أن يقول لنا، وهو يبتسم ويدفع عمامته البيضاء

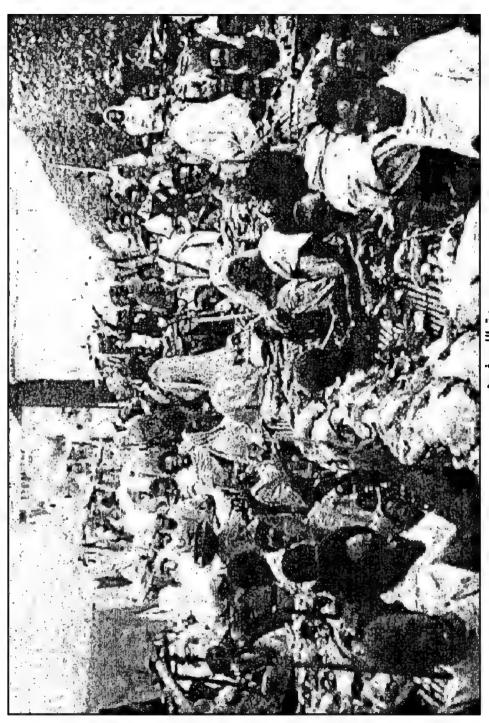
[🖈] اشجار الدفلي المبذولة: عبارة عن شجيرات زهورها بيضاء أو حمراء أو وربية اللون. (المترجم)

العالية إلى الخلف، أنه أحضر رد راس تفارى على البرقية التى أرسلها دجيزماتش إيمارو نيابة عنا، حاول آلاكا أن يترجم لنا الرسالة من لغتها الأمهرية، وكان وجهه الأسود المستدير يكشف عن شيء قليل من القلق مخافة أن يضيع منى أى شيء من لطف ورقة الوصى على العرش، أردف آلاكا قائلاً: "تتمثل مهمتى الآن في عمل كل ما يمكن أن يساعدكما، خبراني بذلك الذي يمكن أن أفعله لكما؟"

جاء ترحيب راس تفارى "أفتح يا سمسم" على كنز إثيوبيا بعد الطريقة الرائعة التى وضع بها إقليماً تحت تصرفنا (إضافة إلى كونه وصياً على العرش وولياً للعهد، هو أيضاً حاكم لهرر)، أصبحت مسألة الحديث عن التوافه التى من قبيل ظهور البغال الملتهبة والأحزمة المقطوعة أمراً لا يصح الحديث فيه، وفي نهاية المطاف كان آلاكا دستا هو الذي أعلن أنه سوف يرسل معنا "مسئولاً يحمل ورقة يتعين على الناس كلهم احترامها"، شكرناه شكراً جزيلاً وتساءلنا عن رأى المسئول في مخيمنا.

بغية أن يكون ترحالنا خفيفاً، وهذا أمر صعب المنال في ظل وزن آلة التصوير (الكاميرا)

والأفلام، كانت معداتنا عبارة عن خيمتين طائرتين طول الواحدة منها سبعة أقدام، ومزودة بفرشة أرضية مثبتة في الخيمة، ونقالين من الخيش، وكيسين من أكياس البراغيث، كانت النقالتان مبطنتين ببطانة متينة وليس فيهما من فتحات سوى فتحة ضيقة في كل منهما يجرى من خلالها إدخال الأشياء عن طريق التلوِّى، (أنا أرى دوماً أن حقائب السفر من طراز ولسي Wolsey تتسع لكثير من الأشياء،) يزاد على ذلك أن من كان منا يقوم بالكتابة، يصبح من حقه استعمال الكرسي الوحيد الذي لدينا، أما الباقون منا فكنا نجلس جميعاً على الأرض، ونجعل من حقيبة الملابس طاولة نضعها بيننا، وكنا نغسل في أوان من المطاط يمكن فردها وطيها على نحو يمكن معه وضعها في الجيب، كان معنا أيضاً حقائب من النوع الذي يُحمل على الظهر، تحتوى على كل ما يمكن أن نحتاجه أثناء سيرنا في الطريق، هذا فضلاً علي الإضاءة التي قد نكون بحاجة إليها، هذه الإضاءة لم تكن ناجحة تماماً، نظراً لأنها كانت عبارة عن شموع يجرى وضعها داخل فوانيس مصنوعة من



الصفيح؛ الأمر الذى يجعلها تنتنى بسهولة متحولة إلى ما يشبه قطعاً صغيرة من الورق، وأنا أعتقد أن حمولتنا كلها لم تكن تتجاوز مائة وخمسين رطلاً؛ وقد جاء ذلك الوزن بمثابة صدمة لأحاسيس المرافقين لنا إذ أن الناس هنا يقدرون أهمية الرحالة بما يحملونه من عفش وأمتعة.

بعد أن ودَّعنا قس كنيسة القديس ميخائيل وداعاً طيباً ومطولاً، وصلتنا رسالة من الحاكم المناب تطلب منا زيارته، تملص هارولد جونز من هذه الزيارة بحجة انشغاله بمسألة الملابس وعدم كفايتها، وعليه ذهبت أنا بصحبة اثنين من الجنود ومعى قائمة فيها احتياجات "اللحظة الأخيرة" التى يتعين توفيرها والحصول عليها.

يسكن دجيزماتش إيمارو في المنطقة الواقعة خلف منزل البلاط الملكي، وقد حتم وصولى إلى غرفة استقباله مرورى خلال صالة (عزائم اللحم النيئ) Guebers التى تقدم لمئات عدة من الضيوف، استقبلني مُضييفي عند العتبة، وبصحبته عدد كبير من وجهاء مدينة هرر، ورحنا نتحدث من خلال المترجم، نظراً لأن الحاكم بلغ من الخجل حداً جعله لا يتكلم بالفرنسية على الملأ، عندما تركت الحاكم كانت الشمس قد أوشكت على الاختفاء وراء التلال، ولذلك سارعت إلى شراء زمزاميات من الخيش استعداداً للرحلة، كما اشتريت أيضاً فانوسين من النوع الذي لا تطفئه الرياح أو الأمطار Hurricane، بعد أن تأكد لنا أن الربح على الجبال سوف تتغلب على أقوى الشموع.

قمت بالتفتيش على البغال للمرة الأخيرة واختبرت أحزمة السُّرُج كلها، تعين على بعد ذلك اختراق متاهة من المتاهات، عبارة عن مجموعة من المركبات السكنية المسوَّرة أملاً في العثور على صانع الخيام، ووقفت بجواره وهو يقوم بوضع الغرز الأخيرة في واقيات الرجال المصنوعة من الكتان المتين لأخذها معى وأنا أشعر بالانتصار في المهمة التي قمت بها، توقفت برهة لمساومة واحد من سكان التلال كان يحمل بعض أعمدة الخيام، ولشراء بعض الجوالات التي يمكن أن نلف فيها آلات التصوير (الكاميرات)، التي أوقفنا على خدمتها بغلاً من البغال، وعليه كان الليل قد أرخى سدوله عندما بدأت الصعود في اتجاه البوابة، يزاد على ذلك أن الجدل الذي دار حول مسألة فتح أو عدم فتح الأبواب زاد من تأخيرنا أيضاً، أثناء هذا الجدل والنقاش وجدت

رجلاً يجثو عند قدمى، وأنا لا أعرف ما إذا كان هذا الرجل ماشياً على الجدار أو جالساً على السقف، لكن الرجل بطقطقة شبيهة بطقطقة البيوض التى تتكسر انبطح أمامى، والدم يسيل من رأسه، حثنى جوطة Gouta ذلك الجندى الذى كان يتكلم ثلاث جمل فرنسية في اللحظات غير المناسبة "ابتعدى، لأنه مخمور وسكران"، دفعونا خلال البوابة، لكن عندما سرنا في طريقنا نحو الأعلى بين أشجار الصبار والصخور المنقلعة عن الجبال، مر علينا ستة شخوص، يغمغمون بكلمات غير مفهومة.

قال جوطة "لقد شرب الجميع شراب التدج، وسكر الجميع بعد الاحتفال؛ وأنا أعتقد أننا نحن الجنديين الوحيدين في هرر اللذين لم يسكرا". ابتسمت لتقييم ذلك الجندي لطرفته، لكن أفكاري كانت مركزة على العشاء، لأن الساعة كانت الثامنة، وكانت آخر وجباتنا متعجلة قبل فترة التصوير الصباحي، سرّع البغل خطاه عندما انحرف إلى مسارنا بين أشجار الفلفل، لكن الهدوء كان يخيم على مخيمنا بشكل غير طبيعي، كان هارولد جونز يقوم بتحميض جزء من أحد الأفلام وناداني فرحاً من خيمته "مادة الفيلم ممتازة ومن الطراز الأول"، لكني كنت قد بلغت من الجوع حداً منعني من الاهتمام بهذا الكلام، سألت جلان الذي تتملكه اللهفة والحزن "لماذا لم توقد النار؟ أين جابرا جورجس؟" كان جلان جاثماً على الأرض يبدو عليه الاستياء وقلة الحيلة، أجابني الصبي متشككاً "هو نائم".

اتجهت صوب لفافة بيضاء اللون، فاقدة الوعى بجوار الرماد الناتج عن النار، هززت تلك اللفافة، رفستها، رفعتها إلى الأعلى بعض الشئ، دون أن يسفر ذلك كله عن شيء، قال جوطة بنغمة خفيضة "إنه سكران"، كان سكرانا بالفعل، وأهمل إحضار أي نوع من أنواع الطعام التي كلف بشرائها من السوق، فتشنا جيوبه بحثاً عن المفاتيح، وقمنا بفتح شنطه وحقائبه، بحثاً عن القوت، وعندما تمثلت النتيجة النهائية في كسرة من الخبز الجاف وحبة واحدة من الطماطم، اقترح علينا هارولد جونز إفاقة جابرا جورجس بسكب الماء البارد عليه، سكبنا جرادل من الماء على رأس تلك اللفة البيضاء، ولكن ذلك لم يحدث أي أثر.

تساءل هارولد جونز متشككاً "هل تستطيعين طبخ أي شيء؟"

أجبته، "نعم، إن كان هناك ما يمكن طبخه، لكن ما الذى سوًّا هذا الآدمى بالمؤن؟"

كانت المؤن مخبأة تحت سياج من الشجيرات كثيفة الأشواك، ولم نكتشفها إلا في الصباح، عند هذه اللحظة تطوع جوطة بالإغارة على أقرب الأكواخ طلباً لشئ من البيوض، وبعد نصف ساعة دار خلالها قدر كبير من الزعيق والنباح، عاد إلينا جوطة ومعه ثلاث بيضات، صنعت عجة بيض وأصر جلأن على إضافة شيء من البصل الذي كان قد ربطه في طرف مظلته Chamma على إضافة شيء من البصل الذي كان قد ربطه في طرف مظلته كانت العجة جيدة جداً، ولم أجد مبرراً لتطرق هارولد جونز إلى ذكر أن مسألة الصادرات الأساسية للحبشة تتمثل في الجلود!

♦ الفصل الرابع

(الضبافة في اللجبال

غادرنا هرر عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، وكان الجو صحواً، لكن المرء يعجز في الحبشة عن التعليق على الطقس، لكنه يكون رائعاً دوماً، اللهم باستثناء موسم الأمطار، أي من شهر يونيه إلى شهر أغسطس، وأثناء العواصف العاتية في شهر فبراير أو مارس، وقد أدى مسيرنا راكبين مدة يومين أثناء حرارة الظهيرة، التي لها قوة الضربة، إلى جُلد بشرة وجهي، وحول لون هارولد جونز إلى لون اللحم النيئ، لكن في ذلك الصباح كان هناك نسيم معطر بعطر الشجر، وكان البغالة يغنون وهم يحاولون التغلب على مشكلات حمولاتهم، كان عدد أفراد قافلتنا أثناء مسيرتنا التي بلغ طولها نحو ٣٦٩ ميلا إلى أديس أبابا، نحو سبعة عشر رجلا، ونحو اثني عشر بغلا تحمل الأمتعة وأربعة بغال للركوب، إضافة إلى بغلين جيدين آخرين أهدانا إياهما الدجيزماتش إيمارو في اللحظة الأخيرة، وعلى الرغم من أن هذين البغلين لم يكونا يُسُرَّان الخاطر، فإنهما كانا مثل السيارة الرولز رويس عندما تقارنها بالسيارة الفورد، من حيث السير والسرعة، كان بغلى أبيض اللون وسرجه من القطيفة بنفسجية اللون، ومطرزاً بالفضة وزهر البتونيا، كانت عُدَّة لجام البغل مكسُّوَّة بالقطيفة المخيطة بالزهور المخملية، أما قريوس (ألله السَّرج فكان مطلياً بلون بهيج، وله حافة فضية على شكل حلقة أو طوق، لم تكنّ ركوبة هارولد جونز بمثل هذه الأبهة، إذ كان له جُلُّ مزركش باللونين الأخضر الزيتوني واللون الوردي، وكان البغلان يستحييان لشكيمتي لجاميهما بل إنهما كانا يعدوان إذا ما طلب ذلك منهماً اشكيمة اللجام الحبشي آلة من

🖈 القربوس: بفتح القاف وضم الباء، هو الجزء الأمامي من سرج الحصان. (المترجم)

آلات التعذيب، هذه الشكيمة مكونة من حلقة من الحديد تلامس سيرى اللجام فى أضعف الأحوال، ويجرى إدخالها فى سقف فم البغل على النحو الذى يحدث قطعاً فى الفم، ولذلك يشيع أن ترى فى الحبشة حصاناً أو بغلاً وفتحتا أنفه قرمزيتان والدم يتقاطر من فكه.

كان راس تفارى قد أصدر أوامره بأن يرافقنا مسئول إقليمي اسمه بالأم باراستِّى Ballam barassi جاربا سيلسيِّى، إضافة إلى بغّالتنا الستة، وجنودنا الستة، والخادمين والمرشد، كان بلاّم باراسي لا يعرف التعب أو الكلل، على الرغم من أنه كان يبدو متعباً دوماً، كان وجهه النحيف محاطاً بشعر أشعث، وكان رأسه حليقاً، وعيناه حمراوان، عيون الأحباش تكون محتقنة بسبب الشمس والتراب، وتحفها رموش طويلة، وكانت ابتسامته خليطا من الخجل الحالم وطول الأسنان البيضاء، كان بلأم باراسيِّي قبل انتهاء مسيرتنا الثانية قد أرسل معنا لأنه "لطيف وهادئ، ولم يتسبب مطلقاً في الجلِّبة ولم يغضب مطلقاً مثل الأحباش الآخرين". اكتشفنا أنه خدوم دوماً ومؤدب، وإن احترامه الفطري كان أمراً بسر الخاطر، أحضر معه حاشية خاصة به، كان بركب خلفه ثلاثة من حملة البنادق، وكان هناك أربعة آخرون يجرون بالقرب من ركابه الذي كان يضعه بين أصبعي قدميه الكبيرين، كان هناك خادم يحمل حذاء بالأم باراسيِّي وينحني واضعا الحذاء كي يلبسه سيده عندما ينزل من فوق ركوبته، كان هناك خادم آخر يحمل قرعة مفرغة مملوءة بالجعة اللاذعة التي وزعها علينا جميعاً في أكواب مصنوعة من قرون الحيوانات، وكان هناك حمار يعدو أمامه حاملاً عفشه وأمتعته، وكانت في المؤخرة أمّة تحمل غلاية وسجادة، اقترحنا أن تركب هذه الأمَّة بغلاً من بغالنا الاحتياطية، لكن قيل لنا إن هذا لا "يصح"!

فى الحبشة يُعاقب من يتجر فى العبيد بالإعدام، لكن الاستعباد الداخلى أمر مسموح به، ظل الأحباش يستعبدون أسراهم طوال الحرب التى دامت قروناً، سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين، وأن سلف هؤلاء الأسرى، هم وضحايا الإغارات التجارية التى قام بها الجيل الأخير هم العبيد القانونيون فى هذه الأيام. وعلى الرغم من الجهود التى يبذلها راس تفارى من أجل منع نقل البشر والإتجار فيهم، فإن قوافل العبيد تتسلل بين الحين والآخر نحو

الساحل حيث تقوم سفن وقوارب الدهو بنقل هذه الحمولات البائسة إلى جزيرة العرب، لكن هذا التهريب خطر، على الرغم من أن أرباحه السخية هي التي تحرض على الإقدام على هذه المخاطرة، عندما كنت في اليمن في العام ١٩٢٣، كان العبيد الأحباش يباعون بأغلى الأسعار وكانت حرملكات أن العام تهامة عامرة بالبنات اللاتي لا يتكلمن كلمة عربية واحدة، مما يعني أن هؤلاء البنات لم يكن بعيدات عن وطنهن في إثيوبيا منذ زمن بعيد، قال جاربا جورجس، الذي أحس بصداع بعد شراب المساء: إن حال العبيد كان سعيداً، لأنهم لم يكن معهم نقود، وأن المتاعب تنشأ عن امتلاك النقود ا

قطعنا الاثنى عشر ميلا إلى آرامية Arameyaفى وقت قياسى، كانت بغال الحاكم هى التى حددت معدل السير، وراح الجنود يسخرون من سرعتنا، وهذا هو دستا Destaيسأل وهو يطوى مظلته محولا إياها إلى عمامة كبيرة "هل أنتم فى طريقكم إلى الجنة، الأمر الذى يجعلكم تُسنرِّعون خطاكم على هذا النحو؟"

عند هذه المرحلة كنا قد حددنا أن معنا ثلاثة جنود ظرفاء، وثلاثة لا يعوّل عليهم، كان جوطة من بين الجنود الثلاثة الأول، وكان وجهاً مسلّياً، كانت زوايا كل ما في هذا الوجه مرتفعة إلى أعلى، عيناه، فتحتا أنفه، وفمه، كان شبيها بالقطة المسلية الجذابة؛ الثاني هو المحارب الأسود سواد الفحم صاحب الشامات القديمة الناجمة عن الضرب بالسكين، وصاحب الأسنان شديدة البياض عما تكشف عنه الابتسامات الأخرى؛ أما دستا فكان طيب المحيا، وشاباً، ورشيقاً وبشرته شبيهة ببشرة البنات ذوات البشرة الشبيهة بلون القهوة ويرتدى قميصاً على الموضة، كان من بين الباقين، اثنان حليقان حلاقة جائرة وبلا شعر مثل البيضة، ولم يحدث أن استطعت تمييز أحدهما عن الآخر؛ أما الثالث فكان

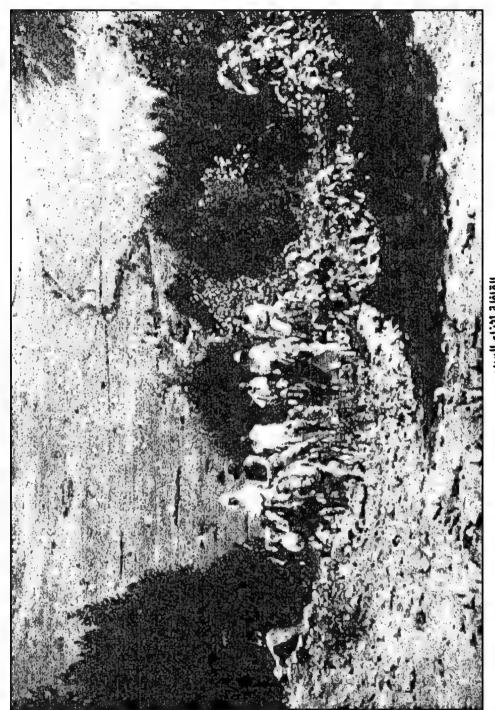
غير ملفت للنظر تماماً إلى حد أن لا أحد كان يعرف اسمه ولا حتى ذلك الذي يقوم به.

الأسماء معقدة في الحبشة وسبب ذلك أن الاسم الأول يجرى اختياره من بين أسماء الشهداء المسيحيين مضافا إليه السابقة وُلدو، Woldo (بمعنى،

المترجم) المنادة حرمك، وهو جناح النساء في المنازل في الجزيرة العربية. (المترجم)

ابن، أو ، ولد)، أو السابقة ،جابرا، Gabra (بمعنى عبد) وعليه فإن طباخنا جابرا جورجس كان "عبد القديس جورج"، أما معنى اسم بلام باراسنى جبرا سياسنى فهو "عبد الثالوث"، الاسم الثانى يمثل عموماً، صفة من نوع ما مثل القوة، الشجاعة، الخفة، الأمل، المجد؛ بعض هذه الأسماء تمثل ممتلكات قيمة فى بعض الأحيان، بقرة، ثور، ترس؛ أو جمالاً طبيعياً مثل شجرة، نهر، نجم، تحتفظ العائلات الكبيرة، فى بعض الأحيان، باسم سرى، يجرى به أفراد هذه العائلات الكبيرة، فى بعض الأحيان، باسم سرى، يجرى به أفراد هذه العائلات، الاسم جوطة Gouta فى اللغة الأمهرية يعنى "ممتلئ" أفراد هذه العائلات، الاسم جوطة على أن تلك تسمية خاطئة فى مدلولها، قال ثم توقف يقطف وردة أرجوانية ويحشى بتلاتها داخل أنفه "أنا أبلغ من الفقر مبلغاً لا يمكن أن أكون معه ممتلئاً، داخلى جوعان بصفة مستمرة"، هذه عادة شائعة فى المسيرات، فقد رأينا سكان التلال فى كثير من الأحيان وأوراق الأشجار تبرز من فتحات أنوفهم، فى حين يستطيع المرء فى أسواق المدينة شراء كرات صغيرة من القطن الخام المنفوش لاستعمالها فى الغرض نفسه.

سقينا البغال من بحيرة آرامية الأمر الذى أغضب البط، وسرنا بين شجيرات الصبيار المزهرة إلى أن وصلنا أرض الريف الواسعة، وصعدنا منحدراً كبيراً ونزلنا منه إلى منخفض، لنمر بعد ذلك خلال دغل من الشجيرات الصغيرة المتشابكة ومنه إلى سفح الجبال، بدأت الزراعة تقل تدريجياً، إلى أن أصبحنا لا نرى سوى رقع صغيرة من قصب السكر أو الذرة العويجة وعدد قليل جداً من الأفدنة المحروثة، الأمر الذى أحارنا فترة طويلة، لأن ذلك بدا لنا مثل ثورة مفاجئة لا يمكن أن تتنج إلا عن ديدان هائلة الحجم، وجدناً تفسيراً لذلك عندما رأينا، عند بحيرة أخرى، بحيرة آديل المراد كانوا "يحرثون" باستعمال أعمدة مدببة طويلة معلق عليها من أعلى حجر ثقيل. وبهذه الأعمدة كانوا يقطعون في الأركان الأربعة لقطعة من الأرض طولها قدمان، ويرفعون الحواف إلى الأعلى، ثم يقتلعون العمود من الأرض بشدة، ثم يلقونه على الأرض، وبهذه الطريقة يستطيع اثنا عشر رجلاً الأرض بشدة، ثم يلقونه على الأرض، وبهذه الطريقة يستطيع اثنا عشر رجلاً



حرث فدان فى اليوم الواحد، بعد تسلقنا للتل الواقع بعد بحيرة آديل دخلنا أخدوداً من نوع ما وريما كان مجرى مائياً عميقاً فى يوم من الأيام، ومن خلال هذا الأخدود الأرضى المحاط فى الأعلى من فوق رءوسنا بأعشاب مزهرة مشينا راكبين دوابنا مسافة تقرب من نحو ميل، لنخرج من مكان ضيق إلى منحدر وعر يوجد أسفله واد، قالت أصوات ستة "هذه هى كيرسا! هذه هى كيرسا التى نخيم فيها"، لكنى لم أكن مندهشة من مسير الساعة الإضافية التى مشيناها، وسبب ذلك أن قرى كثيرة فى الحبشة تحمل الاسم نفسه والذى لا ينتمى إلى مجموعة قرى بعينها Tukels، وقد ينطبق على حى بأكمله، وربما كان ذلك السبب فى اختلاف الخرائط الخاصة بالمكان الواحد بعضها عن بعض، ومن ثم لا تصلح فى استعمالها للترحال.

خيمنا في بقعة الأرض المكشوفة الواقعة أسفل كبرى قرى المنطقة، التي يوجد فوقها أكبر مبنى ثمانى الأضلاع مسقوف بالصفيح والذى هو عبارة عن كنيسة، ونظراً لأن الوقت كان لا يزال مبكراً (كانت الساعة الثالثة صباحاً)، فقد آثر السواد الأعظم من المرافقين لنا النوم، ولف كل واحد منهم نفسه في مظلته كما لو كان شرنقة من شرانق دودة القز، كان من بين البغالة واحد مفلفل الشعر، قام بإحضار قطعة من الخشب، فيها شبه من الملعقة وراح يستخدمها في تنظيف أذنيه لا تراجع اثنان من السود إلى الخلف من خيمتهما، حيث كانت هناك شريحة من قماش الخيش الكتاني المتين معلقة فوق عمود، ويرتكز كل طرف من طرفيها على كومة من الستُرُج، وقام أحدهما بحلق رأس الآخر، حلقاً جائراً باستعمال قطعة من زجاج قارورة مكسورة، ثم يحلق رأس الآخر، حلقاً جائراً باستعمال قطعة من زجاج قارورة مكسورة، ثم قام بعد ذلك بدعك الرأس بالدهن لحمايتها من الشمس.

تجولت خلال المخيم بينما كان جاربا جورجس يُصلِّح القهوة، وشاهدت ابن آوى وهو يقفز مبتعداً قفزات شبه دائرية، وشاهدت أيضاً هدهدين يرتفعان وهما يرفرفان بأجنعتهما المخططة بخطوط مثل خطوط الحمار الوحشى، عندما بدأت قلة قليلة من القرويين المهمين تقترب من خيامنا، الأمر الذى جعلنا نقرر ونجزم أن من الصعب هنا تمييز الرجال عن النساء، المسيحى الحبشى يرتدى سروالا أبيض من القطن وقميصاً أبيض من القطن أيضاً، والسروال يكون ضيقاً عند منطقة الساقين، أما القميص فيكون طويلاً

وواسعاً من أسفل وضيق الأكمام عند الرسغين، وتكون ياقته عالية في قمصان الرجال، والقميص النسائي أطول وأوسع من القميص الرجالي، لكن الرجل والمرأة يرتديان المظلة، التي هي عبارة عن تلفيعة منسوجة يدوياً من القطن يصل طولها إلى نحو ثلاث ياردات، وعرضها يتردد بين ياردتين وأربع ياردات، وتتباين جودته وجودة نسيجه طبقاً للمرتبة الاجتماعية، وأنا أعتقد أن المظلات شديدة الطراوة التي يرتديها الأمراء والأميرات تقدر قيمة الواحدة منها بمئات الدولارات، يزاد على ذلك أن المظلة الملونة أمر نادر تماماً، يزاد على ذلك أن المظلة وردية اللون أو زرقاء اللون يكون المقصود منها والحداد، قد يكون ذلك آخر تذكار من تذكارات الثياب الديرية زعفرانية والحداد، قد يكون ذلك آخر تذكار من تذكارات الثياب الديرية زعفرانية ويحلقن رءوسهن، هذه العادة لا تزال سائدة بين كبار السن وغير المستيرين.

اللون الأسود هو رمز الحداد والحزن عند الحضر، كما أن لون أغطية رئس رءوس النبلاء التى تصنع من الحرير هو أيضاً اللون الأسود، أما أغطية رأس الطبقة المتوسطة فهى تصنع من الصوف الخشن، أما البرانس Bumouses، التى تُبطن فى بعض الأحيان، أو تصنع لها حواف من اللون الأحمر، فيرتديها الجنسان، والرجال يرتدون البرانس ذات الطراطير التى تكون على كتف واحد وليس على الكتفين، أما النساء فيرتدين البرانس التى يتدلى طرطور الواحد منها إلى الخلف، أما الماتب Mateb فهو عبارة عن حبل رفيع من الحرير مختلف الألوان يلف بأحكام حول العنق، وغالباً ما يحمل حجاباً أو الحرير مختلف الألوان يلف بأحكام حول العنق، وغالباً ما يحمل حجاباً أو أبتكره فرومنتيوس، الأسقف الأول، ليميز به المؤمن عن الوثنى، والمارغيف أبتكره فرومنتيوس، الأسقف الأول، ليميز به المؤمن عن الوثنى، والمارغيف الرئيس أو رجل البلاط أو الحاشية، في حين يفضل المحدثون ارتداء حزام أحمر عريض فوق هذه اللفافة؛ ذلك أن هؤلاء المحدثين كانوا يرمزون ذات يوم إلى أصحاب السمو الملكى.

قصدنا القرية قبل غروب الشمس لنطّلع على بيوت عيش الغراب المسنوعة من القش ونتفرج عليها من الداخل، جدران هذه البيوت مصنوعة

من عيدان الذرة الجافة، والمليسة بالطين من الجانبين، وسقف البيت منصوب على إطار من الأعمدة المربوطة إلى بعضها بالجلد، وهذه الأعمدة تبرز مسافة قدم أو قدمين حول البيت كله، أرضية هذا البيت من الطين، والمكان المحيط بالمدفأة مصنوع أيضاً من الطين، وأحياناً توجد أيضاً حلبة من الطين توضع عليها كنبة من الخشب أو كنبة مصنوعة من السيور المصنوعة من الجلد والمثبتة على إطار من الخشب، ولا يوجد من الأثاث سوى مقعد أو مقعدين بدائيين، وبعض المخاد المصنوعة من الحشائش، وبعض السلال، وصف من القرع المفرع، وغالباً ما يشارك الدجاج، والماعز، أو الحمار المريض، أو البقرة الحامل أهل الدار العديدين في ذلك الكوخ؛ الجو هنا مشبع بالروائح غير الطبيعية الناتجة عن النار التي توقد بروث البهائم، والرائحة هنا لا تطاق.

سعدنا بعودتنا إلى خيمتنا، وتلك النيران الست الصغيرة التى تحلق حولها مختلف أفراد حاشيتنا.

سألت جابرا جورجس، والطباخ يضحك "هل اشتريت أى شيء من البيض؟"

تعجب قائلاً: "تسألينى عن البيض! فى غضون نصف ساعة سيكون لديك الكثير منه إلى الحد الذى يجعلك غير قادرة على المشى". نظرت إليه نظرة شك، أصر قائلاً: "لا، لا، هذا صحيح، أنت تتجولين فى حماية راس تفارى، هذا معروف للجميع، والقرية كلها ستحضر لكم الطعام".

كانت تلك أول أمسية لى خبرت فيها الضيافة Dergo من قبل تلك القرية المضيافة، كنت لا أزال أكتب داخل خيمتى وأنا أنتظر وصول العشاء، وبالتدريج بدأ وجود ضوضاء كبيرة فى المخيم، وقوقات، ثغاء، قباع (本) مع عدد كبير من المرافقين من البشر، نظرت خارج الخيمة فوجدت خيامنا مطوقة بجمهور كبير، عندما قفز جابرا جورجس من فوق النار بدا وكأنه جالس تحت كومة من التبن، هي عبارة عن كتل الوقود التى أحضرتها النساء على سبيل الهدايا، كان جلان يقوم بتلميع حذائى داخل كومة كبيرة من البيض؛ لا أظن أنى رأيت كومة بهذا الحجم من قبل، كانت الوقوقات تأتينا

[🖈] القباع: الصوت الناتج عن الخنزير ويصح فيه شخير، ايضاً. (المترجم)

من كل جانب وسرعان ما اكتشفت أن المرء لا يمكن أن يمشى خارج نطاق البقعة الضوئية ألا وتدوس قدماه على حزمة دافئة من الريش، كان ضوء النجوم لا يزال غير كاف، وعليه كل ما استطعت تمييزه من بين هذه الكتل البيضاء من الشخصيات، هو الظلال السوداء الناجمة عن الثيران الواقفة، والبقع الداكنة التى تأكدت أنها عبارة عن ماعز وأغنام. كانت حزم القصب موضوعة إلى جانب سرربنا، مع تلال من الشعير، في حين جاءت النساء باللبن الرايب، وسلال مملوءة بالتشاكو Tchako، تلك العجينة التى تصنع من الزيت والذرة العويجة وتكفى لحرق جلد الفم، والبيرة معبأة في قرون الأبقار التي يبلغ طول القرن منها نحو قدمين، اعتدت على هذه الضيافة العربية سنوات عدة، حيث يتحتم على الرجل أن "يموت عشرين مرة من أجل إنقاذ ضيفه، ويقطع من جسمه لكي يطعم ضيفه،" لكن هذا الموكب من مواكب صيريز (الم) تحت النجوم الضبابية أثبت أن الشرق المسيحي يمكن أن سيريز (الم) Ceres المسيحي يمكن أن

بزعم حماية البغال من هجوم الضباع، سهر الجنود والبغالة الليل بطوله يأكلون اللحم النيئ، وصحوت في آخر المطاف على وقوقة احتجاج طويلة.

سرنا في اليوم التالى مدة خمس ساعات فقط، لكن استطعنا التقاط عدد كبير من الصور على الطريق. مبلغ علمى أن الناس الأكثر بدائية هنا ظنوا أننا نقوم بطقس من الطقوس الدينية، بعد ذلك سأل أحدهم عمر عما إذا كانت آلة التصوير (الكاميرا) هي تابوتنا من منطلق انطباع مفاده أن التصوير السينمائي يعد عقيدة منافسة! على بعد مسافة تقدر بنحو ثلاثة أميال عن كيرسا Kersa، وبعد التسلق المنتظم، وجدنا أنفسنا على قمة سلسلة جبلية تشرف على منظر من التلال والأراضي الغابية التي تشبه القماش المكرمش من تحتنا، ومن خلف هذه التلال والأرض الغابية شاهدنا البياض الناصع السهل، تمكنا من رؤية الوادي الذي جئنا منه إلى داير داوا، كما رأينا أيضاً أسقف البلدة، ومسحة من اللون الرمادي، في حين كان الأفق مسدوداً بالتلال البعيدة التي تحرس أرض الصومال.

شاهدنا تلة متوجة بأشجار الزيتون وأشجار الطقسوس، وتجشم البغالة

[🖈] سيريز: إلهة الزراعة عند الرومان. (المترجم)

المتاعب للوصول بحيواناتهم حول هذه التلة تحاشياً للسير خلال قبور المسلمين، قال جابرا جورجس وهو يشير بإصبعه إلى الحجاب، "هذه أمور غير طيبة، الأمر لا يكون آمناً إلا في وقت الظهيرة". سرنا خلال منطقة آخذة في الارتفاع التدريجي خلال سلسلة من الجبال الدائرية التي يمر السائر فيها بارتفاعات وانخفاضات، بعيداً عنا وفي الناحية الشمالية (والجنوبية أيضاً) كانت توجد الكتلة الجبلية التي يسمونها جارا ميوليتا Gara Muleta، "جبل المنظر الجميل"، وكان الممر واسعاً في بعض أجزائه على نحو يسمح بسير البغال بجوار بعضها، لكن في كثير من أجزائه كان لا يسمح سوى بسير حيوان واحد، إذ كانت تحده أشجار الياسمين البري (﴿ وأشجار الكانتوفا النساء هن المسافرات الرئيسيات وكانت كل واحدة منهن تحمل قرعة مفرَّعة على رأسها، واثنتين على ذراعيها، وقرعة رابعة على ظهرها، إضافة إلى حزم كبيرة من عشب الجيشا شديد الخضرة الذي يصنعون منه شراباً مسكراً للغاية، كانت قلة قليلة من هؤلاء النساء يجمعن نباتاً محملاً بثمار الليمون اللامعة، الذي يعطى بديلاً للصابون إذا ما طبخ على نار هادئة: انهالت الحمير المعتادة على الطريق ومن فوق ظهورها أحمال من البن، وبين الحين والآخر كان يتجاوزنا راكب من الركاب ويلقى علينا التحية "أنا أحييك" وكنا نرد عليه "بارك الله فيك". الأحباش يتتقلون ويسافرون في شيء من الأبهة قدر المستطاع، ورئيس أصغر قرية بين القرى لا يخرج منها راكباً إلا ومعه بعض من حملة الرماح أو اثنين من حملة البنادق يمشيان خلفه، هذه العادة تزيد من روعة المشهد على الطريق، وأفقر القروبين الأحباش عندما يركب بغله الوحيد، ومن خلفه زوجته أو ولده، يكون من خلفه صبى أسود صغير يجرى وراء البغل حاملاً بندقيته.

مع بداية فترة العصر خيمنا في كلوبي Kolubi، على ارتفاع يتردد بين ستة وسبعة آلاف قدم، نصبنا خيامنا بين أشجار ضخمة، وكانت الغابات تكسو المنحدرات الموجودة أمامنا، كانت هناك كومة من الذهب الشاحب، نظراً لوجود شاب كان يغريل الذرة بالطريقة البدائية التي تقوم على تذرية ملئ

المترجم) بنبات مزهر متسلق. (المترجم)

[🖈] نبات منسلق تنمو ازهاره على هيئة عناقيد. (المترجم)

المذراة فى الهواء الذى يفصل الحب عن القش، فى الوقت الذى يقوم فيه ولد صغير بمسح حبوب الذرة عند سقوطها باستخدام مقشتين مصنوعتين من القش.

جرى إحضار الخروف المعتاد، وهو حيوان ضخم أبيض فى أسود، وقبل أن أتمكن من توقيفه، جرى ذبحه على بعد بوصات قليلة من خيمتى، وخلال وقت قصير سلخ الرجال الخروف، وجلسوا أرضاً فى أقرب مكان ظليل استعداداً لأكل اللحم النيئ، كانوا يقطعون شرائح من اللحم النيئ الموضوع أمامهم ويروحون يدسون هذه الشرائح فى أفواههم ويقطعون عند شفاههم ذلك الجزء الذى يتعذر دخوله إلى الفم، وذلك بضربة إلى الأعلى يمكن أن تكون خطراً على الأنف، بعد حوالى ربع الساعة ارتسمت على وجوههم تعبيرات الحيوانات آكلة اللحوم، إذ بدا عليهم النعاس، والتخمة، فضلاً على تلطيخ أيديهم وأفواههم بالدم، أضيفت إلى هذا المشهد لمسه فكاهية، تمثلت تطيخ أيديهم وأفواههم بالدم، أضيفت إلى هذا المشهد لمسه فكاهية، تمثلت بقطعة من لحم ذلك الخروف.

عدت إلى خيمتى التى كانت تعج بالذباب وفى يدى كومة كبيرة من خبز الأنجيرا (ألم) رمادى اللون، ورقيق جداً على نحو يجعله شبيهاً بالحرير الموسليني، بعد ذلك بدقائق قليلة دوت من فوقنا أصوات ثلاث طلقات صدرت أو أطلقت من القرى التى فوقنا، سألت جلان، الذى كان يتلكأ حول باب الخيمة ولم يكن لديه ما يفعله "هل يجرى الهجوم علينا، أم أن شخصاً قادم لزيارتنا؟"

أجابنى "لا، لا، هذه إشارة إلى مولد طفل". استنتجت من الأسئلة التى طرحتها عليه بعد ذلك حقيقة مفادها أنه فى بعض القرى يُعلن عن ولادة المرأة بإطلاق ثلاثة من الأعيرة النارية من البنادق، وأن إطلاق المزيد من الطلقات يعنى ظهور رأس الوليد، أما إطلاق الطلقة الخامسة فيعنى أن الوليد قد أصبح من أهل هذه الدنيا، واصل جلان كلامه "الشمس شديدة اليوم، وهذا فأل سيئ" وأوضح أن ولادة طفل بوصفها مرضاً، فإن أشعة الشمس يجب ألا تصل إلى المريضة، وإلا كان ذلك يعنى الموت المحقق، وعليه

[🖈] الأنجيرا: خبر حبشى شديد المرارة يخبر على نار الفحم النباتي. (المترجم)

تضع المرأة حملها بعيداً عن الهواء وضوء النهار، وذلك عن طريق شب نار كبيرة من روث الماشية الجاف، ويجرى سكب قدر كبير من البخور على تلك النار، لإحداث دخان كثيف، ورائحة كثيفة، وعرق شديد أثناء عملية الولادة، في حين يقوم جمع صاخب من النساء يغمغمن متوسلين بالأم مريم Mariam، ويرحن يقدمن للوالدة جرعات من صلصلة البربرى Berberi الحريفة جداً، والتى يمكن أن تطيح برأس الأوروبي.

يجرى بعد ذلك إعطاء الوالدة شيئاً من الزبد والعسل، ثم تُعطى بعد ذلك مُقيئ، ويجرى بعد ذلك دفن خلاص الولادة أسفل عتبة الدار حتى يظل الوليد محتفظاً بتراثه؛ أما إذا كان المولود أنثى فيجرى دفن الخلاص خارج المجمع السكنى، نظراً لأن مصير المرأة لا يكون تحت سقف الأب.

كان القمر قد طلع، عندما وجدت امرأة تنظر إلى من خارج الخيمة، وفى يدها طفل حديث الولادة مربوط فى جلد عنزة معلق فيه قطع من العظم حماية للطفل من عين الحسود، كانت المرأة تمسك فى يدها قرن بقرة طويلاً، مثقوباً عند طرفه وملفوفاً فى قطعة صغيرة من نُفَّاخة، مما جعلنى أفهم على الفور أن ذلك يستعمل رضاعة للطفل، كانت تلك الرضاعة تستخدم فى ذات الوقت حصالة قمت بوضع دولار فيها، قبل أن تنصرف إلى بقية القرية لجمع العملات المعدنية الصغيرة، مع عرض الطفل فى ذات الوقت، حتى لا تكون هناك شكوك حول ذكورة الوليد، وأن هذا الوليد جدير بالعون من حيه ومنطقته اللذين سيجنيان ثمار عمله فى المستقبل.

ساد المخيم في تلك الليلة هدوء غير عادى، هذا هو عمر مصاب بالحمى ومُكوّم بلا حول أو طول بالقرب من النار، ونظراً لأنه صومالى مسلم، فإنه لم تكن له شعبية بين أفراد القافلة، الذين أكدوا لى أنه يعانى من عجزه عن الحصول على أى شيء من القات، الذي تعتمد عليه حاسته العصبية، كان جونز Jones هو الآخر على قائمة المرضى بعد أن أصابه الصداع بفعل الشمس، عندما دخلت خيمته ومعى حبتان من الأسبرين، أعطانى مقابلهما "مادة من الطراز الأول لعلاج حروق الشمس على الفور، وتوقف الالتهاب على الفور". كانت رقبتى تجعلنى أحس وكأنها ميسومة بحديد محمى، على الرغم من أن مصباحه كان مطفاً، لم أحاول منعه من التفتيش في حقيبة ظهره، قال

متعجباً، وهو يمسك في يده أنبوباً لزجاً "هذه هي المادة! ضعيها على عنقك على الفور". شكرته وخرجت في الظّلمة العامرة بضوء النجوم، جلست على حجر من الأحجار ورحت أدهن رقبتي بلطف، خطر ببالي أن ليل الصحراء له سحر تفتقر إليه الجبال، كانت السماء من فوقي مخضبة بتراب فضي، لكن ذلك التراب كان بعيداً جداً، وكانت الريح تَزفُّ بين الأشجار، ليل الصحراء هادئ بطريقة ساحرة، وسماوات ذلك الليل معدن مصهور بعد اكتوائه باللهب، عند هذه المرحلة، خطر ببالي أن حلقي قد اكتوى هو الآخر، اقتربت من أقرب النيران إلى، ورحت أنظر إلى الأنبوب الذي انتقاه جونز في الظلام، ووجدت أنه معجون أسنان مصنوعاً من حامض الكربوليك وإن شئت فقل حمض الفنيك!

عندما استيقظت في صبيحة اليوم التالى خفت أن يكون هدوء المخيم نذير شؤم، كانت الساعة لم تتجاوز الخامسة، لكن بلام باراسي اقترح القيام بسلسلة من المسيرات الطويلة بغية الوصول إلى كيُونِي Kunni في اليوم الرابع وعليه دخلت خيمتى وأنا أرتعد في هذه الظلمة الرمادية، لم يكن هناك شيء يتحرك، وعندما هززت الحُزم البيضاء الملقاة على الأرض هنا وهناك بطريقة عشوائية، كنت لا أسمع سوى صوت هذه الحزم البيضاء تتأوه وتتلوى ألماً.

سألت عمر "ما هذا الذى يحدث بحق السماء؟" كان عمر قد بدأ يتعافى، رفع المرشد يديه إلى الأعلى.

"لقد أكلوا لحماً نيئاً كثيراً، وتعاطوا دواء قوياً".

راح الرجل فى يأس يسحب بعض المرضى كى يقفوا على أرجلهم، حاولوا وهم ممتقعون وشبه منحنين الوقوف وهم يترنحون، بلا جدوى وجباههم تتصبب عرقاً.

سألت وأنا أنظر داخل الخيمة التي كانت أولي الخيام التي بدأت تدب بالحركة استعداداً للرحيل "أين بلاَّم باراسِّي؟"

قال عمر بأسف شديد "هو أيضاً تعاطى مطهراً" (أم).

والذي لا شك فيه، أن ذلك لو كان قد حدث في ساعة متأخرة من ساعات

[🖈] المطهر: يكون طقساً عاماً في الحبشة، ويجرى تعاطيه دوماً بعد اكل اللحم النبع.

النهار، لكانت حاسة المرح في قد أخرجتنى مما أنا فيه، لكن الجو كان بارداً وكنت جوعانة أيضاً، وأن المخلوقات التي أيقظتها كانوا يترنحون في أقرب الأماكن إلينا، وعليه بدأت أستعمل أفضل ما لدى من اللغة العربية، وراح عمر ينظر إلى مستسيغاً ذلك الذي أقوله.

قال عمر متأملاً: "المؤسف أنك لست رجلاً، وعندها يمكن أن تضربيهم".

بعد ذلك بأربع ساعات، وبينما كان يجرى تحميل البغال بواسطة جماعة من الأشباح، جاءنا رئيس القرية على وجهه ابتسامة ساحرة؛ وأبدى ملاحظة "سيكون بوسعكم التحرك حالاً لأن الحيوانات كلها خرجت من أجسام الرجال".

كانت الشمس متوهجه ونحن نازلون من كولوبِّى Kolubi إلى بيارة من شجر التيد Teyd وشجر الزجبار Zigbar المتين، كانت تلك الأشجار تشكل حافة حول الجبل ومزخرفة بشجيرات مزهرة، وتتخللها أشجار التُّوب الهيكلية رمادية اللون، في ذلك السهل الذي مازلنا نراه، ومن فوقه الضباب الأزرق زرقة البحر.

قال بلاّم باراسيِّى: "لقد جرى مؤخراً قطع بعض الأشجار بواسطة اللصوص؛ جرت العادة أن يقبع هؤلاء اللصوص هنا ثم يقومون بالإغارة على القوافل".

قاطعت كلامه قائلة: "نحن هنا في حمايتك؛ وأنا متيقنة من أننا في مأمن من هؤلاء اللصوص".

ابتسم جابرا سليستِّى وأشار إلى الخلف، قال: "معنا كثير من البنادق الآن، وهناك المزيد من البنادق مع أمتعتنا".

كانت قافلتنا تتزايد يوماً بعد يوم، وكان مستحيلاً علينا اقتفاء أثر الرؤساء على اختلاف أنواعهم هم والقرويين الذين كانوا يرافقوننا إلى نهاية أراضيهم ثم يتركوننا بعد أن ينحنوا لنا احتراماً وتقديراً. أعطانا دست Desta المزيد من المعلومات عن اللصوص "كان في الجبال عدد كبير من اللصوص السمان قبل وصول خطوط السكة الحديد إلى هذا المكان"، ذكر دستا كلمة سمان، بإشارة منه إلى أحجام هائلة، "لكن الآن النقود كلها يجرى نقلها بالقطار، وهنا يتحتم على اللصوص العمل بجد كي يستطيعوا كسب عيشهم".

بعد أن سرنا مسافة ثمانية أو تسعة أميال التقانا بلام باراسي ألمايا هو ورؤساء مجموعة قرى شالانكو Chalanko، كانوا وهم يرتدون أغطية رءوسهم ذات الحواف الغليظة، وقبعاتهم، عريضة الحواف المصنوعة من اللباد، والتى تحتوى على ثنيات من الموسلين تخفى كل شيء ما عدا عيونهم، يبدون كما لو كانوا من عصابات نسف البرلمانات، بعد تبادل التحيات، أداروا بغالهم خلفنا ودخلنا على شكل موكب خلال دوائر القرى لنف ترق عنهم بمزيد من الانحناءات والتحيات عند سفح المرتفع التالي، لاحظت أننا عندما كنا نتجاوز لوحاً موضوعاً في كومة من الحجارة، ومركباً عليه شريط أبيض يرفرف فوق ذلك اللوح، وهذه إشارة إلى وجود كنيسة على التل بعيداً عن الأنظار، كان ذلك اللوح، وهذه إشارة إلى وجود كنيسة على التل بعيداً عن الأنظار، كان ذلك الرمز.

واصلنا مسيرنا راكبين بعد ذلك عبر مجموعة متتالية من السلاسل الجبلية المنحدرة، فيها رقع مزروعة في الوديان التي بين هذه السلاسل، عثر عمر على حقل من حقول القات المحببة إلى نفسه، وقام الجنود بسرقة أعواد الذرة، أما جابرا جورجس الذي يتمتع بذاكرة طبَّاخيه، فقد رجانا أن نأكل بعض بذور الشمبورا Shimbura، التي لها مذاق المكسرات، أو بعض حبوب التالبا Talba التي يصنع منها أهل البلد حساءً حلو المذاق.

مررنا فى حقل من حقول السوف Suf، تلك الزهور الذهبية البراقة التى يعصر منها الزيت، على عروسة وعريس من الجلا، وبصحبتهما قلة قليلة من حملة الرماح وجمع من النساء اللاتى كن يزغردن، وفى شعورهن شرائح من أوراق الشجر، ويمسكن فى أيديهن أغصاناً، ومن سوء الطالع أن العروسة والعريس هربا عندما جهزنا آلة التصوير لتصويرهما، وتمثل صيدنا فى العروسة الصغيرة الجسم، ببشرتها الشبيهة بلون القهوة التى تلمع بفعل الزيت، وذلك القماش الرخيص أحمر اللون الملفوف حولها، يشيع بين الجلا الجنوبيين عرف مفاده أن والد العروسة يكون من حقه اختيار مهر ابنته من بين ممتلكات أصدقائه، ففى يوم الزواج، ينتقل والد العروسة من كوخ إلى كوخ مطالباً بالهدية الفلانية والهدية التركانية، والتى تتدرج من قرعة وسيعة خاصة إلى خروف أبيض أو أسود سمين، وهو يعرف مسبقاً،

أن أصدقاءه، سوف يطلبون منه، في الوقت المناسب، شيئاً مساوياً لذلك الذي أعطوه إياه.

قررنا التخييم في ديدر Deder، تلك القرية الكبيرة التي لم تظهر على خارطتنا، والتي لا يمكن أن تبعد مسافة أكبر من ثمانية عشر ميلاً عن كولوبي في اتجاه طيران الغراب، ومن سوء الطالع أن كل شيء في الحبشة يكون دوماً أبعد بكثير مما يبدو عليه، نظراً لأن الطريق يتلوى كما لو كان ثعباناً، ويروح يفرض نفسه في مرتقيات مستحيلة، لينحدر من جديد نازلاً بين كتل من الصخور تبدو وكأنها بحر من الطين، وقد تجمدت وسط عاصفة من العواصف، ويقضى الواحد منا اليوم بطوله إما متعلقاً بالقربوس، في الوقت الذي تترنح فيه الركوبة تأرجحاً عمودياً نحو الأعلى، أو تحاول موازنة نفسها، في حين يخرج الراكب قدميه من الركاب مخافة أن ينسحقا بين جلاميد الصخر، في الوقت الذي تعجل فيه الاهتزازات والترنحات بسحب الراكب نحو الأرض.

قافلة البغال لا تعرف السلام في الحبشة، ذلك أن الصياح الذي لا ينقطع يصاحب القافلة في ظل المفاجآت التي تحدث عند كل منعطف من المنعطفات، وسيل الحمير الذي لا ينتهى، وقافلة الإبل التي تسير بطريقة فوضوية، والتي تصيب البغال بالهستيريا (لا أعرف إن كان ذلك بسبب فوضوية، والتي تصيب البغال بالهستيريا (لا أعرف إن كان ذلك بسبب رائحتها أو منظرها؟)، طوال الأيام الأولى كنت أخشى حدوث معركة في أية لحظة من اللحظات، نظراً لأن الصياح كان يتسم بالغضب، كما كان التشويح بالأيدي عنيفاً، لكن الأرجح أن ذلك كان جدالاً لطيفاً حول أفضل المسارات أو حول السعر المناسب لشراء نعلة من النعال، وإذا ما سأل أحدهم أحداً سؤالاً، تقوم القافلة كلها بمناقشة الرد على ذلك السؤال بأعلى صوت ممكن، وإذا ما طال الصمت، ولنقل لمدة خمس أو ست دقائق، يروح أفراد القافلة بترديد قواف عجيبة لا وزن لها، كان من عادة واحد من خدم بلام باراسيّ، أن يسير حاملاً على رأسه آنية من أواني الطبخ، وكانت تناسبه تماماً، كما لو كانت قبعة بلا حافة، وعليه لم يستطع رفاقه منع أنفسهم من الدق على هذا الإناء قبعة بلا حافة، وعليه لم يستطع رفاقه منع أنفسهم من الدق على هذا الإناء كلما مر على واحد منهم، لكن أفضل الفرص المواتية لذلك كانت تتهيأ عندما

كنا نساعد (عن غير قصد تماماً) في القبض على عبد هارب، كنا على مشارف قرية ديدر، وكنا قد انتهينا بصعوبة بالغة من تسلق أبشع سلسلة من الصخور التي واجهتنا، عند أعلى السلسلة اعترض طريقنا شخص محترم لكن منكوش الشعر، وحكى لنا حكاية مفادها أن عبده ألقى حمولته فجأة وفر هارباً داخل الغابة، راح الجنود مثل الكلاب يطاردون ذلك العبد، ومن خلال تعبيراتهم توقعت أن يكون هناك كثير من النباح، اضطررنا إلى تعقب ذلك العبد، مع هؤلاء الجنود، لكن المطاردة لم تدم طويلاً، ولم تحدث انفعالات كبيرة من جانب السيد أو العبد، إذ واصلا سيرهما وهما يتجادلان.

♦ الفصل الخامس

البغال والزواع بصفة أساسية

تبدّت لى قرية ديدر وكأنها أول مخيم من مخيماتنا الجبلية، لا من حيث إنها أعلى من القرى الأخرى، إذ طبقاً لجهاز الأنرويد، فإن الارتفاعات على هذا المسار تتردد بين ٢٠٠٠ و ٨٠٠٠ قدم، وإنما لأن الخيام جرى نصبها على منحدر كان يجعل كل شيء ينزلق بسهولة خارجاً من الخيام، دخلت للنوم داخل الخيمة وقدماى معلقتان فوق حافة النقالة، وصحوت من النوم على اصطدام لأجد نفسى أنا وكيس البراغيث في مكان قدميّ.

اعتباراً من هذه المرة، عكسنا طريقة تصرفنا، بأن اعتدنا على ارتداء ملابسنا فى الليل استعداداً للنوم وخلع ملابسنا فى الصباح استعداداً لرحلة الركوب الطويلة الحارة، وتأسيساً على ذلك، فإن تغطيتى لنفسى بالبلوزات الطويلة ذوات الأكمام، وبالإيشاربات، أو حتى بمعطف أو معطفين أو حتى بمرشحة بغل من البغال، كان يشكل لى صعوبة فى تخليص نفسى، أو بالأحرى الخروج من كيس الخيش الضيق، كنت قد فعلت ذلك عندما سمعت صوتاً حاداً لصرخات شخير، وأصوات حوافر استولى عليها الرعب، ثم سمعت صراخاً، ومن بعده طلقة ثم مزيداً من الأصوات الحادة، أمسكت مسدساً وخرجت من الخيمة لأرى كتلة معتمة تتساق بخفة فى جوف الليل، كما رأيت ارتباكاً أيضاً بين الأشكال الملفوفة بالبطاطين.

اندفع دستا ورائى ومعه بندقية، صاح قائلاً "ضباع!" وعقب ذلك مباشرة قفز شيء ما من الظل، وجهت إليه طلقة لكنها أخطأته، وبعدها بدا الجميع وكأنهم يقومون بعمل مفاجئ، اعترضت مع جوطة "إذا ما أطلقنا المزيد من الذخيرة، فإن القرية كلها ستهب لنجدتكم".

كرر جوطة الكلام "دعوهم يحضرون ليعثروا لنا على بغالنا".

أمضينا بقية الليل فى البحث عن الحيوانات، واستأنفنا رحلتنا فى الصباح وقد نقص اثنان من بغالنا. وبينما كنا نسير فى واد، كانت أشجار الغابة فيه محملة بالياسمين البرى، والبرتقال وزهر العسل، ونبات متسلق قرمزى اللون، رحت أعمل فكرى فى المثل العربى الذى يقول: "ثق بالله وبحبل فى رجل الحمل" لكنى علمت أن البغال خلعت الأوتاد وقطعت حبال الأقدام الخلفية.

حدث لنا فى ذلك الصباح، مضمون، سينمائى طيب، وسبب ذلك أننا فى مكان من الأماكن تعين علينا تسلق ذلك المكان على أيدينا وركبنا فى حين لفت البغال صاعدة إلى أعلى حول الجنب، أنا على يقين أن البغال يجرى فى عروقها دم سرطان البحر (*)، بينما كان هارولد جونز يحرك مقبض آلة التصوير (الكاميرا) نحو الأسفل، مر بعض الجلا، وبعد أن أمسكت أيديهم بأقوى أحجبتهم، انحنوا على الأرض لاستعطاف القوة المجهولة!

بدأ المسار بعد ذلك يدور بطريقة مملة حول وخلال وادى بوركة الله الذى تناولنا غداءنا بجوار مجراه المائى، وكيما نصل إلى الشجرة الظليلة الوحيدة تعين علينا عبور وهدة عميقة، وكان عمر مستعداً لتقديم يد العون لنا، عندما راح يشد فى اللحظة غير المناسبة، مما أدى إلى سقوطه فى الماء هو وهارولد جونز. وهنا ألقى أتباعنا بأنفسهم وهم يصرخون، لإنقاذنا، وراح كل واحد من هؤلاء الأتباع يمسك بطرف من أطراف ملابس ضحية من الضحايا، أو بساق من سيقانهم، وكانوا جميعاً يسحبون ويدفعون بلا إجماع إلى حد أن أوشك عمر على الغرق ووصل هارولد جونز إلى البر وهو مغطى بالطين، وسقط هذا الطين من عليه على شكل قشف بعد أن غادرنا الوادى فى قيظ فترة العصر، بعد ذلك بفترة قصيرة، عثرنا على واحد من بغلينا الضائعين ووسمناه أمامنا بميسم من الحديد قمنا بتسخينه فى نار الفحم النباتى، ما إن تغلبت على هذا المنظر غير المتوقع، وركبت البغل الذى راح يمشى متسلقاً بين الجلاميد الزلقة، التى حتمت علينا السحب إلى أعلى من

[🖈] سرطان البحر: الكابوريا. (المترجم)

ناحية والانحناءات من ناحية أخرى، سقط بغل من بغالنا المحملة بالأمتعة، وفشل فى النهوض بسبب حمله الثقيل، الأمر الذى أدى إلى انزلاقه انزلاقاً خطيراً مما أدى إلى كسر رجل من أرجله.

حدث ضجيج يصم الآذان واستمر فترة قصيرة، أدركت بعدها أن البغّالة كانوا يحاولون ضرب الحيوان المنكوب كيما يستطيع الوقوف على أرجله، تتاولت بندقية سيلاسِّى، ونزلت إلى أسفل الصخرة وأنا مستعدة لفتح النار على ذلك الحيوان المنكوب بنفسى، لكن رئيس البغّالة تدخل وفي يده سكين، قال: "لماذا تضيعين الطلقات السمينة؟" وبينما كنت أتناقش معه، وسط سيل من الأحمال المتناثرة هنا وهناك، ووسط رفسات مؤسفة، وصل إلينا شخص لإنقاذنا ومعه طلقتان، وأسفرت عاصفة الاحتجاج والتفسير عن القيام بإعادة التحميل الخطرة من جديد.

العجيب بحق هو أن الأحباش، لا يكنون أى احترام للحيوانات، والسبب فى ذلك أن الأحباش شفوقون فى تعاملاتهم مع زملائهم، وفى الجنوب حيث اعتادوا على الاتصال بالغرباء، هم مضيافون فى علاقتهم بزملائهم فى الجنوب، كان يجرى بصورة مستمرة تقديم هدايا صغيرة من الحليب، والخبز المصنوع من الذرة، أو الجعَّة دونما انتظار لأى مقابل لذلك، كان البغالة قد اعتادوا على قطع أعواد قصب السكر وأعواد الذرة، أثناء مرورهم على الحقول، التى يعمل فيها مُلاَّكها وهم شبه عارين، وكانوا يبتسمون للبغالة ويتمنون لهم رحلة موفقة.

فى بعض المراحل، وعندما ينحدر المسار على نحو يتحتم التخفيف من حمولات الحيوانات، كنا نضطر إلى الاعتماد على الحمَّالين المحليين وكنا نستأجر هؤلاء الحمالين بطريقة عرفية تماماً، كان الجنود يرون بعض الرجال الذين يتسكعون فى القرية، فيذهبون إليهم ويجعلونهم ينهضون واقفين على أقدامهم، ووسط احتجاج مشوب بخفة الظل، ليقوموا بنقل النفايات من أية خيمة من الخيام إلى علبة من علب البرافين (التى تتسرب منها الأشياء دوماً) التى يحملونها على أكتافهم، كان سكان التلال يحملون هنها، هذه الأشياء بخفة ظل واضحة وينقلونها إلى خارج الأحياء التى يقيمون فيها، في الوقت الذى يكون فيه طلب على مجموعة جديدة من هؤلاء الحمالين،

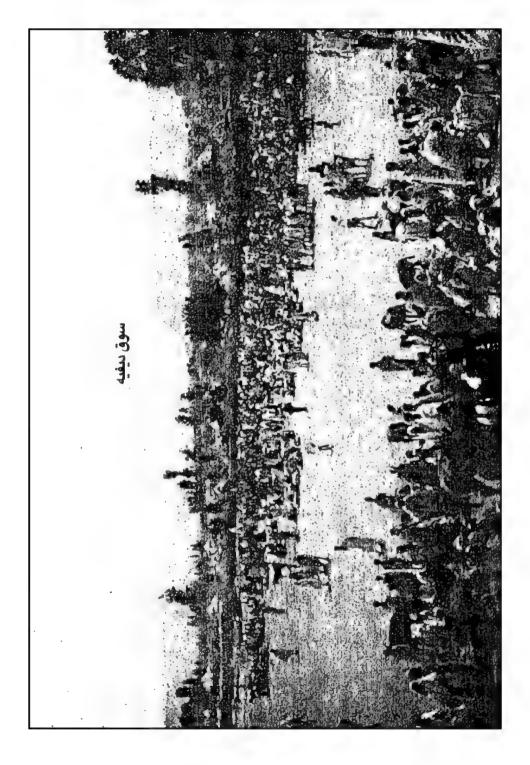
كانوا يشكروننا ويقبلون أقدامنا إذا ما أعطيناهم أقل القليل من العملات المعدنية، والحبشى يفلح فى القيام بهذا العمل فى شىء من الخجل واعتزاز بكرامته بطريقة تسر الخاطر.

أبلغنا بلام باراسى، أن الغريب فى الأزمان القديمة، كان يحظى بحق النقل خلال أراضى القرية، وأن هذه العادة لا تزال سارية فى الجبال، لكنى أعتقد أن المسألة فى معظمها ترجع إلى الأوامر التى تصدر عن راس تفارى، الذى كنا نسافر معتمدين على واحد من فرماناته.

أمضينا الليلة الرابعة في توللو Tullu، ذلك الحي المكون من أكواخ صغيرة، المتاثرة على نطاق واسع على المنحدرات المحيطة بالوادى، حيث كانت نباتات الست المستحية تظلل مخيمنا، كان البغالون يتناقشون في مسألة فقدان بغل من البغال ومصرين على أننا كنا نسير مسافة طويلة في كل يوم، وهنا قام من البغال ومصرين على أننا كنا نسير مسافة طويلة في كل يوم، وهنا قام جابرا سيلسني، «أحن» و«أصبر» هؤلاء الرفاق جميعاً، بتوضيح أن مُلاك البغال يرون أن مسير خمس ساعات يعد كافياً في الرحلات الجبلية، وأن هذه المسافة تختصر عند الظهيرة، بأن يروح البغالة يتسكعون في فترة العصر، ويتناولون وجبتهم الجافة الوحيدة أثناء الليل، لكنه أراحني وهدأني عندما أكد لي في شيء من الأدب، "رغبتي الوحيدة هي أن أقطع المسافة التي تنجين فيها، وأن أتوقف عندما تريدين، وأن أسهل عليك الأمور".

تأكدت فى تلك الليلة من عقل البغال بطريقة سليمة وآمنة، وطببت جلان قدر استطاعتى من وعكة صحية رفعت درجة حرارته إلى نحو ١٠٢ درجة فهرنهيت، وقد وصف لى تلك الوعكة بقوله: "داس أحد البغال على قدمى وتسبب ذلك لى فى ألم فى فخذى، وعليه فإن رأسى يكاد ينفجر الآن" ثم عدت إلى خيمتى على ضوء النجوم، وسمعت صوت عمر وهو يصف بحثه غير المجدى، عن الطعام بين القرى.

كان عمر يقول: "الناس هنا ليسوا بشراً فى هذه المنطقة وإنما هم ضباع، فى اللحظة التى رأوا فيها بنادقنا فروا هاربين، وهم يصرخون، وتبعناهم، بلا طائل، ونحن نصيح قائلين: تعطفوا علينا وبيعونا بعضاً من بيوضكم، حسب رضاكم! اصنعوا فينا معروفاً، سنكون ممنونين لكم، بارك الله فيكم، لكنهم لم يتوقفوا ليستمعوا إلينا، أدى وجودنا إلى إخلاء الجبل بكامله!"



أظن أن المرافقين ناموا وهم جوعي، لأنهم كانوا على استعداد لبدء المسير عند الساعة السابعة من صبيحة اليوم التالي، هذا يعني أن ذلك حدث بعد ساعة من نداء الإيقاظ الصباحي المعتاد، تمثلت مسيرة ذلك اليوم في تسلق مجازين يقع وادى هيرنا Hirna فيما بينهما، كان المجاز الأول مغطى بالأشجار الغابية. سرنا تحت مستوى ستائر نبات متسلق أرجواني اللون تفوح منه رائحة زكية، ومعه نباتات الفربيون الخضراء اللامعة التي تربط بين أجمات الأشجار الطويلة، التي لأغصانها لحي من الخنشار(今) وزيد حبوب الياسمين البري، أفسد علينا متعتنا هذه إلى حد ما، وأحد من الحمالين المحليين عندما وضع أمامنا مجموعة من الدواجن الحية المربوطة من أرجلها إلى عصا، أخيراً أصررت على حتمية ذبح هذه الدواجن وهنا دارت نوبة غاضبة من النقاش، وعندما أصبحت أحبالي الصوتية غير كافية للرد، استطعت عن طريق الإشارات معرفة السبب، وأن الحمالين الذين كانوا معنا كانوا جميعاً من الجلاً، وأنهم إما من المسلمين أو الوثنيين، وأنهم لن يحملوا شيئاً مقتولاً بواسطة المسيحيين الأحباش، اقترحت عليهم "إذن، فليقوموا هم بذبح هذه الدواجن بأنفسهم"، ولكن عهر أوضح أن طباخنا لا يمكن أن يتعامل مع أي طائر مذبوح بسكين كافر، تواصلت هذه الأزمة المستحكمة إلى أن خطر ببيال الجنود أنهم إذا ما ذبحوا الدواجن ووضعوها في جوال فقد يقتنع الجلا بحمل ذلك الجوال في نهاية المطاف!

أمضينا ساعة فى تصوير حصاد الذرة، ذلك المنظر المشهود، حيث يقوم المردة السود العراة، اللهم باستثناء ما يستر العورة، بمصارعة سيقان الأذرة التى يبلغ طول الواحد منها أربعة عشر قدماً، وتقوم البنات بخفة ورشاقة بحمل حبوب الذرة فى سلال على رءوسهن إلى خارج الحقل، مر علينا عجوز يحمل حملاً كبيراً من القرع المفرع، كان ذلك القرع يبدو كما لو كان نفاخات متجمدة على كتفى الرجل، نظر نظرة متفحصة إلى بغلى الأبيض، قال "بغل جيد؛ إنه يجرى مثل الماء، أما قدماى فهما مثل حجرين من تحتى". انشرح صدره كثيراً عندما أعطيته قرشاً، وانصرف لحاله يغنى.

في الهيرنا، التي هي سوق كبيرة، وإن شئت فقل: سوق المنطقة المجاورة،

الخنشار: نبات السرخس. (المترجم)

والتى فيها نفر قليل من أصحاب الدكاكين اليونانيين والأرمينيين، تلقينا صدمة، كان الوقت ظهراً، وكنا نسرع الخطى، وكانت ريح باردة تواجه وجوهنا، عندما أشار عمر إلى مجموعة مشوشة من بغال حمل الأمتعة وغير المسرجة، كانت مبعثرة على الأرض الخضراء، وقد أدى تدقيقنا في الأمر إلى إثبات أن مالك البغال، استغل انشغالنا بعملية التصوير، وخيم في هدوء طوال فترة النهار، والذي لا شك فيه أن ذلك البغال ظن أن نصبه لخيمته ومظلته، وفكه لأمتعته كلها، في الوقت الذي راحت فيه بغاله تتجه صوب المجرى المائي، يمكن أن يقنعنا أن مسئلة القيام بمسيرة جديدة أمر لا طائل من ورائه، كان تعبير ذلك البغال خليطاً من الدهشة والاشمئزاز عندما داهمت الجنود بعد البغال، وجعلتهم يحضرون البغال عدوا وأمرتهم بإعادة التحميل على الفور. استغرقت هذه العملية نصف ساعة، لكنها علمت صاحب البغال درساً ومضينا في صعودنا لسلسلة الجبال التالية التي تعدها الحبشة منطقة صمت وسكون.

وعلى الرغم من هذا التأخير، فقد وصلنا إلى دباسو DAbasso، وجانب من جوانب التلال عليه غطاء كثيف من الورد البرى، لنشاهد من فوقه غروب الشمس فى كونًى Kunni، جبل الغابات، وحول النار التى جرى شبها، تجمع مرافقونا، كل منهم شبيه بخيمة صغيرة مستقلة وهو ملفوف فى بطانيته، لا يظهر منه سوى عينيه وأنفه؛ وراحوا جميعاً يشوون الأذرة التى سرقوها من الوادى ويتحدثون عن معاركهم، والمؤسف أيضاً عن دخائلهم! كان هناك حفل زفاف فى مجموعة من الأكواخ القريبة منا، كان العريس تاجراً مسيحياً من الهيرنا، وعليه جرى دعوتنا لشرب التدج أو Ted الفتفت Fet، Fet الذى هو قطع صغيرة من اللحم مستديرة الشكل مغموسة فى صلصة حارة جداً، كان الضيوف جالسين على الأرض، ولدى كل واحد منهم ملعقة وسكين، الضيوف جالسين على الأرض، ولدى كل واحد منهم ملعقة وسكين، ويستخدمون شرائح من الخبز الوطنى لتكون له طاولة وفوطة فى الوقت العريس الأربعة، الجالسين حوله ويقطعون قطعاً صغيرة من لحم الخروف النيئ المعلق من رجليه فى عمود يحمله عبدان، ويروحون يدسون قطع اللحم النيئ المعلق من رجليه فى عمود يحمله عبدان، ويروحون يدسون قطع اللحم الصغيرة فى فم العريس، وفى ملجأ فى الخلف عبارة عن بضع باردات قليلة الصغيرة فى فم العريس، وفى ملجأ فى الخلف عبارة عن بضع باردات قليلة الصغيرة فى فم العريس، وفى ملجأ فى الخلف عبارة عن بضع باردات قليلة

من قماش الموسلين، منصوبة على شكل خيمة، كانت هناك بعض البنات يقمن بالشئ نفسه للعروسة، وإذا ما أصيب العريس بغصة، فإن اثنين أو ثلاثة من أصدقائه يسارعون إلى إخفاء وجهه تحت مظلاتهم (شملاتهم)، وبين الحين والآخر، كانت النساء اللاتي يحضرن الوليمة في حوش مجاور يقمن بالغناء، وبلا إنذار يندفع رجل واقفاً على قدميه بقرن بقرة، ويروح يُفرغ ما به من بيرة، ويمسك به مقلوباً رأساً على عقب، ويروح يرش على الضيوف القطرات المتبقية.

وبعد أن يصل هذا الفرح إلى ذروته، ويجرى اقتياد العروسة إلى داخل الكوخ وإجلاسها على حشية فى حين يقوم والدها بقراءة قائمة ممتلكات العروسة بدءاً بثورين وانتهاء بقبعة من اللباد، ويجرى سكب الزيت على العروسة أربع مرات من قنينة رفيعة، وتروح العروسة ترشف مشروب التدج الذى يشرب منه الآخرون بعد ذلك، ثم يجرى بعد ذلك طى شاشة القماش الموسلينى حول العروسة فى الوقت الذى تحتضن فيه أمها أو تتحدث معها.

لا يعد الرقم أربعة رقماً حظيظاً وإنما هو سر أيضاً من الأسرار الكنسية الروحانية، نظراً لأن فيثا نجاست Fetha Negast يصرح بأن هناك أربعة بطاركة، وأربعة أناجيل، وأربعة أنهار في الجنة الأرضية، وأربع رياح، وأربعة فصول، وأربعة عناصر، وأربعة أرباع في الأرض، وبناء على ذلك خرجت العروسة من شاشتها الموسيلينية ومن فوقها أربعة أغصان من أغصان الزيتون، كما أن هناك أيضاً أربعة أحجبة حول عنقها، وددنا لو أننا تمنينا لها حظاً سعيداً، لكن زميلاً من الضيوف أصر على ما مفاده أن العروسة يتعين عليها عدم التحدث إلى الغرباء في يوم زفافها، وعليه تعين علينا تركها وسط أغانيها ووسط حرارة كوخها المعطر، وعدنا إلى نيران مخيمنا، كانت هناك ثلاث نيران مشبوبة، وفي كل واحدة منها كان يجرى خبز الحب على شكل كعكات رقيقة مفرودة على القُرْمَة، ثم يجرى تغطيتها برماد النار الساخن.

قال جوطة: "سنكون غداً في كونيِّ، وسنجد أشجاراً كاملة للوقود".

ابتسم دستا قائلاً: "وقرود أيضاً، وأنا سوف أرميها بالرصاص، لكن السيدة ستقول: إن القرود جميلة وإنها تحبهم حب الولد، مثل الحمل الأبيض والحمل الأسود في ديدر، اللذين لن تدعني أقتلهما".

ضحك الجميع عندما تذكروا خروجى متسللة أثناء الليل لإطلاق سراح حيوان كان محتجزاً لوليمة من ولائم اللحم النيئ، دخلت أنام على صدى الأصوات الوطنية، لأنى أظن أن السواد الأعظم من أهل الريف جاءوا إلينا للجلوس حول نيراننا الكبيرة ولكى يتبادلوا معنا قطع اللحم المقدد، الناشف تماماً مثل الجلد؛ وذلك من باب الاستعداد لدردشة الطريق، صحوت على ندى المسيرة، كان حذائى متجمداً الأمر الذى جعلنى أنفق عشر دقائق فى لبس الحذاء، كما كانت ملابسى مثل قطعة الإسفنج، سمعت هارولد جونز يخرج من خيمته، أخيراً وبعد خشخشة العلب سمعت صوته الذى كان موحياً بالفرح "هم ناشفين مثل عظمة من العظام!".

رددت عليه غاضبة بعد أن أنقطع الرباط الثانى "ماذا تعنى؟ هل كنت نائماً على حذائك؟

أجابنى رفيق صاحب الذهن الفريد، وهو يفرك يديه المخدرتين بسبب البرد، على الرغم من ضعفهما في بعض الأماكن بسبب حرارة الشمس والرياح الشديدة "أقصد الأفلام، بطبيعة الحال".

تمثل الاختبار الوحيد الآخر لهذه الرحلة الجبلية في نقص الماء، لو كانت هناك أبيار أو ينابيع كبيرة فهي تكون مخبأة خارج نطاق معرفة القرويين، الذين يشربون من حفر مروِّعة إلى أبعد حد ممكن، وتتمرغ فيها الماشية والماعز، أو من مجار مائية بطيئة الجريان وآخذة في التعفن وعامرة بالطين والمخاط، يزاد على ذلك أن القسم الأكبر من الأكواخ يجرى بناؤها على بعد مسافات كبيرة من مصادر المياه، وقد حتم ذلك علينا في كثير من الأحيان إرسال رجالنا على بعد أميال كثيرة لجلب المياه من التلال، حتى يمكن استخدامها في عملية الطبخ والشرب، أما مسألة الاغتسال فكانت خارج الحسبان، كنا في بعض الأحيان نشتري ملي قرعة مفرَّغة، من الماء المشوب بالطين، وكريه الطعم والرائحة نظير ثلاثة أو أربعة بنسات، لكن بعد الأيام من حوله الشوك.

اقترح على هارولد جونز "أغلقى عينيك عندما تشربين، وارتكنى على الخط".

من يمن الطالع، أن كانت هناك دوماً حفرة أو بركة طينية بشكل أو آخر، كنا نسقى منها البغال إن تصادف أثناء النهار عدم مرورنا على مجار مائية.

أوصلنا مسير اليوم السادس إلى قرية كونًى، التى هى عبارة عن كُتلتين من الجبال مغطاتين بالغابات. أنفقنا فترة الصباح فى مراقبة السحب أثناء انزلاقها فوق القمم الداكنة، وعند الظهيرة أخذنا قسطاً من الراحة تحت بعض أشجار الزيتون كيما نتمتع بالمنظر، كان ضوء الشمس والظل يتذبذبان فوق الوديان التوأم، وكانت قرية سبتافيرو Sabatafero الجديدة الكبيرة، الشبيهة بمحصول عيش الغراب فى الشمال، تتلألاً في بحيرة شبه جافة فى الجنوب، رحت أنا وهارولد جونز، ونحن نتأمل كثيراً أثناء تقشير البيض المسلوق بطريقة جائرة، نهنئ أنفسنا بجمال كونًى Kunni وبحصيلة عملنا الصباحى، الذى تمثل فى بعض المشاهد والمناظر الجذابة لنساء الجلا، وهن يطحن الأذرة فى أوان أو جرار طينية كبيرة، ونحو ستة من الرجال يلبسون تيجاناً من الزهور، ويقومون ببناء كوخ من القش، ومجموعة من الثيران كانت تستخدم فى فصل الحبوب عن القش، قطع عمر علينا تأملنا، قال: "البلام باراسي يود أن يعرف كم الساعة الآن، فقد وقفت ساعته". مع هذه المباغتة، الراسي يود أن يعرف كم الساعة الآن، فقد وقفت ساعته". مع هذه المباغتة، لابد أن أكون قد كمشت البيضة التى كانت فى يدى، فقد بددت لامبالاتى عندما سقطت علي كبادة مخاطية صفراء.

تعجب عمر قائلاً: "هذا من سوء الحظ! هذه البيضة كانت ستصبح صوصاً صغيراً خلال وقت قصير!"

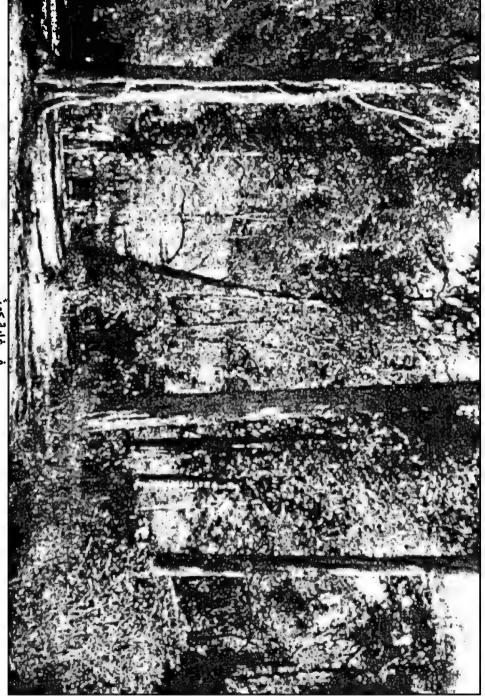
سارع هارولد جونز بوضع منديله على أنفه، كانت تلك أردأ بيضة خلال هذه الرحلة الطويلة، فقد أتلفت بنطالى الذى كان يعانى منذ فترة طويلة.

خيمنا على سلسلة الصخور الواقعة بين القمم الغابية الكبيرة، لأن بلاً باراسي كان يود أن يكون قريباً من بقايا ذلك الذى كان فى يوم من الأيام قرية كبيرة، تنعم بمقام راس ماكونن العلم الله الذى كان فى يوم من الأيام هو والد وصى العرش الحالى، كانت غالبية الناس فى ذلك الوقت قد انتقلوا إلى سبتافيرو فى الأسفل، وهذا من باب الحكمة والتعقل فى رأيى، بعد انهيار خيمتين؛ بسبب العاصفة التى هبت على الممر، لم تكن تلك الليلة مريحة، فقد أمضيناها فى دق الأوتاد وشد الحبال، وفى النهاية فقدت الأمل فى التعامل مع مسألة صراخ الخيش بفعل الدوامة التى وترت أعمدة الخيمة فى التعامل مع مسألة صراخ الخيش بفعل الدوامة التى وترت أعمدة الخيمة

إلى حد الانكسار، وبعد أن يئست أخذت كيس نومى وذهبت إلى أخدود أسفل الصفة، ورقدت في تلك الحفرة التي يبلغ طولها ثمانية أقدام، ووضعت مخدتى عند مدخل الحفرة، ونمت إلى أن راحت بقرة من الأبقار تتطحنى ظناً منها أنى شيء يؤكل.

كان هناك ضوء وردى عجيب على التلال، كانت الأشجار تكتسى لوناً أبنوسياً على خلفية هذا الضوء الوردى، وكان الصقيع يغطى سطح الحشائش، تناوبت أنا وهارولد جونز على العناية بوعاء صنع القهوة، الذى كان بمثابة الشئ الوحيد الدافئ في هذا المكان، جرت العادة أن نتبادل السير والركوب على امتداد ساعات طويلة، لكن في ذلك الصباح على وجه التحديد مشيناً بتثاقل وبصورة منتظمة إلى أن أذابت الشمس الصقيع، وتحولت ممرات الغابة إلى ما يشبه المجوهرات، فقد كانت النباتات المتسلقة تلمع وتتلألأ، وكانت الأغصان تهمس أسفل أحمالها البللورية، نزلنا إلى الأسفل عن طريق ممرات حجرية كانت تمر من فوق جذوع الأشجار أو من تحتها، كان يظهر لنا بين الحين والآخر قرد كبير على وجهه الأسود كشكشة بيضاء، كان يدلى نفسه بالقرب من رءوسنا، وفي بعض الأحيان كانت تأتى قافلة من هذه القرود وتروح تتسلق الأشجار على بعد مسافة منا، قال لنا عمر: إن الجلا يضعون إناء يحتوى على البيرة في بعض المرات المفضلة عند القردة، وعندما تروح تلك القردة تتشمم هذه البيرة وتشرب منها وتسكر وتصبح فريسة سهلة لحملة الرماح الذين يراقبونها.

بعد مسير ثلاث ساعات بدأنا نتجاوز آخر أشجار الست المستحية التى كانت تتخللها وتعلوها نباتات اللبلاب أرجوانية اللون، كانت الجبال من خلفنا تبدو مثل عباءة من الغابات صنعت من القطيفة الخشنة. كنا نرى أمامنا، امتداداً واسعاً من الحشائش، يتبادل مع السهل والتل، وكانت أعراف تلك الحشائش أحد قليلاً من أعراف الحشائش التى فى المنخفضات البريطانية، كانت الحقول مثل رقعة من الذهب حيث كان الرجال يحصدون الشعير بمناجل طويلة الأيدى، أو مثل رقعة من الزمرد الأخضر فى المناطق التى تتمو فيها أشجار الموز وأشجار البن بالقرب من المجارى المائية، كانت أبراج الحراسة والمراقبة منتشرة خلال المناطق المزروعة، وكانت تشبه خلايا النحل المسطحة المركبة على حزم مرتفعة من السيقان النباتية، من باب الاحتراز من المجمات الخنزير البرى عليها.



فی غابة کوئی

عند الظهر، كنا نسير خلال بوروما Boroma، التى كانت حشائشها تطاول سروج البغال، وكانت قافلتنا شبيهة بفئران الغيط وسط تلك الحشائش، وكانت خلفنا الأرض الناعمة التى قبلتها الشمس، كانت سلسلة صخور لاجاردين تبدو لنا كما لو كانت زرقة ضبابية لا تقترب منا مطلقاً، تجاوزنا قرية باديساً Badessa، تلك القرية الكئيبة، التى هى عبارة عن أكوام من التبن والدريس، وبلا نوافذ، لكن أبوابها خفيضة، وجرى قطعها خلال الجدار المصنوع من القش ويبلغ سمكه نحو أربع عشرة بوصة، والتى كان الصبية فيها يمارسون لعبة الهوكى بمضارب مصنوعة من عيدان قصب السكر وثمرة شحرة الأميونانا الصلدة.

بعد ذلك بساعة أدركنا أننا فقدنا الأمتعة والبغَّالة، أسفر تفتيشنا للطريق الذي سلكناه عن عثورنا على البغال التي كانت تمشى الهوينا في أرض باديسًا الخضراء، وكان مالك البغال متمترساً في واحد من البيوت المصنوعة من التبن والدريس، توقفت عن الصراخ وأعقبت ذلك بوضع المسدس في ظهر أقرب البغالين مني، ونتيجة للمفاجأة الكبيرة، وفي شيء قليل من الانبساط وانشراح الصدر، راح البغَّال يعدو هنا وهناك محاولاً إيقاف البغال الباركة، وجاعلاً إياها تقف على أرجلها، وغادرنا القرية بعد ذلك، وعلى سبيل الانتصار راح النجادي يتقدم قافلتنا، أضاع ذلك كله وقتاً كثيراً منا، نظراً لعدم خبرتنا في مسألة البغال والبغَّالة، كنا نضيع وقتاً كثيراً في مسألة تجميع البغال الضالة، وبخاصة في المناطق التي يكون فيها أشياء من النوع الذي تأكله هذه البغال، أخيراً قال مرشدنا عمر أننا وصلنا هابرو Habro، وعليه، خيمنا في المنطقة التي أوحت لنا مجموعة الأشجار بوجود الماء، الذي كان عبارة عن حفرة طينية سوداء تفوح منها رائحة كريهة، كان الجو دافئاً بشكل يسر الخاطر، لكن الريح كانت قوية إلى حد ما، كنت أنا وهارولد جونز بعد أن تعبنا مِن الجهود المضنية التي بذلناها مع البغال، رحنا نشرب شيئاً من اللبن المحمض وشيئاً من القهوة داخل الخيمة، وفجأة سمعنا صراخاً خارج الخيمة، كان الصراخ أنثوياً تماماً تمكنت من معرفة أن صاحبته هي ولاتا سبات Walata Sabat، عبده بلام باراسيِّى، وتبع ذلك الصراخ ضوضاء على شكل قرقعة جعلتنا نخرج من

الخيمة، كان واضحاً أن المرأة قد أوقدت ناراً فى حافة العشب الطويل، وقد امتدت تلك النار إلى مسافة أميال عبر التل والوادى، كانت عند قدميها كومة من كيزان الذرة الشامية ومن خلفها شريط من اللهب، وعلى الفور، أحسسنا أن الخيام كان يتهددها الخطر، الأمر الذى جعلنا جميعاً نندفع لإطفاء النار، أمسك هارولد جونز ببطانية واحد من المرافقين فى حين أمسكت أنا بعراًقة سرج من السارج؛ فى حين أحضر البغالة بعض الجلود، أعتقد أنها بعض مخلفات ولائم اللحم النيئ، وراح الجنود يقتلعون الجذور والأفرع الخضراء، لكن النار استعرت بفعل الريح وراحت فى شىء من المرح تلتهم كل ما يعترض طريقها فى اتجاهها نحو أعلى التل، غير عابئة بمجهودنا.

صاح ريس عمال جابرا سيلاسيً، والنار مشتعلة في منطقة خلفنا وتنتقل من منحدر إلى منحدر آخر: "لا خوف من النار على المخيم". كشفت غريزة هارولد جونز الطبيعية عن نفسها مرة ثانية، وفي غصون ثوان معدودة أخرج آلة تصويره، وكلما كنت أنظر إلى الخلف وأنا أقوم بتوجيه عمليات الإطفاء، نظراً لوجود أكواخ من القش على الجانب الآخر من التل، أرى وجهاً شغوفاً، محروقاً بفعل الشمس، وشعراً أشعث منكباً على العدسات بصورة دائمة عند نقطة جديدة من نقط الأفضلية، في حين كانت هناك أشكال لبشر مضطربين يخرجون من بين سحب الدخان، لتظهر خيالاتهم على خلفية النار المتوهجة، وغارقين من جديد في دوامة من الريح، واللهب، وحشائش تطاول أكتاف الرجال.

أخيراً جاءنا الجلا من القرى المجاورة مهرولين، ووسط هذا الصياح والصراخ قام هؤلاء الجلا بإخلاء مساحة كبيرة أمام النار، ومن بداية هذا الحاجز راحوا يقاومون النار ويمنعونها من الاشتعال.

قال هارولد جونز، وهو يحك جبهته الملطخة بالسنّاج الأسود: "أقول، أنا أخشى من انقلاب القهوة وأنا أحضر آلة التصوير، لكنها لابد أن تكون قد بردت بطبيعة الحال".

دخل شخص إلى مكان الخيام المحجوب عن مهب الريح، وكان يحاول شب النار في شيء قليل من الحطب، وغمغم ذلك الشخص قائلاً: "لا يمكن شب

نار في هذه الربح". عرفنا أن المتحدث هو جابرا جورجس وأن روحه لا تزال معنية بمأساة القهوة الضائعة.

كنا قد تجاوزنا فى ذلك اليوم موكبين من مواكب الزواج، وقد أكد لى الطباخ أنهما موكبان غير حظيظين، تذكر الطباخ ذلك الإنذار فى الوقت الذى ذهبت فيه إلى خيمتى وأنا أرتدى المُعَرِّق وقد حرَّقت النار أطراف شعرى.

قال مبدياً ملاحظة: "قلت لك إن أمراً قد يكون شيئاً حسناً لكن أضعاف هذا الأمر قد تكون تعيسة دوماً".

♦ الفصل السادس

ما يخص (النساء

يبدو أن الأبوة لم تكن لها قيمة بين البشر البدائيين الذين يسكنون بصفة أساسية الأراضي المرتفعة في إثيوبيا، وأن الزواج عند هؤلاء البشر ليس سوى رياط يؤكد على جماعية العمل وجماعية المصالح. والأطفال الذين ينتجون عن مثل هذا الارتباط ينسبون إلى الأم ويعرفون إما بأسمائهم الشخصية أو باسم الأم الشخصى دون الإشارة إلى أسماء الآباء، والمرأة، شريطة أن تكون قد قامت بنصيبها من العمل، كانت تصبح حرة في إقامة العلاقات التي تريدها هي، وأبناؤها سواء أكانوا شرعيين أم غير شرعيين يرثون أمهم، هذا يعنى أن الأسرة لا وجود لها سوى أنها نظام للنسب إلى الأم والإرث منها، وعليه فإن ممتلكات الشقيق تؤول بعد وفاته إلى أبناء شقيقته؛ لأنهما كانا من صلة الدم الأمومي نفسه، ولا تؤول هذه المتلكات إلى أبناء زوجته، التي سترث بدورها هي الأخرى من أهلها وناسها، هذه الطائفة من سكان ما قبل التاريخ كانوا يرتبطون فيما بينهم على شكل جماعات طبقاً لعمل هذه الجماعات، كرجال أحرار ونساء حرائر بلا أي فارق طبقي، نظراً لأنهم متساوون بحكم الفقر، هؤلاء السكان كانوا يعيشون على الصيد والزراعة وليست لديهم فكرة عن الزراعة إلى أن جاءهم الساميون من الجزيرة العربية وتزوجوا من النساء الزنجيات، وأصبحت مشكلة الأبوَّة أمراً قابلاً للحل عن طريق البشرة الشاحبة التي نتجت عن مثل هذا الزواج، استسلمت مسألة النسب إلى الأم هذه لمفهوم الغزاة عن الأسرة.

هذا يعنى أن حرية المرأة، غير المحدودة في ذلك الوقت، بدأت تعانى من بعض القيود، لكن المرأة في ضوء ذكرياتها عن حريتها القديمة، رفضت

الموافقة على ما هو أكثر من مجرد الارتباط المؤقت مع الغرباء، وعليه بدأ شكل قانونى محترم من نظام المحظيات الموجود إلى يومنا هذا، والذى هو فى أساسه نوع مُحسَّنٌ من التعدد غير المشروط الموجود بين أناس عاشوا وأنجبوا مهملين مثلما تفعل الحيوانات، جرى اعتباراً من فجر المسيحية فى القرن الرابع العمل على تدعيم قوة الأسرة، لكن منظومة النسب إلى الأب، الذى يعد الأب فيه المالك الوحيد لنسائه وأطفاله، وأراضيه وحيواناته تمخض عن منظومة إقطاعية تقوم على القوة، وبعد خمسة عشر قرناً من الزمان فإن الصراع لا يزال قائماً بين هاتين المنظومتين المتعارضتين، والأرجح أن ضغط النفوذ الأوروبي بنظريته التي تقوم على المسئولية الفردية والمساواة يمكن أن يشكل خطراً لهاتين المنظومتين.

ظلت الفلاحة الحبشية طوال الظروف المتغيرة التى طرأت على البلاد، فى موضع ماشية من مواشى الأحمال، فى إطار منظومة كاملة من الحقوق المدنية والمادية، البنات المسلمات يعملن إلى أن يصلن إلى سن الزواج، لكن طوال سنوات الخصوبة، التى يكن خلالها قادرات على الحمل والولادة، يندر أن يغادرن بيوتهن؛ لكن المرأة الحبشية تقع عليها مسئولية العمل المجتمعى طوال حياة تشيخ قبل الأوان وتدمر المرأة معها، المرأة الحبشية هى حمَّالة الحطب وجالبة الماء، ونظراً أيضاً لأن القرى تكون بعيدة عن مصادر الحطب ومصادر جلب الماء، فهى تكد لمسافة أميال وهى حاملة أثقالاً كبيرة على ظهرها.

العمل في إثيوبيا إما خاص بالرجال أو النساء، وعلى سبيل المثال، لا يمكن لرجل أبداً حتى ولو كان على حافة الموت جوعاً، أن يقوم بطحن الحب إلى دقيق بين الأحجار الثقيلة التي تستخدمها أمه أو زوجته، النساء هن اللاتي يقمن بإعداد كل أصناف الطعام والشراب، لكن المرأة لا يمكن أن تحكم بذبح أصغر الطيور أو الحيوانات المطلوبة للطبخ، قد تساعد المرأة في عملية الجني في الحقول، لكنها لا يمكن أن تقوم ببذر الحب أو قيادة المحراث، وإلا جدبت الأرض، في مجالها قد تكون المرأة بحاجة إلى أن تكون فنانة، نظراً لأن تفاصيل الحياة المنزلية تعد عرفاً معقداً، الدجاجة قبل تقديمها في وليمة من الولائم، يجب تقسيمها إلى اثنى عشر قسماً، بحيث يناسب كل منها ضيفاً

من الضيوف حسب اختلاف مقاماتهم، مسألة قيام شخص غير مهم بأخذ الجناح تعد أمراً لا يغتفر، ومسألة أن يأخذ الجلد أيضاً تعد جريمة فى حق ربه البيت لأن الجلد هو نصيبها، وبالطريقة نفسها فإن كل قسم من الثور أو الشاة مخصص لاستعمال خاص، والأكتاف فقط هى التى يمكن أن تستخدم فى صنع الحساء؛ الرأس، والأقدام، والأمعاء هى من مخصصات العبيد؛ أما الضلوع فتقدم للشيوخ أو لقتلة وصيادى الأسود.

المرأة أيضاً هى التى تضفر السلال متعددة الأنواع التى تصنع من القش، والمرأة أيضاً هى التى تخمِّر مشروب التدج والبيرة، وهى أيضاً التى تصنع الجرار الطينية التى توضع فيها هذه المشروبات، والمرأة أيضاً هى التى تغزل الخيوط من ألياف القطن، لكنها لا تستطيع القيام بعملية النسج، لأن هذه الصناعة من صميم عمل الرجال وحدهم أو من اختصاصات بعض العائلات وأحياء بعينها، التطريز والحياكة هما أيضاً من أعمال الرجال.

الجنسان يفترقان بحكم التقاليد في الحياة كما هما مختلفان في العمل، في المآدب والاحتفالات الأخرى يقوم رب البيت باستضافة الضيوف من الرجال في كوخ مستقل أو في حوش على شكل خيمة، في حين تقوم الزوجة على أمر الإشراف على مأدبة خاصة بالنساء، في الكنائس يجرى دائماً تعليق ستارة للفصل بين الأجزاء المختلفة المخصصة للرجال والأجزاء المخصصة للنساء، في الاجتماعات العامة بيدو الجنسان وكأنهما غير واعيين لبعضهما البعض قدر المستطاع، اللهم إلا إذا كانوا أقرباء يلتقون أو يتفرقون، الزوج والزوجة لا يكشفان عن حبهما على الملأ، من العار أن يقبِّل أحد الآخر أو أن يضع يده على كتفه أو ذراعه إشارة إلى الحب، ومع ذلك فإن القبلات هي أكثر أشكال التحية شيوعاً في الحبشة، فيما بين الأقارب تطبع القبلة كاملة على الفم، وتكرر عدة مرات بسرعة، فيما بين الأصدقاء الحميمين نجد أن طريقة العناق واحدة، لكنها من الناحية العددية تقل أو تزيد حسب الحميمية القائمة، المعارف يقبلون بعضهم البعض في الخد الأيمن، أما رجال الدين فتجرى تحيتهم على الكتف الأيمن، أما الشيخ أو الرئيس فيجرى تحيته جثياً على الركبة، والتابع عندما يحيى سيدة عظيمة يقوم بتقبيل يدها بعد كل جملة. ومع ذلك، عندما يعود زوج من المقناص أو من الحرب، فإن زوجته يجب ألا تذهب للقائه عند الباب، ولابد من بقائها داخل المنزل وتتظاهر بأنها مشغولة بأعمالها المعتادة، وإذا ما كانت من مرتبة أقل من مرتبته، فإنها قد تتحنى، عندما يكونان لوحدهما، وتقبل ركبته، إما إذا كانت من مستواه فإنها عليها أن تحييه وترحب به، دون أن تمد يدها، إيحاء بأنها مشغولة في أعمالها.

المرأة هي التي توكل إليها مسألة الضيافة إلى حد كبير نظراً لأن الضيافة تعد من أسياسيات الحياة الحبشية، مفهوم هذه الضيافة يرجع إلى أيام ما قبل التاريخ، يوم أن كانت وسائل الحياة مشاعاً بين الجماعات التي تقاسمت العمل وثمار هذا العمل، قد يساء إلى هذه الضيافة بواسطة صغار المستولين الفقراء، وقد لا تكون الضيافة على ما يرام إذا ما تعلقت بالأجانب، وذلك بدافع الرغبة في الكسب، لكني أرى أنها لا تَمُنَّعُ عن الفقراء، سواء أكان هذا الفقير صديقاً أم غريباً، عندما يطلبها باسم السيدة مريم (العذراء). رئيس كل قرية من القرى هو المسئول عن الدرجو Dergo، وإن شئت فقل الضيافة الحكومية التي تقدم للرحالة، سواء أكانوا مواطنين أم أجانب، ومبلغ هذه الضيافة يقدر حسب منزلة من يتلقاها، لكن أنا أتصور أن مبلغ الضيافة هذا يتباين طبقاً لكرم الحي والصناعة التي تقوم بها نساء هذا الحي، وبخاصة أنهن يتعين عليهن إعداد الخبز الوطني الحبشي، وهن اللاتي يقمن بتخمير مشروب التلا Talla أو التدج، وهن اللاتي يقمن بخلط الصلصات والتوابل، وهن اللاتي يقمن بتقطيع الحطب، وجلب الماء (الذي يعد أهم الهدايا)، وهن اللاتي يبحثن عن البيض، وهن اللاتي يقمن في حالة استضافة شخصية كبيرة بإعداد طعام مكون من اثنى عشر صنفاً مختلفاً، في حين يقتصر عمل الرجال على اقتياد بعض الحيوانات وتوفير الحبوب والحشائش، هذه هي الضيافة العامة التي يجرى فرضها كنوع من أنواع الضرائب من قبل الحكومة المركزية، كما يجري فرضها على المستوى الإقليمي من قبل الراس أو الدجيز ماتش.

تَعَهَدُ القرية بالضيافة الخاصة في معظم الأحيان، إلى إداريين محددين يجرى اختيارهم من بين أكثر سكان القرية احتراماً، يشغل هؤلاء الإداريون هذا المنصب الشرفي فترات تتردد بين الأشهر والسنين، وهم يقومون على

أمر تنظيم تقديم الطعام وعلف الماشية طبقاً لإمكانيات كل أسرة من الأسر، وهم يوزعون الطعام، لا على الغرباء والرحالة وحدهم وإنما على كل فرد من أفراد المجتمع الذين يكونون بحاجة إلى مثل هذا الطعام، وعندما يقوم رئيس من الرؤساء أو شيخ من الشيوخ بزيارة الحي، يضطر ذلك المسئول عن الاحتفالات إلى توجيه نداء خاص إلى جميع المصادر المحلية للقيام بإطعام الخدم والجنود، لكن مهمة هذا المسئول الرئيسية تتمثل في توفير الإعاشة في حالات المرض، وفي حالات الولادة، وفي حالات المآتم أو الأحداث الأخرى التي تمنع الأسرة من القيام بأعمالها اليدوية.

يجرى التأكيد في كل حادث من أحداث الحياة العائلية على الضيافة والتعاون في القرية، وعلى سبيل المثال، إذا ما وُلد طفل، فإن الجيران لا يقومون فقط بتقديم الطعام بكل أنواعه طوال فترة نفاس الأم، وإنما يقومون أيضاً بالأعمال المنزلية التي يتقاسمونها فيما بينهم، كما يقومون أيضاً عن طيب خاطر بمهام القابلة والممرضة أيضاً، ويظهر هذا التعاون المنطقي بشكل أوضح عند الزواج، كل من تجرى دعوته لحضور حفل الزواج يتحتم عليه إرسال هدية مالية (نقوط) أو ذبيحة إلى والد العروسة، ويجب ألا تقل قيمة هذه الهدية عن دولار، لكنها في أغلب الأحيان تكون عشرين أو ثلاثين دولاراً، ونظراً لأن مثل هذه الهدايا تشكل بائنة العروس عند زفافها أو تدعم هذه البائنة، فهي تسهل مشكلات والد العروس الذي يتعين عليه الحصول على أزواج لبناته العديدات، هذه البائنة تجعل الأب يبقى على أفضل علاقاته مع أزواج لبناته الهدايا تقدم أيضاً في المآتم حتى تتمكن الأسرة المنكوبة من إطعام العديد من المُعزين، لكنها تعد شكلاً من أشكال القروض التي يتعين ردها بالمثل في حالات الزواج أو الوفاة في أسرة من سبق وقدم تلك الهدايا.

من الواضح أن دعوات كثيرة يمكن أن توجه إلى متلقى الهدية، وعلى سبيل المثال، إذا حصل المتلقى على ثور هدية زواج لولده الوحيد من صديق أعطاه الله أربع بنات، فإن المتلقى يتعين عليه رد ثور من الوزن نفسه في زواج كل بنت من هؤلاء البنات الأربع، وإذا لم يقدم المدعو أو يرسل شيئا أو هدية تناسب مقامه، وجب استدعاؤه أمام الرئيس المحلى وتغريمه مبلغاً قد يصل إلى اثنى عشر دولاراً.





عندما يبلغ الزوجان سناً مناسبة يصبح من حقهما أخذ جزء من أرض الأسرة، تكفى مساحته لإعطاء منتوجات كافية لإعالتهما، هذه الأرض يجرى اختيارها بواسطة محكمين معينين من قبل الحى أو المنطقة، التى يكون من حق الزوج فيها قطع ما يكفى من الأخشاب لإقامة بيته، ويقوم الأصدقاء والأقارب بنقل هذه المادة إلى الموقع الذى سيبنى الزوج فيه البيت، أما العروس فتقوم بعون من أمهات القرية بتجهيز الطعام والشراب، وبلا أى تعويض عن العمل يتجمع الجيران كلهم لبناء المسكن في يوم واحد؛ هذا المسكن سيكون أيضا إسطبلاً وجرناً للأسرة الجديدة، وعليه فإن حياة القروى الحبشي منذ مولده إلى مماته، وفلاحته لأرضه، والتعاون الذي يتعين الكوخ الذي يتقاسمه ذلك القروى مع الماشية والدواجن، هذه البساطة الأبوية تحتم أن تكون هناك حياة عائلية مثالية، لكن جماعية أشكال الزواج، والطلاق، والمحظيات وكذلك العبودية كل ذلك هو الذي يفسد هذا النوع من الحياة.

ربما يكون الزواج في الحبشة بمتابعة أبسط الارتباطات وأقلها قيوداً، أو قد يكون أكثر العقود الدينية والقانونية تعقيداً، تعد الارتباطات المشروعة بين الأحرار والعبيد أمراً مشيناً، وخاصة السيدة التي تتزوج عبداً، هذه السيدة، يجرى تجريدها من مكانتها لتكون من مكانة زوجها، في بعض الأحيان قد تتزوج الإماء المحررات أو العبيد المحررون من رجال أحرار أو نساء حرائر، لكن ذلك يكون دوماً عرضة للرفض وعدم القبول، هناك بعض الحرفيين الذين لا يتزوجون من خارج طبقتهم الاجتماعية، ويرجع السبب في ذلك، إلى الشكوك التي تدور حول هؤلاء البشر ومسألة تحضيرهم لأرواح الموتى أو القوى الشريرة الأخرى، يدخل ضمن هذه الفئة كل من بائعى المجوهرات والحدادين، وعازفي الكمنجات، وعازفي النايات والأعواد، وإذا ما تزوج أحد هؤلاء الحرفيين أو الموسيقيين من امرأة فلاحة أو امرأة تعمل بالتجارة، فإن أبناء هذه المرأة يوصفون بأنهم ورثوا التلوث الذي في دم الأم.

الخطبة في الحبشة لها أيضاً مهابة مثل الزواج تماماً، والخاطب عندما يوافق عليه والد العروسة يتحتم عليه إحضار ضامن واحد أو أكثر، يكون

مسئولاً من الناحية المالية عن ذلك الذى يمكن اعتباره تعاملاً دبلوماسياً أو تجارياً، الحبشة فيها أربعة أنواع من الزواج، الزواج الدينى، الذى يندر انتهاجه أو الموافقة عليه اللهم باستثناء القساوسة ورجال الدين، وقلة قليلة من العائلات الكبيرة، وهذا النوع من الزواج يستحيل فصمه إلا للأسباب الواردة عند فيثا نجاست -:Fetha Negast

اذا ما وافق الزوج والزوجة على أن يصبح أحدهما أو كلاهما راهباً
 وراهبة.

٢- إذا كان أحدهما أو كلاهما غير قادر على إنجاب الأطفال.

٣- إذا ثبتت خيانة أى منهما؛ لكن يجب أن يكون جنوح الزوج على نحو يعد فضيحة.

٤- إذا ما حاول أحدهما إزهاق حياة الآخر.

٥- الصدع الموجود قبل الزواج والسابق إهماله من جانب الطرف الآخر.

٦- إذا ما أصيب أحدهما بالبرص أو داء الفيل.

٧- إذا ما اتهم أحدهما الآخر زيفاً وعلى الملأ بالخيانة.

۸- إذا ما حكم على أى منهما بالسجن لفترة طويلة.

من حيث التنفيذ وبناء على موافقة أبونا Abouna، وفي ظل تداول العديد من دولارات ماريا تريزا يصبح الطلاق من الزواج الديني أمراً ممكناً، باستثناء القساوسة، المشكلة هنا تتمثل فيما إذا أبرموا عقوداً للزواج مع من هم أقل منزلة، والتي عادة ما تتم بواسطة أولياء الأمور أو الأوصياء، القانون الديني يتطلب موافقة الطرفين، وعليه إذا كانت الزوجة قد تزوجت عندما كانت طفلة، يصبح بوسعها، في حال حصولها على الأغلبية، طلب الطلاق إذا ما رغبت في ذلك، وذلك من منطلق عدم مسئوليتها عن تصرفات الأوصياء، وهنا لا يكون أمام الزوج من بديل سوى أن يظل أعزب أو أن يخرج من الرهبنة (本) Priesthood .

[★] حكوا لى فى اليس أبابا عن شكل من أشكال الزواج الدينى الملزم إلى الأبد، وذلك منعا للأرمل والأرملة من الزواج مرة أخرى؛ لكن قساوسة دبرا ليبلنوس هم والسلطات الخاصة بالأعراف الحبشية، مثل كاسترو أو بوليرو pollero، لا علم لهم بهذا الطقس.

فيثا نجاست صارم فى قيوده التى يفرضها على الزواج، المرأة التى تطلق بسبب الخيانة يمكن أن تتزوج من جديد إذا ما تابت عما فعلت، الزواج من سيدات يزيد عمر الواحدة منهن عن الستين أمر ممنوع، والأرملة لا يمكن أن تتزوج إلا بعد فترة حداد مقدارها عشرة أشهر على الزوج السابق، بوسع الأب إجبار ابنه الماجن أو ابنته الماجنة على الزواج، والفتاة الفاضلة التى تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً يصح لها أن تطالب بأن يكون لها زوج ويجرى إعطاؤها بائنة، الزواج الثانى أمر مرفوض، ويعد الزواج الثالث أمراً مشيناً، ومن يُقبل عليه لا ينضم إلى سر القربان المقدس سوى ثلاث مرات فى العام، الرجل والمرأة يمكن أن يتزوجا بخطاب أو توكيل، لكن الزواج للمرة الثانية يجب أن يكون مصحوباً بصلاة لطلب العفو، والزواج للمرة الرابعة أمر مرفوض تماماً، بل وينظر إلى الأطفال الناجمين عنه على أنهم ليسوا أبناء شرعيين.

فيثا نجاست، معقد أيضاً في المسائل الخاصة بالقانون، والمجتمع، والطب والدين، وهو يمنع الزواج من المصابين بالبرص، ومن الطواشي، والمجانين، والمصابين بداء الفيل، يجيز فيثا نجاست عدم زواج أقارب الدم إلى الجيل السابع، كما لا يجيز أيضاً زواج الوصي أو القاصر، أو الأخ بالرضاع والأخت بالرضاع، أو الأقارب الروحانيين الذين من قبيل كفيل المُعمّد، والغليون أثما يمنع أيضاً زواج كفيل المعمد من أخت الغليون أو أمه، سلف الارتباطات الروحية ممنوعين من الارتباط إلا بعد الجيل الثاني عشر (المهم)، فيثا نجاست ينص أيضاً على أن أولياء أمور الطفل، هم وآباء العماد لا يجوز لهم أن يتعاشروا جنسياً في ليلة تعميد الطفل.

إذا كان الزواج الدينى أمر نادراً وغير شعبى فى الحبشة – وربما كان ذلك ناتجاً من أن النساء يتذكرن حريتهن الضاربة فى القدم وأنهن لسن على استعداد لربط أنفسهن برجل واحد مدى الحياة، فإن القساوسة مدعوون إلى مباركة الزواج المدنى Bercha، الذى يعد أكثر أنواع الزواج شيوعاً بين

الغليون، بفتح الغين وسكون اللام وضم الياء، هو ابن أو ابنة في العماد عند النصاري. (المترجم)

[🖈] يمكن لأبينا الترخيص بذلك بعد الجيل الثالث.

العائلات مختلفة المكانات، في بعض الأحيان قد تتم الخطبة أمام القسيس وبإقرار منه، وفي مثل هذا الظرف يقوم الخطيبان بتبادل "الدبل" وأيديهما متشابكة فوق الصليب، يجب اختيار يوم إعلان الخطوبة، بعناية فائقة، وقد جرى العرف على استشارة أحد القبَّالة (*) القدامي في اختيار ذلك اليوم، وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار خصائص وإمكانيات كل يوم من أيام العام:-

اليوم الثاني من يناير

- لا تغادر بيتك، قد يحدث لك سوء.

اليوم الخامس من يناير

- احتفظ بروحك وجسدك في حال طيب، هذا اليوم خطر.

اليوم السادس من يناير

- اذهب حيثما تشاء بلا خوف.

اليوم الحادي عشر من يناير

- لا تقم برحلة، سيهزمك أعداؤك.

اليوم الثالث عشر من يناير

- عيد الملائكة، صلّ، وسوف يعينونك.

اليوم السادس عشر من يناير

- أفضل الأيام، المريض سيشفى، إلخ.

اليوم السابع عشر من يناير

- لا تسر بالقرب من الماء، إلخ.

اليوم الواحد والعشرون من يناير

- افعل كل ما تريد.

اليوم السادس والعشرون من يناير

- كل واشرب مع أصدقائك، اليوم يوم صداقة.

 [★] القبال: احد العارفين بالموروث المسيحى؛ والأصل فى هذه الكلمة هى الكلمة العبرية Quabbalah بمعنى – تقاليد او موروث. (المترجم)

قلة قليلة من الناس هم الذين يلمون إلماماً تاماً بهذه الرسالة المملة، والقساوسة غير راضين عنها، لكن كل من يستطيع تكرار هذا الأمر بكامله سواء أكان علمانياً أم رجل دين، تتأكد أهليته ويتطلع إلى زيادة هذه الأهلية.

تعد الخطبة ملزمة إذا ما أعلنت من قبل والد العروس أو وصيها، وفي حضور أولياء أمر العريس وضامنيه، وعندما تؤكد بالحلف باسم النيجوس (أم) Negus. وعندما تؤكد بالحلف باسم النيجوس (أم) Negus. والغريس في الخطبة لخطيبته مبلغاً من المال وبعض الهدايا مثل: الملابس، والزينيّات، والزيت، والعطر، والبخور، واعتباراً من تلك اللحظة يصبح الضامن لحل المشكلات في الأسرة المرتقبة، هذا الضامن أصبح يتحمل مسئولية احترام حقوق العروس، وأنها ينبغي أن تُطعم وتُكسي وتسكن في مسكن مناسب، وألا تُساء معاملتها، ومن هنا تجري إحالة المنازعات الزوجية إلى ذلك الضامن، الذي يتصرف تصرف المرشد والفيلسوف والصديق، كما يعمل أيضاً مؤكداً أيضاً على قدرة العريس على الوفاء بالديون كلها، وإذا ما انفصمت عرى هذا الزواج يقوم والد العروس بإجبار الضامن على دفع ثلاثة دولارات كل ثلاثة أيام إلى أن يقوم زوج ابنته بتدبير الأمور على النحو الذي يرتضيه والد الزوجة، وهنا يتحتم على العريس رد المبلغ الذي دفعه الضامن مضاعفاً جزاء له على سوء تصرفه.

تعد إقامة مأدبة الطعام إشارة إلى إقرار مراسم الخطبة، وبهذه المناسبة، وفي المناسبات المماثلة التي تلى ذلك يطلب والد العروس عدداً من الذبائح وجوالات الحبوب من أسرة العريس، لكن والد العروس يتعين عليه في المقابل تقديم هديه نقدية يجرى خصمها من مبلغ البائنة (المهر) التي جرى الاتفاق عليها، قد تتبع مأدبة الطعام بالرقص في بعض الأحيان، لكن الرجال والنساء في جانبين مختلفين من الحوش، ولا يلامسون بعضهم بعضاً أثناء الرقص، في البداية يروح الرجل يدور حول شريكته في الرقصة في حين تبقى هي مثل قمة من القمم، ثم يقومان بعد ذلك باتخاذ وضعين متضادين يحدثان خلالهما تموجات تتحول إلى الوضع الحلزوني باستثناء سمك الثياب وتعددها ينتهى ذلك التكرار الممل بنوع من العنف المنضبط الذي يعد أثراً من آثار

النيجوس: شراب حلو من النبيذ والماء الساخن وجوز الطيب وعصير الليمون. (المترجم)

يجرى الإعلان عن الزواج المدنى على مأدبة الغداء التي يتناول الرجال والنساء الطعام فيها في مكانين مختلفين، يحدث المزيد من الرقص، ويطلق الكثير من الأعيرة النارية، في حين يقوم أحد الأشخاص المستولين بإعداد قائمة بالهدايا التي يحضرها الضيوف، بعد ذلك، يجرى لف العروس بعباءة، مظلة (شملة) Chamma وقناع من قماش الموسلين بحيث لا يظهر منها شئ، ثم تَقَتاد بعد ذلك إلى حوش الرجال ويجرى إجلاسها على مقعد، في الوقت الذي يروح فيه والدها يعد المهر نقداً أو برءوس الماشية، كما يعدِّد والد العروس أيضاً الأشياء الواردة في قائمة الأدوات المنزلية التي يهديها والدها إليها، ثم يسألها والدها بعد ذلك إن كان حماها يوافق على قبول هذا المهر، وبعد أن يحصل الأب على رد إيجابي من ابنته يصبح بوسعه، إن هو أراد ذلك، طلب ضامن جديد، وما لم يتم الاتفاق على غير ذلك مسبقاً وأمام الشهود في تلك اللحظة من لحظات الزواج، تصبح ممتلكات العروسين مشتركة فيما بينهما، وعند الطلاق يجرى تقسيم هذه المتلكات بينهما بالتساوي عن طريق ثلاثة محكمين في وجود الضامنين وأعضاء الأسرتين، تصل مسألة المساواة إلى حد التصلب، إلى حد أن السجاجيد بجرى قطعها إلى نصفين والقماش الخام، وكذلك الملابس يجرى أيضاً تقطيعها إلى نصفين، وإذا ما كانت هناك غلاية واحدة، فقد يجد الزوج نفسه حاصلاً على الغلاية في حين يكون غطاء الغلاية من نصيب الزوجة!

فى بعض الأحيان، قد يأخذ الزوج زوجته بعد الزواج، ويذهبان لزيارة أهلها حتى يروا أنها لا تساء معاملتها.

فى الحبشة شكل ثالث من أشكال الزواج، لا هو بالزواج الدينى ولا بالزواج المدنى، وإنما هو نوع من الزواج المشروط؛ وهذا الشكل من الزواج يشيع بين الأسر التى تود أن يكون لها وريث، دون أن تتكبد نفقات الزواج بصورة متكررة، هذا الزواج التجريبي لا يدوم عادة أكثر من عامين دون أن يصبح شيئاً عادياً عن طريق الاحتفال المدنى Bercha، لكن الإقرار بهذا الزواج والاعتراف به يتم فى أضيق الحدود المكنة.

الشكل الرابع من الزواج هو ما يسميه الأحباش زواج الدَّموز Dumoz، الذي هو نوع مقنن من المحظيات. هذا الزواج يتم لفترة غير محددة وبشروط

محددة، ويجرى الاحتفال بهذا النوع من الزواج مثل الزواج المدنى، و"الزوج" في هذا النوع من الزواج يوافق أمام الشهود على العيش أميناً ومخلصاً ومتحداً مع المرأة التي اختارها، وأن يطعمها ويكسوها وأن يعطيها مبلغاً كل شهر أو كل عام، ويكون الضامن مسئولاً عن الوفاء ببنود ذلك الاتفاق، وغالباً ما يقوم قس من القساوسة بمباركة هذا الزواج المؤقت، في بعض الأحيان، قد يتحول زواج الدُّموز إلى زواج مدنى Bercha وذلك عندما يكبر العاشقان وتربط بينهما المصالح الإنسانية أو المالية، على شكل أطفال أو بناء على تجميع المبلغ الناجم عن الزواج المؤقت.

هناك فئة أخرى من النساء الحبشيات المحترمات يطلق عليهن اسم "محظيات الرؤساء والشخصيات المهمة" Sabaiti Nassen، اللاتى يعشن فى منازل طيبة ويحصلن على أجور طيبة، ويتمتعن باحترام كبير مثل الزوجات القانونيات، أو شريكات الحياة من بين الفقيرات المعدمات اللاتى ليس لديهن شيء يشاركن به فى المال المشترك، ولذلك فهن يعشن مقدرات ومحترمات مع عشاقهن إلى أن يدفعهن تغير حظوظهن إلى الزواج المدنى أو الارتماء فى أحضان رجل آخر، أما المومسات فهن من طائفة مختلفة، لكنهن يحظين باحترام كبير فى الحبشة— التى اعتادت على مر العصور على الحرية أو انعدام الحرية الأخلاقية لنسائها— دونا عن سائر البلدان الأخرى، والمومسات الحبشيات، بعد أن يكسبن بائنات كبيرة، يتزوجن فى معظم الأحيان، ويعشن عيشة شريفة ولا يتركن أية شائبة على صفحات أطفالهن، مشاع الملكية لا يعترف به إلا فى الزواج الدينى والزواج المدنى فقط.

سبق أن أتينا على ذكر الأسباب الداعية إلى الطلاق الدينى، أما فيما يتعلق بالطلاق فى الزواج المدنى، فإن الأسباب قد تكون متسمة بالطيش والرعونة، وقد تكون مجرد نزوة من جانب المرأة، أو قد تكون مجرد التغاصى عن القيام ببعض الواجبات المنزلية، أو قد تكون الأسباب متعلقة بإهمال الزوجة لحماها، أو قد ترجع إلى رفض الزوج تقديم هدية لزوجته، أو ميلاد طفل ميت، الأمر الذى يجلب الشؤم للعشيرة كلها، قد تتغير أو ميلاد طفل ميت، الأمر الذى يجلب الشؤم للعشيرة كلها، قد تكون السبب أيضاً راجعاً إلى نشوء نوع من الصراع الدموى، ونظراً لأن الزواج

أمر ليس من شأن العريس والعروس، باعتباره عقداً بين والديهما، فإن هذين الاثين هما اللذان يرتبان عملية الطلاق، إذا ما انفصل زوج وزوجه، يكون من حق كل منهما، عند الطلاق أن يمنع الطرف الآخر من الزواج من شخص آخر يجرى تحديد اسمه أمام الشهود، إذا ما رغب رجل في الطلاق، فما عليه سوى أن يرسل زوجته إلى منزل والدها ويطلب منه الطلاق، فما عليه سوى أن يرسل زوجته إلى منزل والدها ويطلب منه اللتان ترغبان في الطلاق، فإن الزوجة تعود إلى منزل والدها بعذر كاذب، ويقوم الوالد بإجبار الضامن على دفع تعويض يومي إلى أن يقوم صهره بتحديد يوم لتقسيم المقتنيات، الذي يجب أن يتم في حضور ثلاثة محكمين، في معظم الأحيان، تعود الزوجة، طوال فترة التعليق هذه، إلى بيت زوجها لتطبخ له، والعمل على راحته بشكل عام! وإذا ما طلقت المرأة لسبب غير خطير، أو إذا ما رغبت أرملة عن الزواج، يكون من حقها السبب غير خطير، أو إذا ما رغبت أرملة عن الزواج، يكون من حقها الإعاشة في الإعاشة على حساب زوجها السابق أو أسرته، وتتمثل هذه الإعاشة في إعطاء هذه الأرملة قطعة من الأرض تزرعها وتعيش منها.

تتص تعاليم فيثا نجاست على بلوغ الرجل سن العشرين والبنت سن الثانية عشرة قبل أن يتزوجا، لكن هذا الشرط لا يطبق إلا في الزواج الديني، الذي يعد أمراً جد نادر إلى حد أن الإمبراطورة نفسها تزوجت أربع مرات، ولها ما لا يقل عن زوجين لا يزالان باقيين على قيد الحياة، وقد لجأت إلى الكنيسة في المرة الأخيرة فقط عندما تزوجت راس جوكسا Ras Gooksa. الزواج المدني لا يرتبط بسن معينة، لكن الأبناء لا يتزوجون إلا عندما يبلغون سن السابعة، العمل الذي يكون من هذا القبيل يتم بالاتفاق الودي بين الوالدين اللذين تقوم الزوجة بتقسيم وقتها بين كوخيهما، حتى تتمكن من معرفة عريسها دون أن تنسى أسرتها، عندما تبلغ البنت سن الثانية عشرة تذهب للعيش مع زوجها، الذي يبقى في منزل والده طالما أنه لا يزال قاصراً، ويقوم والده بإدارة البائنة إلى أن يصبح للزوجين بيتهما الخاص، وطالما أن العروسين طفلان ومن سن واحدة ويتزوجان بهذه الطريقة، فإن العادات تعمل العروسين طفلان ومن سن واحدة ويتزوجان بهذه الطريقة، فإن العادات تعمل عملها لصالحهما، لأن العروسين إذا ما ربيا جنباً إلى جنب، فإن ذلك يتيح لهما فرصة الاهتمام والاعتناء ببعضهما البعض، ولن تكون هناك مبررات

للإصابة بعدوى ارتباطات النضج المبكر غير العادية التى تسهل فى ظل الإهمال الحياتي وعدم المراقبة، وقضاء اليوم بطوله في الحقول والغابات.

على كل حال، فإن الرجال الذين في منتصف العمر، يتخذون لأنفسهم، في كثير من الأحيان، زوجات صغيرات، أو قد يتزوج الأولاد نساء عمر الواحدة منهن يفوق عمر الصبى مرتين أو ثلاث مرات، هناك بنات تتراوح أعمارهن بين اثنى عشر وخمسة عشر عاماً تزوجن زواجاً قانونياً مرات عدة بسبب مشاحنات وطموحات أولياء أمورهن، هذا يعنى أن هؤلاء البنات ربما يكن قد ولدن أطفالاً مليصين (ألم) وإن شئت فقل ميتين، وربما كان سبب ذلك هو ضعف بنية هؤلاء البنات، وربما كان السبب أيضاً الارتفاع الكبير للمناطق التي يعشن فيها، وربما كان سوء التغذية سبباً آخر من أسباب هذه المشكلة، التي تصيب سكان الجبال، هذا الإجهاض يهد قوى هؤلاء الزوجات، ومع ذلك يتعين عليهن إنفاق ما تبقى لهن من قوة في العمل في المزارع أو الغابات كي يتعين عليهن إنفاق ما تبقى لهن من قوة في العمل في المزارع أو الغابات كي مرتفعاً، وربما كان ذلك راجعاً إلى العمل البدني الذي تقوم به النساء، تعد الأسرة المكونة من ثلاثة إلى أربعة أفراد شيئاً نادراً في هذه البلاد؛ معدل وفيات الأطفال مرتفع جداً، والأمراض الوراثية المربعة واسعة الانتشار هنا.

الختان هنا يجرى للذكور وللنساء أيضاً، وربما كان السبب فى ذلك الحد من الرغبة الجنسية التى لا تناسب الحياة الشاقة التى تحياها هؤلاء الفلاحات، قامت الكنيسة فى فترة لاحقة بإلغاء مسألة ختان البنات، لكن التشوه الخلقى الذى لدى الحبشيات، والذى دفع الرجال للبحث عن زوجات من خارج البلاد، جرى رفع حظر ختان الإناث، على الرغم من أن عملية الختان هذه، تجرى فى بعض الأماكن بطريقة بدائية وغير متحضرة وبواسطة أعضاء من الأسرة المحلية، يقال إنهم أخصائيون فى هذه العملية بحكم الوراثة، فإنها تعد احتفالاً يدعى إليه الأصدقاء والقساوسة، وبعد إجراء العملية هذه يُتُرك الطفل للطبيعة، اللهم إلا إذا أوحى صراخه بحتمية وضع مقئ على الجرح مضافاً إليه الفلفل الأحمر المحمرا

تُخلع أسنان الطفل اللبنية في بعض الأحيان لتقوية الأسنان الأساسية،

[🖈] المليص: الطفل الذي يولد ميتا. (المترجم)

ويبدأ تعليم الطفل اعتباراً من سن القبّالة (ألم)، أى عندما يكون عمره أربع سنوات وأربعة أيام، هذا التعليم ليس كثيراً، لأن الحبشى العادى لا يعرف سوى نسب أسرته ومجرد أجزاء صغيرة من الكتب المقدسة، والحبشى يستخدم كاتبا بالأجر ليقوم بعملية الكتابة التى يحتقرها الحبشى ويستخدم بدلاً منها ختما عليه اسمه، أو قد يستعمل بصمة إبهامه، على سبيل التوقيع، بلوغ الشاب سن الحكم، وما يترتب على ذلك من حصوله على حقوقه المدنية يعد من المناسبات الاحتفائية التى يجرى خلالها مساندته ودعمه من قبل أربعة من رفاقه الأكبر منه سناً، حيث يقومون بحمايته من عين الحسود ويعملون على تلبية احتياجاته، يرتدى الشاب بعد ذلك مظلته (شملته) Chamma بصفته رجلاً، وتكون الشملة (المظلة) بلا فتحة من الجنب مثل العباءة، وإذا ما كانت أسرة الشاب ثرية، فإنه يشترى غطاء رأس عالياً مصنوعاً من القماش أو الحرير حسب منزلته الاجتماعية.

كانت القوانين المتفق عليها في الحبشة القديمة شديدة الصرامة، ولم يكن أحد يحمل المظلة أو الشمسية سوى الكبار، أما الآن، فإن المظلات الصغيرة المصنوعة من العشب والشبيهة بالباغوا (المله الله المسلحة مثل المظلة اليابانية، يمكن شراء الواحدة منها بنصف دولار من أسواق المدن، ولذلك فهي تشيع على حد سواء بين الفلاحين (العبيد) والمواطنين، أما المظلة الأوروبية فلا تزال مقصورة على النبلاء والقساوسة، وبخاصة في الجزء الشمالي من الحبشة، اللون الأحمر هو لون الحكام، وفي وقت من الأوقات كانت الشملة (المظلة) ذات الخطوط الحمراء محرمة على عامة الشعب. هذا التقليد جرى التتحي عنه، مثلما حدث للمظلة من قبل، لكن الأميرات هن اللاتي يلبسن بناطيل قرمزية اللون، كما أن الإمبراطور وحده أو كبار القساوسة هم الذين يحملون مظلات خفيفة من اللون الملكي ولها حواف مذهبة، السيدات يعملون مظلات خفيفة من اللون الملكي ولها حواف مذهبة، السيدات العظيمات يميزن بالتطريز الذي يكون حول عنق وأكمام "قمصانهن"، التي تكون أطول من قمصان الرجال وضيقة الأكمام؛ ويعرفن أيضاً بحليهن تكون أطول من قمصان الرجال وضيقة الأكمام؛ ويعرفن أيضاً بحليهن

القبّالة: يصح فيه ايضاً – القبلة – اى بفتح القاف والباء، وهو تعليم نقلى تصوفى عند اليهود.
 (المترجم)

^{*} معبد بوذى مكون من عدة طوابق. (المترجم)

الذهبية، وأغطية رءوسهن المصنوعة من الحرير الأسود، ولها أطراف وحواف من الذهب، كما يُعرفن أيضاً بسراويلهن كثيفة التطريز، والتي لا يظهر منها، أثناء سفرهن، سوى شئ بسيط جداً من تحت غطاء خارجي شامل من الصوف الأسود، ومن فوقه تلافيح، وقبعة من اللباد، الحرير والمطرزات أشياء محرمة على عامة الشعب، بغض النظر عن الثراء، وهناك بعض المقاود وأقمشة السُّرج والمعدات ممنوعة أيضاً على عامة الشعب، وعليه هناك رغبة عامة، في التباهي بالعلاقة بالأسر الكبيرة، بغض النظر عن بعد مثل هذه العلاقة أو القرابة.

الأنساب لها أهمية قصوى بين الحبشيين، لا من منطلق التفاخر والمباهاة الشخصية، وإنما لأنها دليل ملكية الأرض، وعلى القرابة، والنزاعات الدموية، واحتمالية المرض الوراثي، مسائل النسب هذه لها أهميتها في الخطبة، نظراً لحظر الزواج من الأقارب البعيدين، سواء أكانت قرابة عن طريق الدم أم نوعاً من القرابة الروحية، القانون، بطبيعة الحال، لا يلقى بالا لهذه القواعد الدينية، لكن يندر تكسيرها، نظراً لأن المذنب أو الآثم يجرى حرمانه من الكنيسة على الفور، والنتائج المادية التي تترتب على هذا الحرمان يمكن أن تكون خطيرة مثل الفضيحة تماماً، لأن الزوجين سيجرى استبعادهما من كومنولث القرية ولن يقيم معهم أحد من المؤمنين أية علاقات سواء أكانت شخصية أم تجارية.

مسألة هجر أب الاعتراف، الذى يتقاسمه أو يشارك فيه كل من الزوج والزوجة، يمكن أن تكون كارثة على أية عائلة أو أسرة من الأسر، نظراً لأن أب الاعتراف يكون معنياً بطريقة لا انفصام لها، وبآمال هذه الأسرة، ومخاوفها، وخرافاتها، ومشاحناتها ومصالحاتها، ورفاهها وبلائها.

إذا ما اكتشف زوج وزوجة قرابة بعيدة، ومن ثم غير معروفة، فذلك يعنى أن ارتباطهما أصبح مفكوكاً، لكن ذلك الفك لا يؤثر على الأطفال، الذين ستكون لهم الحقوق نفسها سواء أكانوا شرعيين أم غير شرعيين. وسواء ولد هؤلاء الأبناء من أمة أو أميرة فإنهم متساوون في الميراث، اللهم باستثناء مناطق التجرى Tigré، التي للقساوسة عليها سلطان كبير، وعليه فإن الأفضلية تكون للأطفال الناتجين عن الزواج الديني.

العبودية الداخلية في الحبشة مختلفة بطبيعة الحال عن المفهوم العام لهذه الكلمة، في الزمن الماضى، كان القانون الحبشى يقر شراء العبيد من الجيران الوثيين أو عن طريق أسرهم في الحروب، لكن القانون كان ينص على أن أي حبشى يحصل على خادم بهذه الطريقة، يتحتم عليه تعليمه إن كان رجلا، أو تعليمها إن كانت امرأة، تعليماً دينياً، ثم تعميده أو تعميدها خلال أربعين يوماً، وما إن يصبح العبد مسيحياً لا يمكن بيعه من الناحية القانونية، ومن الناحية النظرية، يصبح مثل هذا العبد أو الأمة واحداً من أفراد الأسرة، كما يصبح مُقتنى ثميناً تصعب إساءة معاملته، لكن الواقع أن القانون القديم كان يغمز ويلمز إلى تجارة الرقيق وأسواق العبيد، وقد بدأ منليك Menelike إصبحت، في منايك الأيام، مسألة الحصول على عبيد جدد حتى عن طريق أكثر الطرق سرية وكلفة، أمراً بالغ الصعوبة إلى حد أن رؤساء الشمال بدءوا يربون هؤلاء العبيد في منازلهم من آباء عبيد.

من حق كل عبد التقدم باستئناف للمحكمة، وتقديمه دليلاً على سوء معاملته يعطيه الحق في تحريره على الفور، جرى العرف على أن يقدم الرجل بائنات لإمائه أو البنات الإماء اللاتي أعتقهن، لكن الإماء يمكن الزواج منهن بموافقة سيدهن، وعادة ما يتزوجن فقط أتباع الأسرة نفسها، نظراً لأن الأبناء الذين ينتجون عن هذا الارتباط يعدون من ممتلكات السيد وجزءاً من الميراث الذي يتركه لورثته، جرت العادة على أن يعتق مالك الأرض أو التاجر، عند وفاته، أحب عبيده إليه سواء أكانوا رجالاً أم نساءً، وأن يترك لهم بعض الممتلكات، والحيوانات، والنقود أو البضائع، لكنه لا يعطيهم الأرض مطلقاً، نظراً لأنها تعد شيئاً مقدساً عند العائلة، وتأسيساً على هذا العرف، فإن قلة قليلة من العبيد هم الذين يرحبون بفكرة العتق على الفور، نظراً لأن حياة هؤلاء العبيد تصبح أمراً لا يطاق في ظل عدم وجود النقود، والحقول، والبضائع، وفي ظل عدم وجود العمل اليدوى في البلاد وفي المنظومة الجماعية.

أدى الأمر الملكى الصادر عن راس تفارى، والقاضى بعتق العبيد كلهم عند وفاة أسيادهم، إلى زيادة مشكلات الشرطة في أديس أبابا، وسبب ذلك أن

عدداً كبيراً من العبيد يجرى عتقهم كل عام وهم أناس جهلة بلا مؤنة، لا يجدون أمامهم مستقبلاً سوى العمل باللصوصية والسرقة.

من الصعب الوقوف على الطرق التى يسلكها الشماليون المتغطرسون فى تحاشيهم الالتزام بذلك القانون، لكن الأرجح، فى معظم الحالات، أن الجهود المبذولة فى ذلك الاتجاه سوف يتعين دعمها بواسطة العبيد، الذين يتمتع السواد الأعظم منهم بعقلية الطفل أو الحيوان الطيب الأليف، ليس هناك فرق بين العبد والخادم. عمل العبيد، وطعامهم وملبسهم واحد، وفى الأسر المتواضعة تكون هذه الأشياء الثلاثة هى أشياء سيدهم نفسها.

مصير الأمّة معقد بسبب مسألة التَّسرى (الأمّة التى تتجب طفلاً لسيدها، تعتق على الفور، وعندما يموت رب البيت، فإن العرف يقضى بإعطاء محظياته الحق فى أن يطلبن العتق إذا ما أردن ذلك، جرت العادة أيضاً أن الفتاة الأمّة التى عاشت مع مالكها، تحصل على امتيازات الابنة، هذا يعنى أنها لا يمكن أن تُباع، أو يجرى التصرف فيها، ولا تتزوج بدون موافقة منها، وكان من حقها الحصول على إعاشة من سيدها ومن ورثته أيضاً.

حقوق العبيد فى الشريعة الإسلامية محفوظة تماماً مثل حقوق النساء والأطفال، لكن الأسرة فى الحبشة تبلغ من الأبوية حداً يستطيع معه ربُّها حرمان من يشاء من أطفاله من الميراث، على الرغم من أنه لا يستطيع إعطاء الأرض لأناس ليسوا من سلالته، إذا ما توفى رب الأسرة وترك عقارات، فإن الأطفال المولودين من إماء، يرثون بنص القانون المعمول به فى شُوَا Shoa الأطفال الأحرار، لكن الأمر يتطلب وجود ثلاثة شهود للإقرار بأبوة المتوفى للأطفال المولودين من إماء.

اللاشرعية الفاعلة لا وجود لها فى الحبشة، لا لأن القانون التقليدى يعتد بكلمة العبد المضمونة وحسب، وإنما لأن القانون يقبل بلا قيد أو شرط ما تقوله أية امرأة حرة، أو زوجة، أو محظية، أو حتى البغى. والمرأة عندما تؤدى اليمين تستطيع بعده أن تتسب أبوة أطفالها لأى رجل من الرجال، وهنا يتحتم على هذا الرجل أن يعول هؤلاء الأطفال، لكن إذا ثبت حنثها باليمين لمرة واحدة يصبح كلامها غير ذى قيمة.

النسرى: اتخاذ المحظيات، المعاشرة بدون زواج. (المترجم)

يحق لأبناء العبد والأمّة طلب الإعاشة على حساب سيد والدهم ووالدتهم، لكن ليس من حقهم الحصول على أى شكل من أشكال الممتلكات، والسيد، حسب مكانته في الحياة، وسواء أكان زوجاً أم أباً يكون مسئولاً عن إعالة الأسرة، بل إنه في حال أسوأ ارتباط غير نظامي أو مؤقت، يتعين عليه إمداد الأم والطفل بالطعام إلى أن يصبح عمر الطفل ثلاثة أعوام، والأعراف السائدة هي التي تحدد مقدار الطعام الذي تستحقه الزوجة أو العشيقة، ويتضاعف هذا المقدار إذا كانت المرأة زوجة أو عشيقة لرئيس من الرؤساء المرأة بحق لها أيضاً أن تطلب من زوجها أو عشيقها، عندما تضع حملها أو تعمد طفلها هدايا محددة مثل العطر، والزيت، والملابس، بعض الأطعمة التي من قبيل الدهون، والتوابل والمشروبات الروحية.

فى الطلاق: فإن الأطفال الناتجين عن الزواج سواء أكان دينياً أم مدنياً، شأنهم شأن الممتلكات المنزلية الأخرى، يجرى اقتسامهم بين الزوج والزوجة، ويصبح كل منهما مسئولاً عن قسمه من الأسرة، وإذا ما كان هناك رقم لا يقبل القسمة على اثنين يجرى إعطاء الطفل إلى الأم، لكن الأب يتعين عليه التكفل بتغذيته شهرياً بالتبادل مع الأم، وعندما يحين موعد زواج البنات بشارك الاثنان في ذلك الزواج حسب استطاعتهما.

هناك أيضاً مسألة الميراث، حقوق المرأة، إذا ما كانت عزباء، في الميراث محدودة بالإعاشة وبائنة تكفي لضمان أن يكون لها زوج، اللهم إلا إذا كانت هي الممثل الوحيد للأسرة، مع ذلك، قد يفضل الورثة في بعض الأحيان تقسيم ثروة الأب من المواشي والبضاعة مع أخواتهن غير المتزوجات، بدلاً من تحميل أنفسهم بمسئوليات البائنات الثقيلة، وهذا لا ينطبق مطلقاً على الأرض أو العقارات، التي تعد ملكية خاصة للذكر وحده، قد تكون الأرض منحة من التاج (الذي ينتمون إليه جميعاً) إلى كبار الرؤساء إلى الأزل، وإلى الحكام، أو قد تكون منحة للضباط، وأفراد البلاط، بل وحتى السيدات العظيمات، لفترات قد تطول أو تقصر، لكن في ظل تغير هؤلاء اللوردات الإقطاعيين، يبقى الفلاح (العبد) في أرضه طالما كان منتظماً في سداد الضرائب الثلاثة، ضريبة الحبوب، وضريبة الماشية، ونسبة من عمله الأسبوعي، وحصة الضيافة الحكومية، وإن شئت فقل الضيافة العامة، هذا

يعنى أن الأرض التى كان يزرعها ذلك الفلاح، كانت بمثابة الوسيلة الوحيدة التى يتعيش منها ذلك الفلاح هو وتابعوه من سلالته العرقية، من هنا يدرك أن استفادته من هذه الأرض مرهونة بحياته وأنه يتحتم عليه نقل هذه الأرض المساس بها، مسألة إعطاء امرأة حق الميراث في هذه الأرض، تعنى نقل الملكية إلى غير بني عرقه، وتعنى أيضاً تهديد وجود الأجيال المستقبلية. طبقاً للموروث فإن الأرض يتعين أن تكون مستعدة دوماً لتوفير احتياجات الأسرة كلها، هذه الأرض يجرى التحكم فيها أو إدارتها بواسطة رب الأسرة، لكنها في الأصل ملك للسلالة العرقية، هم (الفلاحون) يقتلعون من الأرض العيش الشاق، والغذاء الاحتياطي، اللذان إذا ما أضيفا إلى الطول الخالي من الحياة، وأيام الصوم، والقذارة، وقسوة المناخ، والأمراض الوراثية، نجد أن ذلك كله يقلل من قوتهم البدنية والعضلية.

هذا النوع من جماعية الأرض الأسرية، يعد وسيلة من وسائل حياة كل الذكور الراغبين في العمل، وسبب ذلك أن البلاد مخلخلة السكان قياساً على حجمها، وهذا يعنى أيضاً أن الأرض متوفرة، وأن كل سلالة من السلالات السكانية لها منطقتها المعترف بها، ومن سوء الطالع أن هذه الجماعية تحد من الإنتاج، نظراً لأن كل أسرة تعول نفسها بنفسها، وتعد وحدة مكتفية بذاتها، وعائلة لنفسها أيضاً، وإنها تعمل بجد لمجرد الوفاء باحتياجاتها، هذا يعنى أن الأسرة لا تنتج شيئاً أكثر من احتياجاتها، اللهم، ربما كان ذلك إنتاج شئ قليل من الحبوب لمقايضتها بأشياء أخرى في الأسواق البعيدة، علاوة على أن الأسرة لا تفعل شيئاً من أجل تحسين الأرض، نظراً لأنها لن تستطيع على أن الأسرة لا تفعل شيئاً من أجل تحسين الأرض، نظراً لأنها لن تستطيع قدر للغابة التي على أرضه ألا تكون ملكاً لأسرته مثل الأرض نفسها، لقام قدر للغابة التي على أرضه ألا تكون ملكاً لأسرته مثل الأرض نفسها، لقام ذلك الحبشي بقطع الأشجار كلها وترك وارثيه بلا أية إمكانيات لبناء كوخ أو شب النار.

هناك فى الحبشة بعض الأقاليم الوقود المتيسر فيها هو روث الحيوانات، وفى تلك الأحياء، نجد أن النساء هن اللاتى يقمن بجمع ذلك الروث، وتجفيفه فى الشمس، ثم يقمن بطحنه وقولبته على شكل أقراص منبسطة، وهن اللاتى يبقين على اشتعال نار بسيطة طول الوقت، وجدنا فى قرية من

القرى التى مررنا عليها ناراً واحدة جماعية، وكانت كل امرأة من النساء تقوم حسب الدور بالمحافظة على اشتعال هذه النار عدة ساعات، حتى يمكن أن تكون النار في خدمة الجماعة التي ليس لديها كبريت أو عدسة مُجَمِّعة.

إذا كانت المرأة الحيشية ليس لها حق الميراث في الأرض العائلية، فهي بحكم كونها عزباء، أو زوجة، تعيش في منزل والدها أو في منزل الزوج، يكون من حقها الحصول على جزء صغير من هذه الأرض تقوم هي بزراعته بنفسها حتى تتمكن من توفير النقود المطلوبة لتصفيف شعرها! البنت الصغيرة تضفر أطراف شعرها، وتلف هذه الضفائر حول صدغيها، وتترك الجزء العلوي من شعرها منكوشاً، وعلى مر الأعوام يتسع ويكبر إكليل الضفائر إلى أن تتبقى دائرة صغيرة من الزغب في منتصف الرأس والتي تختفي مع الزواج أو عند بلوغ سن الرشد، المرأة الكبيرة تصفف شعرها على شكل جدائل رفيعة لا تحصى ولا تعد تمتد من جبهتها إلى قفا الرقبة، وكلما زادت مهارة البلانة (الماشطة) زاد أيضاً ظهور جلد فروة الرأس الذي بين هذه الجدائل، وفي ضوء جودة أو عدم جودة الحصاد، وإذا ما كانت عملت أم لم تعمل بجد في قطعة الأرض المخصصة لها، تستطيع هذه الفلاحة جلب ماشطة أو ماشطتين كل شهر، تصفيف الشعر بهذه الطريقة يستغرق يوماً كام لاً، بيدأ من الفجر وينتهي عند غروب الشمس، حتى تتمكن الماشطة من إنجاز تسريحة رائعة على أحدث موضة، وتكون الجدائل فيها رفيعة على نحو تبدو معه مثل حبل رفيع جرى تشبيكه عبر الرأس، الأمر الذي يؤدي إلى احتقان الجمجمة، على نحو يسبب الألم بمجرد لمسها، إلى أن يبدأ نمو الشعر في تقليل التوتر الواقع على كل شعرة على حدة، الفنانة التي تقوم بهذه المعجزة في شعر صوفي مفلفل، وفي ظل حالة من القذارة الشديدة، تحصل على دولار واحد نظير كل تصفيفة؛ ويتعين على من يجرى تصفيف شعرها النوم على مسند عنق مصنوع من الخشب إلى أن تصبح قادرة على تحمل وضع مخدة من الجلد الجاف على بشرتها المشدودة، يختلف حجم هذه الجدائل حسب ذوق أو ثراء من يجري تصفيف شعرها، لكن الحقل هو الذي يوفر الوسائل اللازمة لهذه الجدائل أو تلك. في بعض الأحيان قد يجري نقل "أرض التمشيط" هذه من الأم إلى الابنة، على سبيل الهدية، والرؤساء يكافئون خليلاتهم دوماً "بأرض التمشيط" هذه.

من المفترض أن تقوم المرأة الحبشية، في وقت الحداد، بنزع ضفائر شعرها الجميلة من جذورها، لكني أرى في هذه الأيام، بين الحين والآخر، أن من بين المحزونات المجنونات اللاتي تنزف الدماء من رءوسهن، من تستعمل سكيناً أو قطعة من الزجاج أو موسى لتكمل به ذلك الذي بدأته بيديها، الملابس الوسخة تعد أيضاً علامة من علامات الحداد، يزاد على ذلك أن المرأة أو الأم المحزونة تتبع نعش المتوفى وهي تجلد نفسها بشدة بحبل إلى أن ينزف الدم من صدرها أو صدغيها.

الناس كلهم في الحبشة يعرفون أن الزوج هو قاضي الزوجة الأول، وعليه لا يمكن لأحد مقاضاتها قانونياً إلا بعد الرجوع إلى زوجها، الذي يكون لديه خيار الدفاع عنها علانية أمام المحكمة، وهو بمقتضى هذا الحق يتحمل المسئولية المالية كلها، أو إذا ما وجد أنها مذنبة فإن يتعين عليه دفع تعويض عن قصورها، هذا القصور يتمثل دوماً في أمور كلامية مثل الحنث باليمن، التعريض بالغير، البلاغ الكاذب، أو القدح في سمعة الغير، يندر تماماً في الحبشة أن ترتكب المرأة جرماً خطيراً، نظراً لأن الصراعات الدموية التي تبرر القتل بمختلف صوره، تقتصر على الرجال وحدهم، إضافة إلى أن جرائم الغضب والغيظ يصعب وجودها في مجتمع مرخص فيه بالعنف إلى مثل هذا الحد، قد تقع المرأة في مسألة الدَّين أو السرقة، لكن ليست هناك مقاضاة رسمية في الحبشة، ولذلك يصبح بوسع الزوج، حجب الإعلان عن هذه الجرائم، إذا ما أراد ذلك، باستخدام دولارات ماريا تريزا القوية، تُعَاقُّبُ المرأة على خيانتها بالطلاق وخسارتها لبائنتها كلها، أما الرجل فيعاقب، في أغلب الأحيان، بدفع غرامة يكون الضامن مسئولاً عن الوفاء بها، وإذا ما قام الزوج بضرب زوجته، فإن الضامن يتعين عليه دفع الغرامة المطلوبة، وهنا يحدث تعارض بين حقين معترف بهما، فالرجل مسموح له بمعاقبة زوجته، والمرأة من حقها طلب تعويض عن الضرر، وعليه نجد الرجل في الأسر حادة الطبع سريعة الغضب، يواصل الضرب في حين تواصل المرأة تكديس المال.

جرائم العنف التى ترتكب ضد المرأة، تجرى المعاقبة عليها بالغرامة وذلك تأسيساً على قيمة الدم، وإذا فرضنا أن هذه الغرامات تصل إلى ١٢٠ دولاراً، فغرامة الاعتداء على فتاة غير متزوجة تصل إلى ستين دولاراً، وغرامة

الاعتداء على امرأة متزوجة ٤٠ دولاراً، ويقل هذا المبلغ فى حال الاعتداء على الأرملة، وريما وصل الأمر إلى مجرد عُشر من ثمن الدم إذا كانت الضحية من بين المحظيات، وإثبات هذه الجريمة يكون بتحليف المرأة اليمين.

يجرى في الحبشة معاقبة المتمردين واللصوص المحترفين ببتر الأعضاء أو البلد أو السجن، أما بقية الجرائم الأخرى فيجرى البت فيها على أساس أن حياة الإنسان غالية وتساوى الكثير جداً، وأن شرفه أقل كثيراً من حياته، وأن ما يمتلكه الإنسان يمكن تعويضه أو استبداله بمبالغ متباينة، واقع الأمر، أن الثمن يتفوق على القيمة، والضامن هو الذي يلعب دور العدالة المُصتحِّحة، وهو في عمله هذا يحصل على العون والمساعدة من أفراد أسرته الذين يعدون أنفسهم مشاركين له في مسئوليته، ليس هناك خصوصية من أي نوع كان في مجتمع يقوم على أساس من المصلحة المشتركة، التي يصبح كل واحد فيها شرطياً على جاره، إذا لم تقبل الدِّية، فإن القاتل يعاقب في أغلب الأحيان بالثار، وليس بالعدالة العامة، وقتل المرأة يحتم الشئ نفسه على أقاربها مثل الرجل تماماً، لكن والد المرأة أو أخواتها هم الذين يتحتم عليهم القيام بالثار، وليس زوجها، وأن الدية يجب أن تدفع للأب أو الأخوة، السلالة العرقية وليس الزوج هي التي تطالب بدفع التعويض عن المنزل المدمَّر.

ليس هناك شك فى أن نساء أثيوبيا يتمتعن بقدر أكبر من الاحترام عن جاراتهن، وكلام النساء مصدق، وهذا لا يحدث فى البلدان الأخرى، وذلك من منطلق قبول كلام النساء بلا شاهد أو ضامن، يمتد هذا التبجيل أيضاً إلى شخص المرأة، ذلك أنه إذا ما قام رجل بإمساك ذراع امرأة متزوجة، فى أى نقاش أو مشاجرة، حتى وإن وضع يده على كتفها، فإنها يكون من حقها طلب معاقبة ذلك الرجل، إذا ما لمس غريب امرأة على غير رغبة منها، أو أشار إليها بطريقة غير قانونية، أو هددها بأقل شكل من أشكال العنف، يصبح من حقها طلب تعويض مالى عن مثل هذا العمل، وفى كل هذه الأحوال يكون التعويل على كلام المرأة بدون أى ضامن أو شهود.

المرأة الفلاحة فى الحبشة لا تشارك فى الحياة العامة، لكن السيدة العظيمة يمكنها إدارة الأراضى التى تعطى لها لتزرعها مدى الحياة بواسطة زوجها أو بواسطة حاكم الحبشة Negus، مثل هذه المرأة تتولى إقامة العدالة،

وتجمع الضرائب وتدفعها، وتقوم على أمر الضيافة، وهي التي تخصص المزارع، في حال نشوب الحرب، في حين هي التي تحدد نوعية الضياط الذبن بتولون قيادة قواتها، كما أنها قادرة أبضاً على إدارة العمليات الحربية من مكان قريب من ميدان القتال، التحيات أو الرسائل التي تصل مثل هذه المرأة، من أي رجل من الرجال، أياً ما تكن مكانته، تكون مليئة بالنفاق، إذ يجرى في هذه الرسائل اقتباس مقطوعات كاملة من الكتاب المقدس لامتداح جمال وفضيلة هذه المرأة، حتى وإن تعارض الجمال مع الفضيلة، المجاملات أمر لا بد منه في الحوار بين الجنسين، بغض النظر عن مكانة المتحاورين، شريطة ألا يكونا متزوجين، لكن مسألة التوقير والاحترام تعتمد على المكانة، قد تأخذ الفلاحة الحبشية حقوقها المدنية وحقوقها الأسرية، لكنها بحكم إرهاقها، وسوء تغذيتها، فإن الطبيعة Nature تكون أقسى عليها من الرجل، وعليه فإنها قبل أن تبلغ الأربعين من العمر تكون قد أصبحت مرهقة بدنياً، وذهنياً، وفي أغلب الأحيان أخلاقياً، على نحو يحعلها تعجز عن المطالبة بهذه الحقوق، والمرأة التي ليس لها من عمل سوى إنجاب طفلين أو ثلاثة أطفال، والإشراف على كثير من العبيد، والتي تكون معزولة، وجالسة طول الوقت، اللهم باستثناء تلبية بعض النداءات الجسدية والذهنية، تتوقع الاحترام والتقدير وهي تحصل عليهما فعلاً. هذان الصنفان من النساء حُرَّان بطريقة مدهشة فيما يتصل بشخصيتيهما، لكن عمل الصنف الأول، وممتلكات الصنف الثاني مملوكان للزوج. المال هو الألف والياء في الحبشة، ومن خلال قانون الوراثة العرفي، بشكله المحدد، والدائم - يقضى بأن تكون الأرض في أيدى الرجال.

♦ الفصل السابع

فزع ونكالي بس السرسريه

يمتد المرعى من هابرو Habro متدحرجاً نحو الأسفل بصورة متدرجة، نازلاً إلى الأسفل من خلال الحواجز والأبراج الصخرية التى تعترض طريقه، كان قد بدأنا مسيرنا في ساعة مبكرة، كانت المنخفضات خلالها أكواماً من بتلات الزهور داخل كوب من الضباب، كانت أشجار الست المستحية شديدة الاصفرار، وكان نبات خباز المستقعات، بلونه الأرجواني والأصفر ينمو بجوار حفر الماء، كان الجراد الضخم بأجنحته الحمراء منسوجاً خلال غابة الحشائش على جانبي الممر، وكانت الطيور تمر مسرعة فوق هذا المسار بلمعان شبيه بلمعان المعدن المطلى بالذهب، كنا من حين لآخر، نتجاوز أشجار الجورجو Gorgu بلحائها الرمادي وكتلة من الزهور التي لها لون الجمار مفرودة مثل المظلة، أو على بعض النباتات المتشابكة التي تغطى أغصانها نحو نصف فدان من الأرض، كان البغالة أثناء مسيرنا يتسلقون الأشجار لقطف نصف فدان من الأرض، كان البغالة أثناء مسيرنا يتسلقون الأشجار القطف

خيَّمنا بعد مسير دام أربع ساعات بالقرب من قرية جلامسو Galamso حتى يتمكن أتباعنا من شراء ما يكفيهم من المؤن من السوق المحلية، وبالقدر الكافى للرحلة إلى أنكوبر Ankober التى تستغرق ما بين خمسة أو ستة أيام.

جلامسو واحدة من المحطات الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى أروسيِّى Arussi، التى ترتفع تلاله فى اتجاه الناحية الجنوبية، وبين المسيحيين المتشحين بالملابس البيضاء الذين يقايضون الماشية، والذرة، والموز، داخل تعريشات من القش، والتى لا يزيد حجمها عن حجم قبعة من قبعات جينزيورو Gainsborough، وكانوا جميعاً من الجنسين من سلالة الجَلا،

ويرتدون ملابس من الجلود، هؤلاء الجلا الوثنيون الذين جرى إخضاعهم مؤخراً يمثلون أفريقيا البدائية التى بزغت منها الحبشة الحديثة، لكن لم أرهم مطلقاً على أنهم جزء من الحبشة، البعض من هؤلاء الجلا أثرياء، ويمتلكون قطعاناً كبيرة من الماشية، والبعض الآخر يبلغون من الفقر حداً يضطرهم إلى أكل النفايات، وينازعون فيها الكلاب الضالة التى تتجول بين أكوام الروث، رائحة هذه الطائفة من الجلا مميزة، وريما كان ذلك راجعاً إلى الدهون التى يدهنون بها أنفسهم، ونساء الجلا يغطين أذرعهن، ورقابهن، وسيقانهن بحلى كبيرة مصنوعة من العظم أو النحاس الأصفر، لكن مظهرهن يكاد يكون مثل مظهر الرجال، الأطفال البنات أمر غير شائع بين الجلا، لأن زواج الابنة مُكلف جداً، وعليه فإن الأطفال البنات يجرى وضعهن في معظم الأحيان على جوانب التلال ليكن وجبة للضباع.

فى بعض الأماكن يأكل نساء الجلا ورجالهم لحم فرس النهر، ولذلك يحتقرهم باقى الناس بوصفهم أكلة غير نظيفين، الجلا أيضاً يؤمنون بالخرافات، ويعتقدون فى الطواطم والمحرمات، وهم يعبدون روحاً يسمونها "وكوه" Wekweh، ومجموعة أخرى من الأرواح الأقل يسمونها "ساروه" Saruh والجلا يحيطون قبورهم بجدار من الحجر المدهون، وتجرى حراستها بإقامة منشأ من الحطب معلق فيه شرائط من القماش والجلا، يُقال إنها تبعد الأرواح الشريرة عن هذه القبور، فى أيام ازدياد العنف نجد أن عدد الشرائط يشير إلى إجمالى الأعداد الذين جرى قتلهم، لكن هذه الشرائط تمثل فى الوقت الحالى حقيبة المتوفى المصنوعة من جلد الأسد وجلد الفيل.

يعد الجلا الجنوبيون من حملة الرماح والحراب، وهم يأكلون الثعابين والعسل البرى الذى يكون فى طريق مسيرتهم، وهم يؤمنون بالفأل الذى يعينهم أو يعوقهم فى صيدهم، والجلا شأنهم شأن الشعوب غير المتحضرة كلها، يتسمون بالخجل ويرفضون الغرباء، على الرغم من أن ذلك الرفض يكون من باب الدفاع وليس من باب الهجوم.

كل ذلك هو إفريقيا، لكنه ليس الحبشة الأساسية؛ الحبشة التي كانت مسيحية في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعبد آلهة النورس (ألم) وإن شئت

[🖈] النُّورس: بتشديد النون وضمها، هم سكان اسكنينافيا القديمة. (المترجم)

فقل الأصنام؛ الحبشة التى لم تهزم طيلة ثلاثة آلاف عام هى عمرها المعروف، على الرغم من تمزيقها بفعل الحرب الأهلية.

في تلك الأبام قامت بعثة من الأمبراطور جوشينيون Justinian بزيارة البلاط الحبشي، وعليه، بدأ حاكم الحبشة Negus، على امتداد العصور، يتعامل مع أوروبا على قيد المساواة، وفي المقابل سعت البرتغال وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا إلى خطب صداقة ملوك الشُّوا Shoa، وباستثناء الحملة التي جردها اللورد نابير Napier على الحبشة لتحرير الأسري البريطانيين في مجدالا Mogdala، نجد أن المرة الوحيدة التي دخلت الحبشة فيها في صراع مباشر مع القوة الأوربية أسفرت عن انتصار وطنى في بلدة عدوا Adua، التي انهزم فيها الإيطاليون بأيدى المرحوم منليك لقلة عددهم وكثرة عدد الأحباش ولسوء وعدم دقة الخرائط التي كانت معهم، وعليه، وعلى الرغم من احتفاظ الحبشة بأعراق وتقاليد وخرافات عمرها قرن من الزمان، وعلى الرغم أيضاً من فرض الحديث على القديم بصورة طفيفة، وعلى الرغم أيضاً من وجود النظام الإقطاعي، وشريعة سيدنا موسى، وعلى الرغم أيضاً من وجود الأدوات والصناعات الإنجيلية، ووجود شراسة ووحشية العصور الوسيطة بجوار السكك الحديدية ومناطق الحضر، فإن جوهر هذه الأرض، كما يبدو لي، ليس فجاً أو أفريقياً محلياً، وإنما هو حكاية خيالية لتاريخ قديم قدم الزمان، وعليه فإن شمال الحبشة هو الذي كان يجذبني ويشدني، ومع كل يوم كنت أقترب فيه من أديس أبابا، كان ذهني ينصرف إلى ذلك الذي خلف أديس أبابا في المقاطعات غير المشهورة التي كانت في يوم من الأيام حجر الزاوية في ديانتي العالم العظيمتين.

هذه الأرض التى أرسلت ملكة إلى سيدنا سليمان، والتى هزمت الجزيرة العربية، والتى تجرت مع الهند فى زمن المغول Mogulls، والتى آوت أتباع النبى المضطهدين، والتى اختارت الفارس كرستوفيرا دا جاما Christofera da Gama حليفاً لها فى كفاحها الطويل من أجل المسيحية ، والتى كانت مثل رمانة الميزان

بين المطالب المتصارعة لكل من فرنسا وإنجلترا، هذا البلد يتمثل أكثر وبصورة مؤكدة في مسلات أكسيوم الضخمة، والقصور التي على شكل قلاع في جُندار Gondar والكنائس الفريدة المبنية من صخرة واحدة في لالبيلا Lalibela، وليس في الطقوس والفأل، والأعراف والخرافات التي تتميز بها إفريقيا.

عندما عدنا إلى مخيمنا محملين بالغنائم الحية من سوق جالامسو Galamso وجدنا جبارا جورجس ينظف دجاجة، كان يقبع خلفه شخص ملطخ بالطين يأكل بشهية واضحة المخلفات التي يتخلص منها الطباخ.

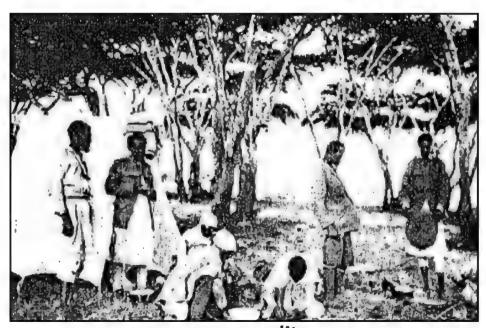
أوضح لنا جوطة عندما رأى تعبير وجهى "هو ليس حبشياً، إنه مجرد واحد من الجلاً".

زودنا سوق جلامسو تزويداً طيباً بالدواجن، والبيض والبصل المطلوب للمضى قدماً فى رحلتا، لكنى هنا أذكر البصل بصورة خاصة، لأنه وصل إلينا على شكل أسبات مليئة بالبصل؛ وقد طغت رائحة البصل على المخيم طوال أيام عدة، وكان جابرا جورجس، الذى طار فرحاً بذلك البصل، يقدمه لنا مع كل ما نأكله وما نشريه – ومع القهوة بصورة خاصة.

جاء أصعب أجزاء المسيرة بعد أن غادرنا حافة آروستى Arussi ولم نكن نتوقع ذلك أو ننتظره، لأننا تصورنا أن بوسعنا شق طريقنا حول صخرة لاجاردين Lagardin، وبدلاً من ذلك، وبعد مسير دام بضعة أميال في مجرى لاجاردين المائي الجاف وسط أيكة من النباتات الخفيضة وأشجار الفربيون، صعدنا فجأة إلى عالم عديم اللون – ومن تحت أقدامنا صوان رمادى اللون، وجذوع رمادية اللون حولنا ومن فوقنا، وستارة من الشوك الأبيض، والبصلي الذي له حواف مدببة يصل طول الواحدة منها إلى ثلاث بوصات، بدت لنا وكأن هذه المنطقة كانت مغطاة بصقيع فضي، كان المطلع شديد التحدر، ولم يكن المسار يتسع سوى لمرور الماعز، تعترت البغال وسقطت على الأرض، وكانت مناظر ظهورها الملتهبة، ومقدمة السُّرَج، ومفاصل أقدام البغال الخلفية تستثير الشفقة، لكن مسألة التوقف عن السير كان أمراً مستحيلاً، نظراً لعدم وجود ماء فيما بين نُهير منحني لاجاردين الأول وهواش التي تبعد عنه مسافة مسير نحو اثنتي عشرة ساعة في شمس السهل الحارقة، وقبل



تناول الغداء واستخدام علب الأفلام مثل طاولة



خَبْزُ الخبر في المخيم

أن نتمكن من الوصول إلى قمة السلسلة الصخرية، كانت الأشواك قد أطبقت علينا مثل جيش من سناكي البنادق، ولم تُحُدث مجرد قطع في مــلابسنا بل نتـفـاً أيضــاً من جلودنا على طول الطريق، يزاد على ذلك أن وسادتي الركبتين المصنوعتين من الجلد في بنطالي تمزقتا أيضاً، يضاف إلى ذلك أن نسيج بنطال هارولد جونز المتين أصيب بعدة تمزقات، في حين بقينا نحن طوال أيام عدة بعد ذلك نعاني من حدوث خدوش أصابت أجسامنا ومفاصلنا وتورمت بشكل ملفت للنظر، أخيراً وبعد كثير من الإحباطات عبرنا قمة السلسلة الجبلية وبدأنا نسلك طريقنا نازلين إلى الوادي في الأسفل، من الواضح أن الآلهة القديمة استخدموا لاجاردين ميداناً للقتال وكانوا يمطرونها بصواعقهم، نظراً لأن أرض لاجاردين كان عليها أحجار مبعثرة، سميكة سمك البرد بعد العاصفة، كانت الشمس الحارقة منعكسة إلى الخلف من هذه الأحجار، وعليه غطانا شيء من التراب الأحمر الكثيف، ورحنا نترنح ساعة بعد أخرى، ونحن في طريقنا نحو الأسفل، وقد احمرت عيوننا، وجفت حلوقنا، وكنا نحس أننا إذا ما ابتسمنا أو تكلمنا فإن شفاهنا ستنفصل عنا أو تتشقق، يزاد على ذلك أن بغلى الأبيض الذي كان "يجرى مثل الماء" كان يتعثر في كل خطوة يخطوها.

لم نلتق أحداً طوال مسير النهار، اللهم باستثناء امرأة من الجلا، كانت عارية تماماً اللهم باستثناء ياقة من الجلد وسروال من القماش، وكانت تقود جملاً، لم يكن في المكان أكواخ أو رعاة في لاجاردين، وكان بلام باراسي يضع القافلة نصب عينيه.

قال: "لا أحد يعيش فى هذا المكان سوى اللصوص، أولئك الذين يستعملون بنادقهم فى البداية وسكاكينهم بعد ذلك". أتى بلام باراسى بعض الإشارات الواضحة والمرعبة، وسرنا بعد ذلك وبنادقنا مشرعة، وعندما كان يضل بغل من البغال أو يتخلف بَغَال عن البغالة، كانت القافلة كلها تتوقف.

ولما كان هارولد جونز، على غير علم بهذه الإجراءات الصارمة، فقد توقف لتعديل وضع نظارة الشمس، وأبصر صقراً يحوم على بعد مدى مغر، وأطلق طلقة من مسدسه الجديد على سبيل التجربة، ونتج عن ذلك شيء شبيه بالزلزال، جعلنى ألوذ بأقرب غطاء، الذي كان كله من الأشواك، قام بلام

باراسي بتوقيف البغال المحتجة خلفى قبل أن أتمكن من جعل صوتى مسموعاً من الآخرين، أطبق علينا الجنود، وهرولوا جالسين على الأرض وبنادقهم فى وضع الاستعداد؛ أمسك البغالة بأقرب سلاح لهم، بل إن الصبى العبد رفع آنية الطبخ من فوق رأسه، استعدادًا لاستعمالها، حدث شيء من التوتر الشديد والصمت النسبى، وفي وسط كل هذا الاستعداد القتالي وصل هارولد جونز مبتسماً، وكان في يده نظارته وبعض الريش وفي اليد الأخرى المسدس! كانت التفسيرات معقدة، نظراً لأن جيمس ساقها بالإنجليزية، وترجمها عمر بالفرنسية، في حين ترجمها جبارا جورجس بالإيطالية التي كان يتفاخر بها، أما أنا وبقية الجنود فقد فهمناها بالعربية، أما بقية القافلة فقد فهمتها بالعربية، أما بقية القافلة فقد فهمتها بالعربية، أما بقية القافلة

خيمنا فى أرداجا Ardaga بلا ماء، التى ريما كانت منطقة ليس إلا، نظراً لعدم وجود شىء فى مرمى البصر سوى الأحجار والأشواك، حلق هارولد جونز ذقنه مستخدماً لذلك بوصتين من ماء البطاطس فى كوب من الأكواب، فى حين استفدت أنا من البرافين كمنظف جاف، تفرق الجنود بعد ذلك، والغريب أن الصباح حل علينا وكان هناك شىء من القهوة وقليل من الحليب.

سألت جوطة "كيف حدث ذلك؟"

أجابنى جوطة بتعبيره الناعس "فى بعض الأحيان يكون هناك أناس معهم قرع مجوف أو ماعز"؛ لكنه لم يضف كيف تخفف "الناس" من هذه المتلكات.

كان الجو شديد الحرارة، وكانت الشبورة عند الأفق، في الوقت الذي كنا نواصل فيه مسيرنا خلال الأشواك المخيفة، نازلين نحو الأسفل بصفة دائمة، إلى أن وصلنا إلى جارة جم Gara of Gum التي هي عبارة عن صخرة بارزة شبيهة بقمع السكر، ولها قمتان صخريتان متجاورتان، وتقعان خلفنا، أما ابيضاض السهل المشوب بالتراب فكان من أمامنا. كانت نباتات الليلج قرمزية اللون بأوراقها الشبيهة بالصُّبِّير ومشوبة باللون الوردي تقف بين نباتات الليت المستحية، وكأنها مساعر (ألم) بلغت درجة الاحمرار، بدأت الأرانب البرية تفر هاربة أمامنا، وتجاورنا قطعان الإبل التي يحرسها المتوحشون غير المتحضرين "والمسلحين فقط بالحراب والسكاكين"، على حد قول عمر، كانت

واحدة، مسعار، وهو بشكور حديدى لإنكاء جمرات المدفاة. (المترجم)

صدور النساء مستديرة، وبنيتهن قوية، وترتدى الواحدة منهن تنورة من الجلد تصل إلى ركبتيها، وكانت شعورهن ملفوفة على شكل حلقات صغيرة ضيقة على طريقة المصريين القدماء، حاولت تصوير فتاتين، وكان ظهراهما مثقلين بقربتين مملوءتين بالماء، ولا أدرى إن كانتا قد نظرتا إلى آلة التصوير باعتبارها شيئاً شيطانياً، أو نوعاً جديداً من أنواع الأسلحة النارية، لكنهما جفلتا وابتعدتا عنى وأطلقتا صرخة، ذهبت إلى مدى بعيد، وكان واضحاً أن هذه الصيحة هي صيحة القتال عند أهل هاتين الفتاتين، وهنا قام عمر بدفعي لأركب فوق السرج.

قال عمر: "هؤلاء أناس متوحشون وغير متحضرين، وسوف تحدث بعض المتاعب، لأن الفتاتين حذرتا رجالهما. ويتعين علينا التحرك بسرعة وإلا صوبوا رماحهم إلينا".

استحال على القافلة المضى بسرعة، نظراً لاشتباكها بصورة مستمرة مع النباتات الزاحفة التى كانت تأخذ شيئاً من اللحم وشيئاً من الملابس، والتى تتخللها أفلاء الإبل الضالة، متموجة الوبر وصاحبة الأرجل الطويلة، لكن بعد ساعات قلائل من مغادرتنا آرداجا نزلنا إلى وادى هواش Hawash الواسع العميق، أخرنا عبور هذا النهر بعض الشئ، نظراً لأن البغال كلها حاولت الرقود أرضاً، والماء ينساب بشدة من فوق جلاميد صخرية لزجة مستديرة، ظننت أن حلقى سوف ينشق، قبل أن يسمعنى الآخرون، عندما أوشك جوطة، الذى يحمل آلة التصوير (كاميرا) على كتفه، على التشاجر في منتصف النهر مع دستا Desta، الذى كان يحمل حامل آلة التصوير الثلاثي، الذى كان قد نسى جوطة عليه عصا على الضفة البعيدة، أخيراً خضت في الماء إلى ركبتي وجذبت أقربهما إلى الشاطئ، الذى اضطر الآخر إلى الوصول إليه تتبعاً لزميله كي يواصلا النقاش.

جاء طلوعنا من الوادى العميق فريداً فى نوعه، ففى اللحظة التى أدرك فيها مالك البغال أنه سار فى المسار الخطأ، وفى ضوء الجلاميد الكبيرة التى كانت القافلة تتحشر فيهما، أتضح أن القافلة لم تعد قادرة على الصعود إلى قمة الجرف أو النزول إلى الأسفل، وكان هناك على قمة الجرف قطيع من الثيران التى لها قرون أطول من القرون المعتادة، كانت لحظة مرعبة بحق،

ققد بدا أن الراكبين والبغال على حد سواء لابد وأن يتخوزقوا على أطراف هذه القرون المتوحشة التى تتأرجح نحو الأسفل، ألقينا بأنفسنا جميعاً بعيداً عن المسار وفى اتجاهات مختلفة وشديدة الخطورة، وانقلب القسم الأكبر من أمتعتنا، رُفس الكثيرون منا وديسوا فى الأرض، ولكن بمعجزة من المعجزات تمثلت فى شَىء من الذكاء والعبقرية من جانب البغال، وبفضل خاصية الفرد والطى فى هذه الحيوانات، وإن شئت فقل خاصية الانكماش عند الماشية، استطاعت هذه البغال تخليص نفسها من تلك الثيران ولم يقتل أى منها، وعندما نظرت من فوق القمة، وأنا أنزف وألهث ورأيت المكان الذى تسلقت إليه وأنا أرتدى حذاء الركوب، رحت أعجب لتلك العناية الإلهية التى رعت قدرنا ومصيرنا، كان عمر يقف إلى جانبى لاهثاً بلا عمامة، ومثل أرنب مسلوخ.

قال عمر وهو يتنهد: "الله هو الذي يرأف بالمجانين!"

هواش تقع على خط سكك حديد الحبشة الوحيد، ولوكاندتها الصغيرة المناسبة هي الملاذ الوحيد للمسافرين الذين يقومون على أمر البريد السريع كل أسبوعين، هذه "الرسائل البريدية" تقطع الرحلة على مهل، وتنفق ليلتين على الطريق، تكون خلالهما داير داوا أو هواش مشغولة بتوفير الأسرة المطلوبة للمسافرين، لكننا عندما وصلنا إلى المجمع المكون من عشر دروأت مسقوفة، وأكواخ من الطين هي بمثابة هواش التي يسكنها البعوض، كان اليوم مصادفاً ليوم عطلة وبالتالي كانت اللوكاندة مغلقة، كانت الساعة تشير إلى الثانية؛ وكنا قد شُوينا واحترقنا في الصحراء منذ تناولنا للقهوة في الصباح، يزاد على ذلك أن أكثر الجنود اسوداداً كان يعترف بالإرهاق والتعب بعد المغامرة التي قمنا بها، وما ترتب عليها من إعادة تحميل أمتعننا في الوادي العميق، وعليه، عندما رفضت الشرفة الواسعة هي وأشجار الفلفل الواقعة داخل السلك الشائك أن تكون ملجأ وملاذاً لنا أحسسنا بخيبة أمل عامة.

قال عمر وهو مكلوم حزين "لا يوجد ظل نقيم فيه المخيّم".

تردد صدى مالك البغال هو وجابرا جورجس "لا يوجد علف للبغال" و "لا يوجد حطب للنار"، ألقيت نظرة على الوجوه من حولى وقد أسودت بفعل الشمس، وغبرها التراب، ورفعت نفسى على الجدار، ونزلت من فوق السلك

الشائك- الذى هو لا شىء إلى جانب أشواك لاجاردين- ونزلت فى المكان البراد الذى حُرمنا منه، وبطريقة منتظمة رحت أدق وبلا استثناء كل باب وكل نافذة فى المكان كله إلى أن أيقظت فى النهاية يونانياً بهى الطلعة من نومه، الذى ربما كان عميقاً واستقبانا استقبالاً أحر مما كنت أنتظر بعد هذا الهجوم.

وبعد أن انتهينا من أول اغتسال (تشطيف) كامل بعد عشرة أيام وجدنا أن من الضروري العثور على مرشد، والسببِ في ذلك أن معرفة عمر بالبلاد توقفت عند هواش، وعلى الرغم من أن بالأم باراسيِّي أكد لنا أنه كان يبحث في السوق عن مواطن يعرف الطريق إلى أنكوبر، فإنه لم يوفق في جهوده، ولم تحمل لنا فترة العصر سوى تقارير غير مرضية. كانت البغال مُتعبة، وكانت أرجل الجنود ملتهبة، ولم يتمكن أحد من العثور على مرشد؛ إضافة إلى أن أحداً لا يستطيع المغامرة في "الصحراء الخالية من الماء" بلا مرشد، ضحكت من ذلك النعت، لأن رمال هواش وحدها تبعد ثمانية عشر ميلاً عن النهر من ناحية الجنوب، وريما تبعد خمسة وعشرين ميلاً شمالاً على الطريق المؤدى إلى التلال. ومن المؤكد أن تاديكا ملكيا Tadecha Melkea لابد أن يكون فيها ماء، وهي تبعد مسافة مسير عشر ساعات في اتجاه الشمال الغربي، على الرغم من أنها ليست موقعة على الخارطة باعتبارها مدينة، وإنما كمنطقة حول مجرى نهر. أخيراً أدركت أن هناك شيئاً غامضاً حول هذه الاعتراضات، وعليه سرت مع عمر ورحت أسأل كل الذين التقيناهم، إلى أن وصلنا في نهاية المطاف إلى الخيار بين مرشدين، كان أحدهما جميلا وحبُّوباً وصاحب ابتسامة طيبة ويرتدي قبعة من اللباد من طراز جينزبورو، أما الشخص الآخر فكان صومالياً، لم يفهم لهجته أحد منا سوى شخص واحد، كان كل منهما يطلب أجر شهرين نظير إرشاده لنا في الرحلة إلى أنكوبر التي لا تستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، وأن أحداً منهما لن يعود وحده، لكنهما أصرا على حتمية الذهاب معنا إلى أديس أبابا، وهنا تحتم على عمر أن يوضح لنا الأمر.

قال عمر: "هؤلاء هم الدناكيل Dankalis، إنهم متوحشون وغير متحضرين ولا يمكن المرور عبر أراضيهم".

أردف الصبى الوسيم هازاً كتفيه فى شىء من الخجل "هناك ثأر وعداء بينهم وبين الأحباش والصوماليين، وهم يقتلون كل من تصل إليه أيديهم".

جرى أيضاً تفسير ذلك التأخير الفامض، كما جرى أيضاً تفسير تعبير الاستياء الصادر عن جابرا سيلسنّى، عندما واجهته باختيارى للمرشدين، يزاد على ذلك أن بلام باراسنّى كان أكثر لطفاً وأكثر شحوباً على غير عادته، بينما كان جالساً بهش الذباب عن نفسه باستعمال منشّة ويستفسر من المرشدين اللذين أحضرتهما، عن معرفتهما بمصادر الماء والمسارات والطرق البديلة، بلغنى بعد ذلك أن بلام باراسنّى كان قد أسر إلى راعى اللوكاندة "لقد أُمرت بمرافقة السيدة إلى أديس أبابا، وعليه سأذهب معها حيثما ذهبت، ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما توفيت أنا؟، لكننى لا يمكن أن أحكم على جنودى بالإعدام، وعليه سوف أرسلهم إلى العاصمة عن طريق القطار". وهذا تفسير عجيب لمهام قوة من الجيش!

حدث حوار استمر مدة ساعة، وشارك فيه الجميع بدءاً من الحماً اليمنى، والطباخ الذى يرتدى تتورة وعمامة وردية اللون، وناظر المحطة العربى الذى يرتدى تتورة قرمزية اللون وعمامة صفراء، إلى اليونانى مالك الأرض، وقلة قليلة من رجال السكة الحديد، وعامل التليفون الحكومى، وجميع المرافقين لنا، تقرر بعد هذا الحوار أن يقوم الصومالى وعلى وجه السرعة بإرشادنا، من خلال مسارات غير مطروقة متحاشياً التاديكا، حيث يقبع الدناكيل في المنطقة القريبة من النهر؛ وتقرر أيضاً تخفيض حمولتنا إلى نحو ستة بغال فقط، وأن نقوم بإرسال بقية صناديق الأفلام إلى أديس أبابا عن طريق القطار، وذلك من باب تخفيف وتسهيل تحركنا في حال وقوع أي هجوم علينا؛ وتقرر أيضاً أن نضيف رئيس الشرطة المحلية، ونحو ستة من جنوده إلى حملة البنادق الذين يرافقوننا.

قلت لعمر: "ستكون معنا كتيبة على وجه السرعة، وأنا أعمل فكرى فى الماء الذى تعين حمله معنا، لأهل التلال هؤلاء، الذين يفضلون البقاء فى جبالهم، وأن يتمزقوا إرباً فى الصحراء على القيام بمسيرة تستمر ساعات قلائل دون أن يشربوا الماء، لابد أن يكون بلام باراسى قد بلغه هذا الكلام، فقد قال بابتسامته المفاجئة التى لا تخلو من السخرية "عندما كنت شاباً، كنت أنا أيضاً لا أخاف".

اقترحت عليه وأنا أنحنى له "أنت صاحب خبرة".

الدناكيل شعب من البدو المتنقلين، الذين يتجولون بحثاً عن العشب لقطعان ماشيتهم، داخل المناطق التي يتناوب الصوماليون والجلا السيطرة عليها، ولما كانوا شاركوا في الغزو الإسلامي في القرن السادس عشر، والذي هدد بإخضاع الحبشة، فإنهم على عداء مع العرق الذي يحكمهم دون أن يقوم بغزوهم أو كسرهم، وهم يرفضون إلى الآن دفع الجزية له، خصائص وسمات العرب الذين يُقال إنهم من سلالة حام تتضارب وتتعارض مع الأساطير التي تتردد عن أصول هؤلاء العرب، هؤلاء العرب عطوفون، لكنهم قساة بطريقة صبيانية، شجعان لكنهم خونة عند الغضب على الرغم من أنه معروف عن العرب أنهم لا يهاجمون مطلقاً في الظلام، وهم سريعو الغضب وسريعو العربة، وهم يبدون متغيرين ومتقلبين مثل مواقع قراهم المؤقتة.

غادرنا بلاد الهواش إلى بلاد "المتوحشين" (الدناكيل) وعند الساعة الواحدة من مساء اليوم التالي، وفي عز الحر والغبار والقلق نكون قد قطعنا الأميال الستين إلى آليو آميا Aliu Amba في غضون ثمان وأربعين ساعة، في عصر اليوم الأول كان طريقنا يمر عبر صحراء هواش المنبسطة، وكان عزاؤنا الوحيد يتمثل في بعض الأشواك وشيَّ من الصيد، شاهدنا الغزال، والوعل الأبيض، وشاهدنا أيضاً حيوان الدايك- دايك Dyke- Ayke الذي حسبناه أرنباً برياً، إلى أن رأينا قرنية الصغيرين، شاهدنا أيضاً طيوراً ضخمة سوداء، فيها بقع بيضاء في طرف أجنحتها، وكانت ترفرف أمامنا مثل طائر ضخم من طيور اللقلق لكنه قصير القدمين، كما شاهدنا أيضاً النسور الشبيهة بلون الغزال المائل إلى اللون الوردي، والتي أطلق الجنود عليها اسم المرابط Marabout، وكانت تحملق فينا بأعين لا تغمض، واصلنا مسيرنا على وجه السرعة، وكنا نهرول كلما صاح الصومالي فينا، إلى حد أننا بعد نصف ساعة من غروب الشمس، وعندما وصلنا إلى مزارع أوارا ملكيا Ouara Melkea، نخيل الدوم وأشجار الموز، وأشجار الصمغ- اكتشفنا أننا قطعنا مسافة لا تقل عن تسعة أميال، خيمنا تحت شجرة، وكانت الخيام والبغال والنيران في دائرة نصف قطرها لا يزيد على ثلاثين قدماً، وجرى وضع حراس حول هذه الدائرة، وبقى الحراس طول الليل يدردشون مع الدناكيل الودودين الذين

أحضروا إلينا، بصحبة رئيسهم دنان Danan كميات كبيرة من الحليب في قرع مفرغ ملفوف بالقش الملون ومعلق عليه أصداف.

في صبيحة اليوم التالي قوَّض البغالة خيامنا قبل أن نخرج منها، وعرفنا أن الصومالي كان يعاني من نوبة القدم الباردة، مما جعله يرفض التقدم إلى أبعد مما وصلنا إليه، واختفى أيضاً بغل من البغال، وأصيب بلاَّم باراسيٍّ بالرعب مخافة ألا يعود الجنود الثلاثة المسلمون الذين خرجوا يبحثون عن البغل الضال، عند هذه المرحلة جاء دانان لإنقاذنا . عندما رأيناه أول مرة في ضوء النار، وجدنا فراشاً عدة من فراش الأسنان في شعره المجعد، وكان يرتدي سروالا، ثقوب في أذنيه الشبيهتين بطبقين صغيرين، وكان يلف حول عنقه بعض الأحجبة الجلدية التي يبلغ حجم الواحد منها حجم مظروف من مظاريف الرسائل، ويحتوى كل حجاب منها على تعويذة أو بعض من التربة أو الأوراق المباركة، كشف الصباح عن شيء من التحول، نظراً لأن رئيس الدناكيل ظهر في بياض الحبشة وهو بُحلي من النحاس الأصفر في المواضع التي يجب أن تلبس فيها الخلاخيل، والسوارات والعقود، كان بصحبة رئيس الدناكيل بعض من رفاقه وأتباعه الذين كانوا أقل منه هنداماً، وكانوا مسلحين بالبنادق، أما فيما عدا ذلك فكانوا راضين عن وضعهم الطبيعي، فضلاً عن شريطين من القماش المنقوع في الشحم الذي تصنع منه الشموع، أحدهما عبارة عن تتورة، والآخر عبارة عن شال، كانت وجوه هؤلاء الأتباع مخيفة إلى أبعد الحدود وعامرة بالتجاعيد إلى أبعد الحدود، كما لو كانت بشرتهم مثنية مثل ثنيات آلة الأكورديون وملصوقة فوق العظام، كانت عيونهم بلون بنى غامق وحمراء، وليسِ فيها ابيضاض على الإطلاق، قبُّل هؤلاء الناس يديٌّ وشكروني شكراً جزيلاً على الطريقة الإيطالية، وأكد لنا واحد منهم يدعى ليفة Lifeبأنه على استعداد لإرشادنا إلى نهاية العالم، وكان يقصد بذلك الجيال.

بدأنا واحدة من مسيرات الليل الكابوسية التى تضطرب خلالها الأمور بلا سبب معروف، بعد أن ابتعدنا نحو تسعة أميال عن أورا ملكيا عبرنا الكابانا Kabana، التى تنساب مجاريها المائية خلال مجرى واسع عميق عامر بالأحجار. كانت تلك الجلاميد الصخرية لامعة وزلقة مستديرة، وكان ديمسيّ



بئر في ارض جافة



صناع الأواني

Demessi، الذى كان يحمل جهاز السينما، قد سقط على وجهه هو والبغل، فوق أبشع جلمود من تلك الجلاميد، أفلح هارولد جونز في إنقاذ آلة التصوير من النهر، لكن ظهر البغل تمزق على نحو جعلنا نضيفه إلى قائمة خسائرنا.

بدءاً من مغادرتنا لاجاردين قاصدين منحدر آرداجا الحاد، كانت الحرارة خانقة، كان الغبار الأسود يثور بفعل تحويل البغال له إلى سحب بسبب مشيها عليه، وكان الجميع تقريباً يعانون من الحمى وارتفاع درجة الحرارة، تهاوينا مرتخين فوق سروجنا، ولم نقو بعد ذلك على السير.

وقعت معركة – كلامية – مريعة فيما بين أحجار كابانا، صرخ مالك البغال قائلاً: إن حيواناته ستنفق إذا ما واصلت السير في هذا الحر القائظ، صرخ الدناكيل إن الوصول إلى منطقة الماء سوف يستغرق مسير يوم واحد وإننا ينبغى علينا التسريع والتعجيل، هذا بغل من البغال يقلب حمولته للمرة التاسعة، إذ راح يرفس إلى أن سقطت الخيمة والفراش من فوقه، ثم انهار باركاً فوق هذه الأشياء، امتدت الأفرجة في الوقت الذي تخلص الحيوان والأمتعة من بعضهما البعض، واشتد الجدل ونحن نحاول الصعود إلى أعلى الوادى العميق، ركبت البغل مدة ساعة أو ساعتين وعيناى مغمضتان وأنا معسكة بطرف مقدمة السرج، ولما جف فمي بفعل التراب والعطش، لأني منعت نفسي من الشرب أثناء السير حتى أكون قدوة للمرافقين، الذين كانوا يودون الوقوف في كل لحظة لشرب المرطبات والمنعشات، وأنا أرى أن الصمت غير الطبيعي هو الذي أيقظني في نهاية الأمر، نظرت حولي ووجدت بلام باراسي مكروباً.

قال: "لقد ذهب مالك البغال لحال سبيله".

"ذهب إلى أين؟"

رد الجميع "لقد ذهب!" وأردف عمر قائلاً: "والله وحده الذي يعلم".

اختار ليفة Lifa ومعه أمتعتنا طريقاً من بين الطرق المتعددة التى كانت أمامنا وتمتد متعرجة عبر أراضى الحشائش التى تفصلها عن بعضها وديان جافة عميقة، أما دانان Danan، رئيس الشرطة المحلية، ومعه اثنا عشر جندياً ونحن معهم، فقد اختار طريقاً آخر، وبقيت أمامنا مسألة، متى يمكن أن

نلتقى بعضنا بعضاً؟ كان معى شئ من الماء فى زمزميتى، كما كان معى أيضاً علبة من أقراص الحليب المخلوطة بالمولت المستخلص من الشعير؛ أما الآخرون فلم يكن مع أى منهم أى شىء سوي ذكرياتهم عن القهوة السريعة التى تناولناها عند الساعة السادسة صباحاً، هبت علينا ريح فظيعة خارجة من الفرن الأفريقي أحرقت عيوننا ووخذت جلودنا محدثة بقعاً فيها.

قال دنان: "الماء موجود فى آرجوبًا Argobba، ومالك البغال سيقف بجانبه". لكن عندما سألته عن المسافة، هز كتفيه، ولوح بأصابعه المتعرجة وقال: "قد نصل إلى الماء اليوم".

أغمضت عينى من جديد ومضى، البغل الأبيض فى طريقه خلال الحشائش والأحجار، وكان يهزنى هزاً مؤلماً يجعلنى أفيق عندما كان يتعثر فى المجارى المائية الجافة، هنا، فى هذا المكان كانت قردة البابون تهبط علينا وهى تتبح علينا مثل الكلاب، وهذا هو طائر المائيد Ma-Aed التعيس الشبيه بالماعز، يوحى لنا بالأمل أننا أصبحنا على مقربة من قرية من القرى، كان منظر قردة البابون بشعاً ومسلياً، كانت هناك عائلات كاملة من تلك القردة تتجول على الصخور، وهؤلاء هم آباء العائلات يسيرون فى المقدمة يزمجرون؛ لكن العناية الإلهية لابد أن تكون هى التى أوجدت الطيور أثناء كابوس الليل، نظراً لأنها كلها كانت غير متناسبة، ولها رءوس بارزة يصعب استعمالها أو مناقير متورمة، كما أن الضوضاء الصادرة عن هذه الطيور كافية للتغطية على فرقة من فرق الجاز.

قال هارولد جونز في آحر ساعات فترة العصر: "ليتهم سلقوا هذه البغال كي يحولوها إلى شيء طرى".

مررنا على نمل الجبال الضخم وتمنينا لو أنه كان إبلاً ترعى، وخلفنا وراءنا أكواخ الدناكيل المهجورة والتى كانت شبيهة بمجمعات الفطائر المستديرة المصنوعة من الطين، كانت تلك الأكواخ صغيرة بشكل يصعب معه حتى على الطفل الصغير أن يقف بداخلها، وعندما ركبنا دوابنا واتجهنا صوب الجبال كنا نصادف في طريقنا بقايا قلاع عبارة عن مركبات لها جدران من الحجر، أخيراً وعندما أصبح الأحباش بيضاً من تحت سوادهم، وبعد أن تَخَضّبُوا بالعرق والتراب اللذين جعلا وجوههم تبدو مثل الشباك،

شاهدنا بعض الدناكيل وهم يشتغلون في عمل سور من الحطب. عند هذه المرحلة كنا قد تقاسمنا أقراص اللبن المخلوط بالمولت، وأعطينا الماء للجنود باعتبار ذلك البديل الوحيد عن تركهم على الطريق، وعليه اندفعت أنا وعمر ناحية ذلك السور في محاولة منا لشراء أي شيء على شكل سائل، والحصول على أنباء عن أمتعتنا إذا ما تمكنا من ذلك، ألقيت نظرة خاطفة على حملة الرماح ذوى الشعر الأشعث، كما نظرت أيضاً إلى بعض النساء الجذابات، الرشيقات اللاتي لونهن مثل لون الشاى، وقد لففن حول رءوسهن شرائط من الجلد، وكان ذلك هو كل ما شاهدته، وبقهقهة عالية اقتربوا منا وراحوا يلاطفون بغالنا بضربها بسهولة براحة اليد، وعندما تضايقنا من ذلك، عدنا إلى مكاننا سائرين على شكل صف واحد، ونحن نعاني من أوجاع مختلفة في أجزاء مختلفة من الجسم وتميل فيما بين الكتفين.

عند غروب الشمس وبعد أن قطعنا ثلاثة وعشرين ميلاً وصلنا آرجوبا، وهي عبارة عن سلسلة من ثلاث قرى، كل منها مقام على جبل منفصل، في القرية الأولى عثرنا على بغل من بغالنا، بعد أن أوشك على النفوق؛ الأمر الذي جعل مالك البغال يبيعه باثتى عشر شلناً، وفي القرية الثانية اكتشفنا أثين من البغالة ومعهما قرعة مفرغة، قام الجنود بانتزاعها منهما على الفور؛ وفي القرية الثالثة حيث يوجد ثقب ماء عميق أسود عثرنا على مالك البغال المتفاخر الذي تنازل قائلاً: "مسير طيب، أليس كذلك؟"

دخل نفس من برد الصحراء إلى خيامنا فى تلك الليلة، لكنا كنا لا نزال متعبين، عندما شرعنا، فى ضوء الوعود التى قطعها "آليو آمبو" بأننا سنصل خلال أربع ساعات، فى تسلق سلسلة الجبال الأولى الواقعة بيننا وبين سلسلة جبال آنكوبر التى يغطيها السحاب، راحت هذه السلسلة من الجبال تكرر نفسها المرة بعد الأخرى، إلى أن بدأت أظن أن البغال لا يمكن مطلقاً أن تعبر أية سلسلة من هذه السلاسل مرة ثانية، كان نبات القطن متفتح اللوز على الجوانب المحمية من المنحدرات، لأننا كنا قد تجاوزنا بلاد الدناكيل وكانت قرى المسلمين تجثم على كل بروز من بروزات أبراج القلاع التى فى الجبال.

كان كل منعطف يعقبه منعطف أخطر منه، الأمر الذى كان يكشف أمامنا سلسلة أخرى من الصخور التى تتدفع أمامنا طائرة فى اتجاه قمة أخرى، أو

هابطة إلى أرض منخفضة عامرة بالحشائش القصيرة، كانت الجلاميد المكونة منها هذه الصخور يصل ارتفاع الواحد منها إلى قدمين أو ثلاثة أقدام، وكانت تلك الجلاميد ناعمة بفعل عوامل التعرية، كما كانت زلقة أيضاً؛ وكان فيما بينها أخاديد يصل عرض الواحد منها إلى بضع بوصات، أخذت البغال تنزل ذلك المنحدر خطوة بعد أخرى، وأرجلها الأمامية متصلبة حتى ينكفئ الراكب على مقدمة السرج بصورة مستمرة، وإذا ما قدر للركوبة السقوط في أخدود من هذه الأخاديد فإن عقبيها سيصطدمان بالصخور مع حدوث خدش يمكن أن يصل إلى الظهر، وفي بعض الأحيان، قد تتسلخ ركبة الحيوان أو وركه عندما ينحشر في شق من الشقوق، وهنا يفقد البغل توازنه في معظم الأحيان، وينزلق إلى الخلف، ويضع السرج والراكب فوق كومة من الصعود في معظم الأحيان، وينزلق إلى الخلف، ويضع السرج والراكب فوق كومة من والهبوط، وكأنه شبيه بالجلى Jelly، كان بداخلى ألم كبير راح ينتشر في سائر والهبوط، وكأنه شبيه بالجلى Jelly، كان بداخلى ألم كبير راح ينتشر في سائر أنحاء جسمى على العكس مما ينبغي أن يكون، وددت لو أنى تحسست رأسي لأتبين ذلك الذي يؤلني بداخله.

قال عمر مشجعاً: "من المؤكد أن آليو آمبا سيكون وراء القمة الصخرية التالية". وبعد أن قال عمر هذا الكلام، مررنا على عشرات الأكوام الترابية الربَّانية Olympian، التى كانت كل حبيبة من حبيباتها عبارة عن صخرة، ضخمة مُسنَنَّة، كانت البغال تحملنا وهي متألمة فوق تلك القمة الصخرية، وكان جلان الشخص الوحيد الذي نزل من فوق البغل، ولكن الباقين استمروا راكبين في شيء من الحرص بمساعدة من الأيدى والرُّكب، وعندما وصلنا إلى قاع الوادى كانت قدماى تتزفان، ونزل جلان عن بغله وسقط على الأرض من شدة المرض وهو بحدث أصواتاً تدل على الألم والمرض.

عند الساعة الواحدة، وصلنا إلى قمة صخرية فيها تل عند نهايتها شبيه بقمع السكر، وعلى قمته القرية المعتادة، واعتباراً من هذه المنطقة انفتحت الأرض وانبسطت أمامنا مثل صفحات الكتاب، كان في الأسفل واد متسع، ومن خلف ذلك الوادى كانت ترتفع سلسلة جبال آنكوبر بقممها التي يغطيها السحاب، أصبح بإمكاننا تمييز قرية آليو آمبا، التي تعد كبرى قرى هذه المنطقة، بغابتها المحددة وحقلها الواسع اللذين كانا يمتدان في الأسفل مثل

نقاط الحبر على الخارطة، عن طريق سقف أو سقفين من الأسقف المصنوعة من الصفيح، بعد أن حصلنا على قسط من الراحة، التي فشل التصوير خلالها في طمأنتنا وتهدئتنا، رحنا نجر أنفسنا نازلين إلى الأسفل عن طريق دولوروسا Dolorosa، وفي كل مرة يجرح فيها حجر قدماً من قدميٌّ، كانت تتوارد على ذهني صورة ذلك الجسر المحمى إلى درجة الأحمرار الذي يتعين على المؤمن اجتيازه وصولاً إلى الجنة، كانت البغال تتعرق وتقبع من خلفنا، كان آخر جنودنا قد وصل إلى المخيم عند الساعة الثالثة والنصف؛ وكنا قد أقمنا مخيمنا بين الزهور البرية والحشائش الشوكية بجوار الأكواخ الأولى من قرية آليو آمبا، ولم يغادر أحد منا المخيم إلا في صبيحة اليوم التالي، وبعد أن ضمدنا أنفسنا، ودهنا أجسامنا بزيت المروخ، وبعد أن بدَّرنا أنفسنا ببودرة حامض البوريك، ومع هبوب الريح الباردة، ومع منظر السحب التي كانت فوق الجبال التي كانت ترتفع من فوقنا إلى مسافة ٢٠٠٠ قدم، بدأنا نرتقي في طريق متعرج نحو الأعلى، كانت كنيسة آنكوبر معلقة بين السماء والضباب فوق قمة الجرف، في حين كانت العاصمة القديمة تقع خلف هذا الجرف، لم يكن النوم قد طرق جفون هارولد جونز على الرغم من الطبابة الشاملة التي أحرىت له.

قال هارولد جونز، عندما توقفنا لنملأ زمازمنا بالماء "إذا ما استمر هذا الطفل في الصياح، أخشى أن أضطر إلى فتح النار عليه".

رددت عليه "لمَ لا؟" وأنا أستمع إلى واحد من طيور الليل الذى كان يصدر صوتاً ممتازاً مقلَداً صوت الطفل وهو في مرحلة التسنين.

♦ الفصل الثامن

لأنكوبر دوفاه محمر

آنكوبر، عاصمة الشُّوا Shoa التى تخلى عنها منليك Alem لصالح آديس آليم Alem، والتى سميت فيما بعد أديس أبابا، عبارة عن قرية كبيرة موزعة على شعبى قمة جبل مخروطية الشكل تتقسم انقساماً حاداً فى كبيرة موزعة على شعبى قمة جبل مخروطية الشكل تتقسم انقساماً حاداً فى المنطقة الواقعة تحت القمة، سكان قرية آنكوبر يقدرون ببضعة آلاف وهى مقر لحكومة إقليمية برئاسة دجيز ماتش آسافا Asafa، تدرج القرى بأكواخها المصنوعة من القش، وانتشارها البهيج غير المنتظم، يجعلها تبدو كما لو كانت مبنية الواحدة فوق الأخرى، وسط أيكات الأعشاب المزهرة، وأشجار الموز، ونباتات اليوكالبتوس العطرية ذكية الرائحة، هذا جبل مخروطي متوج بمنزل الحاكم من فوقه، مجموعة من الأكواخ الكبيرة داخل سياج من القصب، والمجموعة الأخرى من الأكواخ تقع فيما بين كنيسة يسوع، وكنيسة مريم، وكنيسة مريم، المخفضة التي تحيط بها أشجار الكوسو kosu التي يصنع من زهور عناقيدها الحمراء المتدلية نقيع شبيه بنقيع الشعير.

تعد قرية آنكوبر السجن السياسي لأولئك الرؤساء الذين تمردوا على الأسرة الحاكمة، وعليه يجرى تعيين حراسة مشددة على الحواف المرتفعة التي بين القمم الجبلية، غير مسموح بمرور أي أحد من الناس من مخروط إلى مخروط آخر بعد الساعة الخامسة والنصف مساء، وإذا ما كسر إنسان هذه القاعدة يجرى إلقاء القبض عليه بواسطة الحراس، الذين يقومون بريطه إلى عمود من الأعمدة، ويترك في مكانه إلى أن يطلع الصبح، وعندها يكون قد عرف بحق قيمة الوقت.

آنكوبر لا بأتيها أي نوع من التجارة، نظراً لأنها تقع في مكان بعيد عن طرق القوافل، متشحة بضبابها وعظمة قداستها، لأن جد منليك هو الذي بني كنيسة يسوع القديمة من الطين والجبس، يزاد على ذلك أن العُرْج والمشوهين يأتون إلى هذه الكنيسة بحثاً عن الصحة، صعدنا إلى أعلا لنلقى نظرة على المبنى المستدير المصنوع من القش، الذي يقول ستيرن Stern إن فيه صورة للملكة فيكتوريا، مهداة من الملك هايلي مليكوث Haeli Melicoth، يجرى توقيرها منذ زمن طويل على أنها صورة من صور مريم العذراء. الممر الخارجي لهذه الكنيسة مبطن بدعائم بهيجة في بعض أجزائه، وغشيم في أجزاء أخرى، ومنحوت في أجزاء ثالثة، جدران المعبد الرئيسي مرسوم عليها ملائكة وقديسون سود الشعر، ومن بينهم يوحنا ومنليك، وتيودور وغيرهم من أفراد الأسرة المالكة الحبشية الذين جرى تصويرهم وهم متوجون، ومجنحون وفي حراسة جنود مسلحين بالبنادق! وهناك صورة أزرق في أسود لشيطان ضخم يقرقش العديد من الضحايا، على الرغم من السلاسل التي يتعين أن تخفف من شهيته، كنيسة مريم، بصوت جرسها الرخيم الجميل، هي الكنيسة الوحيدة التي يمكن رؤيتها من الأسفل؛ لكنها كنيسة حديثة، فيها عُمد مدهونة وصليب أصفر عبر سقفها.

سكان قرية آنكوبر يشكلون مجتمعاً منفصلاً يعول نفسه بنفسه، ويعتمد على الخشب الذى يُأتى به من الغابة، والحبوب والقطعان التى تأتى من منحدراتهم، والمنتوجات التى تأتى من بساتينهم، وسكان آنكوبر هم الذين يقومون بالغزل والنسيج الذى يحتاجونه، وقد رأينا أمام كل كوخ من الأكواخ نولاً أو اثنين من الأنوال اليدوية الخاصة، التى يستعمل الرجال فيها المكوك على إطار بدائى، وشاهدنا أيضاً المظلات البيضاء وهى تكبر تحت رعاية نساء آنكوبر ومعهن سلالهن المليئة بوبر القطن وموضوعة إلى جوارهن، وهن يقمن بلف هذا الوبر على بكرة ويغزلنه إلى خيوط.

كنا نطلع وننزل في مسارات طاحونة الهواء، وآلات التصوير مستعدة، عندما أحضر لنا بلام باراسي رسالة تفيد أن حاكم آنكوبر يود لقاءنا، وعليه، صعدنا إلى أعلى مخروط، ومعنا، جمع من المرافقين السعداء لنا، تجاوزنا سوراً مزدوجاً، واستقبلنا حرس الشرف، وقف حملة البنادق الذين يرتدون

ثياباً بيضاء في الوضع سلام سلاح، سارع أفراد الحاشية حاملو المظلات (الشملات) أرجوانية اللون بالاتجاه نحونا، وبين جمهور من الخدم كبار وصغار السن، أرشدونا من خلال أكواخ متعددة، مربعة الشكل متينة البناء، لها أسقف محمولة على دعامات، وجدران مبطنة بعيدان القصب، إلى أن وصلنا غرفة الاستقبال الرئيسية، رحب بنا دجيزماتش أسافا Asafa في تلك الغرفة، وهو رجل قصير وربع، بطئ الكلام، لكنه ذكى، جلسنا على وسادات مفروشة بالسجاد وشربنا العسل والماء الذي كان زلالاً تماماً، بينما كنا نتبادل التحيات والأمنيات والتمنيات الطيبة؛ لكن الكشف عن كرم ضيافة سعادته لنا لم يأت إلا في مرحلة لاحقة عندما جاء إلى مخيمنا، كنت أكتب في حين كان هارولد جونز يقوم بتعديل وضبط بعض الأشياء في عدساته من المقاس ست بوصات، بينما كان عمر يتناقش مع مالك البغال، وعندها بدأ يهبط موكب من الجبل أوحى لنا بأفريز لا ينتهى، كان ذلك الموكب قد وصل إلى خيامنا قبل أن نفيق من دهشتنا، وفي غصون دقائق معدودات، لم يكن قد تجمع حولنا عدد من الأغنام، والماعز، والبيوض، والدواجن والخبز المر رمادي اللون، وإنما كان هناك أيضاً عبيد كانوا ينزلون من فوق رءوسهم سلالا قرمزية اللون، راحوا يخرجون منها أطباقاً مغطاة الواحد بعد الآخر فيها طعام كان لا يزال حاراً.

كان حاكم آنكوبر قد أرسل لنا عشاء حبشياً يكفى اثنى عشر فردا، كما أرسل لنا أيضاً كمية كبيرة من مشروب التدج ومشروب البرز Birrz الذى له حلاوة العسل، كان لعاب جلان يسيل وهو يرتب ويصف هذه الأشياء الثمينة فوق الصناديق التى استعملناها طاولة فى هذه المناسبة، كانت هناك كتل من الدجاج المنقوع فى صلصة البريرى (今) Berberi كانت هناك أيضاً خلطة من السعير والزبد، وشرائح اللحم المشوى والبطاطس، وشرائح من لحم الطلّي والخضراوات، والكبد، وفاكهة صلبة صفراء اللون، ونحو اثنى عشر صنفا آخر، كلها متبلة ومغطاة بالصلصة على نحو يصعب معه تعرفها، لكنها كانت كلها لذيذة، قمت أنا وهارولد جونز بأخذ قطع مختلطة، من كل صنف من كله منه الأصناف، في طبقين من أطباق الحساء، ولففنا أنفسنا في بطانيات،

البربرى: نوع من الصلصة الحمراء الحريفة والخطرة على الحلق (المترجم)

لأن الجو كان باردًا كما لو كنا في كُنِّى Kunni، وجلسنا متعمدين نأكل إلى أن لم يعد بداخلنا متسع لمزيد من الطعام!

لم ندرك الجانب التعس من كرم ضيافة الأسافا إلا في الصباح، عند الساعة السابعة صباحاً كان المخيم بكامله مخموراً ومصمماً على أن يزداد سكّرًا على سكره، كان الموقف واضحاً للوهلة الأولى، نظراً لأن مالك البغال هو وبغالته كانوا متمردين داخل خيمتهم، التي قمت بتقويضها على رءوسهم في الحال، بأن خلعت الأوتاد من أماكنها، وكان الباقون منهم راقدين حول أوان متباينة الأحجام، وقرع مفرع مغرع مختلف الأحجام، وقرون حيوانات، وجرار كلها مليئة بمشروب التدج المستكر، لم تستغرق مسألة قلب هذه الأواني كلها رأساً على عقب سوى بضع ثوان؛ الأمر الذي كان على مرأى ومسمع من الجميع، على الرغم من اكتشافنا بعد ذلك أن بضعة أكواب من ذلك المشروب خُبئت بعناية خلف شجرة من الأشجار، ومع ذلك، كان من الصعوبة بمكان إعادة الرجال إلى العمل، انسحب البغالة خزياً من تحت كومة الخيش، وصادرنا كل السوائل التي أحضروها معهم، لكن مسألة تحميل البغال استغرقت ساعتين، وتداعت أمتعتنا كلها خلال المائة ياردة الأولى التي قطعناها.

وتحتم علينا وضع عمر الذي كان يشبه قطعة من المكرونة الرطبة، على سرج البغل بواسطة جوطة Gouta، وعندما بدأت الشمس تعمل عملها اضطررنا إلى ربط عمر كما لو كان برميلاً من الخشب للخمر والمخلات فوق البغل لمنعه من السقوط عند أول منحدر، أثبت الصباح أنه كان عامراً بالإحداث التي من هذا القبيل، فقد اضطررنا إلى الدوران الحاد حول الوادى وتسلق سلسلة الجبال المقابلة التي جعلت من آنكوبر قزماً، إلى أن أصبحت صخرتها الأسطوانية شبيهة بالطوربيد اللّبس بالرّخويات الذى تتعلق به الأكواخ الشبيهة بعيش الغراب في عناد وإصرار، سقط عمر هو وبغله في المجرى المائي الموجود في الغور، لكن الحمام البارد لم يكن تأثيره أكبر من الريح الباردة التي واجهتنا على الهضبة؛ في ذلك الفور، تركنا نباتات عباد الشمس الضخمة هي وأشواك الجمال التي يبلغ طول الواحدة منها اثنتي عشرة قدماً، والتي لها كرات من الوبر أرجواني اللون، في أرض بدت لنا حليقة (*) تماما.

[×] المقصود هنا: أن الأرض كانت جرداء تماماً. (المترجم)

استطعنا على بعد مسافة سبعين ميلاً، عبر المخروطات الجبلية، رؤية صحراء هواش البيضاء، في الاتجاه العكسى، وشاهدنا أيضاً الأراضي المرتفعة غير مطوية ومنبسطة، وكأنها الجمشت (ألله) لكنها كانت جرداء مثل الأخاديد والحواف المرتفعة التي تنتج محراثاً هرقلياً مميزاً.

قال بلاّم باراسيّ، ونحن نتتهد طلباً للتخفيف عن أنفسنا: "الطريق السيئ خلفنا! "نظراً لأن البغال التى أحضرناها من هرر لم يتبق منها سوى ست فقط، بدت وكأنها تذكارات من إحدي المصارعات الإسبانية للثيران، كنا قد اشترينا ثلاثة بغال آخرى من آنكوبر، وبعد مغادرتنا القرية مباشرة، كان حاكم القرية قد أرسل فى إثرنا بغلاً قوياً جميلاً، عمره خمس سنوات، وأصر على أن يكون هدية على أمل "الاحتفاظ بآنكوبر فى قلبى"، انشرح صدرى لهذه الهدية، وكنت ممنونة لها تماماً، لكن مسألة ركوبي فوق هذا البغل استلزمت ثلاثة رجال ووضع غماء على عيني "الهدية"، التي أصابها الرعب والفزع؛ بسبب كل من يحاول ركوبها، لكن ثبت أنها ركوبة ممتازة، وبخاصة على الهضبة نظراً لعدم وجود ما يجعلها تجفل أو تخاف.

كنت سعيدة جداً بخطو ركوبتى الجديدة إلى حد أنى رحت أوزع القروش على كل الأطفال الذين كانوا يجرون بجانبى وهم يصيحون "صدقه، وسوف تباركك مريم (المشاه الله الله الله الله الله عندما جاءنى مواطن مهندم، نظيف ومُزيَّت، ماداً يدم إلىَّ.

قال دستا: "هو يريد استعادة ابنه عن طريق شرائه من جديد".

"ماذا تقول! هل ولده عبد؟"

ضحك الآخرون "مرحبا! لا"، وأوضحوا إلى أن الرجل أحياناً ينذر طفله الوليد الجديد لله وبعد ذلك، إذا ما أراد خدماته، فإنه يسترد هذا الابن من الكنيسة نظير تكلفة متباينة، الطفل الذي يتراوح عمره بين خمس سنوات وعشرين سنة يمكن استرداده نظير جنيه واحد إنجليزي وأربعة عشر شلناً،

[﴿] الجمشت: بفتح الجيم والميم وتسكين الشين: حجر كريم ارجواني او بنفسجي، والمقصود هنا أن الأراضي المرتفعة المنبسطة مثل لون الجمشت. (المترجم)

^{*} المقصود هذا مريم العذراء ابنة عمران. (المترجم)

والبنت يمكن إعادة شرائها نظير جنيهين إنجليزيين وخمسة عشر شلناً؛ لكن هذه القيم انعكست في السنوات الأخيرة، وأصبح الرجل فيما بين سن العشرين والسنين، يساوى نحو ثلاثة جنيهات ذهبية بريطانية، في حين يقل ثمن المرأة عن ثمن الرجل شلنات قليلة.

يعد الإحسان فضيلة أساسية في الحبشة، وكما هو الحال بين العرب، فإن الشحاذة تعد عملاً مربحاً ومشروعاً، وأى شكل من أشكال التوسل يحظى برد من هذا العرق طيب القلب، لكن طلب الهارب يعد أقوى كل هذه الأمور، شريطة أن يكون ذلك الهارب حر المولد، وأنا أعتقد أن مساعدة أى إنسان على الهرب من العدالة تكاد تكون مبدأً دينياً عند هذا الشعب الطيب غير المنطقى، وربما كان سبب ذلك هو أن مسائلة الثأر هن كل أنحاء هذا البلد، أمر معترف به، على الرغم من تسوية مسائل الثأر هذه عن طريق النقود. في أحوال الثأر يجرى اقتسام الدية على أساس دفع ثمانين دولاراً لأسرة القتيل، وعشرين دولاراً للحكومة، وعشرين دولاراً للسلطة المحلية التي أصدرت الحكم، وفي الظروف التي تكون فيها شهوة الثأر والانتقام هي الأرجح وتتغلب على الحرص المالي الذي يتميز به السواد الأعظم من الأحباش، تجد أن الحكم من الطفل الذكر يمكن أن يُقتل عند مولده بواسطة امرأة شريرة عجوز تجرى رشوتها وتهريبها إلى أسرة ذلك الطفل للقيام بعملية الاغتيال هذه.

تكلم بلام باراسي عن عادات أخرى غريبة بينما كنا نواصل سيرنا متلكئين خلال الحشائش المقصوصة، بين بقع الأرض المحروثة، التي كان الرجال يعملون فيها باستخدام مناخيس من الخشب في حين كانت النساء يتبعنهم ويَرُحُن يقلبن التربة على شكل أكوام مستخدمات لذلك قطعا رقيقة من الخشب؛ لكن عمر سقط فاقداً الوعي، ورأسه مثل الحزمة المتورمة، يزاد على ذلك أن ترجمات الجندى جابرا جورجس Gorgis من الأمهرية التي كان يعرف شيئاً منها، إلى العربية التي لا يفهم منها شيئاً مطلقاً، جاءت مفاجئة على نحو يصعب معه تكرارها.

سرنا نحو ثماني ساعات، ونحن نحس بانتعاش بفعل ريح لها رائحة الزعتر، وقوة النبيذ، على الرغم من أن هارولد جونز أصر على أنه أحس وكأنه طبق من السُّوفلية (本) احترق وتجمد في الوقت نفسه، لم ننزلِ من فوق دوابنا، نظرًا لأن الأوصياء على القافلة بلغوا من ضيق الأفق حداً جعلهم يظنون أن كل ما ينبغي عليهم عمله هو السير، متناسين تزايد أعداد البغال التي كانت أمامهم، معتمدين في ذلك على ضرباتهم الطائشة وصياحهم الطائش أيضاً؛ لكن أثناء الركوب كنا نأكل البيض المسلوق، وتقصفت أظافرنا إن لم تكن أسناننا، بفعل آخر رغيف كان معنا من خبـز هواش، أعطيت شيئاً مما معى إلى بالام باراسيِّي، لكنه نحى تلك الأشياء جانباً بطريقة لطيفة، وراح يذكرنا أن اليوم كان يوم صيام، أيام الصوم هذه يجرى الالتزام بها في الحبشة المسيحية التزاماً صارماً، وفي أيام الأربعاء، والجمعة، لا يأكل المسيحيون الحليب، أو الزيدة، أو البيض، أو اللحوم، أو السمك، أو الدواجن، أو الحبوب اعتباراً من طلوع الفجر إلى الساعة التاسعة مساء، قيل لي إن ١١٥ يوماً من أيام العام في الحبشة، والتي تبدأ اعتباراً من اليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر، هي عبارة عن صوم أو أعياد في الحبشة، ومن خلال تجربة القافلة التي استغرقت منى ثلاثة أشهر، اكتشفت أن القسم الأكبر من تلك الأيام سالفة الذكر يقع ضمن هذه التجربة.

فى ضوء الخريطة الإنجليزية التى كانت معنا، فإن المسافة التى بين آنكوبر وأديس أبابا على الطريق الرئيسية تقدر بنحو ٥, ٨٨ ميل، لكن سيرنا بمعدل ٥,٧ ساعات كل يوم، جعلنا نقطع هذه المسافة فى أربعة أيام فقط، يزاد على ذلك أن بغال حمل الأمتعة المتعبة لا يمكن أن تسير بسرعة تزيد على ميلين ونصف الميل فى الساعة الواحدة، وعلى هذا الأساس أظن أن المسافة تقدر بنحو ٧٥,٥ ميلاً، وعليه يمكن القول إن آنكوبر تقع فى أقصى الغرب من هواش وذلك على العكس مما هو مبين على الخريطة، وإنها لمسادفة غريبة أن نجد أن الطريق من آنكوبر إلى أديس أبابا كان أقصر بمعدل ١٣ ميلاً عما كنا نتوقع، فى حين أن المسافة بين هواش وآنكوبر كما هى مبينة على الخريطة لا تزيد على ٥٣ ميلاً فى حين أنها تحو ٦٦ ميلاً

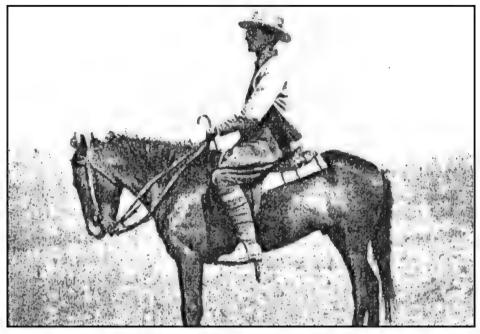
[🖈] سوفلية : طبق خاص يحتوى على بيض مخفوق بحيث يظل منتفخاً بعد طهيه. (المترجم)

تقريباً، وعليه، وجدنا أن الخرائط لم تزد من جمال رحلتنا، وسبب ذلك أننا لو كنا متصلبين ومعدومى التفاهم، ونعرف على نحو مؤلم أن السرج الحبشى مكون من لا شيء سوى عارضتين من الخشب إضافة إلى صلب الحيوان، لأمكن لنا أن يصبح مبتغانا وهدفنا عند أول منعطف، أو فوق الجبل التالى.

سرنا طيلة أربعة أيام عبر الهضبة، ولم يقطع لونها البنى المائل إلى الاصفرار أى شكل من أشكال الحياة النباتية، كان جابرا جورجس، من باب حكمته، قد أحضر معه حزمة من الحطب من آنكوبر، واستخدم عودين أو ثلاثة فى تسوية قهوة ساخنة، وطبخ على نار هادئة؛ لكن الجنود كانوا يجمعون الروث من الطريق ليستعملوه فى شب نار المساء، وهنا نجد أن الأسوار والأكواخ المبنية من الطين قد بدأت تحل محلها مجمعات سكنية مبنية من الحجر، وكان من بينها مجموعة من المساكن التى لها أسقف من العشب، وأن هذه المساكن كانت لا تزال مستديرة لكنها من الجرانيت والحجر الرملى المحلى، كان كل كوخ من الأكواخ محاطاً بنسخ مصغرة منه، كى يجرى فيها خزن الحبوب، وأقراص الروث المجفف، والبيرة المصنوعة من الشعير، إلى حد أن عيش الغراب بدا وكأنه عائلات تجمعت مع بعضها البعض تحت الطنف الأبوية البارزة التى قلدوها، كانت الأرض كلها ذهبية اللون وفيها المحصول الشعير، وكان الحصادون غارقين فيه إلى ركبهم، وفي أيديهم محصول الشعير، وكان الحصادون غارقين فيه إلى ركبهم، وفي أيديهم المناجل، وجلود الغنم السوداء كثيفة الصوف تتدلى من أكتافهم، ومربوطة في أرجلهم من الأمام.

طوال اليوم الأول كانت قرية مونت جمبيد Gimbebid وسط لونين أرجوانى وبنى يميل إلى الاصفرار فى الناحية الجنوبية منا، وعليه خيَّمنا فى تاره Tara بين واديين، حيث كان الماء أسود، كانت القرى التى تحمل أسماء عرقية، كلها مسلمة، ووصلنا إلى مقابرهم المستديرة استدارة أنيقة مثل أحواض الزهور، وكان القبر المخصص للرجال مميزاً بحجرين والقبر المحدد بثلاثة أحجار مخصصاً للنساء،" والسبب فى ذلك أن دفن المرأة يستفرق وقتاً أطول من دفن الرجل".

انحدرت الهضبة نحو الأعلى على شكل رُبي غريبة الشكل، وأوضح بالأم



السيد/ هارولد جونز: المصور السينمائي



ونحن على مقربة من ابيس ابابا

باراسيِّى المكان الذى سبق أن خيم فيه راس تفارى أثناء الحملة التى جردها على ساجالى Sagali ضد رأس ميكائيل Ras Mikael، والد الإمبراطور ليجى ياسو Liji yasu الذى عُزل مؤخراً.

قال بلاَّم باراستِّى مبالغاً "لقد حاربتم فى فرنسا سبع سنوات، أما هنا فى الحبشة فإن المعركة لم تدم سوى يومين، أسرنا بعدها راس ميكائيل، الذى توفاه الله فى السجن".

هذا الرئيس المشار إليه بدأ حياته على أنه راس على Ras Ali ملك الجلاً في وُلو Wollo لكن منليك هزمه وخيَّره بين الموت والدخول في المسيحية وأن يكون ذلك الدخول مصحوباً بالزواج من ابنة الإمبراطور، ووافق «راس على» على الزواج من ابنة الإمبراطور، لكن راس على لجأ إلى السلاح مرة أخرى، عندما جرى عزل ولده الذي أنجبه من ابنة الإمبراطور، بسبب ميولة الكبيرة إلى الإسلام، لصالح الإمبراطورة الحالية.

خلص بلام باراسيِّ بطريقة حالمة إلى أن "المعركة كانت جيدة، كان الرجال يضربون بالبنادق وبمدافع الماكينة وحيدة الماسورة التى تُبَرَّد بالماء، وبالرماح والنبابيت بل وحتى بالأحجار التى كانوا يأخذونها من الأرض".

أمضينا الليلة الثانية فى شانو Shano، وهنا تحتم علينا ترك عمر ومعه خيمة والجندى جابرا جورجس حتى يقوم على رعايته، والسبب فى ذلك أن عمر أثناء نوبة الشرب، كان قد خلط مشروب العَرَقى Araki مشروب التدج، وقد أصيب بحمى وبنوبة من نوبات القلب، وفور طلوع النهار قمنا بزيارة أقرب المنازل ورجوناهم توفير مأوى لقائد قافلتنا، وعرضنا عليهم مبلغاً كبيراً، لكن القرويين كانوا بلا رحمة.

قالوا لنا: "سنعطیه النار، والماء والحلیب والطعام، لکن لیس عندنا مکان للمرضی؛ وعلیه وضعت الدولارات فی یدی جابرا جورجس السوداوین، ونبهته إلی إخفائها فی مکان أمین، وأن یقوم بإحضار عمر إلی أدیس أبابا بأسرع وقت ممکن حالما یصبح قادراً علی رکوب البغل، رد علی جابرا جورجس قائلا: "علی رأسی وعلی عینی، لا تشغلی بالك، لأنی أنا الذی سأدفنه".

قلت: "تدفنه!"

عدّل الجندى كلامه "إن شفاه الله سأحضره إليك، لكنى أرى الخطر في عينه".

كان على صواب فيما قال، لأن قائد القافلة توفى بعد ذلك بيومين.

غادرنا شانو ووصلنا إلى تولوفان Tullofan حيث توجد مجموعة قليلة من نباتات البوكالبتوس وردية اللون، كانت تتالألاً على حافة وادى بولجا Bulga، الذي كان عامراً بالصخور الوعرة حمراء اللون وأرجوانية اللون؛ كان ذلك الوادي يزداد اتساعاً في اتجاهه نحو الجنوب الغربي صوب السهل، وصلنا إلى ذلك السهل فجأة عن طريق مزلق من مزالقنا الصخرية القديمة، كان نبات الأغرسا Eghersa تنتشر أشجاره الشبيهة بخصلات الشعر حول كنيسة غربية قديمة على رابية صغيرة، وكانت جبال يرر yerrer هي وزكوال Zucqual البعيدة بشيران إلينا باتجاه العاصمة، جاء مخيمنا الأخير على رقعة من الأرض الواسعة الموجودة أسفل غابة باك مريم Bakke Maryam؛ وركزت بصرى على المنتوجات التي يقوم رئيس القرية الكريم بتوزيعها، لم يصل أي شيء من مشروب التدج، لكننا رحلنا في اليوم التالي ومعنا نحو سنة من الماعز السمان، التي بلغت من الكبر حداً، جعل الرجال غير قادرين على أكل سوى اثنتين فقط من هذه إلماعز، كان من رأى هارولد جونز أن الماعز المتبقية يمكن أن تكون بديلا ممتازاً، إذا ما انهارت البغال أمام سلسلة صخور براك Barrak، التي رافقتنا في اتجاه الشمال لمسافة عشرين ميلاً، وتحتم علينا عبور هذه السلسلة في نهاية المطاف.

وافق كل أفراد القافلة فرحين فى اليوم الثالث والعشرين من المسيرة التى بدأناها من داير داوا، والمصادف لليوم الثامن عشر من مفادرتنا هرر على أن "بيننا وبين أديس أبابا أربع ساعات فقط". كان قطيع كبير من طيور اللقلق رمادية اللون يراقب رحيلنا، وحومت الغربان والصقور حولنا، لكن للأسف، وبعد أن كدنا نجف بعد خمس ساعات من المسير فى ريح كانت تدفعنا من الخلف، بدأنا فى تسلق أحجار براك المتراجعة بشكل غريب، ومن فوق قمة هذه الأحجار ألقينا أولى نظراتنا على غابات اليوكالبتوس، التى لها لون رمادى ضارب إلى الزرقة، الذى كانت منازل العاصمة تلعب لعبة الاستغماية،

بعد مسير دام ساعتين أخريين التقينا مبعوثاً من قبل راس تفارى؛ كان ذلك المبعوث شخصية محترمة، والذى أظهرت ملابسه شديدة البياض كمية التراب والأوساخ التى كانت على ملابسنا، كان جلان وحده، مرتدياً ملابس نظيفة كاكية اللون، يزاد على ذلك أن بلام باراسى كان يبدو عليه التأكد من أن ملابس جلان قد وضعت مؤخراً في طشت الغسيل.

سالنى هارولد جونز فى شىء من القلق "هل ترين أن من المناسب لى أن أرتدى أو لا أرتدى رباط عنق؟ لكنى كنت مشفولة تماماً بحذائى الذى بدأ يتشقق فى كثير من المواضع".

كان بلاَّم باراسِّى شغوفاً باقترابنا من المدينة فى خبب سريع الحركة، يجرى خلاله الجنود فى مقدمة الركب، ومن حول رُكَّاب البغال، لكن بغل هارولد جونز خارت قواه وانتهى.

قال صديقنا "أمسك البغل من رأسه؛ لأنه عندما يخفضه إلى الأسفل يتذكر أنه مُتُعب".

تجاوب البغل مع لمسة هارولد جونز الرحيمة له على الشكيمة، لكن حياة المدينة كانت قاسية تماماً على أعصاب بغلى، كان اليوم مصادفاً ليوم السوق، ووسط موجة من التراب الخانق مثل ضباب لندن، بدأت تتحرك في شوارع المدينة جماهير مختلفة الأوصاف، من النقل، والقيادة، والسياقة، ودفع أي شيء من الأثاث إلى الأغنام، أو ذلك الذي يشبه الدَّريس، مع كل شبح جديد، يبدو كما لو كان عجلاً ملفوفاً حول عنق رجل، أو كل حزمة من حزم القصب التي كانت تبدو وكأنها تسير من تلقاء نفسها، كانت راحلتي (ركوبتي) تغوص وترفس، مشتتة بذلك الشحاذين، ومسيئة إلى السواد الأعظم من المواطنين المحترمين لابسي أغطية الرأس السوداء، والمتلف حين والمختفين تحت مظلاتهم، والذين يهزون منشاتهم في أيديهم، وأصابع أقدامهم مستقرة في ركابهم، الذين راحوا يتصدرون الموكب مرشدين إيانا إلى المسار الخالي من العقبات، أخشى ألا نكون رصيداً لناصحنا صاحب الخبر، لكن الرجل كان شفوقاً وحانياً للغاية، وبانتهاء الساعة الثامنة، ثبت أن تأكيداته المتكررة كانت صادقة فيما يتصل باقترابنا من الفندق.

مشينا خلال آخر منطقة غابية ذكية الرائحة، عبر منخفض أحمر، وخلال

بدايات ونهايات الشوارع التى كانت المناطق الوسطى منها عبارة عن سدود غير كاملة، جرى إلقاء الحجارة فيها بشكل سائب بحيث تقوم بدو الميازيب، ومشينا أيضاً بين مئات الأكواخ المبنية من الطين، ونحتمى بأشجار الصمغ.

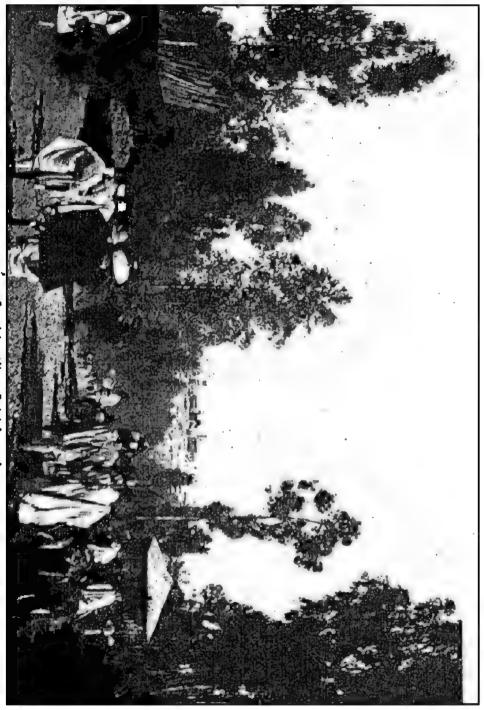
قال جلان متعجباً، وناسياً أنه مسيحى "الحمد لله .. لقد وصلنا إلى الفندق". وبهزة نجم عنها انحراف سرج بغله نحو جنب من جانبى البغل، نزل الرجل إلى الأرض "إن شاء الله سنمكث هنا أياماً كثيرة وسوف لا أراك مرة ثانية!" ثم رفس بغله، الذي رد عليه برفسة مماثلة وأشد.

♦ الفصل التاسع

مرينة (الغابة:

أصبحت أديس أبابا، "الزهرة الجديدة"، عاصمة للبلاد في العام ١٨٩٦ الميلادي عندما قام منليك بتوسيع القرية التي أنشأها قبل أربع سنوات، بأن منع قطع الغابات، وأمر بزراعة أشجار ومزارع الصمغ على نطاق واسع، على أن تقوم كل أسرة بزراعة ما تستطيعه من هذه الأشجار، تقع أديس أبابا في طبق محصور بين إنتوتو Entoto على ارتفاع عشرة آلاف قدم، وجبال أخرى تشكل حافة المنحنى المنخفض المعطر الذي فيه آلاف من أكواخ عيش الغراب وعشرات الآلاف من الأشجار، الهواء هنا له حلاوة العسل، وقوى إلى الحد الذي ينسى الإنسان معه ضآلة عدد ساعات النوم التي يمكن أن ينعم بها عند هذا الارتفاع ٨٠٠٠ قدم على وجه التقريب، أشعة الشمس هنا في أديس أبابا براقة إلى حد ما، لكنها خالية من التقابل بين السواد والبياض في الضوء الأفريقي، الغابة هنا شبيهة بمجموعة متباينة من الرماح، التي يتلألأ الجزء المعدني منها في مهب الريح، وفيما بين زرفتها المعدنية توجد بعض الشامات التي تتمثل في بيوت بيضاء مبنية من الحجر، ومسقوفة بالصاح المضلع، وفيها أيضاً بقع من الطين عبارة عن أكواخ، والتلال الصغيرة، التي تتجمع الطرق عندها مكونة من ربوة صخرية صغيرة وجلمود صخري أيضاً، فهي تعد أقزاماً إذا ما قيست على قصر الإمبراطورة Gibbe، القصر يعد تكتلاً من عِـمـارة الأسـقف، المنبـسطة، والمستديرة، والمدببـة، ومن الظَّلُل، والمنزل والشَّرف، ولكونه يعد أعلى المباني كلها فهو شبيه بالمعبد اليوناني القديم.

إذا كانت كل مدينة من مدن الدنيا فيها شيء مختلف وروح مختلفة أيضاً، فإن أديس أبابا وبكل تأكيد هي الأكثر روغانا من ذلك، نظراً لأنها لا تعد غير



انيس أبابا، قصر الإمبراطورية من بُعد

متحضرة Barbaric، أو تقليدية، أو خارجة على القانون، أو عديمة الحيوية، وإنما هي شيء مستقل منفرد عن ذلك كله، وهي تفخر بموروث تأخذه أمراً مسلماً به، وهي متواضعة أيضاً على نحو يفوق بريق الارتباك خجلاً أمام الآخرين، أنا لم أمكث في المدينة الغابة كيما أدرك ما هو أكثر من ذلك، في التناقضات العنيفة لهذه المدينة وفي عنفها اللطيف، نظراً لأن أديس أبابا تعد صورة من أهلها، أدبس أبابا فيها قليل من البنابات الحديثة – فيها فندق، وفيها بنك الحبشة، وفيها المندوبيات الرسمية، وفيها بطبيعة الحال قصور الأسرة المالكة، لكن الأكواخ تفوق كل هذه الأشياء من الناحية العددية، وتكتم أنفاسها مثلما يحدث عندما ترجح كفة بساطة الاكتفاء الذاتي على كل من التأثير الأفريقي والأوروبي، سكان أديس أبابا الذين يبلغ عددهم نحو ٦٠٠٠٠ نسمة فيهم أعداد كبيرة من الليفانتين(太)، والأرمن، واليونانيين، والسوريين، وفيهم أيضاً بعض الهنود واليمنيين صفر البشرة، لكن هؤلاء جميعاً مفروضون على الحياة الوطنية، ويظلون منفصلين عنها، وإن شئت فقل شيئًا غير مرغوب فيه، على الرغم من أن هؤلاء يسيطرون على التجارة والصناعة في العاصمة، لو قدر لهؤلاء الأجانب أن يتركوا البلاد غداً فإن أهل أديس أبابا الأصليين لن يحدث لهم أي تغيير.

صحيح أنه فى أديس أبابا نحو ست سيارات، تعمل على الطرق الشبيهة بالخنادق أو الأرض المحروثة فى معظم الأحيان، لكن الجمل هو السيارة رباعية الدفع والبغل هو السيارة الأجرة (التاكسي).

القبعات المصنوعة من الفلين، وكذلك القبعات المصنوعة من اللباد على اختلاف أنواعها موجودة فى أديس أبابا جنباً إلى جنب مع عمائم القساوسة بيضاء اللون، والرأس حليق أو خصل الشعر المربوطة من طرفها بالمظلة أو الشملة، لكن المظلة المصنوعة من الأعشاب تُظل جموع الناس، كما لو كانت أشرعة سفن يداعبها النسيم.

تتألف الحياة فى هذه المدينة من الأسواق التى فيها آلاف البشر، بل ومكتظة بآلاف السكان، الفلاحين، والتجار، وسكان الجبال المسلحين بالرماح، والمسلمين؛ والنساء اللاتى يسرن على أقدامهن واللاتى يركبن الحمير؛ وهذا

المترجم) البحر الأبيض المتوسط (المترجم)

هو سيد يمضي راكباً فلواً، وتابعوه يسيرون مهرولين عند ركابه؛ وهذه هي سيدة ملفوفة في ملابسها فوق بغل من البغال- هذه النوعيات كلها مضفورة على شكل سجادة بشرية، لكن هذا المنظر يهيمن عليه قصر الإمبراطورة والكنائس، وعليه فإن الرهبنة هي التي تهيمن على هذا العرق المتدين قليل التعليم، لكن تلك الهيمنة تكون في ظل حكم أو عرش يملك الأرض كلها، وبيده حق الموت والحياة على كل واحد من رعاياه، ومن حقه طلب العمل في وقت السلم والقتال في زمن الحرب، هذه منظومة إقطاعية تشكلت بفعل دهاء منليك، الذي وقف على مسئلة الراسات Rases الوراثية، إذ كان كل واحد منهم هو الآمر بالحرب في مقاطعته، ثم راح بعد ذلك وبطريقة متدرجة يستبدل هؤلاء الراسات بحكامه، بحيث يكونون تابعين للسلطة المركزية في أديس أبابا، لكن المنظومة في جوهرها إقطاعية يديرها ولي عهد ليبرالي الذهن.

معروف أن أفريقيا بدائية ومعروف أيضاً أن جمار العنف القديم لا تزال متقدة تحت السطح، لكن هنا يمكن القول: إن الحبشة ليست هي إفريقيا، لأن عنف الحبشة لطيف مثل ابتسامات وإيماءات وإشارات أهلها.

هنا فى الحبشة قد يُعدم القاتل على الملأ بطريقة بطيئة وفيها شىء من الإهمال، وقد يسلم لإعدامه بأيدى أسرة الضحية، لكى يكون ذلك صورة طبق الأصل من الجريمة التى ارتكبها القاتل، ومع ذلك فإن الأحباش يكرهون إزهاق الأرواح، والأحباش بدلاً من أن يعدموا حصاناً كُسرت إحدى رجليه، يتركونه يعرج بلا أية فائدة، هذا فى الوقت الذى لا يحاول فيه أى أحد من الأحباش قتل أى كلب من الكلاب التى تعمل كزبالين فى المدينة، وتجعل ليل المدينة لا يطاق بسبب نباحها المستمر، سمعنا أشياء عن تعذيب جرى فى الذينة لا يطاق بسبب نباحها المستمر، سمعنا أشياء عن تعذيب جرى فى الأشياء، لكن على الرغم من حدة وسذاجة العدالة الحبشية، فإن قسوتها لا يمكن مقارنتها بقسوة عدالة الإسلام فى ليبيا المتشددة، وفى عسير أو فى جبال رزيولى Raisuli المغربية.

الناس فى أديس أبابا لا يركبون مطاياهم منفردين، إذ لابد دوماً من وجود ذكر أو عبدين، أو بضعة أفراد من حملة البنادق، أو صبى يحمل منشة

يحركها على الجانبين، ويتباين عدد هؤلاء الحراس حسب أهمية السيّد، وهنا في الحبشة لا يمشى أحد على قدميه طالما كان قادراً على اقتناء دابة من أى نوع، واقع الأمر، أنى أرى أن دفع الناس إلى سرعة الحركة فى أديس أبابا أمر غير مطلوب بل ومنبوذ، يزاد على ذلك أن كبار السن عندما يضطرون إلى المشى بضع خطوات يجرى الإمساك بهم ومساعدتهم عن طريق الإمساك بهم من عند إبطهم، من هنا نجد أن حركة المرور كثيفة وبطيئة فى أديس أبابا، وعليه فإن الانحناء علامة التبجيل والاحترام أكثر شيوعاً من التدافع فى هذا البلد، يزاد على ذلك أن أية رفسة يوجهها أى بغل من البغال لأى أحد من السيّارة تفضى إلى إدخال راكب هذا البغل إلى السجن، أو قد تقضى به إلى حبل المشنقة، نظراً لأن القتل الخطأ يعامل معاملة القتل العمد.

من هنا، يمكن القول إن أديس أبابا هى خير ممثل للصراع الخارجى والأمان الداخلى، والتناقض بين الثياب البيضاء والأكواخ المبنية من الطين، والتناقض بين إمكانات العلم الحديثة وشبكة الموروث العادات والتقاليد، بل وحتى التناقض بين المسيحية وأفريقيا التى أحرقتها الخرافات، هذه المدينة الغابة معقدة ومحيِّرة شأنها شأن المشكلات التى تحف بعرقها الذى لم يقهر.

أمضينا صباحنا الأول فى أديس أبابا فى دفع مستحقات القافلة، ووقع كل واحد من أفراد القافلة ببصمة إبهامه إقراراً منه باستلام حقوقه، وقد امتد ذلك الإقرار إلى صفحات عدة من اللغة الأمهرية، بعد ذلك أصبحنا احراراً فى الخروج لتصيد لقطات معينة باستخدام آلة التصوير السينمائى، أديس أبابا مكان يصعب فيه التصوير، نظراً لأن الأشجار تحجب المناظر والرؤية، يزاد على ذلك أن المسافات يبالغ فيها عندما يكون الإنسان راكباً دابة من الدواب، المسافة فيما بين الفندق والمفوضيات تستغرق ساعة تقريباً على ظهر بغل من البغال، وهذه المسافة تمر عبر الجبل من أعلى إلى الأسفل وعبر بعض الأنهار، كما تمر أيضاً بالأسواق، والمركز التجارى؛ هذه المفوضيات لها بساتين جميلة جرى إنشاؤها وسط أميال من الأراضى الغابية، وجدنا كل بساتين جميلة جرى إنشاؤها وسط أميال من الأراضى الغابية، وجدنا كل الهرج والمرج يصيب راكبى الدواب وهم يقصدون أقرب المنعطفات إليهم الهرج والمرج يصيب راكبى الدواب وهم يقصدون أقرب المنعطفات إليهم

لإفساح الطريق أمام السيارة. الأسوأ من هذا، أن بعض المحدثين المُضلِّلين كانوا قد أدخلوا العربة البخارية لأول مرة، وكان منظر هذه العربة من مسافة نصف ميل كافياً لإرباك الحيوانات كلها ويصيبها بالتشنج، وبنهاية أول مصادفة لنا مع العربة البخارية، انتنى هارولد جونز انتناء رشيقاً حول أذنى بغله، وقد تعلق السرج في عرف البغل، في الوقت الذي سارعت أنا فيه بالنزول عن البغل، وأنا ممسوكة بطرف من طرفي اللجام، في حين راح البغل يتأرجح صاعداً إلى الأعلى ونازلاً إلى الأسفل، في حين كان جُل الفرس ينزلق إلى الخلف في اتجاه الذيل مع كل وثبة يثبها البغل إلى أعلى، أسفرت الوثبة الأخيرة عن سقوطي في الحفرة وأنا متعلقة بلجام البغل.

قال الغريب الوسيم الذي جاء لإنقاذي: "هذا بغل ريفي، إنه ليس من بغال المدينة".

قلت وأنا أنفض التراب عنى بحيطة وحذر: "ريما يكون من البغال الرعوية!"

كانت أحواض الأنهار، التى هى عبارة عن سقوف ضيقة بين الصخور، تسر الخاطر دائماً فى فترة الصباح، عندما يكون السواد الأعظم من السكان مشغولين بعملية الغسل، غسل أنفسهم، وملابسهم، أو حاجيات منازلهم، كانت جلاميد الصخر لامعة بفعل الصابون، إذ كان الماء عليه رغوة من رغوات الصابون، فى حين كانت المظلات (الشملات) البيضاء بياض الثلج متروكة لتجف فى الشمس، وهى فى تناقض غريب مع بشرة أصحابها السوداء، وراح يزداد لمعانها بعد دعكها دعكاً شديداً.

اعتباراً من الساعة الثامنة يبدأ غبار الطلع ذهبى اللون فى التخييم على القطعان وجماعات الماشية القادمة إلى المدينة، والتى يتخللها هنا وهناك ثور طويل القرنين، يروح ينطح على طول الطريق إلى أن بدأت الحبال المتدلية من القرون والأعقاب تتوتر فى اتجاهات مختلفة ومتعاكسة، وكانت تلك هى اللحظة التى تحينتها قافلة من الإبل لتشكل نفسها على شكل الرقم ٨ المفضل عند هذا النوع من الحيوانات، كانت سوق الحبوب مثل خلية النحل حتى وقت الظهيرة، وكانت عامرة أيضاً بالحمير المحملة بجوالات من الجلد مملوءة بالحبوب؛ أما

الجُل: بضم الجيم هو غطاء مزركش لسرج الفرس أو البغل. (المترجم)

الحمّالون والعمال اليدويون في العاصمة Gourages، والذين يبدون أقوياء البني في ستراتهم المصنوعة من جلود الأغنام؛ ونساء الجلاّ، بالزيت الكثيف الذي في جدائل شعرهن؛ والخيول بظهورها المخدوشة كما لو كان ذلك بفعل الشباك المعدنية؛ وبنات المدينة الجذابات برءوسهن المزيّنة بالقماش المضلَّع، وقد حملت الواحدة منهن على ظهرها طفلاً أو قرعة مفرَّعة؛ وكذلك المظلات الشبيهة بالتوجا (ألم)، وكذلك غيارات ألبسة الفلاحين المدهونة بالزيت.

كانت تتجول فى سعادة وسط هذا الجمع من الناس أزواج كثيرة من المدينين والدائنين، ومن المدعين والمتهمين، وكانوا جميعاً مربوطين إلى بعضهم البعض بسلسلة تكفى لتقييد أربعة أقدام، لا أحد يحبس فى الحبشة إلا بعد ثبوت التهمة عليه، وبذلك تصبح هذه الطريقة وسيلة لضمان عدم هرب المتهم، وإذا ما اتهم رجل امرأة، تعين عليه إحضار قريبة من قريباته لربطها فى السلسلة مع المتهمة لحين صدور الحكم؛ فى حين يكون العكس صحيحاً، بطبيعة الحال، عندما يكون المدين ذكراً أو الدائنة أنثى، فى مثل هذا الحال يظل الاثنان مربوطين بالسلاسل ليلاً ونهاراً، وعادة ما يرسلان للعيش فى منزل صديق للطرفين أو منزل شخص آخر من الأشخاص الثقات.

كنا نمر في بعض الأحيان، دون إعداد مسبق، على المحاكم، ويروح مرشدنا يوضح لنا ويشرح لنا كثيراً من الأمور وسط جمع من الناس وهو يشير بيديه إلى أشياء مختلفة، في مثل هذه المناسبات يمكن استدعاء أي أحد من المارين ليكون قاضياً، ويروح يفض النزاع القائم حول ملكية الدواب، أو قضايا السرقة البسيطة أو التلفيات، مثل هذا الشخص يأخذ مهمته مأخذ الجد ويستمع في صبر وتأن إلى مختلف الشهود، الذين يفيضون في توضيح قصصهم، محاكين عملية سحب نعجة من النعاج، أو سرقة الحبوب بطريقة مسرحية، قد يطلب من المدعى ومن المنهم إثبات صدق أقوالهم بطريقة مادية، إلى حد أنه إذا قال المدعى: "أراهن على شاة أن كلامي صحيح"، فإن القاضي يسأل المتهم عما يراهن عليه من عسل أو حبوب أو جلود، حتى يثبت صدق كلامه، وهنا لا يخسر الخاسر قضيته فقط وإنما يخسر معها أيضاً الحيوانات أو المنتوجات التي راهن عليها؛ وهنا يجرى دوماً التسليم بما يقضى به ذلك القاضي غير الرسمي.

^{*} التوجا: ثوب روماني فضفاض. (المترجم)

تقدم القضايا المهمة إلى المحكمة، التي يجري فيها تطبيق القانون المدنى وقانون العقوبات الدينيين القديمين المأخوذين عن شريعة سيدنا موسى، وبواسطة قضاة أكبرهم هو آفانيجوس (مع) Afa Negus، ويقوم القساوسة بدور المقيمين، نظراً لأن القساوسة هم الوحيدون الذين يستطيعون فهم لغة الجعزُّ التي بَطُل استعمالها، والتي ترجم فيثا نجاست القرن الرابع في تاريخ لاحق، الملك وحده في الحبشة هو الذي يقضى بعقوبة الإعدام، وعليه فإن القتلة يجرى إرسالهم إلى أديس أبابا لتجرى محاكمتهم هناك، كما يجري في أديس أبابا إصدار المراسيم الملكية التي تقضى بإعدام هؤلاء القتلة بواسطة أقرب أقارب القتيل وبالطريقة نفسها التي جرى بها قتل الضحية، لابد وأن هذا الإجراء كان يستثير الكثير من القسوة، عندما كان يجرى تسليم القاتل لتشأر منه الزوجة الثكلي أو الأب الذي فقد ولده، أما الآن، وفي حال رفض استلام الدِّية، وإذا ما كانت الجريمة من النوع الذي يعاقب بالإعدام على الملأ، فإن المحكوم عليه بالإعدام يجرى اقتياده إلى غور خلف محطة السكة الحديد، ويذهب معه أهله لأخذ جثمانه، وتذهب إلى ذلك الغور أيضاً أسرة المقتول، ويظل إلى اللحظة الأخيرة الجدل يحتدم بينهم، إذ يعرض الأول ويرفض الآخر، ويتزايد حجم الرشوة مع اقتراب الطرفين إلى وادى قبور المجرمين، وبين أولئك وهؤلاء يقوم سدنة القانون بتسليم المحكوم عليه بالإعدام أو المحكوم عليهم بالإعدام، إلى الأسر صاحبة الثأر، ثم يتراجعون خطوات قليلة إلى الوراء ليراقبوا ما يحدث دون إحداث أي تعذيب أو أذى بالمحكوم عليه بالإعدام،

هذه العملية كلها تجرى بسرعة وبطريقة مهذبة، يمسك أقارب المقتول شديدى البأس بالمحكوم عليه بالإعدام، فى حين تقوم أرملة القتيل أو رب العائلة بتوجيه الضربة الأولى بسكين، أو بفتح النار، طبقاً للطريقة التى حدثت بها واقعة القتل الأصلية، وإذا ما تطلب الأمر، إذ ريما تكون الآخذة بالثأر امرأة، يتعين عليها طعن القاتل الذى قتل زوجها، فإن القتل فى مثل هذه الحالة يمكن أن يتم بواسطة قريب آخر، تصل الشرطة بعد ذلك وتسأل عما إذا كان العقاب قد نُفُد أم لا، وهنا يقول صاحب الثار سواء أكان ابناً أم

[🖈] معنى هذا الاسم الأمهرى: قاه الملوك. (المترجم)

أخاً، باللغة الأمهرية: Menelik Ye بعد منايك"؛ بعد هذا القسم الذي يعد أغلظ يمين في مفردات الحبشة يقضى به منايك"؛ بعد هذا القسم الذي يعد أغلظ يمين في مفردات الحبشة كلها يطالب الآباء المنتظرون الواقفون على مقربة للتأكد من التنفيذ العادل، بجثة القتيل، وإذا ما تصادف أن النفس لا يزال في الجثة أو فيها شئ من رمق الحياة وهذا يحدث في بعض الأحيان عندما يكون الجلاد غير محترف أو كبير السن، يجرى حمله إلى أقرب مستشفى، وإذا ما شفى مثل هذا المصاب فهو في عداد من أنزل به العقاب، لأن الخوف من اليمين المغلّظة يعنى أن أسرة القتيل قد أقرت بالتخلى عن الدية.

حدث عندما كنا في أديس أبابا تنفيذاً لواحد من أحكام الإعدام تلك، في الغور الذي تغمره أشعة الشمس ويقع خلف أشجار الصمغ، في تلك الحالة كان المحكوم رجلاً آثماً سيئ السمعة، وحضر تنفيذ الإعدام جمهور يقدر بمائتي أو ثلاثمائة فرد كانوا يقفون عن بعد، وجرى اقتياد المحكوم عليه بالإعدام، وهو مقيد الذراعين خلف ظهره، بواسطة حارسين، لإنزاله من المنحدر، وكان يصيح طوال نزوله معلناً عدد الرجال، والفيلة والأسود التي قتلها، كان يقف بالقرب منه رجل يحمل سيفاً، في حين قام اثنان من أقارب ضحيته الأخيرة برميه بالرصاص في رأسه من مسافة قريبة، لم تنطلق البندقية الأولى، لكن الموت كان فورياً وفي الحال. وعلى الفور، تراجع الجلادون، تاركين المكان لأصدقاء القتيل، الذين حملوا الجثة تحت ملاءة حملوها على شكل مظلة، إلى المكان الذي كان حفارو القبور يعملون فيه لتجهيز حفرة الدفن، هذا العمل، البدائي، الوضيع والمؤثر استغرق ثلاث دقائق من بدء ظهور المحكوم عليه بالإعدام إلى حمل الجثمان، لم يكن في هذا العمل أية إثارة أو فضول من قبل الجمهور، الذي تعود على إنجاز كل أعمال الحياة بصورة علنية وفي الهواء الطلق، ليس هذا فحسب وإنما الناس هنا يفضلون تسوية هذه الأمور بأنفسهم.

أديس أبابا ليس فيها محامون، اللهم باستثناء المحاكم القنصلية، التى تبت فى المنازعات بين مواطنى هذه القنصليات ورعاياها، وفى حال ما إذا كان الأمر يتعلق بأوروبى وحبشى، فإن قنصل الأوروبى يجرى إشراكه باعتباره قاضياً مساعداً، وعندما لا تتفق خلاصته مع خلاصة رئيس المحكمة

الحبشى، تجرى إحالة القضية إلى راس تفارى، الجندى، أو السياسى، أو المصلح الاجتماعي، المسموح له بالقول "أنا الدولة، والدولة أنا".

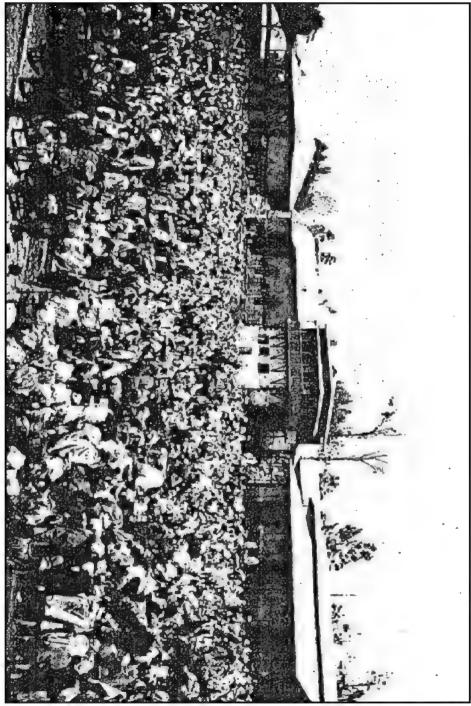
كنت أتطلع إلى لقاء وريث هذه المشكلات الكبيرة، وربما كان وريثاً أيضاً لفرص كبيرة، لأني أحسست بأن، كونه ممثلاً لأفضل الحبشيين وأوسعهم أفقاً، ريما يجعله مفتاحاً لحل ألغازها، حضرت حفل شاى في عصر أحد الأيام، في منزل كبير يقع على ربوة من الروابي، وفيه غرفة استقبال طويلة على الطراز الأوروبي، جدرانها بيضاء، وقماش قطني منقوش (شيت) وسجاد سميك، كانت غرفة جميلة تطل على حديقة؛ وكان بعدها بوابة متوجة بأسد، ومجموعة من الحرس الخاص يلبسون الكاكي، كان الرَّاس Ras هو وزوجته، الأميرة منن، جالسين جنباً إلى جنب على أريكة، وكان الرّاس يرتدي عباءة زرقاء ملكية كبيرة، في حين كانت الأميرة ترتدي عباءة سوداء مركباً على أطرفها قيطان (حافة) أحمر اللون من فوق مظلة (شملة) فاخرة مثل بيت العنكبوت، نهضا واقفين لتحيتي، ووجدت نفسي أمام رجل متوسط الطول، نحيف وقوى، وله يدان جميلتان أمسكتا بيدى بإحكام، معروف أن الأيدى تنبئ عن الشخصية، وشخصية ولى العهد عملية وفنية، لم يستعمل ولى العهد يديه في الإفراط في الإشارات، لكنها أعطتني انطباعاً بالهدوء والثقة بالنفس، كان جميلاً بحق أن أتحدث إلى أمير وأميرة، إذ كان واضحاً أن هناك نوعاً من التعاطف بينهما. كانت اهتماماتهما مشتركة، والأفضل من ذلك كله ضحكتهما، راس تفارى يتكلم الفرنسية والعربية ويستعمل الاثنتين في أسئلته الذكية المتعلقة بترجالي، لكن الأميرة تتكلم من خلال مترجم، وأنا أذكر أننا ناقشنا سيام، التي زرتها والتي سرتهما باعتبارها مملكة محلية مستقلة، مغلولة بالتقاليد والعادات القديمة، لكنها منجذبة إلى التقدم الحديث.

قلت: "آمل ألا تتطور بسرعة، لأن الموروثات القديمة لها أهميتها".

ابتسم الراس، وتهلل وجهه إلى أن أصبح غير شبيه بملوك جوده Judah، الذين ماتوا قبل ثلاثة آلاف عام، وكانوا أسلافاً له، جاءت ابتسامته جادة وحانية، وكان فيها شيء من الالتماع والإضاءة، وهو يجعل سحر الجديد ينافس القديم، والمفيد والمنتج ينافس المسرف والمبذر والصعلوكي.



موسيقيون في اديس ابابا



السوق الرئيسية في اديس ابابا

أحضر الخدم لنا ألذ وأطيب شاى شربته خارج هونج كونج، التى يعد تصليح الشاى فيها طقساً من الطقوس، يتكون من عشرات الحُقّات الصغيرة ونحو ستة أوعية، بينما كنا نأكل الكعك بصفة خاصة، ونحن نحس بالخجل والكسوف، لأن مُضيِّفينا كانا صائمين، خطر ببالى فضول دفعنى إلى مناقشة طرق السيارات والرى مع رجل تؤهله قسماته إلى وضع صورته وطبعها على عملات سليمان المعدنية، أهم ما في الأمر، أنى وجدت أن الأميرة وأنا كنا متفقتين على تلك الموضوعات المتباينة التي من قبيل الزواج والشخصيات الفلسطينية.

عدت إلى المخيم بعد غروب الشمس، عندما كانت الأشجار سراً معطراً، وفيما بينها مئات النيران التى كانت تتلألأ خارج الأكواخ، كان الدخان شبيها بالضباب، ومصطبغاً باللون الأزرق بين نباتات اليوكالبتوس، وعلى خلفية البقع البرتقالية الأخيرة تحولت السهام إلى ريش، وكانت أطرافها مشتبكة بشبكة الجواهر السماوية، انتقى البغل مساره برزانة، كانت حوافر البغل تحدث صوتاً مصاحباً لصوت مستمر شبيه بخفقان القلب، كان ذلك الصوت صادراً عن قيثارة يجرى العزف عليها في مكان بعيد أعلى الربوة، حيث كان اللهب يتردد ما بين الدخان والخيال، كنت قلقة مخافة أن يخرجني وقع الأقدام الذي يتبعني من هذا الوهم، كان أريج الغابة وصمتها مثل زجاج متقزع الألوان ويهب على نحو كنت أخشى معه أن يتبدد بفعل نغمة من نغمات الموسيقي.

مررت عبر ميدان السوق، كان القصابون الهنود يغلقون محالهم، كان واحد منهم خارجاً من دكانه حاملاً معه كومة من اللحم النيئ، الذي منعه قانونه من الاحتفاظ بها إلى الغد.

راح القصاب ينادى الكلاب مرة بعد أخرى وهو يقول: "بوشا البوشا البوشا البوشا القضات عليه خيالات، جاءه فيضان من الكلاب من كل جانب، موجة إثر موجة من الأشكال المُفرَّاة راحت تتدفق على اللحم الذى ألقاه لهذه الكلاب، كانت هناك زمجرات وهمهمات، وحيوانات تتدافع وتمزق اللحم وتتخاطفه، وهذه مجموعة أخرى من الكلاب تتزاحم، وقلة قليلة هي التي انسلخت هاربة بالفريسة التي حصلت عليها.

تكررت صيحة "بوشا لبوشا لا" من جديد.

ردت عليه مئات الكلاب الضالة، وهنا رحت أستحث بغلى كيما يهرول ويسرع الخطى!

كان هناك صوت ينبعث من داخل ظلمة الليل عند مدخل الفندق، ينادى قائلاً: "جاربا جورجس في السجن".

تساءلت وأنا ألهث "فى السجن؟" عن تلك الجريمة المخيفة التى ارتكبها طباخنا، ضحكت فى شىء من الارتياح عندما تذكرت "نعم، الأحباش غير مسموح لهم بالنزول من الربوة بعد دخول الليل بدون تصريح، وهذا أمر أكيد الآن، لأن جاربا جورجس يعد غريباً على هذا المكان، ولذلك فهو فى السجن". أولاً وقبل كل شئ، معروف أن سحر الوهم يتمثل فى أنه لا يدوم.

من يمن الطالع، أن طلع النهار علينا وقد أَطلق سراح تابعنا الأمين، الذى كان ممنوناً كثيراً لذلك، نظراً لأن المساجين لا يُطعمون من قبل الدولة، وإنما يعتمدون فى طعامهم على المؤن التى يقدمها لهم أصدقاؤهم.

تعجب الطباخ قائلاً: "دار سلام! وأنا لا أعرف أحداً في المدينة سوى ولد عمتى، وهو متوفى بالفعل!" ظل الطباخ يتابع خطانا كظلنا على امتداد ساعات قلائل، بل إنه رافقنا عندما خرجنا ومعنا آلة التصوير ذات العدسة مقاس ست بوصات لنتصيد بعض اللقطات؛ وقد تمكنا بفضل هذه الآلة من تصيد بعض الصور لباعة العسل وباعة الشمع وهم على سجيتهم، كما تصيدنا بعض اللقطات للتجار وهم يتساومون في شارع بوند على المظلات المكوَّمة، وللبنات الإماء وهن يثرثرن في الوقت الذي طفحت فيه جرارهن الفخارية بجوار بثر الماء، حركة المرور بطيئة في أديس أبابا، نظراً لأن الأصدقاء يقفون للتسامر والتحدث في وسط الشارع، لكن السقائين الأشداء، أصحاب السيقان الغليظة، حليقي أو متموجي الشعر، هم في نظري أكثر كلاماً من أي إنسان آخر، أنا أظن أن الثرثرة هي امتياز ينفرد به العبيد، بينما كنا نلاحظ التدافع على البئر، حيث الماء مجاني للجميع، سواء كانوا من النوع الصبور أم من العجلين الذين يودون الاقتراب منه، مر علينا راس تفاري راكباً، كان يرافق راس تفاري نحو خمسمائة من الضباط والرؤساء الراكبين، وي حين كان حملة البنادق بيض الثياب يجرون بجانبه ومن خلفه، ريما كان

عدد حملة البنادق يصل إلى نحو ألف رجل، لكنهم كانوا ضائعين بين الجمهور الذى كان يدور من حولهم ويتسرب من خلال صفوفهم، أوقف ولى العهد عشرات المرات بواسطة المواطنين الذين كانوا مصممين على التقدم إليه بالتماس، وكان بدوره يرد عليهم بروح طيبة ومدركاً تماماً للشعور الملكى الذى يوليه الناس إياه، هذا رجل قطع الطريق كله سيراً على الأقدام من هرر لكى يقدم التماسه إلى ولى العهد لأن مقاطعة الرَّاس، يسود إحساس بين الناس أنهم ليسوا شعبه أو رعاياه، وإنما هو ملك لهم، وينتمى إليهم، وأنه هو آخر وأوثق محاكم الاستئناف، كما أنه هو الأمير، وهو الأخ والرجل.

كان الجندى الأسود، جابرا جورجس، الذى كان مصرًا على تفويت أكبر عدد ممكن من القطارات العائدة إلى داير داوا، ينظر إلى الرَّاس باعتباره نوعاً من الإقطاع المقدس، وأن من السهل جداً الاقتراب منه، وأنه أكثر منطقاً من أى مخلوق مقدس، قال جابرا: "لو أمكننى التحدث إليه، فإنه سيعيد إلى عملى من جديد"، وهنا بدأنا من جديد نستمع إلى قصة وظيفة ضائعة ومعقدة لأسباب مختلفة.

تناولنا العشاء في تلك الليلة مع الراس هو والأميرة منن Menen، قوائم الطعام المضاءة بالكهرباء، والمطلية بالذهب، والتي أحرُفها من الذهب، والمغلفة بالزهور، والمطبوعة في مطبعة ولى العهد الخاصة، وكذلك الطعام فائق اللذة، كل ذلك جعلني أشك أنه جرى جلب رئيس للطهاة من باريس، وذلك من باب تقدير مضيفنا لأوروبا، لكن جمع الخدم الذين يرتدون ثياباً شديدة البياض، وكذلك العباءات الفضفاضة التي كان يرتديها الضيوف الأحباش، وكذلك حضور الدجز ماتش هيلو سليسي Heilu Selessi، عم ولى العهد، وحضور فيترارى دستا دومتو Dumtu، ذلك الزوج الوسيم لابنة ولى العهد البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً، كل ذلك أضفى على حفل العشاء المسحة أفريقية، طوال شربنا للشمبانيا ومشروب التدج، وطوال تناولنا لأروع المخلوطات والمأكولات الشبيهة بالآيس كريم، من كئوس زجاجية مصنوعة في البندقية، كنا نتجاذب أطراف الحديث عن الحبشة.

قلت: "الحبشة تبدو مكتفية ذاتياً، احتياجكم إلى أوروبا أقل من بلدان أخرى أنا أعرفها".

قال الراس: "نحن بحاجة إلى التقدم الأوروبى فقط بحكم أنه يحيط بها، وهذا بحد ذاته نعمة ونقمة، هذا التقدم الأوروبى سوف يعجل من تطورنا، لكننا نخشى ابتلاعه لنا".

"لا خشية من ذلك، نظراً لأن الحضرى هو القادر على التكيف، أراه شيئاً طيباً، وسيأتيه بالفعل وعلى الفور، لكن فيض الحداثة لا يمكن أن يجرف الريفي أو يزحزحه عن قدميه!"

وافق ولى العهد "هذا صحيح، هناك فرق كبير بين الاثنين، الحضرى لا يخشى الجديد، وهو أقل الناس تشدداً، وعلى استعداد دائم للترحيب بالأوروبيين والاستفادة من معرفتهم".

قلت: "الريف والحضر متشابهان بصورة أو أخرى، الاثنان يتمتعان بخصائص وسمات العرق المسيطر". طلب الراس مزيداً من التوضيح؛ رددت عليه "العرب هم الشعب الذى أعرفه حق المعرفة، وعليه فأنا أحكم على شعوب الشرق بمقارنة هذه الشعوب بالعرب، العرب والأحباش مضيافون وكرماء، لكن العرب يخافون الأجانب ويشكُون فيهم لأن العربى لا يكون واثقاً بنفسه، في حين أن شعبك وبخاصة في الجنوب واسع الأفق في موقفه من الغرباء والأجانب".

ألمح الراس "الشقة الزائدة بالنفس تقترب من الغرور، والمؤسف أنهم اضطروا إلى معرفة أن هناك مغامرين بين -الرجال الحمر-، كما يصفونكم، لقد حصلنا على معرفتنا أصلاً من أوروبا، من البرتغاليين الفرسان، الذين ساعدونا في حروبنا الطويلة، وأخذنا معرفتنا أيضاً من اليسوعيين الذين رافقوا البرتغاليين، ومعروف أن اليسوعيين هم أقوى البشر فكرا في الرهبنة، لكن منذ تلك الأيام الخوالي جاءت صنوف مختلفة من الأجانب إلى هذه البلاد، وتعلم الحبشي كيف يميز بينهم".

اقتبست المثل العربي "المرء يجب أن يتعلم من جيبه".(*)

ابتسم الراس، قال: "المعرفة كلها جيدة" وحكى لي عن الوسائل التي يتبعها

[×] ليس لهذا المثل علاقة بالمثل العامى الذى يقول: اصرف ما فى الجيب ياتيك ما فى الغيب، الذى يوحى بالقدرية والتواكل لكنه قريب جداً من المثل العامى المصرى، قرشك فى جيبك عطا سيدك لكل الناس. (المترجم)

لتشجيع المعرفة، بنى ولى العهد مستشفى بالقرب من منزله من باب دعمه للمؤسسة الأمريكية برئاسة الدكتور لامب Lamb، التى منحها التاج قطعة أرض على سبيل المنحة، كما أن مطبعة ولى العهد مخصصة لنشر الكتب التربوية، لكن من باب استرضاء الأكليروس (ألم)، الذين يعارضون التجديد بكل أشكاله، فإن المطبعة لا تطبع حالياً سوى الكتب الدينية.

أقحم أحد الأحباش نفسه قائلاً: "الكنيسة تمثل الحرية، والأكليروس يمثلون العبودية".

يجرى إنشاء كلية تتسع لمائة طالب؛ يجرى التخطيط لمد المدينة بالكهرباء؛ استوردنا مطحناً وآلات لتصنيع الأخشاب، كما استوردنا أيضاً مضخات وأنابيب لإمداد المدينة بالماء، كما استوردنا أيضاً مصنعاً كبيراً خاصاً للقطن، ومكوناً من اثنين وأربعين ماكينة، مخصصة للتعامل مع مراحل تصنيع القطن كلها. ومبلغ علمى أن فكرة مصنع القطن هذه هى من عنديات الإمبراطورة، التى أحست بكثير من القلق على الشعب، عندما وصل قبل ثلاث سنوات سعر أبى جديد (الله الله الله المسلم المسال الواحدة المسال الواحدة المسال الواحدة المسال الواحدة المسال المسلم المدرت صاحبة الجلالة أوامرها بزراعة القطن على نطاق واسع وبدأت تخطط لإنشاء مصنع لغزل القطن المحلى ونسجه.

سألت الراس: "هل سيكون ذلك المصنع مجز؟"

رد على: "الجديد لا يجرى مطلقاً، هذه تجربة تعليمية، أنا أود تعليم الناس قيمة الصناعة، السواد الأعظم من الناس في هذه الأيام يدفنون نقودهم أو يخبئونها، ليست لديهم أفكار استثمارية أخرى غير إقراض نقودهم لأناس يعدونهم بفائدة أكبر".

"فكرة جعلهم يهتمون بالصناعة، فكرة رائعة".

"هذه بداية، السوق لا تقام سوى يوم واحد في الأسبوع، ويهجر الناس

[🖈] الإكليروس: عند النصارى هم رجال الدين المسيحى. (المترجم)

^{*} ابو جديد Abu Gedid: كلمة امهرية، تعنى القماش الأبيض الخشن المصنوع بصفة اساسية في اليابان او امريكا، والذي تصنع منه البناطيل والقمصان في الحبشة. (المترجم) * الريال هو هنا الدولار او الطّالير Taler, Thaler الذي هو نقد جرماني فضي توالي إصداره من القرن ١٩. (المترجم)

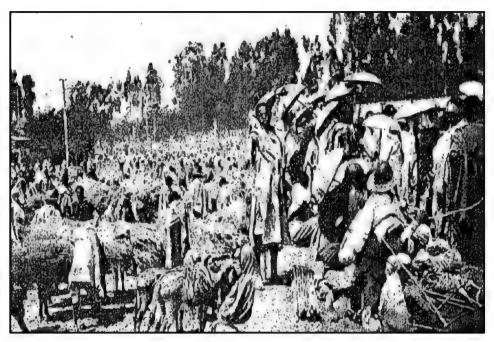
المدينة على امتداد ستة أيام، الآن الشوارع تعج بالتجار، المستعدين للدخول في العمليات التجارية، أنا أشجع التجارة بكل أشكالها الجديدة، على طريقة الإمبراطور منليك، الذي درج على إلغاء الجمارك على السلع الأساسية التي يجرى استيرادها. لقد أعطى قروضاً للتجار الذين كانوا يريدون أن يبدأوا على هدى من الخطوط التقدمية وقال لهم: أحضروا السلع الجديدة كلها إلى، ولا تخافوا التجديدات أو تخشوا منها".

قلت: "لابد أنه كان رجلاً عظيماً".

كان كذلك فعلاً، وكانت سلطته كاملة على شعبه، كان بوسعه عمل ما يشاء معهم.

كان منليك، بطبيعة الحال، يحظى بامتياز الفازى، وهذا يعنى الكثير في الحبشة، التي يعد كل واحد فيها جندياً، لكن على الرغم من أن انتصاراته وقوة شخصيته وحَّدا بلاده فإنه لم يتمكن من أن يجعلها أمَّة، ترك منليك لخلفه موروثاً من المشكلات، وأولى تلك المشكلات تتمثل في مسئولية حكم الأعراق التي من قبيل الجلا Galla، والدناكيل، والصوماليين، والشناكيل Shanakil، أصحاب الديانات المفايرة، واللغة المغايرة، والعقلية المغايرة أيضاً، لقد خلَّف منليك بلداً واهى الارتباطات على نحو كشف مؤخراً أن عرى ذلك الارتباط الواهي أصبحت واضحة للجميع، ومسألة ثبوت متانة هذه العرى أمر تدور من حوله الشكوك. معروف أن التجرى Tigré والشوا Shoa، والأماهرة كانت ممالك مختلفة منذ قديم الأزل، وأن تلك الممالك كان يجرى بصورة مؤفتة توحيدها، وبين الحين والآخر تحت زعامة إمبراطور أو ملك، إلى حد أن الشكوك تدور من حول ما إذا كان العدو المشترك أو الخوف من الامتصاص الأوروبي، هما اللذان يمكن أن يصهرا هذه الشعوب مكونين منها أمة واحدة، واقع الأمر أن الشّواني Shoan لا يدخل ضمن هذه المجموعة، لأنه تزوج من الأعراف غير المتحضرة التي على حدوده، يزاد على ذلك أن الشواني في دمه شيء قوى من الزنوجة.

على الرغم من أن اللغة الأمهرية هى اللغة الديبلوماسية فى الحبشة فإن كل مملكة من الممالك القديمة كانت لها لغتها الخاصة بها، وكانت لغة الجعز موجودة إلى جانب هذه اللغات؛ معروف أن لغة الجعز هى لغة القساوسة



سوق العشب، في أبيس أبابا،



سوق العباءات في اديس أبابا

والرهبان؛ ولغة الجعز هذه يتكلمها أيضاً التجرينيون؛ يزاد على ذلك أن اللغة العربية ولغة الجلا، معروفتان خارج حدودهما؛ واللغة التيجرية ليست لهجة، وإنما هي أكثر من ذلك، كما أن هناك ألسنة (لهجات) أخرى مثل الجوارج، والهراري، والدنكالي، فضلاً علي لهجات أخرى.

بصرف النظر عن الأعراق الرعايا، فإن كل ولاية من الولايات الحبشية لها تأثيراتها التراثية ولها أيضاً مصالحها الخاصة، ويؤدى تقليب الأحقاد القديمة سواء أكانت عرقية أم أسرية إلى الإسهام في الاضطرابات السياسية التي تجرى في هذه الأيام، إقطاعيو الشمال يرفضون الحد من سلطاتهم، وتركيز السلطة كلها في أديس أبابا.

من هنا يواجه ولى العهد ليس فحسب مشكلات الحاضر، وإنما أيضاً مشكلات الماضى المُلحة، ويتحتم على ولد العهد التعامل مع السمعة والصيت، والطبيعة الإنسانية غير قابلة للتغيير، إلا عن طريق بوتقة الحرب، أو عن طريق الانفعالات الأخرى، الفلاحون الذين هم عمود الحبشة الفقرى طريق الانفعالات الأخرى، الفلاحون الذين هم عمود الحبشة الفقرى وهم ليسوا أذكياء بما فيه الكفاية، وهم مؤدبون ومضيافون، وتراهم أفظاظاً في بعض الأحيان، ومكفهرين في أحيان أخرى، حب المال شائع بين السواد الأعظم من القرويين، لكن المال في المناطق الأقل تحضراً يترجم أو إن شئت العظم من القرويين، لكن المال في المناطق الأقل تحضراً يترجم أو إن شئت الحضر عجيبون، ومهتمون بجديد العصر، لكنهم حذرون ويندر أن يكونوا الحضر عجيبون، ومهتمون بجديد العصر، لكنهم حذرون ويندر أن يكونوا ومرحاء، من الصعوبة بمكان إقناع أي أحد من الأحباش بالإفصاح عن نواياه وأفكاره الحقيقية، أحياناً، ومن قبيل التأدب والمجاملة يقول الحبشى: "نعم"، في الوقت الذي لا يكون دوماً فيه قادراً على تنفيذ ما وعد به، لا أحد من الأحباش بعرف حالياً قيمة الوقت، لأن الغد، والعام القادم كلها سيان عنده.

وصلت قبل أن أغادر الحبشة إلى نتيجة مفادها أن الإمبراطورة الحاكمة، زيديتو Zaiditu، ابنة منليك ورثت الكثير من سمات وخصال أبيها؛ فهى لبقة وذكية، كما أنها هى القوة المحركة لكثير من مشروعات التحسين الاجتماعى، وهى أيضاً الوسيط بين القساوسة الذين يمثلون العالم القديم وولى العهد الذي يحث على امتلاك الجديد، الإمبراطورة بارعة في فن حكمها، فهي في

الوقت الذى توافق فيه على سياسة التنمية التى يتبعها راس تفارى وتدعم هذه السياسة فهى لا تزال بطلة الموروث، وهى تتعامل بحكمة بالغة مع كبار السن من الإكليروس، الغارقين فى العادات والتقاليد، وهى تقول لهم: "دعونا ننتظر لنرى ما إذا كان ذلك الشئ الجديد صالحاً أم طالحاً". لا أحد ينتقد الإمبراطورة، عندما تكون على انفراد، ويمعزل عن الغير، تكون متعاطفة بعض الشئ، فى إطار ظروف واعتداد يكونان بمثابة خلفية، هى مدركة لقيمتها، لكنها لا تجعل هذه الخلفية تتغلب عليها بأى حال من الأحوال، نظراً لأن الإمبراطورة تشكل قوة لها مغزاها فى الحبشة، وهى تدرك أنها ستكون مسئولة إلى حد بعيد عن تقدم الحبشة المستقل، يقال إنها قالت عند مسئولة إلى حد بعيد عن تقدم الحبشة المستقل، يقال إنها قالت عند إلى أن أكون عظيمة مثلها".

بينما كنا فى أديس أبابا، كانت الإمبراطورة هى وبلاطها فى حداد بمناسبة الذكرى السنوية السابعة لوفاة تاهيتو Tahitu، قرينة منليك، التى ستقام فى مناسبة تأبينها وليمة كبيرة يجرى فيها إطعام خمسة أو عشرة آلاف من البشر، التقاليد تحتم على الملك الحاكم المشاركة فى كل شكل من أشكال الحياة الوطنية، وعليه فإن الإمبراطورة مشغولة بالإشراف على استعدادات الضيافة، مما يمنعها من مقابلة أى أحد بما فى ذلك الوزراء، كانت الإمبراطورة تُوبِّخُ من يريد لقاءها قائلة: "أنا مشغولة فى المطبخ". لكن الأدب الذى هو فضيلة حبشية جعلها ترسل لنا رسالة مفادها، أننا إن أردنا الحضور إلى القصر عند الساعة السابعة من صبيحة اليوم التالى، فإنها سوف تستقبلنا قبل أن تبدأ عمل يوم طويل متباين.

صحونا مع الشمس وركبنا مطيتنا فى ظلال أشجار الصمغ، كانت حبات الضباب منسوجة مع مواكيك الفجر وقد تعلقت باردة بزهور الليلج وألواح الصبار، كان عالماً من الزرقة، فى حين كانت الأكواخ بمثابة فطريات رطبة فى الغابة، كان الناس يركبون دوابهم مدثرين بعباءاتهم حتى أعينهم، أثناء توجهنا صوب قصر الإمبراطورة Gibbe، الذى تؤدى إليه الطرق كلها، مررنا على مئات من العبيد الذين كانوا يحملون على رءوسهم سلالاً حمراء اللون،

الخبز المطلوب الإفطار القصر، أو ربما كان لوليمة الغد، كان الحراس عند البوابة ملفوفين في أغطية وعباءات، جرى اقتيادنا خلال سلسلة من الأفنية غير العادية ذات الجدران الحجرية، المليئة بحملة البنادق، والبغال المُسرَجة بطريقة فخمة، والخدم والمسئولين، بواسطة حاجب استعمل عصاه في إفساح الطريق لنا، مساحة القصر تزيد على نحو ربع ميل من الأرض، وفي وسط متاهة أفنيته، وبين أفدنة من القش، والطين، والحديد، والحجر، توجد شرفتان، لهما درج خارجي وبلكونتان، وتعيش فيهما الإمبراطورة.

استقبلتنا زيديتو Zaiditu، ابنه منليك، أسد يهوذا، ملكة ملوك الحبشة، في الطابق الثاني، في غرفة ثمانية الأضلاع شبيهة بالباغودا(本)، مفروشة بالسجاد الفاخر، ومعلق على جدرانها صورة منليك هو وقرينته، لم يكن في الغرفة أثاث، غير الكراسي الثلاثة التي وضعت لنا، والكرسي المنخفض الذي كانت الإمبراطورة جالسة عليه، ورجليها على وسادة من القطيفة، ومن خلفها سيدة واحدة، وعلى الجانبين كان بوجد باورانها وقساوستها، زبديتو، شأنها شأن كثيرات من ملكات التاريخ، صغيرة الحجم، لكن قامتها كانت مفخمة بفعل أسلوبها وطريقتها الهادئة التي تنطوي على شيء من الفتور، عندما قُدِّمنا لصاحبة الجلالة، وجدنا أن الحداد حتم عليها ارتداء عباءة غامقة سادة ولم يظهر منها سوى عينيها وخديها من بين ثنيات الشاش (الطرحة)، حتى اليد التي لسناها كانت مغطاة أبضاً بنفس القماش الحريري، لكن العينين السوداوين الواسعتين، الموضوعتين تحت جبهة عريضة كانتا مميزتين، كانت العينان تدلان على الذكاء وكانتا هادئتين، وفيهما حكمة سلالة نسبية عمرها ثلاثة آلاف عام وأمن وسلام ناجمين عن تفكير عميق. كانت المقابلة قصيرة لأن الإمبراطورة أصرت على أن تضرب مثلاً على الجد والاجتهاد أمام خلية منزلها التي تحركت، وطحنت، وخبزت، وشُوَتُ وخمَّرت، وبعد حديث دام دقائق معدودات عن ترحالي والتمنيات الطيبة لنا في رحلة الشمال، التي بذلت هي وولي العهد كل ما في وسعهما لتسهيلها، استأذنت وتركتنا نصور المدينة من شرفتها (بلكونة).

[🖈] معبد بوذى مكون من عدة طوابق ذو تصميم خاص. (المترجم)



زيديتو، إمبراطورة الحبشة

أخيراً عثرنا على المنظر مفتوح الرؤية في أديس أبابا، وسبب ذلك أن المناطق الواقعة بعد أسطح القصر، تتخفض الأشجار فيها إلى واد عميق ثم تبدأ في الصعود مرة ثانية، ثم تسير بعد ذلك على شكل صفوف، إلى أن تصل إلى المنازل والأسواق، وتتوج الكنيسة ثمانية الأضلاع ذلك كله ومن خلفها ضباب الجبال، شاهدنا شكل الإمبراطورة الصغيرة وهي تمشي عبر الفناء، ومظلة من القطيفة حوافها سوداء وخضراء، مرفوعة من فوق رأسها، ومجموعة من أفراد البلاط حولها، على جانب من الأجناب كانت أسود بلادها تزأر من داخل أقفاصها، على الجانب الآخر كان أبو قرن (大 يمشى على الحشيش الأخضر يفرد ريشه في ضوء الشمس، كانت الأعمال الخشبية مطلية بلون الذهب، كان الجنود يجلسون مكشوفي الرءوس على شكل صفوف فوق كل جدار من الجدران، بدأ القساوسة يترنمون بالقرب من غرفة العرش الكبيرة، التي تطل على جبل منبسط وواد، كانت رائحة البخور فائحة في الهواء، كما كانت هناك روائح أخرى مُشِّهيةً تهب على المكان من داخل مدينة الخيش التي كانت بمثابة صالة للمأدبة، مر علينا صبية صغار، بالغي الأهمية وعليهم أحمال مقمَّطة بالقطيفة، كانت بتلات قليلة من بتلات الزهور ترفرف عند أقدامنا، وهنا خطر بيالي أن الورد شيء مقدس عند التجريين القدماء، الذين كانوا يصنعون البخور من بتلات الورد.

كانت أفنية القصر أكثر امتلاء عما كانت عليه عندما ذهبنا لزيارة مدير الكنيسة الحبشية Itchegue (المستول عن إدارة كل أفراد الإكليروس وممتلكات الإكليروس.

انتهت مأدبة التأبين، مئات القساوسة، آلاف الرؤساء، مسئولون وأتباعهم، كل أولئك تغدوا على اللحم النيئ الذى يصنع المحاربين، والذى بلَّعُوه بمشروب التدج المخاتل، كان الرجال المسلمون يبتسمون بلهاء وأصحاب صوت عال، لم يتمكن العبيد من التحكم في ضحكهم، كان الفم في كل وجه أسود مفتوحاً عن آخره وأحمر، في حين كانت العيون المحتقنة توحى بالجرأة، كانت الأسود

[🖈] طائر ضخم له منقار كبير. (المترجم)

^{*} التسيجو: مدير الكنيسة الحبشية المسئول عن إدارة والتحكم في الممتلكات الإطيروسية والإطيروس انفسهم. (المترجم)

هى الأخرى قد أتخمت باللحم النيئ، ولم تكن تهتم بالجماهير المارة بجوار أقفاصها، وهؤلاء هم أفراد الحاشية والبلاط فى لباسهم الأبيض يتكلمون متكاسلين وابتساماتهم غامضة، كانت الإمبراطورة قد ترأست منصة عليها ستارة، كانت فى أعلى الخيمة المصنوعة من قبلاع المراكب والمفروشة بالسجاد، التى كان يجلس على موائدها المنصبية (ألم) آلاف الضيوف؛ كان العبيد يقدمون لحوم الثيران النيئة، التى تتدلى من أعمدة والمغطاة بمفارش من حرير والقطيفة، إلى السكاكين الجاهزة والأسنان المهرة، ها هى الإمبراطورة تعود إلى غرفتها والفناء والشارع يعج بالضيوف الذين يغادرون المكان.

أبتسم أحد الحُجَّاب وهو ينحنى فى أدب، بينما كنا نشاهد الراكبين الذين يلبسون أغطية رءوس لها رفارف، ويسيرون بمطاياهم وسط لمعان مواسير البنادق وعصى الصلاة الفضية وقال: "قداسته فى انتظارك".

رسم القديس تكلا هيمانوت في القرن الثالث عشر بأن أسقف الكنيسة الحبشية، أو بالأحرى أبونا Abouna، ينبغي أن يكون مصرياً ومعيناً من قبل الإسكندرية، باعتباره رابطة بين الكنيسة القبطية المصرية، الوَحَدى طبيعية (الله التي تقر مفهوم العذراء الطاهرة، ولا توافق سوى على الطبيعة الواحدة للمسيح، والتي ترسم أيضاً بحتمية زواج القساوسة مثل شمامسة الكنيسة مرة واحدة طوال حياتهم، والذين أدينوا بالهرطقة في القرن الخامس من قبل مجلس المجمع المسكوني (الم الله في ضوء تخوف تكلا الخامس من أن يباعد الجزء المعزول من بلده بين بلاد هيمانوت والحضارة، اقترح الرجل علاجاً لذلك يتمثل في استمرار تقديم الثقافة السكندرية، حتى العدن أن يكون أسقف الكنيسة الحبشية Abouna، مصرياً مثلما جرت العادة، ومن دير القديس أنطونيو الصحراوي، ولا يعرف سوى القليل جداً عن

الطاولة المنصبية: طاولة تصنع بوضع لوح خشبى على منصبية أو أكثر. (المترجم)
 القائل إن المسيح طبيعة واحدة. (المترجم)

^{**} المجمع المسكوني الذي عقد في العام ٤٥١ ميلادي، في مدينة شالسدون تلك المدينة الصغيرة في آسيا الصغرى على البسفور، وقد حرّم ذلك المجلس القول بالطبيعة الواحدة للمسيح. (المترجم)

العادات المحلية، ويترتب على ذلك أن تصبح مهام أتشيجو الذى يطلق عليه فى بعض الأحيان اسم "البابا الأسود" أكثر شمولاً وأهمية، كتابة أتشيجو أو "البابا الأسود" تسرى فى الكنائس كلها فى أرض يُقال إنها تحتوى على مليون متدين، وأنها استمرت معنا منقوشة فى خاتم مذهب، لكى تساعدنا فى عملنا.

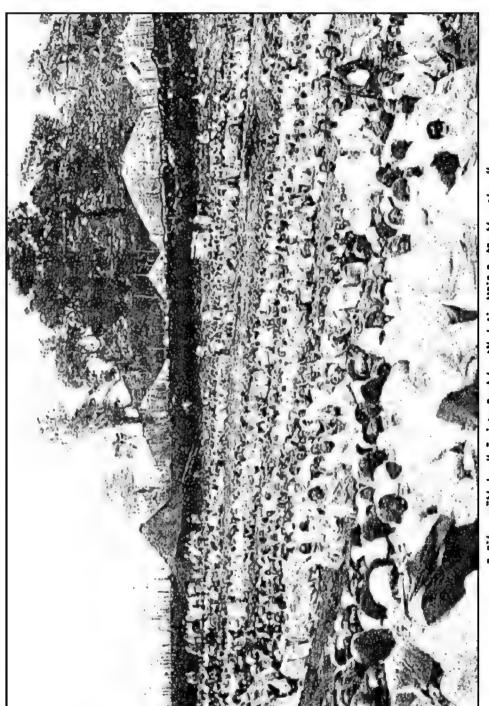
استقبلنا إتشيجو (مدير الكنيسة الحبشية) في غرفة مغطاة بالألواح الخشبية فيها رائحة خافتة كما لو كانت ناتجة عن طقس من الطقوس الدينية القديمة، كان يرتدى عباءة من القطيفة، ذات حواف مُذَهبة ومطرزة، تتدلى حتى قدميه، كانت عمامته البيضاء العالية مغطاة بقناع مزين بالورود وكان يمسك في يده صليب مُذهب، كانت إلى جواره طاولة محملة بالمخطوطات المجلدة بجلد طبيعى، وكانت أحرف هذه المخطوطات مرسومة أو منقوشة على الرُّق، كان يقبع في مواجهة الجدار رهبان عديدون يرتدون عباءات زعفرانية اللون مرسوماً عليها الصليب الحبشى الكبير المربع، وافق عباءات زعفرانية اللون مرسوماً عليها الصليب الحبشى الكبير المربع، وافق كائس لالبيلا المحفورة في الصخر في القرن الثالث عشر.

قال: "إذا كنتما ستصلان إلى هذا الحد فستريان أفضل ما فى بلدنا"، وقد لاحظنا مدى اهتمامه بملاحظته لنا على الرغم من تظاهره بعدم الاكتراث.

قلت لهارولد جونز ونحن على ظهرى بغلينا أثناء السير خلال المسورات التى تحولت فيها البنادق وعباءات المحاربين، والعمائم، وأغطية رءوس القساوسة المصنوعة من الساتان، والمظلات (الشملات) المطرزة الشبيهة بلون القشدة، والسُّرُج المصنوعة من القطيفة ولها حواف مذهبة، أو السُّرُج المبيضاء المرسوم عليها صلبان كبيرة قرمزية اللون إلى لوحة من القماش المنقوش في ضوء الشمس الذهبي.

كان الرَّاس قد أرسل إلينا حصانين على سبيل هدية الرحيل، منهما حصان سباقات جميل، سررت جداً بركوبه، وحصان آخر قوى كستنائى اللون، وبينما كنت أعبر عن خالص شكرى وامتنانى لهذه الهدية الملكية، وصل بلام باراسيًى: ومعه طرود ولفائف عديدة وغريبة.

قال بلاَّم باراسيِّى: "هذه الطرود ويزيرو منين Waizeru Menen، على سبيل التذكار لزيارتكم".



الجماهير المحتشدة تنتظر نزول الإمبراطورة من فوق الجبل المقدس، إنتوتو

فتحت أكثر هذه الطرود إثارة للاهتمام ووجدت بداخله ثوباً حبشياً رائعاً من البروكار المزين بالورود، ومطرز من الحواف مثل سائر ألبسة البلاط الملكى، تطريزاً أرجوانى اللون، وأزرق وذهبياً، كانت هناك أيضاً مظلة (شملة) مغزولة من أشعة القمر بواسطة عنكبوت خيالى، ومسدودة بلون طاووسى أزرق وأخضر، ولا أدرى إن كان منسوجاً أم مطرزاً، لكنه جميل بشكل لا يصدق، لم يكن بوسعى البقاء كيما أعرب عن شكرى قبل أن أطلب من بلام باراسي الخروج من الغرفة كيما أقوم بتجريب كنوزى الجديدة، لكنه أستوقفنى ضاحكاً، وأنا أحاول دفعه ناحية الباب.

قال بلاَّم باراسيِّى: "هناك المزيد، انتظرى"، ثم أخرج من سلة صغيرة عقداً كله من الصلبان القديمة المحفورة في الذهب، كان ذلك العقد نموذجاً مبهجاً لفن المجوهرات المحلى واللمسات الأخيرة في تشطيب الفستان.

قلت: "هذا العقد جميل جداً، أنا معجبة به، لكن يتعين عليك الخروج من الغرفة، حتى أبدأ في ارتداء ملابسي".

تهلل فرحاً ذلك الوجه اللطيف ذى العينين العسليتين الكبيرتين.

قال بلاّم باراسِّى: "وعليه، فأنت أنثى أولاً وآخراً، ظننت أنك بلغت من الخشونة حداً ترفضين معه الاهتمام بالحرير بكل أشكاله"، وقام بإغلاق الباب قبل أن أطلب منه توضيح ما يقول.

لابد وأن يومينا الأخيرين في أديس أبابا كانا مكونين من عدد أكبر من الساعات التي في هذين اليومين، فقد ركبنا خلالهما عدداً لا يصدق من البغال التي أعارنا إياها ولى العهد، الذي يعد نفسه من باب الكرم مضيفاً لكل الفرياء الذين يزورون بلده، يزاد على ذلك أننا كنا نبحث عن الصور بشكل جاد وملح، كان سوق السبت بمثابة الحقيبة التي تحتوى على أشياء متباينة، نظراً لأن السوق كان فيه عدد من البشر يتردد بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً يبيعون ويشترون في الشوارع والميادين وفي الميدان الواقع خلف الأسواق المعتادة، ربما كان مستحيلاً وصف مختلف البضائع التي تباع، خلف الأسواق المعتادة، ربما كان مستحيلاً وصف مختلف البضائع التي تباع، والحمير، والحبوب والدريس اللذين تأكلهما الماشية، كانت هناك السرنج ذات الأغطية الحمراء والشكائم التي تستعمل مع هذه السرنرج إلى المظلات

المصنوعة من الأعشاب، والأوانى الفخارية الضخمة، والسلال التى يصل حجم السلة الواحدة منها إلى حجم كوخ من الأكواخ التى يعيش فيها الدناكيل، وجم السلة الواحدة منها إلى حجم كوخ من الأكواخ التى يعيش فيها الدناكيل، أو العباءات وأغطية الرأس، والمظلات (الشملات)، وشمع الزبيّاد، والجلود، والسيوف، والأعشاب، والتوابل، والكحل، والبخور، والمجوهرات، والربّقى والتعاويذ، والتروس، وكل أنواع المنتوجات، كانت في السوق بضائع أوروبية أيضاً، في صفوف متعددة من الدكاكين الصغيرة، ومن خلف هذه الدكاكين توجد جلود الأغنام، والقرع المفرّغ، والقطن الخام، والأعشاب التي تدخل في مشروب التدج، والعسل الذي يباع في قراب من الجلد، والحبال الجديدة، والسمك الذي يبدو غير طازج، وقصب السكر؛ وكان في السوق أيضاً صفوف من النساء كبيرات السن يبعن أشياء مطحونة مكومة على صوان من العشب، كانت هناك بهارات أو بالأحرى المُنكّهات التي كان الطباخ جابرا يّلح في طلب القروش لشرائها.

عندما خانتنا الأسواق رحنا نستطلع جوانب التلال بحثاً عن الصناعات، وعليه التقطنا صوراً للعاملين في الأواني، وصناع مشروب التدج – الذين كانوا يشعلون ناراً في الأوراق الخضراء في فوهات جرارهن قبل صب العسل والماء في الأعماق العامرة بالدخان، كان هناك صاغة الفضة، وصناع قرابات السيوف، وأمهات العائلات اللاتي وافقن عن طيب خاطر على أن يخبزن خبزاً رقيقاً رقة البسكويت الهش في أفران تشبه لوحين من الصلصال، أو يطحن الحبوب محولين إياها إلى دقيق بين حجرين، على مرأى ومسمع من يطحن المة تصوير هارولد جونز.

سالت هارولد جونز ونحن فى طريقنا عائدين إلى المنزل على ظهور البغال عند غروب الشمس "حسن، هل أنت راض عما فعلنا؟" حل موعدنا الأول محل الإفطار، والغداء، إن كنا قد تناولناه، ولكن ذلك لم يترك فى أى أثر، كانت شفتاى خشنتين بسبب التراب، وكانت الأشياء الأخرى مغطاة أيضاً بالتراب، لقد رفسنى حمار فى السوق وأصابنى التهاب.

"تقولين راض؟ نعم راض، لقد جمعنا مادة جيدة". تحول الوجه القرمزى ناحية السماء «ليت هناك ضوء كاف لالتقاط الصور».

قلت: "لا، إذا كان هناك ضوء فذلك يعنى أنى ـ سأموت!"

♦ الفصل العاشر

فرس (الحبشة

أمضيت ليلتى الأخيرة في أديس أبابا في المفوضية البريطانية، التي تعد أجمل المنازل الداخلية، نظراً لأن المفوضية مبنية حول فناءين صغيرين عامرين بالورود، يعيش في أول هذين الفناءين بعض من طيور الدَّرَّهُ أَمَا الفناء الثاني فيعيش فيه ظبي، الشرفات الخارجية الواسعة في المفوضية البريطانية محاطة عند أطرافها بجرار من الفخار مزروع فيها زهور السُّلُيوت (المحمل المستوى منخفض من هذه الزهور تمتد أشجار الصمغ زرقاء اللون لتصل إلى منزل السكرتير الشرقى المصنوع من القش والمطلى باللون الأبيض. توجد في ظلال هذه القرى المفخَّمة سلسلة من الفرف الدائرية اللذيذة التي ترتبط ببعضها البعض عن طريق ممرات؛ كان هارولد جونز يخيم مع بعض من أفراد حاشيتنا الجديدة الذين جرى سحبهم من أحضان عائلاتهم، في اليوم التالي، وطبقاً لضيافة الوزير البريطاني والسيدة رسل Russel، كما كانت نفسي كارهة لابتعادي عن حماماتهم الساخنة، وأقمشتهم القطنية المنقوشة، وأطباقهم وردية اللون، ولحم الخنزير الطرى المأخوذ من الظهر أو الجنبين الذي يجعل البيض أكثر تشويقاً! تمكنا من تحميل بغالنا بأقل قدر من الضوضاء والتأخير، كان السيد زافيرو Zaphiro، السكرتير الشرقي، قد قام على أمر تنظيم القافلة كلها نيابة عني، كما زودنا أيضاً بخادم يدعى بالينا Balaina، ومعه ستة زبانية (***) Zabaniers-لكى يحلوا محل الجنود السنة الذين كانوا معنا.

 [★] جنس طير من فصيلة الببغاوات. (المترجم)
 ★★ جنس نباتات ليفية مدادة. (المترجم)

^{**} الزَّبانية: ببدو أن أصل هُذه الكلُّمة قرآني، وهي مستعملة في اللغة الأمهرية، وتعنى نوعاً من رجال الشرطة غير الرسميين. (المترجم)

كان معنا في هذه المرة اثنان من أصحاب البغال هما: آتو بلاكو Atto Daiwitu، وآتو دويتو المحلم المحلم المحلم المحلم المحلم المحلمان، ويصعب عليه أن يرى إلى ما بعد الشمن أو الربح اليومى، لكن ابتسامة الرجل كانت أخّاذة، وكان ماهراً في الحكم على البغال، وعلى مظاهر الضعف البشرى، وكان من السهل عليه معرفة إرهاق بغاله، والتتبيه إلى ذلك قبل حدوثه، كان صديقه مختلفاً تماماً عنه، عندما كان يبلغ السيل الزبى، كنا النملة، في أكثر من ستة أماكن في آن واحد، يطلق النكات هنا، ويشجع النملة، في أكثر من ستة أماكن في آن واحد، يطلق النكات هنا، ويشجع مطلقاً، ولم يحدث أن تجهم أبداً، على الرغم من قيامه بأعمال أكبر بكثير مما يقوم به الآخرون، كان آتو دويتو، بسبب نشاطه هذا، بارزاً وأساسياً في معركتنا المطوّلة مع صخور الحبشة وأشواكها، لكن الرجل لم يكن يهتم معرنيق المتدرج لثيابه، إذ كان يقوم بفتل بقايا هذه الثياب على شكل حبل متين، ويروح ينط بعد ذلك هنا وهناك مثل الحشرة البنية التي يشبهها.

كان لمالكى البغال هذين أتباع عديدون، لكنهم كانوا بصفة عامة، إما فى المقدمة على مسافة بعيدة مثقلين بأعمدة الخيام الطويلة وصعبة التاول، الأمر الذى كان يدفع حامليها إلى الانفصال بطبيعة الحال، عن القافلة، أو يروحون يعيدون تحميل بغل من البغال المتمردة، استطاع تخليص نفسه من حمولته عندما كان فى الأيكة، كان من بين هؤلاء الأتباع عبدان أسودان، شبيهان بالقردة والنسانيس إلى الحد الذى يجعل المرء يظن أنهما لا يمكن أن يكونا أكثر من حيوانين ودودين غبيين، كان هذان العبدان قصيرين ومربوعين بشكل لا يصدق، كان رأساهما المدوران اللذان نزع الصوف عنهما فى بعض أجزائهما، مركبين بين أكتافهما دون أن يكون لهما عنقان واضحان، كان فاهاهما بأنيابهما المفلّجة البيضاء، مفتوحين دوماً، وكانت عيونهما جاحظة تحت شرائط من جبهة ليست سوى مجموعة قليلة من التجاعيد، وكانت مخالبهما، إذ من غير الصحيح أن نقول أيديهما، مفرّاة وأصابعهما قصيرة، وتتشبث تماماً بكل ما يصادفها من طعام! وفي لحظات القيظ الشديد، عندما يكون الجميع يلهثون طلباً للهواء والغوث الستّحابى، كان هذان العبدان عندما يكون الجميع يلهثون طلباً للهواء والغوث الستّحابى، كان هذان العبدان

يضعان على أكتافهما جلوداً فيها أرجل وحوافر وتتدلى منها أذيال، أنا لا أعلم إن كانا قادرين على الكلام بطريقة صحيحة أم لا، لأنى لم أسمع منهما شيئاً سوى همهمتين: Auبمعنى "نعم" و Esheبمعنى "وهو كذلك"، اللهم إلا عندما كانا يشاركان في الغمغمة غير الواضحة التي تحدث خلال النقاش الذي يدور في القافلة.

كان الخادم بالينا يعنى ما يقول، كانت نواياه الطيبة مخططة على جبهته إلى أن بدأت جبهته تختفى تماماً بفعل التراب وخصل الشعر المتدلية من رأسه، أدت خصل الشعر هذه إلى اختصار وجه هذا الخادم إلى نوع من اليأس المتشاكى، كما أدى ذلك أيضاً إلى اختزال لغته العربية، التى كان فخوراً بها، إلى كلمتين مميتتين: "إستو" Astowi وكان يعنى بها كل ما هو إيجابى، مثل يعمل، يفعل، يجرى، يتحمل، يُنُزل، يُنظف، يملأ، يَفُرش، .. إلخ، إلى ما لا نهاية، والكلمة "أجلس" agliss والتى تمثل عنده كل ما هو سلبى، وبالتالى يمكن أن تكون عنده أكبر من كلمة "إستو" العجيبة.

تبلورت تلك النوايا الحسنة فيما لا يزيد على إعادة تغطية العلب التى رفعت عنها أغطيتها أو قفل الزجاجات التى رفعت منها فليناتها، واستيائه من الفوضى المترتبة على ذلك؛ أو قد يقوم بوضع صندوق الدواء هو والصناديق الأخرى في وضعها الصحيح، واقع الأمر أن هذا الخادم لم يكن يلقى بالألتوابع الأخرى التى لم تكن ملحومة بالقصدير مع أصولها، هرب بغله مراراً وبصورة منتظمة وكان يمشى معنا صابراً ولساعات طويلة دون تذمر أو احتجاج، كان يجرح نفسه بأثلم الأشياء وأقلها ضرراً وكان يعانى بلا شكوى، في غضون دقيقتين أصبح قادراً على تدمير الترتيبات النظامية لأية خيمة من الخيام وبصورة أكثر فاعلية من الإعصار نفسه، وبعد ستة أسابيع من التخييم، كان الرجل لا يزال، وبطريقة منتظمة إلى أبعد الحدود، يتعثر في الحبال كلها، كان يرد على كل سؤال وكل أمر بقوله "طيب" Taib (بمعنى الحسن)، وإذا ما طلب منه إحضار القمر ليكون صنفاً ثانياً في العشاء، فإنه سيذهب بلا أدنى تردد أو فهم، مسارعاً إلى جابرا جورجس ليسأله من أين يمكنه أن يأتى بالشمس.

كان جابرا جورجس، الطباخ، هو الوحيد من بين أعضاء قافلتنا القديمة

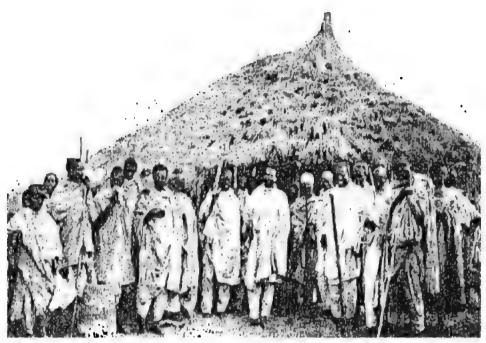
الذى رافقنا فى ترحالنا الجديد، والسبب الرئيسى فى ذلك، على الرغم من طردنا له، وإعطائه أجره وتمنياتنا له بالخير، فإنه رفض أن يتركنا ويذهب لحال سبيله، حل محل المرحوم عمر رجل كبير السن إلى حد ما، ولا يعرف الابتسام، وكان يتكلم إنجليزية سيئة واسمه حاسن Hasen، كان حاسن هذا أبرز أفراد حاشيتنا شديدة الاختلاط، كانت والدة حاسن عربية، وهو نفسه كانت له الملامح الإسلامية البدائية المرتبطة بسناجة شديدة وأمانة شديدة أيضاً، حاسن هذا من مواليد عدن، وقد زار بلدانا أخرى كثيرة، الأمر الذى أيضاً، حاسن هذا من مواليد عدن، وقد زار بلدانا أخرى كثيرة، الأمر الذى جعله يصف إخوانه الأحباش بأنهم "هؤلاء البشر المتوحشين"، وكان أيضاً من النوع الذى يمكن الاعتماد عليه دوماً فى القيام ببذل أقصى جهده فى أى ظرف من الظروف، لكن ذلك كانت تترتب عليه أبلغ النتائج المفاجئة وغير ظرف من الظروف، لكن ذلك كانت شيئاً من اللغة الأمهرية فقد اكتشفت أن المتوقعة، ولما كنت قد التقطت شيئاً من اللغة الأمهرية على أعماله.

كان الزبانية الستة أقل أهمية من حاسن، كان وُلدو سليستّى ألطف هؤلاء الستة، وكان يعمل سائساً للخيل، وكان هو الحبشى الوحيد من أفراد طبقته، الذى لم يطلب منى أى شيء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أثناء الرحلة من أديس أبابا إلى أسمرة، كان هناك شخص آخر يدعى ديمستّى Demessi، وهو ملتح، وبهى الطلعة وكسول، درج دوماً على أن يقدم لى الزهور عندما يكون قد فرغ من القيام بالمزيد عن العمل المعتاد؛ وكان معنا أيضاً أسكافى يدعى هيل Heileماريام، الذى لولا إبره وخيوطه لكنا وصلنا إلى أسمرة وفينا من الثقوب ما يكفى لإنتاج عام كامل من جبن الجرير Gruyére؛ كان من بين الزبانية الستة رجل مسن، ضعيف ومنهك، اسمه آتو هيلو Atto Heilu ومتعبد وكليّ الوجود مثل اسمه، كان من بين الآخرين، شخص يدعى وُلدو متوجس «كليّ الوجود مثل اسمه، كان من بين الآخرين، شخص يدعى وُلدو بركبه في أبيّة، أما الشخص السادس فلم أعرف عنه أي شيء غير أنه كان يحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه من الواهب والبائع، وكان مقتراً بحصل على أقصى ما يمكن كذلك في وقته.

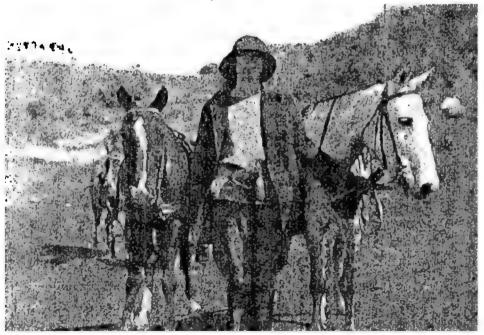
غادرنا أديس أبابا، ونحن محملون بهدايا التوديع، وكتب وخارطة من

القسيس البروتسنتى غير الإنجليكانى، وأعواد ثقاب من زوجته—كنت قد نسيت الاحتياجات الباهظة لغليون هارولد جونز، قام زافيروس Zaphiros، فى اللحظة الأخيرة، بتكويم الألسنة المعلبة، والعسل، الكريم سيمون Cremé Simon بين أيدينا الهدية النهائية التى جرى ادخارها من تقشير ذلك الذى أنا على يقين من أنه كان الطبقة الأخيرة من جلد بشرتى، وسط باقة من الأمنيات الطيبة، وعند الساعة الثامنة صباحاً على ساعتى، التى أظن أنها كانت متأخرة، غادرنا أبواب المفوضية على شكل قافلة، تضم واحدا وعشرين بغلاً وحصانين أبواب المفوضية على شكل قافلة، تضم واحدا وعشرين بغلاً وحصانين مسرجين، وأربعة عشر بغالاً، وعبيداً، وزبانية، وخدماً، وأصر بلام باراسي المخلص على الركوب معنا طوال الساعة الأولى، في حين كانت حاشيته العديدة المرافقة له تجرى خلفنا مُضفية بذلك لمسة مهيبة على حقائبنا وصناديقنا، افترقنا عند سفح جبل إنتوتو، ونحن في أشد الأسف نظراً لأن جابرا سياسي افترقنا عند سفح جبل إنتوتو، ونحن في أشد الأسف نظراً لأن جابرا سياسي بابتسامته المسرفة كان أحن وأكثر رفاق السفر صبراً.

تسلقنا الجيل والسحب وضوء الشمس بتسابقان من فوقنا، وتوقفنا قليلاً فيما بين كنيستي هذا الجبل لكي نلقي نظرة أخيرة خاطفة على ما وراءنا في أديس أبابا- بعد المسافة والارتفاع الكبير أديا إلى تسطيح تلال وجبال أديس أبابا إلى حد أن الغابة كانت تبدو لنا مثل سجادة قام طفل ببناء بيوت لعب بين أطرافها- ويممنا مسيرنا في اتجاه الشمال عبر الأراضي المرتفعة، وكانت الحشائش والأعشاب المتدرجة حولنا في كل جانب، وكانت الريح تكتسح السلاسل الجبلية مستديرة الأظهر، ركبت حصان السباق رمادي اللون، الذي جاءنا هدية من ولى العهد، وبينما كنت أسير في خفة في مقدمة القافلة، قررت فيما بيني وبين نفسي أن الرحلة تحتاج إلى أسابيع عدة إذا ما كنا نركب بِغالاً، الأمر الذي جعلني أدرك متعة أن يكون الإنسـان راكباً حصاناً أصيلاً، البغل هو والسرج المحلى يشبهان ركوب كتلة من الوزن الثقيل يجرى إضفاء الحيوية عليها من خلال العناد والأوجاع، أحرز هارولد جونز تقدماً كبيراً على الجواد الكستنائي، على الرغم من تأكيده لي أن تلك كانت المرة الثالثة التي يركب فيها خيلاً، وأنه تعين عليه "بصورة مستمرة النظر حوله ليتأكد أنه لا يزال على السرج"؛ مشى الرجال على ما يرام وكانوا راضين بشكل لا يصدق عندما قلنا لهم إننا نعتزم السير لمدة ثماني ساعات، لم



رئيس يقف امام داره



المؤلفة مع الخيول المهداة من راس تفارى

يلتهب ظهر أى بغل من البغال، ولم تنقلب الأحمال، فركنا أعيننا وتعجبنا ما إذا كنا فى حلم، عندما خيمنا عند الساعة الرابعة، وبعد سير ممل فى أرض بلا حدود وبلا أشجار وعلى مقربة من مجرى نهر كاجاواها العميق، وبدأت الخيام ترتفع كما لو كان ذلك بفعل السحر، وراح مالكا البغال يسارعان إلى جلب الماء، وراح رجل آخر يصلح جراب مسدسى، وقام رجل بقطع الحشائش اللازمة لخيولنا.

أبدى هارولد جونز ملاحظة، مشيراً إلى حام ولد سيدنا نوح، قاصداً بذلك مالك البغال الذى أحضرنا بأظهر ملتهبة وفى غضب شديد من داير داوا "أنا لم أفهم قط قبل الآن سوء ذلك الوغد العجوز".

سألته متشككة "هل تعتقد أن ذلك سيدوم؟"

بدأت متاعبنا، وكانت شديدة الخطورة، فى ضوء الأوامر الصارمة لتلك اللؤلؤة بين السكرتيرين الشرقيين، واللذين قاما بتزويد قافلتى إلى آخر حبل فيها، وإلى آخر عمود من أعمدة الخيام، وزجاجات الماء، عندما أرسلت حاسن ومعه واحد من الزبانية لشراء بعض من الشعير لخيولنا، وبعد بضع ساعات، وبعد أن أرخى الظلام سدوله تماماً، وبعد أن تعبت أنا أيضاً من دراسة خارطة لم توضح سوى فراغ خال بين جبلى إنتوتو وديبرا لبانوس Debra Libanos، عاد الرجل العجوز شاحب الوجه ومتلعثماً.

قال: "حدثت متاعب كثيرة، كان رئيس القرية غير موجود فيها، وأهل القرية سيئون ورفضوا أن يبيعونى أى شىء، أريتهم تصريح مرورك الصادر من راس تفارى، لكنهم لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة، وأرادوا الاحتفاظ بالتصريح".

مددت يدى بطريقة غريزية لآخذ الورقة الثمينة.

"ألم تحضر أى شيء من الشعير؟" سألت هذا السؤال وكنت قد تعودت على قصص قسوة القرويين، التي ربما تكون ناتجة عن عدم فهمهم للباقة الرجل الحضري.

غمغم الرجل المذعور "تقولين شعير! ليس معى شيء والله يعلم ذلك الذى حدث، لقد أمسكوا بخناقي وضربوا الزباني وحدثت مشاجرة".

رددت عليه "ماعلش (أله)، ولا يهمَّك" وكنت أتشمم المكرونة الساخنة التى وضعها بالينا Balaina على صناديق الأفلام التى استخدمناها طاولة، على الأقل، أستطيع القول أنكم عدتم جميعاً دون أذى؟

غمغم حاسن: "هذا صحيح، لم ينقص أحد منا". واختفى بأسرع ما يمكن بعد ذلك.

تجاهلت هذا الأمر، على الرغم من إبلاغ هارولد جونز لى أنه سمع صياحاً بعيداً، ورأى بقية الزبانية يتسابقون بعد أن عمَّروا بنادقهم بالذخيرة.

قام جابرا جورجس بتصليح قهوة مضبوطة، وأطال البغاله حديثهم إلى الحد الذى جعلنى أقضى الليل وأنا قلقة، استيقظت على صراعى مع كيس البراغيث المنزلق، ورأيت ذلك الذى بدا لى وكأنه ضوء أخضر خافت من أضواء الفجر، ناديت بنداء استيقاظ الصباح المعتاد، وأنا فخورة بذلك الصحيان المبكر، وسحبت نفسى من داخل الكيس، وقد أصابنى الرعب، فقد نظرت إلى السماء ووجدت قمر منتصف الليل وشاهدت أيضاً الطباخ مندهشاً تماماً!

وصلنى صوت قادم من الخيمة الثائية الخضراء "هل أصابك كابوس الليل؟"

بعد أن جرى تحميل البغال في صبيحة اليوم التالى، وكان التحميل جميلاً وأنيقاً، إلى حد أننا كنا جاهزين لاستئناف المسير قبل الساعة السابعة، أقترح المترجم علينا حتمية تقدمه للقافلة كيما يصل إلى القرية الكبيرة قبلنا، وبخاصة أننا سنمر على هذه القرية عند الظهيرة، ويلتقى رئيسها ويشترى شيئاً من الشعير، والدجاج والبيض، وافقت على ذلك، لأننا كنا نعيش على ذكريات إفطار الصوم الكبير (ألم أله) من ناحية، واحتمال عدم تناول الغداء من الناحية الأخرى، نظراً لأن جابرا جورجس، تسبب في هرب الدجاج البيتي الذي كان بصحبتنا عندما تركنا أديس أبابا المضيافة، وينسلخ حاسن عنا بمنتهى السرعة والهدوء، ومعه واحد من الزبانية لحراسته، ولما كان سيسبقنا بمقدار مسير ساعة واحدة فقد أخذ معه التصريح الطلسماني.

 [★] ماعلش: Malesh: هذه كلمة عامية مصرية معناها 'ما عليك من شيء' بمعنى 'ولا يهمك'. (المترجم)
 ★ إفطار الصوم الكبير: يعنى أن الإفطار كان هزيلاً. (المترجم)

ركبنا دوابنا ونحن سعداء ورحنا نسير فى المسار الواسع، كنت أنا وهارولد جونز فى المقدمة، وكانت الخيول ترقص فى ضوء الشمس البارد الذى كان يزحف خلفنا، كان الرجال الثلاثة يحملون المعدات السينمائية، وكان خادم يقوم باقتياد بغلينا ويسير معنا، فى حين كانت القافلة متأخرة عنا بعض الشئ.

شاهدنا فجأة جمعاً من الناس يهرولون نازلين المنحدر، وهم يصيحون ويلوحون بحرابهم، وما هي إلا لحظة حتى طُوِّقنا جميعاً، امتدت الأيدى وأمسكت بلُجُم الدواب، انهالت الإهانات على مرافقينا، ومن يمن الطالع أن الحصانين كانا حُرَّين.

قلت لهارولد جونز "ابتعدا أبق على مبعدة منى"، قلت ذلك وأنا أخشى أن يخسر هارولد جونز مكانته.

حاول أحد الزبانية ترجمة ما يجرى لنا، "هم يقولون إننا قتلنا رجلاً في قريتهم الليلة الماضية، وهذا ليس صحيحاً، هم يضربوننا".

ضاع صوت الزبانية فى الهرج والمرج، كان عشرون من الرجال يتصايحون فى آن واحد، قام اثنان أو ثلاثة منهم متوحشون وحمر العيون، بتهديدى برماحهم، لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب من أرجل الجواد الرمادى الذى أركبه، لكن الدائرة التى كانت تحيط بى كان يجرى تعزيزها بالمزيد من الأعداء فى كل لحظة، وتواصل ظهور المزيد من الأعداء على جوانب التل، لم أتمكن من إسماعهم صوتى بسبب الجلبة والضوضاء، كان عمل الخادم يتطلب كل جهده، لكنه حاول الاقتراب، موضحاً أنى ينبغى ألا أحاول الاستمرار فى السير.

وصلت القافلة فى نهاية المطاف، وطرح جاربا جورجس نفسه إلى جوارى شاحب اللون بسبب انفعاله، كان مالكا البغال يريدان تجاوزنا لكن عشرات الأيدى أمسكت بهما، رفع رجل بندقيته.

صرخت فيه - "أنزل بندقيتك، أيها الأحمق!" ليس بهذه السرعة، نظراً لأن عشرات الرماح بدأت تتلألأ، وأثناء تبادل الضربات الكثيرة سقطت واحدة منها على كتفى، كان ذلك من حسن الحظ، لأن هذه الضربة أخافت مهاجمينا، وخلال فترة التوقف جاءنا رئيس القرية ، ذلك الشاب النحيل

الحليق الذى حاول السيطرة على غضب أهله وناسه، مصراً فى الوقت ذاته على عدم تحركنا.

صرخ جابرا جورجس متسائلاً "أين ورقة راس تفارى؟ هذه الورقة ستقذنا". رددت عليه غضبانة "هي في جيب المترجم، وهو على ما أظن، على بعد

أميال منا".

اقترب هارولد جونز منا.

قلت: "ابتعد، يبدو أننا سوف يتعين علينا الفرار فجأة".

تعالت الأصوات بشكل أبشع مما كانت عليه، انفك عقال البغال وزادت من الفوضى.

دفعت جابرا جورجس ليفهم "ما الذي يريدونه بالضبط؟"

هم مصرون على رجوعك إلى قريتهم والبقاء فيها، وهم يريدون الإمساك بزبانيتنا كلهم واقتيادهم إلى أديس أبابا".

خطر على بالى على الفور، أننا إذا ما عدنا إلى قرية كاجاواها، وكان رجل قد قُتل بالفعل، فذلك يعنى أن نصف سكان الريف سيقومون بتطويقنا، وسيكونون جميعاً معادين لنا، وأننا فى حال عدم وجود جواز السفر الحكومى أو الورقة الخاصة الصادرة عن ولى العهد، سنصبح بلا حول أو طول وعاجزين عن الدفاع عن أنفسنا، حاولت أخذ رئيس القرية على جنب، وتكلمت بهدوء مع كبار السن لكن بلا جدوى، بعد ذلك، ومن باب اختبار الموقف، قلت لهم إن طلباتهم مستحيلة، وطالما أنهم لا يتكلمون كلاماً معقولاً، فأنا لست على استعداد لإضاعة المزيد من الوقت، أخلى الحصان الرمادى مساراً من حوله وانضممت أنا الأخرى إلى هارولد جونز الذى كان يراقب ما يحدث.

قال: "أنا لا يمكن أن أواصل مسيرى بدونك".

"حسن، هيا بنا نجرب لنرى ما سيحدث".

حثثنا حصانينا على الخبب، وفى الحال قفزت الأشكال المحيطة بنا كل إلى نقطة من نقاط الأفضلية، دوت الصيحات محدثة إنذاراً أيقظ الحى كله، وهنا جرى خلفى شاب، كان يستعطفنى ويرجونى.

"لا تمشى! أرجوك لا تمشى!" وبدا الرعب في عينيه.

عدت لمدة نصف ساعة أخرى، وكان الرعاع لا يزالون يجلدون أنفسهم بكلام قاس غير واضح، ترى، هل كانوا مخمورين قبل أن يأتوا لمواجهتا؟ بدأ الموقف يزداد سوءاً على سوئه، عند هذه المرحلة قيل إن قروبين ماتا في قريتيهما نتيجة لمعركة الليلة الماضية، وهنا كنت قد تمكنت من منع صاحبى البغال من تكديس البنادق القليلة المتبقية لدى القافلة، في الأيدى الغاضبة التي كانت تمتد ناحية صاحبي البغال، أمسكت جابرا جورجس من كتفه، وشققت لنا طريقاً بين الواقفين بغية الوصول إلى كبار السن، الذين كانوا يحاولون جعل الآخرين يسمعون ما يقولون، حاولت إلى تلك اللحظة، التزام الهدوء والأدب إلى أبعد حد ممكن، لكني وقفت على الركاب ووضعت ذراعي على رأسي وتركت لنفسي العنان إلى حد ما، أقسمت بكل ما أعرفه، بدءاً من السماء إلى راس تقارى، أني على الرغم من عدم معرفتي أي شيء عن تلك المعركة، فإني لن أترك خدمي في أيدي هؤلاء الناس، تزايدت ثورتي عندما بدأت أقف على الآثار الناحمة عن بلاغتي.

كان جابرا جورجس يترجم ما أقوله بصورة أمينة، وعندما توقفت لالتقاط أنفاسى، كان هناك صمت شبه تام، اقترح رئيس القرية ترك أربعة من الجنود ومعهم بنادقهم ليكونوا رهائن، وبذلك تتمكن القافلة من مواصلة سيرها، وهنا وجدتنى أنفجر من جديد، هل ترضون لأنفسكم بترك امرأة شابة، وحيدة، ضيفة على أميرهم، بمواصلة سيرها وحدها في بلاد غريبة عليها، دون أن يكون معها أحد يحميها أو يخدمها؟ أنا أتخيل أن جابرا جورجس حسنن الأمر عن طريق الإفاضة في أهميتنا وحماية الراس الخاصة لنا، تلت ذلك فترة من الهدوء، وانتهزتها أنا ورحت أطلب قلم رصاص وقطعة من الورق، جرى إحضار القلم، لكن الورقة أسفرت عن قطعة من ورق الحلاقة الذي يحمله هارولد جونز، كتبت على هذه الورقة ملاحظة للسيد زافيرو، ووضعت هذه الورقة في يدى رئيس القرية، وطلبت منه تعرف الزبانيين اللذين يتهمهما بالقتل ويأخذهما ومعه الورقة التي كتبتها ويذهب بهما إلى أديس أبابا، ثم أشرت للقافلة بعد تأخر دام ساعة، بالمضى قدما أثناء الجدال العنيف الذي دار بعد ذلك، وبعد أن نقص من جنودنا جنديان.

قال هارولد جونز: "مرت بنا لحظات، كنت أحسب فيها أننا سننُعاقب".

قلت: "أم أنك تظن أن المسألة كانت مجرد تعطيل بغية الحصول على بقشيش مقابل التاجين المكسورين؟ وهنا يتعين على الاعتراف بأن أحداً لم يتطرق إلى الحديث عن النقود".

واصلنا سيرنا فى تشكيل متقارب صاعدين إلى الجبال ونازلين منها، بعد ذلك وجدنا رئيس القرية يتتبعنا مهرولاً ومعه الرهائن والرسالة، لم يكن الرجل بعد سكراناً بفعل بلاغته وبلاغة أهل قريته، تدخل فى الموضوع المد البارد الناجم عن رد الفعل، وساءل رئيس القرية نفسه عن مدى تصديق أديس أبابا قصته فى حال عدم وجود الجثتين، كانت هناك تفسيرات متضاربة أخرى زادت من غموض هذه المسألة، وواصلنا مسيرنا ونحن حائرون.

سرنا طيلة سبع ساعات عبر منطقة عامرة بالحشائش، مقسمة إلى سلسلة من الجبال ومنخفض، وتتخللها هنا وهناك بعض الأشجار الشوكية أو رقعة من نباتات الليلج الزاهرة، عندما دخل علينا وقت الظهيرة كنا قد عبرنا غور دوبر Dubber، وسقينا حيواناتنا من نهر هذا الغور، ومضينا من بين صفوف المنازل الرئيسية، لكن لم يكن هناك أي أثر لمترجمنا، وفشلت التحريات الدقيقة التي قمنا بها على امتداد طريق رحلتنا وفي قرى وُشالي Wuchali الكثيرة في الحصول على أية معلومات عن ذلك المترجم، لقد اختفى الرجل، عندما دخلنا تلك الأرض الخالية من البيوص ومن الدجاج، خيمنا بجوار بعض من الماء العكر الذي قيل لنا عنه إننا مازلنا في وُشالى؛ عند هذه المرحلة جاءنا اقتراحان من قافلة كئيبة، إما أن المترجم كان مخموراً وفاقداً وعيه في كوخ أو عش على طول الطريق، أو أنه أصابه الرعب جراء معركة الليلة السابقة، وشمَّع الفتلة عائداً إلى العاصمة، رجحت الفرضية الأولى وأقسمت على الثأر من ذلك المترجم، في الوقت الذي كنت أساوم فيه القروبين الذين لن يبيعوا شعيرهم إلا نظير "قطعة من القماش الأبيض"، هذا يعنى أنهم يطلبون المستحيل، إذ لم يكن بين أمتعتنا أى شيء أبيض اللون سوى شبكة ممزقة من شباك الناموس، وعليه بقى الحصانان جائعين.

سقط المطر في تلك الليلة لأول مرة منذ بداية رحلتنا في الحبشة، أدى

غروب الشمس العاصف إلى خروجنا من خيامنا لنشاهد السماء وهى تذوب على شكل لهب، وبعد ذلك بلحظات، تسابقت السحب وأفرغت نفسها فوقنا، خبت النيران، وجرى جميع الحاضرين، كلُّ إلى أقرب خيمة له، وراح الأفراد يُكوِّمون الممتلكات القديمة أمامهم، إلى حد أنى عندما رحت أبحث عن خارطة من الخرائط في المكان المحدد لها في جيب من الجيوب الحائطية في الخيمة، عثرت بدلاً منها على إناء فيه عسل، ويقول هارولد جونز إنه جعل من كيس السكر الوحيد مخدة له.

جلب المطر من بعده دفئاً، الأمر الذي جعلنا نستيقظ عند الساعة الخامسة صباحاً دون ارتعاد أو ارتعاش؛ كما أسفر المطر عن إخماد الغبار السطحي، على الرغم من عدم كفايته لسد الشروح الكبيرة التي فصلت الأرض المعشوشية وحولتها إلى رواب، سيرنا بخيولنا في مقدمة القافلة مسافة تقدر بنحو سبعة أميال ونصف الميل، إلى أن بدأ اللون الأزرق الياقوتي يغطى الطريق من الناحية الشمالية الشرقية، محدداً بذلك منخفضاً كبيراً، جدرانه عبارة عن جروف، وأرضيته مُكسَّرة بفعل الأبراج الصخرية وبفعل المنحدرات التي تتشابك فيها نباتات الصَّبار، وأحواض اللَّيلج الأحمر، نزلنا إلى الأسفل حيث الوادي، الضيق، العامر بالأشجار الكثيفة، والذي يقع أسفلنا، كما لو كان في أمعاء أرض جرى فتحها عن طريق تمزيقها ثم دعمها عن طريق حواجز من الأعمدة الحجرية المديية، كان المنظر رائعاً وقام جونز بتشغيل آلة تصويره أثناء نزول القافلة نزولاً مؤلماً، عن طريق الخطوات الملتوية والحواف البارزة، إلى أن ضاعت القافلة تماماً تحت ذروة الجبل المخروطية التي كنا نقف فوقها، على جانب من الجانبين، كانت المنازل المبنية من القش تنتشر بين الأحراش الخضراء التي تتخللها هنا وهناك كنيسة كما لو كانت قطعة من الماس في صندوق من القطيفة. فيما بعد ذلك كان النهر ينحدر منساباً إلى ما لا نهاية بين القمم الصخرية التي كانت تطبق عليه، وعلى الجانب الآخر، وعبر المساحات المكشوفة التي تتخللها الخيام كما لو كانت نجوماً - نظراً لأن دبرا ليبانوس Debra Libanos تعد قدس (أورشليم) الحبشة ومكاناً من الأماكن التي يحج إليها النصاري- كانت هناك غابات الأشجار وضريح تكلا حيمانوت Tekla Haimanot؛ كل ذلك كان واقعاً في

ظلال صخرة شامخة ربما كانت هيكلاً لإله قديم، هائل ومن العصور القديمة.

قلت بصوت عال "هذا شيء بديع"، وسمعت من خلفي صوتاً خفيضاً يتمتم "حقاً، يا سيدتي".

كان ذلك صوت حاسن، الذى زاد وجهه تغضنا، وأصبح أقل تعبيراً عما هو معتاد! وقبل أن أتمكن من توجيه أى سؤال إليه، كان قد انخرط فى رواية قصة معقدة فيها طريقان، ومنعطف خاطئ، وركوب استمر إلى أن أرخى الليل سدوله علينا، وبلا طعام، وقد بدت هذه الأمور كلها غير ذى صلة بالقصة التى كان يرويها حاسن.

سألته محتجة: "ألم يكن بوسعك السؤال عن الطريق؟" عندما أصبحت جُمله مضطرية مثل تفسيراته، لم يكن مترجمنا يعرف أية لغة أخرى غير لغة الجلا، وهذه اللغة غير معروفة في شمالي الحبشة أكثر من اللغة العربية، لم يكن المترجم يعرف من اللغة الأمهرية شيئاً سوى بضع كلمات، أما إذا كانت هذه الكلمات عجيبة مثل إنجليزيته، فإن هذه الكلمات سوف تنجح في إخفاء ما يقصده هذا المترجم، رضيت بالأمر الواقع، وقبلت ما هو محتم، وأخيراً وعلى الرغم من الروايات الثلاثة المتضاربة والتي لا خير فيها، بسبب انشغال جابرا جورجس على نحو منعه من الترجمة المباشرة عن اللغة العربية، اكتشفنا شيئاً محبباً عن حاسن، كان حاسن عديم النفع بشكل يدعو إلى الدهشة، وأن ذهنه كان شبيهاً بحزمة من الصوف السائب، لكنه كان دوماً يبذل كل ما في وسعه، الأمر الذي كان يسفر عن نتائج مضحكة.

بينما كان يجرى نصب خيامنا على حافة أخدود من الأشواك، ومن فوقنا صخرة عالية، ركبت فرسى ورحت أتجول بين الجلاميد بحثاً عن توما ليشان Touma Lishan، كبير قساوسة دبرا ليبانوس Debra Libanos، الذى حمَّلنى واليه مدير الكنيسة الحبشية Trchegue رسالة، كانت بيوت القرى الكبيرة، من النوع الصغير الجميل ولها أسقف ذات حواف أمامية، مررت خلال واحدة من تلك البوابات إلى فناء عامر بالخدم والقساوسة، وكان القساوسة يرتدون عباءات مصنوعة من الجلود، ومهلهلة في معظم الأحيان، كما كانوا يرتدون عمائم شبيهة بالقبعة العالية السوداء التي لا حافة لها، وهي إما سوداء أو بيضاء.

أكسيتني الرسالة التي أحملها حق الدخول إلى دروة مينية من القصب، وكانت منعقدة فيها جلسة من جلسات المحاكم، وكان القضاة مكدسين حول الجدار بأغطية رءوسهم الصوفية سوداء اللون، في حين كان الشهود واقفين، ومن الواضح أنهم جميعاً كانوا يتكلمون مع بعضهم البعض، بعد دقائق قليلة طُلب منى الدخول في متاهة من الأحواش التي فيها أعمدة مدبية، ثم مررت من خلال كوخين أو ثلاثة كانت بمثابة عقود وإن شئت فقل غرف استراحة أو غرفاً يؤدي بعضها إلى بعض، لأصل في النهاية إلى غرفة معلق فيها جلود، ومن وسط كومة من الجلود موضوعة أمام ستارة كانت تحجب الكنبة المكسوم بالجلد، وقف توما ليشان للقائي، قيل لي إنه ببلغ من العمر اثنين وخمسين عاماً وأنه أعزب بغض النظر عن شرائع كنيسته، كان يبدو كما لو كان في الخامسة والثلاثين من عمره، ومهندم، لامع البشرة، وله عينان ضيفتان، وجبهة ضيقة أيضاً، وكان يبدو عليه أنه فرد من أفراد البلاط أكثر منه قسيساً، تحاورنا من خلال زباني كان يعرف اللغة العربية، وفي ظل وجود أوامر مدير الكنيسة الحبشية أمامه، وافق الرجل، في شيء من التردد على حد ظني، لنا على القيام بتصوير الكنائس تصويراً سينمائياً وتصوير الينبوع المقدس، الذي يقال إن ماءه يشفى السواد الأعظم من الأمراض الميتة، عدت إلى المخيم بصحبة حامل من حملة الرماح، وبصحبتي النعجة كانت تجري أمامي، وعندما كانت النعجة تتعب من السباق مع الحصان وتقف لالتقاط أنفاسها، كان مرشدى يستدير خلفه ويقول: باء Baa، فتردد عليه الغنمة في الحال.

وجدت هارولد جونز وهو يصور مجموعة من أصحاب البغال أثناء استخدامهم للإبرة والمخراز والخيط بمهارة كبيرة، ولما كانت الساعة لا تزال العاشرة صباحاً، فقد أصررت على الاستكشاف العاجل لقرية دبرا ليبانوس، هذه القرية ليست مقامة على أرض الوادى، ولكن على حرف منحدر فى منتصف الطريق الصاعد إلى القمة الصخرية الجنوبية، هذه القرية بالكامل لا يسكنها سوى القساوسة هم وعائلاتهم والمعيلين، وكذلك مدارسهم الدينية، ومستودعاتهم الجماعية، ومطاعمهم الجماعية، كما يعيش فيها أيضاً عدد متباين من الحجاج المؤقتين، أو المحزونين الذين يأتون إلى القرية لدفن

موتاهم فى الأرض المباركة، هذه المنطقة فيها نحو خمس وثلاثين كنيسة، أكبرها هى كنيسة تكلا هيمانوت الثُّمَانيَّة؛ لكنى عندما حاولت الوقوف على عدد القساوسة الذين ينتمون إلى هذا العدد من الكنائس وجدت أنه تراوح بين ١٢٠٠ و ١٣٠٠ قسيس، وهذا رجل لطيف كبير السن انكمش وتجعد إلى أن أصبح شبيها بالقرعة المفرَّغة، أكد لى أن القرية فيها نحو نصف مليون قسيس، لكن جابرا جورجس سارع إلى توضيح الأمر عندما قال لى: إن الناس فى الحبشة يحسبون ١٠٠٠ على أنها مليون.

الكنائس مقامة في بيارات الزيتون، من باب تذكر القدس (الشريف)، الأشجار مقدسة في هذه المنطقة ولا يمكن قطع أي شيء منها، ولذلك نجد المرات الحجرية تغوص إلى الداخل وإلى الخارج بين هذه الأشجار من خلال الأعشاب المزهرة التي تغطى سطح الأرض، الجزء الأوسط من القرية فيه مظلتان كبيرتان مسقوفتان بالصفيح ولا يسمح للنساء بدخولهما، وعليه فقد عاد إلى هارولد جونز بوصف لهاتين المظلتين اللتين تمثلان كرار (本) الرهبان، ومخازن الحبوب، والمخابز، ومعامل البيرة، هاتان التعريشتان وإن شئت فقل المظلتان، بكل مرافقهما تغذيان نحو ٧٠٠ فرد يومياً، وقد شاهد هارولد جونز الخبز، وهو يجرى خلطة في غدران كبيرة مصنوعة من جذوع الأشجار، وشاهد أيضاً كميات كبيرة من الصلصة الحريفة أثناء طحنها، إلى أن راح القريبون منها يعطسون بسبب هذه المادة الحريفة، كما شاهد أيضاً النول الرومي وهو يجرى طحنه مع جذور الشمبورا Shimbura.

قبيل دخول المساء، ساعة أن يكون الهواء معطراً برائحة البخور الطيبة، وعامراً بأصوات الغناء الذى ينبعث من كل كوخ من الأكواخ، جاء إلينا موكب من العبيد ليقدموا لنا اللحم، وفولاً جافاً للخيل، وأكواماً من الأنجيرا (**)، في الوقت الذى كانت فيه أحمال الدريس قد وصلت وموجودة أمام خيامنا على ظهور الحمير، التي لم يكن ظاهراً منها سوى رءوسها وهي تحمل هذه الأحمال، هذه الهدايا كلها كانت من منتوجات أراضي الكنيسة التي تُفلع مثل أراضي التاج، عن طريق العبيد الذين يعملون في أرض الإقطاعي Serfs،

الكرار: محزن صغير بقرب المطبخ لحفظ الاطعمة. (المترجم)

[🖈] الانجيرا: نوع من الخبز شديد المرارة رمادى اللون يخبز على نار الفحم النباتي. (المترجم)

والذين تكون لهم نسبة مئوية من الماشية التى يربونها أو الحبوب التى يزرعونها.

مع رحيل آخر حمّال من الحمالين الذين جاءوا إلينا بالهدايا، وبينما كنت أنحنى ناحية الأرض انجرفت ترنيمة جنائزية نحو الأسفل قادمة من بين الصخور، ونبهتنا إلى خيال في أعلى القمة الصخرية، كان ناجماً عن موكب جنائزى، كان الجثمان ملفوفاً في مظلة (شملة) نظيفة، وكان يحمله أربعة رجال على سرير محلى؛ أبلغنى حامل الرمح، الذي كانت معه نعجة مستأنسة، والذي ربط نفسه بنا، أن الرجل ربما كان ميتاً منذ نحو ثلاث أو أربع ساعات.

قال: "أهل الريف لا يحبون الجثامين، وأنهم لا يلقون مطلقاً نظرة على أى وجه من وجوه الموتى، وأن الجثمان يجرى تغطيته قبل أن يخرج منه النفس الأخير من الجسم، ثم يدفن على وجه السرعة في حفرة عميقة تمنع ابن آوى من الوصول إليه".

كنا قد مررنا على قبور كثير من الفلاحين المكومة عليها الأحجار، المغروث في وسطها عصا تحمل قطعة من الجلد، وريما كان ذلك لتخويف الحيوانات، أو ريما كانت شيئاً من أشياء الرُّقى والتعاويذ، وكانت تلك القبور على أرض مرتفعة، وغالباً ما تكون على جانب الطريق، لكن في دبرا ليبانوس، يوضع القسيس بعد موته ساعات قلائل أمام الهيكل، أما الرجل العادى فيوضع في المكان الذي كان يتعبد فيه، ويقوم جمهور المصلين، والقساوسة، والرهبان، والخدم بتقبيله في جبهته أو في قدميه ويودعونه.

هناك أسطورة مفادها أن القديس ماثيو زار الحبشة فى العام الـ٣٠ قبل الميلاد، لكن التاريخ يعزو تحول الحبشة من اليهودية إلى المسيحية، إلى فرومنتيوس Frumentius، الذى كان مقدساً بصفته كأول أسقف لأكسيوم Axumمن قبل أثناسيوس Athanasiusفي منتصف القرن الرابع، اعتنقت الكنيسة بعد ذلك بمائة عام الخط الوحديطبيعي (ألم) الذى تلتزم به بصفة دائمة على الرغم من إدانة المجلس المسكوني لذلك، هناك تاريخ طويل

[🖈] المبدأ القائل إن للمسيح طبيعة واحدة. (المترجم)

وحاسم جرى تأبينه في عدد لا بحصى أو بعد من المخطوطات التي لا تقدر بثمن، وأهم ما في هذا التاريخ الطويل، والمتعلق بتاريخ كثير من القديسين، وأسفار ملوك الحبشة القدماء قبل وبعد عصر الملكة ماكويدا Maqueda ملكة سبأ، محفوظ في دبرا ليبانوس، ومن سوء الطالع أن الكثير من هذه المخطوطات التي لا تقدر بثمن جرى إتلافها أثناء الفزو الإسلامي والفزو الجلاوي Galla في القرن السادس عشر، وبعض آخر من هذه المخطوطات أخذته غنيمة تلك الحملة التي جردها اللورد نابير Napierعلى المجدلة Mogdla، هناك نسخة شهيرة من مخطوطة "عظمة الملوك" Kebra Negast أخذت من كلية الملك تيودور؛ وقد أعيدت هذه المخطوطة إلى دبرا ليبانوس بعد أن جرى الاحتفاظ بها سنوات عدة في المتحف البريطاني، شأنها شأن تاج الملك تيودور، الذي استولت عليه الحملة نفسها، والذي أهداه الملك جورج، هدية توديع إلى راس تفاري بعد آخر زيارة قام بها ولى العهد إلى إنجلترا، وعلى الرغم من قيمة وأهمية المخطوطات التي لا تزال في دبرا ليبانوس، فإنه ليست هناك مكتبات محددة، فكل كنيسة من الكنائس لها سجلاتها الدينية والتاريخية الخاصة بها، والمرء عندما يزور كوخ كبير القساوسة، يرى رُقًا يشع نوراً موضوعاً فوق حصير عبارة عن جلد خروف، أو قد يرى مجلدات قديمة أو مهلهلة ملقاة على أرض طينية.

تحتل سجلات قرية دبرا ليبانوس فى معظم الأحيان الفراغات الشاغرة التى بين مزامير داود، يزاد على ذلك أن الأحداث السياسية أو التاريخية المهمة تزين هوامش الأعمال والمؤلفات الدينية، زد على ذلك أن المسائل المتعلقة بالأنساب، وهذا أمر مسلم به، تعد مهمة إلى الحد الذي يجعل الحبشى لا يسلم هذه المسائل إلى الكتابة التى لا يثق الحبشى بها كثيراً بحكم فطرته، هذا يعنى أن مسائل الأنساب هذه يجرى تعلمها عن طريق الحفظ عن ظهر قلب، ويجرى تناقلها من الآباء إلى الأبناء على أنها من الموروثات، وربما كانت هذه الأمور هى أول بل والشئ الوحيد الذي يتعلمه الصبى الصغير؛ هذا يعنى أن هذا الصبى الصغير يتعلم سلسلة أسلافه وقراباته وصلاته إلى أبعد حد ممكن.

صادف يوم وصولنا إلى قرية دبرا ليبانوس واحداً من أيام الصوم التى لا تحصى ولا تعد في الكنيسة الحبشية، وعليه جلس السواد الأعظم من أفراد قافلتنا محزونين تحت الأشجار التى يتزايد ضمورها بشكل واضح، وبدأ المطر يسقط في فترة العصر، وقبيل دخول المساء زاد انهمار الأمطار.

استطاع هارولد جونز بواسطة كاوية لحام ومصباح دخان أن يجعل من خيمته حفرة شبيهة بحفر الفحم، وعليه أمكن دفع السُّرُج تحت سريرى وجرى تكويم علب الأفلام بجوارها، وبينما كنت أتساءل عن المكان الذى يمكن أن أضع فيه رجليَّ سمعت صوتاً حزيناً ومأساوياً: "إذا لم تتناول السيدة الفداء الآن، فلن يتبقى لها سوى الماء"، وعليه جرى وضع طبق عليه كومة من المكرونة ومعها بعض البيوض، فوق عُلب الأفلام وجرى وضع إناء القهوة على الكراسات التى أدون فيها ملاحظاتى، كنت قد طويت نفسى فى المكان المتاح المتبقى، فى الوقت الذى سارع فيه جابرا جورجس بالدخول إلى الخيمة.

قال جابرا بطريقة هامسة مسرحية: "هناك أناس مهمون جاءوا للقائك، يتعين عليك الخروج إليهم".

كنت قد أعرت معطفى إلى بالينا Balaina، أما حذائى فكان مدفوناً فى مكان ما تحت الأمتعة الشبيهة ببرج إيفل، وفضلاً علي ذلك كانت هناك ثقوب ضخمة فى جواربى، لم أستطع عمل أى شىء سوى وضع قبعتى على رأسى-وهذا من منظور سبب غامض مفاده أن المرأة الأوروبية التى لا ترتدى قبعة تكون فى موضع الشك – وخرجت فى المطر لاستقبال تلك الأشكال المعتمة الملفوفة التى كان موجوداً منها عدد كبير.

قلت لهارولد جونز: "هل يمكن لهم الدخول فى خيمتك؟" نظر إلى من خلال قماش الخيمة وجه مُسودٌ.

"أستحلفك بالله، ألا تجعليهم يدخلون الخيمة، لأنى قمت بتفكيك أجزاء آلة التصوير".

أشرت فى شىء من اليأس، إلى كبير القساوسة، بالجلوس على سريرى، جثم خادمه الأمين على طبق المكرونة، أما بقية الأفراد فقد بقوا خارج باب الخيمة، وشاهدت خلفية غير منظمة من الجرار، والأسبتة والأطباق، كانت الجرار بصفة خاصة هى التى شدتتى إلى الكلام- كانت الحركة أمراً مستحيلاً في هذا المكان المضغوط.

سألت: "هل ذلك مشروب تدج؟"

رد على توما ليشان "هذا الذى أحضره لك قليل جداً، لكنك لم تعطنى سوى مهلة قصيرة، هذا مجرد بعض قليل من البيوض" وقام بوضع نحو خمسين بيضة فى حجرى؛ "ودجاجة أو اثنتين، وشئ من الخبز ومعه أيضاً شيء من البيرة".

شكرته شكراً جزيلاً على كرمه، ورجوته رجاء حاراً أن يعفينا من قبول مشروب التدج، وقمت هنا برسم صورة لوفاة عمر وصورة أخرى لاختفاء حاسن، لكن كبير القساوسة بدا عليه التعب والاضطراب.

قال: "أنا لم أحضر لك سوى القليل، لو أنك أعطيتنى المزيد من الوقت لكنت أحضرت لك ثوراً، ما الذى سيقوله الناس لو أنى عدت ومعى هذه الأشياء القليلة التى حملتها إليك؟"

وأمام هذا المستحيل وجدتنى ابتسم ابتسامة متكلفة.

غمغمت "نحن شاكرون وممنونون لكم"؛ ثم قلت بعد ذلك للمرافقين: "أحضروا الجرار كلها هنا، أقول كل جرة من الجرار!".

أطاعوا الكلام وهم محزونون، وقد اندهش توما ليشان، إذ تعين عليه أن يفسح مكاناً على السرير لنحو ست أوان كل منها مسدود بمجموعة من الأوراق الخضراء، تخيلت أن توما ليشانً كانت في ذهنه صورة عنى وعن هارولد جونز تفيد أننا – نحن الاثنين – غارقان في مسألة الشرب والشراب، وأن جالونات ذلك الشراب المسكر المصنوع من العسل المُخمَّر سوف تتاقص وتنضب مع اقتراب طلوع الفجر؛ بسبب جهودنا غير المحُكمة.

قال: "معنا أيضاً خبز حبشى Anjera، وعندما بدأ المطر يزداد انهماراً محولاً الأطباق الكبيرة هي والخبز إلى عجينة، جرى دفع هذه الأشياء أيضاً إلينا في الخيمة ومن بعدها حزمة من الدجاج".

تساءل جابرا جورجس "هل تريدين كل شيء داخل الخيمة؟ هناك خروف. وقبل أن أتمكن من منع ذلك، جرى دفع قرنى الكبش الملتوين إلى داخل الخيمة.

صحت قائلة: "لا، لا، بحق السماء، لا!" قلت هذا الكلام باللغة الإنجليزية،

لكنى لم أستطع التحرك نظراً لوجود البيوض على ركبتى، عند هذه اللحظة كان الدجاج قد قلب وعاء القهوة، وراح الدجاج يتصايح بسبب السائل الحار، إلى حد أن الخادم المخلص لكبير القساوسة هب لإنقاذ الموقف على وجه السرعة؛ الأمر الذي لطخ مؤخرة غطاء رأسه بالمكرونة.

خطر ببالى أن "الأمر يحتاج إلى مصباح كيما يمكننا الخروج من الخيمة"، وخاصة بعد أن جرى دفع الأطباق ووضعها على الأرض، وانكسرت بيضة من البيوض على بيجامتى، وبعد أن احمر وجه الشماس خجلاً أرانى بعض الأجنحة التى تهفهف، وبعض المناقير، وبعضاً من الريش السائب.

قال الشماس: "أظن أنى أحضرت الأشياء كلها"..

قلت مثلما تقول الببغاوات: "أشكرك كثيراً، أنا ممنونة ومقدرة"

بعد ذلك بفترة، وبعد رحيل زوارنا، ومع بقاء العاصفة معنا، قمت أنا وجونز نستطلع بقايا ذلك الذي كان مفروضاً أن يكون عشاءً لنا.

قلت وكلى أمل: "أظن أن الظلام كان دامساً إلى الحد الذى جعلهم لا يدركون التلف الذي حدث".

"عجباً! هل تود شيئاً من المكرونة والمطر، أم تود بيضة مهروسة مع الطين؟"

"هناك بعض من البسكويت تحت سريرى، على ما أظن، احترس، البسكويت موجود بين السُّرُج".

انحنى جونز وراح يبحث عن البسكويت.

"لقد عثرت عليه، لا، إن ما عثرت عليه هو حداء، يا إلهى، لماذا تحتفظين بأسفنجك هنا- إنه مبتل!"

كان الإسفنج مبتلاً، وكان يحدث جلبة عالية عندما كان يرفرف على رجلي.

قلت على سبيل الملاحظة: "من الواضح أن كبير القساوسة لم يحضر الجرار كلها داخل الخيمة".

بعد ذلك بفترة، وعندما أمُلنا أن يكون المخيم كله قد نام، زحف جونز خارجاً من الخيمة، في شيء من الحذر التآمري، وراح يفرع كل الجرار

والأوعية مما بها من مشروب التدج، إلى حد أن سمعتنا بوصفنا سكيرين عنيدين أدهشت الجميع عندما قام العبيد بإحضار أوعية مشروب التدج الفارغة في الصباح، تواصلت أصداء مزامير داود إلى منتصف الليل قادمة إلينا من المنحدرات التي كانت فوقنا، ومن خلال الصوف القطني، الذي حشوت به أذني، وأنا قلقة بلا نوم، بدا لي أن كل صوت من الأصوات كان يحاول في غنائه أن يكون أعلى وأسرع من الأصوات الأخرى.

هذه الجوقات المنافسة ذاتها هي التي أيقظتنا في الصباح، كان المطر قد انتهى إلى ضباب، وبعد أن سرعنا مسير القافلة المكتئبة والمنقعة، تحتم علينا الانتظار إلى أن تطلع علينا أشعة من الضوء تكفي لتصويرنا قساوسة تكلا هيمانوت، هذه الكنيسة التي فيها قبة أو ضريح محاطة بنباتات البوكالبتوس، التي كان الشحاذون الجالسون تحتها يطلبون بإلحاح الصدقات باسم مريم (العذراء)، كانت الشرفة ثمانية الأضلاع تغص بالقساوسة المتكئين على عصى الصلاة، في حين كان هناك جمع من لابسي العمائم في الفناء الكبير. كان دخان البخور يكاد يحجب لون الأبواب، حيث كان المبخرون يؤرجحون مباخرهم على إيقاع الصلاة. وتنفتح الأبواب الكبيرة فجأة، وتنفرج الستائر فجأة ويظهر موكب كبير تحت مظلات أرجوانية مثل شقائق النعمان (*)، فجأة ويظهر موكب كبير تحت مظلات أرجوانية مثل شقائق النعمان (*)، الضخمة، الذهبية والفضية، والعباءات المطرزة، والعباءات المزينة المضوعة من القطيفة والبروكار، وشاهدنا أيضاً عظمة وأبهة الكنائس كلها المقاتل منها والمنتصر.

فى الوقت الذى كان هارولد جونز مشغولاً بالتقاط صور للنظرات الهائمة التى تتجه صوب السماء، دخلت أنا الكنيسة حيث أرونى الصور المرسومة بالألوان على الجبس قبل جفافه، والتى تمثل الإمبراطورة، راس تفارى، راس كساً Kassa، حاكم مقاطعة سلالى، بصحبة الملائكة الذين لهم أجنحة مُنجَّمة ومُقلَّمة مثل العلم الأمريكى، كانت صورة القديس تكلا هيمانوت موجودة على كل جدار من الجدران، وهو واقف على قدم واحدة، في حين كانت القدم

المترجم) بنبات مزهر مختلف الألوان. (المترجم)

الأخرى ملقاة أمامه على الأرض؛ لأن هناك أسطورة تقول: إنه بعد أربعين عاماً من الصلاة، كان القديس يقف طوالها في هذا المكان نفسه، كانت إحدى رجليه قد تعبت إلى حد أنها انكسرت، وأنها سقطت أو تعين بترها، وبمعجزة من المعجزات قويت رجله الأخرى إلى الحد الذي جعله لا يعانى من فقدانه لرجله، وتمكن بفضل ذلك من الاستمرار في صلاة الوقوف.

عندما كنا نبتعد عن دبرا ليبانوس غطى الضباب الوادي العميق الموجود خلفنا، إلى أن أصبحت القمم الصخرية تبدو وكأنها ملفوفة في صوف قطني، وإلى أن اختفى النهر الذي يعد رافداً من روافد نهر أدباي Adabai أو النيل الأزرق، وفور وصولنا الأرض المستوية، بدا لنا من خلفنا، دخان نيران كوكب بلوتو من خلال قطع عميق، يتدفق وكأنه خارج من قلب الأرض، عبرنا الجورة Goura الذي كانت ضفتاه حمراوين بفعل نباتات الليلج الحمراء، وفي البرد والسماوات المليدة بالسحاب، مررنا مروراً سريعاً على القرى الصغيرة المتاثرة، وعلى المراعى كثيفة الأحجار، إلى أن وصلنا فيش Fiche، عاصمة سلالي Salali، قرية فيش هذه منازلها مبعثرة على عرف تل بيضاوي الشكل، طرفاه متوجان، بكنيسة من القش من ناحية، وبالمنزل، وإن شئت فقل منازل راس كستًا(木 Ras Kassa خيمنا على الجانب الآخر من المنحدر، إذ أن منظر المدينة هي وأهل الحضر رائع من هذا المكان، وصل إلينا الموكب بعد ذلك بفترة وجيزة حاملاً معه كل أشكال المنتوجات ويدفع أمامه أو يسحب وراءه الماشية على غير رغبة منها، لكن كرم وضيافة راس كسيًّا كانت خرافية، لأنه أرسل لنا ثيراناً مُقتَبِة تكفي لتغذية جيش بأكمله، كما أرسل إلينا كل ما يلزمنا من الأشياء الأخرى.

عندما ذهبنا إلى منزله لشكره على كرمه معنا – كان واحد من هداياه، ثوراً صغيراً، في تلك اللحظة يدعس كل ما يسترعى انتباهه، في الوقت الذي راح مُلاّك البغال يتراقصون حوله على مسافة آمنة لكنها لا طائل منها – وجدنا مائة جندى واقفين عند بواباته لاستقبالنا، وبين طابور مزدوج من البنادق، أطبق الخيالة علينا، وبين الأعلام الخفاقة فوق عشرين رمحاً، جرى اقتيادنا من فناء إلى آخر إلى المسور الرئيسي، هناك دوماً تناقض عجيب بين بساطة

المترجم) المراد هو حاكم إقليم سلالي. (المترجم)

منازل هؤلاء الإقطاعيين وعدد حراسهم وعدد أفراد حاشيتهم، لابد أنه كان هناك ما لا يقل عن خمسمائة أو ستمائة من حملة البنادق في القصر الإمبراطوري الموجود في فيش، كل الجدران كانت محاطة بالجنود، كل فناء كان يعج بالجنود، ومع ذلك فإن الصالات التي كنا نمر خلالها في طريقنا إلى الرجل العظيم كانت عبارة عن تعريشات عالية من القش، مفروشة بالحشائش الخضراء ومفصولة عن بعضها البعض بواسطة ستائر من قماش الساتان الحريري، والتي كان يجري فتحها أمامنا، الواحدة بعد الأخرى، بواسطة أمناء التشريفات الذين يرتدون ثياباً بيضاء، بعد مسير طويل وجدنا الراس (حاكم مقاطعة سلالي) في بلكونة مفروشة بالسجاد، معزولة، ومحاطة بستائر بيضاء حمراء يتخللها نافذة صغيرة واحدة، توقعت رؤيته من خلال تلك النافذة، لأنه كان بجواره نظارة مُكبِّرة، كان يراقب بها مخيمنا على خلال تلك النافذة، لأنه كان بجواره نظارة مُكبِّرة، كان يراقب بها مخيمنا على

كان راس كسنًا واحداً من ممثلى الحبشة فى تتويج الملك جورج، وهذا الرجل يجمع بين الذكاء وسعة الأفق، أحببت الكلام معه، حتى من خلال سكرتير كان يتكلم الفرنسية، وأحببت أيضاً ملاحظة أثر تعبيراته على وجهه المدور إلى حد ما، الجرئ الحليق حلاقة نظيفة، لابد أنه كان محارباً وقائداً للرجال، وكان قصره مليئاً بحق، لا بالعبيد بل بالمقاتلين، كان قليل الكلام أكثر من الحبشيين ولا يعرف اللف والدوران، لم يبتسم سوى مرة واحدة، عندما قال لى: "أنت تركبين مثل الرجال، وتمشين مثل الرجال، توقعت، بعد كل ما سمعته عنك، أن تكونى رجلاً مثل كل الرجال، ما الذى لم تفعليه؟"

هذا يعنى أن النظارة المُكبِّرة جرى استعمالها لا

♦ الفصل الحادي عشر

رُولُ لِفَاءِ مِعِ النِّبِلِ اللَّهُ رَالِ أَنْ اللَّهُ وَلَيْلُ اللَّهُ وَلَيْلُ اللَّهُ وَلَيْلُ اللَّهُ وَل

بينما كنا نقوض مخيمنا فى صبيحة اليوم التالى، وأثناء تحميل البغال، رأينا أشكالاً بيضاء تجرى على الجانب المواجه لنا من التل، شاهدنا جماعات من راكبى الخيول وهى تختفى داخل أسوار القصر الإمبراطورى، وشاهدنا أيضاً عشرات من حملة البنادق يجرون خلفهم.

سألت هارولد جونز، الذى كان يشرح مستفيضاً للزبانية أن من الخطأ طى خيمة مبتلة ومحاولة إدخالها فى زكيبة، ولا يزال داخل قماش الخيمة مصباح، لم أكن مستأنسة تقريباً عندما اكتشفت أن قبعتى الوحيدة المصنوعة من القش، والتى كنت أحتفظ بها لدخولى أسمرة منتصرة، جرى التعامل معها بنفس الطريقة. ومن سوء الطالع أن مقاومة القبعة كانت أقل من المصباح، وعليه عندما جرى إنقاذها من داخل الزكيبة المسطحة التى جرى ربطها ربطاً محكماً بالحبال، كان المتبقى منها عبارة عن سلك مطوى وعليه بعض القصاصات المعلقة فى ذلك السلك، ركبت حصانى إلى المدينة وأنا فى حالة نفسية سيئة، بصحبة هارولد جونز، الذى كان لديه عديد من الأفكار الساذجة عندما شاهد الموكب البهى الذى كان ينتظرنا.

صاح هارولد جونز فجأة عندما شاهد خيال نحو ألف جندى عند خط الأفق، جاءوا لتحيتنا "لابد أنهم أفرغوا المقاطعة من الجنود أثناء الليل"، وتشكل الجنود في طابور مكون من ثلاثة صفوف، رافقنا إلى بوابات المدينة.

"يتعين عليك الذهاب والتحدث مع أولئك الرجال الذين يرتدون جلود أسود- أقسم أن لهم طلعة بهية- ويمكنك بعد ذلك الصعود إلى التل والجرى

بالحصان متجهة إلى أعلى التل وهم يجرون خلفك، وسوف أجعل من ذلك صورة رائعة".

قلت "أشكرك" عندما صهل الجواد الرمادى حين رأى أقرب الأشكال غير المتحضرة إليه؛ هل تتخيل بحق أنى لا أستطيع ركوب حصان لأن حزام سرجه أطول من اللازم ثلاث بوصات؟ جرت العادة أن أدور حول نفسى نحو خمس دقائق أتمتم خلالها بالصلاة.

تنهد هارولد جونز، "أليس بوسعك حشره بين بعض من هذه الرماح؟" رددت عليه: "الأرجح أن يحشر أحدنا على قمتهم".

كان ميدان السوق عبارة عن كتلة من البنادق، ومن خلال حملة البنادق وغابة من الأعلام الصفراء والحمراء الدالة على رتب الضباط، مضينا راكبين دوابنا وقاصدين الأبواب المزدوجة، جرى استقبالنا أمام الأبواب المزدوجة بواسطة أفراد حرس الشرف الإمبراطوري الذين كانوا يرتدون ثيابأ حريرية بنفسجية اللون ويحملون مظلات ناعمة نعومة المسحوق، استقبلونا وهم منحنون على عصيهم، وهنا وجدنا أنفسنا نعبر من جديد صالات من الحشائش المغطاة بالسجاد، لكن الفناء الداخلي في هذه المرة كان زاهي الألوان، كان محاربو سلالي Salali قد خرجوا وهم مرتدون زيهم الحربي الرسمى الكامل، الحرب كما يفهمونها هم- منظر رائع، غير متحضر لكنه ملئ بالعظمة، كانت هناك أغطية مصبوغة ومصنوعة من جلود الأغنام، وكانت ألوانها تتافس ألوان قوس قزح وتتفوق عليها، وكانت هناك أيضاً باقات وعصابات للرأس مصنوعة من عُرف الأسود، ومشرئية على شكل ياقات متعددة الثنيات لونها أصفر فيه شيء من الاسوداد، كانت هناك سيوف معقوفة في جرابات من القطيفة أو مطلية بالذهب، ومرصعة بالجواهر؛ وكانت هناك تروس مصنوعة من الجلد المدرَّع؛ كانت الرماح تتلألأ فوق لهب قرمزي اللون، وبرتقالي وبنفسجي؛ شاهدنا أيضاً خوذات، كانت عبارة عن نصف خوذة ونصف تاج، كان الضباط العظام يرتدون عباءات من جلود الأسود الناعمة، عليها لوحات من الفضة والذهب، كان هناك أيضاً رجالات آخرون من رجال الدولة، يلبسون أحزمة خرطوش مرصعة بالجواهر ويحملون سيوفاً كبيرة تتأرجح على جوانبهم، ويلبسون ثياباً من الحرير بنفسجي اللون،

ومطرزة تطريزاً متيناً، ولها ألفعة من الفرو أو الجلد أو القطيفة الموشاة بالذهب ومثبتة في أجزاء كثيرة منها، كان راس كساً يقف على هذه الخلفية الرائعة، وقفة هادئة مرتدياً ملابس قرمزية اللون ومذهبة، وكانت عباءته مطرزة تطريزاً كثيفاً بدت معه وكأنها مصنوعة من المعدن، الذي بدا وكأنه انصهر بفعل حرارة الشمس، بحيث كانت النار تبدو وكأنها تشتعل من كل فتلة ومن كل خيط، أخبرني هارولد جونز أن عينيه كانتا ترمشان وهو يحرك مقابض آلة التصوير، أما أنا فكنت بحاجة إلى مائة عين مفتوحة لدراسة كل تفصيلة من تفاصيل رداء الراس، وعلى الفور استأذنا من مضيفنا، وشكرناه على مزرعة الماشية، التي كانت تتبع قافلتنا على الرغم من أن اليوم كان مصادفاً ليوم الجمعة، وهو من أيام الصيام، ولا يصح فيه أكل اللحوم أو ذبحها، ووجدنا أنفسنا في نهاية المطاف في الميدان الكبير بين جدارين من النادق.

قال واحد من حرس الشرف الإمبراطورى "سيرسل الراس معك مرشداً، يقوم بتوفير كل ما تطلبينه على الطريق، سافرى مع السلامة، ستصلين إلى دبرا ماركوس Debra Markosفي غضون أربعة أيام".

لم يكن ذلك كله من تفكير المرشد بأى حال من الأحوال، لأنه مجرد ضابط فى الحرس، هو مجرد فرد من أفراد الفيترارى باذاب (* Feterari Bazab، كان يحريان يركب ركوبته ومن حوله حرس راكب مرافق له فضلاً على صبيين كانا يجريان خلفه حاملين بندقيته وترسه فى أكياس من الحرير، هذا الرجل حثنا على التوقف والتخييم قبل الظهيرة بوقت طويل.

"العشب طيب هنا، إن ذهبتم إلى أبعد من هنا فلن تجدوا ماء أو قرى".

وأصررت فى أدب جم، مع حزم كامل، على حتمية القيام بمسيرة زمنها ثمانى ساعات، تتخللها وقفات قصيرة، واستمر هذا الجدال طوال النهار.

"بغلى تعبان، لو كنت أعرف ذلك لأحضرت معى ثلاثة بغال".

عرضت عليه الحيوان الرائع الذي أعطاني إياه دجيز ماتش أسافا Dejez match Asafa

[🖈] الفيترارى باذاب: طائفة من البشر الأقرباء للإمبراطور والمقربين إليه، وهم من أصحاب الهيبة والمقام. (المترجم)

"لكن الرجال هم أيضاً متعبون، وهم ليسوا متعودين على رحلات من هذا القبيل".

كنت أرد على كل اعتراض بأدب واستهزاء، لأرانى أواجه اعتراضات أخرى، كل منها أهم من سابقه.

"ستموت البغال، سيسقط المطر، سيفيض نهر آبّاى Abbai، الخيول لن تستطيع السباحة في هذا النهر. النهر فيه وحوش مثل سمك القرش (تماسيح) ستأكل أرجل الخيول".

كل ذلك كان يتم بابتسامة خاطفة وعابرة لأن الباذاب Bazab كان تزْيِينيًّا بطريقة جريئة وواضحة.

عندما أوشكت فترة العصر على الانتهاء، رحت أشير إلى مجموعات القرى التي عند كل منخفض من المنخفضات.

"أعتقد أنك قلت إنه لم يعد هناك قرى". لكن مرشدنا كان ممن لا يعرفون الخزى، أعتقد أن هذا الحبشى يكذب بطريقة تقوم على الأمل الساذج، وإذا لم يصدق كذبه فهو يقبل الموقف هازاً كتفه ويروح يفكر في كذب آخر أكثر نظماً واستحالة، وعليه، بعد أن أكد أننا أوشكنا على قتل حَمُلة النقل، بما في ذلك مالكو البغال، وبعد أن أكد أيضاً أننا لن نستطيع الوصول إلى دبرا ماركوس قبل أسبوع، وبعد أن أكتشف باذاب بنفسه أن بلاغته كانت مثل الماء على ظهر البطة، راح الرجل يلهب ظهر بغله العنيد بالسوط، وابتسم ابتسامة رضا وأبدى ملاحظة "نحن الأحباش، لا نحب العجلة، نحن نريد أن نأكل ونشرب ونتحدث، ونساؤنا يتعبن خلال نصف ساعة، أما أنتم أبها الأوربيون فأنتم مختلفون عنا – ولا تفكرون في شيء سوى العمل، كم عمرك؟"

أسلمتنا فيش إلى آبوت Abote؛ آبوت هذه منطقة لا نهاية لها عامرة بالقرى التى لا أسماء لها، ونزلنا فى نهاية المطاف، نزلنا من الهضبة إلى الأسفل من خلال مسيرات ملتوية عامرة بالجلاميد المكوَّمة، أنفتح أمامنا واد مستو فيه سلسلة صخور جيرسو Jerso التى تشكل متراساً فى الجانب الشمالي، كانت آخر صخور هذا المتراس على شكل قلعة، عند حافة المنخفض، الذى كان يسير، تحت أسماء كثيرة، موازياً للطريق الذى سلكناه من دبرا ليبانوس.

قال باذاب متناسياً إحباطه السابق "هذا هو آدباى Adabai، وفى غضون ساعة واحدة سنصل إلى ممتلكاتى". وراح يضحك ثم دخل مزرعة على جانب الطريق.

تكلم متصيداً، أو مازحاً "طالما أنك لن تأكلى الثور، فسوف أحضر لك حلساً".

خرج وهو يلوّح بقرعة مفرَّغة، "الإنسان لا يمكن أن يحس بالشبع من الحليب، وعليه فسيكون مسيرك أسرع في الغد وأنا بدورى سوف أغير بغلى عند كل دار نمر عليها".

وأنا أضيف هنا، إننا عندما خيمنا عند الساعة الرابعة تقريباً، عند النقطة التى تلتقى عندها قريتا آبوت Abote وجرسو، فإن الخيول "المتعبة"، ومعها الحيوانات الحاملة لأمتعتنا، اندفعت كلها خلال حقل من الشعير، ثم هربت بعد ذلك على نحو جعل القرية كلها تجند نفسها للبحث عنها.

كانت السحب الأخيرة قد اختفت عندما بدأنا صعود سلسلة جبال جرسو، وعلى الرغم من أن الساعة تشير إلى السادسة والنصف فقط، فإن الشمس كانت حارة على ظهورنا.

قال هارولد جونز "ستزداد حرارة الشمس أكثر بعد ذلك"، يبدو أن حصانه كان موافقاً على ذلك إذ حاول الرقود مرات عدة، وعندما وصلنا إلى أرض مستوية، جرداء وبعد أن أحرقنا الضمادة الإيطالية الصفراء، جلسنا تحت الشجرة الوحيدة ننتظر وصول القافلة.

بدأ المرشد كلامه "إذا مشيتم الليل بطوله، فلن تصلوا إلى النهر". قال هذا الكلام عندما رأى أننا غير مقتنعين، وراح يعدد على أصابعه الحشرات المؤذية التى فى مجرى النهر، "لا يمكنكم التخييم بجوار الماء. المكان عامر بالذباب والبعوض، والثعابين، والتماسيح، وحيوانات كبيرة مثل الثيران ومتوحشة تماماً".

توقف عن الكلام إما لالتقاط أنفاسه أو لافتقاره إلى الخيال.

سالت المترجم: "هل تظن أنه يقصد فرس النهر اللطيف؟" لكن هارولد جونز، الذى سخُن تماماً وأحس بالضيق، قاطع الكلام قائلاً:

قل له: إن السيدة تحب الثعابين، وهي عندها ثعبان طوله أربعة عشر قدماً في غرفة استقبالها".

شهقت عندما ترجم حاسن بصدق هذه الأسطورة لمرشدنا كسير الخاطر. غمغم قائلاً: "لكن التماسيح". إحساساً منه أن ثعابينه لا طائل منها، وكرها أن يتفوق على، أكدت له أن هارولد جونز عنده تمساح مستأنس فى حديقة منزله، تتقل المرشد ببصره فيما بيننا نحن الاثنين مندهشاً، وربما يكون قد قرر أنه لم يعد له مكان بين كذابين محترفين.

قال هارولد جونز جازماً "لقد أكل تمساحى ثلاثة رجال، بقى فم باذاب مفغوراً".

وهنا رأيت أن الوقت مناسب للتأكيد له من جديد "انتبه؛ ثعبانى أليف جداً – وهو لا يعض أحداً مطلقاً ولا يأكل سوى الحليب.".، لكننا لم نسمع منه شيئاً بعد ذلك عن حيوانات النيل الأزرق المتوحشة، مشى الفيترارى راكباً بغله بجوارنا، إلى أن بدأت تتزايد كثافة مجموعات القرى لتنتهى بعد ذلك إلى قرية واحدة على مسافة بعيدة منا، وأفق منبسط من أمامنا، وعندها استأذن منا ليسبقنا ويرتدى ملابسه.

تساءل هارولد جونز، مُحبَعاً محاولة المرشد لركوب الحصان الكستنائى الذى يريده هذا المرشد، بالله عليك؟ اكتشفنا بعد ذلك بساعة أو ساعتين، ونحن نجرى جنباً بحصانينا خلف القافلة، أننا وصلنا إلى حشد من حملة البنادق والرماح، كانوا يقفون متصلبين بجوار الطريق، كان فى المقدمة كرسى مغطى بالسجاد، وبجوار الكرسى، شكل رائع يلبس قبعة "من طراز ترلبى " Trilbyمصنوعة من اللباد وعباءة من جلد الغنم مقطعة إلى أطراف كثيرة ومن تحتها ثوب شديد الزرقة له مشابك من الذهب والمجوهرات، وفى الوقت الذى اندفع فيه هارولد جونز نحو آلة التصوير السينمائى، أحسست بأن أقل ما ينبغى على عمله هو النزول عن حصانى وأصافح ذلك الجانب الجديد من شخصية الفيترارى باذاب، وإن شئت فقل المرشد. وبصورة جادة، ومثلما يفرح الطفل بلبسه الجديد، أرانى باذاب صفاً من البغال والخيول كلها مزينة بزينات ثقيلة من الفضة ومكسية إلى أعقابها بقماش قرمزى اللون، جرى تحريك فُرُش السُّرُج الفخمة مع اقترابنا من المكان، لكن باذاب وهو

يبتسم فرحاً، أشار لهم جميعاً بالابتعاد إلى أن جرى إحضار حصان مكسو بالمعدن والحرير، ركب باذاب ذلك الحصان وأشار إلى أن أتبعه، ثم حنَجل الحصان وانطلق به، وراح الحصان يدور على شكل نصف دائرة وعنقه مقوس والزيد يخرج من فتحتى أنفه، والراكب يشجعه من كل قلبه، متاسياً المشكلات التى من قبيل التماسيح والثعابين.

لم يكن عندى من خيار سوى أن أتبعه، ونظراً لأن كل واحد كان قد أحضر معه حصاناً أو بغلا، فقد سارع الجميع إلى الجرى بالخيول، في الوقت الذي راح فيه المسلحون يجرون خلفنا وهم يصيحون مشجعين، كنت مشغولة طول الوقت بإبعاد حصانى عن الشروخ والحفر، نظراً لأني لم أكن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، إلى أن وقفنا فجأة بين جذوع بعض الأشجار، ثم اقتربنا من بوابة مسقوفة بالفعل، مسقوفة بالقش ولها بوابة مسقوفة عند المدخل، كانت بوابة مسقوفة بالفعل، مسقوفة بالقش ولها طرف مدبب، وتؤدى إلى مُسرور دائرى، وجميل فيه أشجار غابية وفيه أيضاً أشجار ذكية الرائحة مثل الصمغ وأشجار الطقوس أو الزرنب، كان ميدان سباق الخيل أخضر وناعماً، وكان يوجد داخل الدائرة المبنية من اللبن بطنفها الغريبة المصنوعة، كنيسة قديمة هادئة، هذه الكنيسة القديمة الهادئة، بسقفها المصنوع من القش، وممراتها ذات الدعامات داكنة اللون، وجدرانها التي اسودت وتبقعت بفعل حرارة الشمس، كان لها مسحة من السلام القديم، لمسة من اللمسات البدائية، تجعلها تبدو كما لو كانت جزءاً من الأرض التي بنيت منها جدرانها والتي تتمي إليها، ورأينا قساً مسناً، له لحية بيضاء، تبدو عليه الحكمة باركه الله.

"أنا لا أعرف بلدك، لكني أدعو الله أن يعيدك إليه سالمة".

كان بعض الصبية الشماسة يرتدون ملابس حريرية باهتة ويمسكون بصلبان فضية مربعة الشكل، في الوقت الذي كان باذاب يمسك بيدى ويوجهني داخل تلك الممرات المعتمة شديدة الظلام، التي كانت الألواح والعمد داخلها عبارة عن جذوع أشجار صلبة، في حين كانت أرضيات هذه الممرات مفروشة بحصير من القصب ومرشوشا عليها بعض الحشائش.

قال: "اخلعي قبعتك، وألق السلام على مريم".

رأيت أن الأسهل هو الطاعة بدلاً من شرح ذلك الذي يجرى في أوروبا في

مثل هذه المناسبات، وعليه واصلنا السير ورأسانا عاريان، حول الجدران الخارجية حول المعبد، وكنا ننحنى انحناء كبيراً أمام كل قديس شهيد، الأحباش يُقبِّلون الأرض، عندما يلتقون صورة "مريم" أو "الأب"، لكنى لم أدقق النظر تماماً النظر، نظراً لأن الصور المرسومة بالألوان على الجبس قبل جفافه كانت واقعية بشكل مخيف، ووسط كثير من الدماء، والأطراف المبتورة، والتعذيب، كانت تلك الصور، وبأدق التفاصيل، تصور الآلام التى أصابت كل معترف وكل تابع من أتباع الزمن القديم.

لاحظت أن عدداً صغيراً من الصبية وبعض الرجال كبار السن هم الذين تبعونا داخل الكنيسة، أما الجمع الكبير فقد بقى خارج الكنيسة، طبقاً لما يحدث أثناء الأعياد والقداسات، وعرفت بعد ذلك أن أحداً لا يمكن أن يدخل كنيسة إلا إذا كان هو أو هي عذراء طوال أربع وعشرين ساعة.

كان ضوء الشمس الذى يلمع بين أغصان الشجر، وتباهى القساوسة والرؤساء فى "بيت المسيحيين"، ذلك الإرث الكنز، قد أعادا إلى الأذهان الطلسم القديم، لم يكن فى الكنيسة شحاذون، فضلاً على أن أصوات الأحباش كان يجرى إسكاتها عن طريق السحر والجاذبية التى جعلتنى أنظر إلى الخلف من كل طرقة من الطرقات المنخفضة لألقى نظرة خاطفة أخرى على الأسطح بنية اللون، والجدران البنية اللون، التي كانت بساطتها منسجمة مع ألوان ملابس حاملى المباخر المرتوقة، المبيضة بفعل الشمس، وملابس القساوسة التى لها لون الزعفران الباهت.

وسرعان ما انكسر ذلك الطلسم، عندما دخل جابرا جورجس بيننا وسط عاصفة من الاحتجاج والتفسير، وبشكل تردد صداه على طبلات الأذن، ومعه اللجام، وحزمة من الدجاج، ومفكوك الركاب، ومعه ملئ ذراع من الحطب، وهو يصيح بصوت عال إن القافلة جرى احتجازها في سوق كندى بواسطة رجال الجمارك الذين يودون الاطلاع على جواز سفرى، ويصرخ المرشد فيترارى وهو يلقى بنفسه فوق الحصان وينطلق على شكل دوامة سائب الأطراف والملابس، تبعته لمنع حدوث المزيد من الاضطراب، دخلنا مسرعين وسط جمع من التجار، المشغولين في عملية بيع المواشى؛ وفي غضون ثانية واحدة، أصيب بالارتباك والفوضى كل من مسئولي الجمارك، والقافلة،

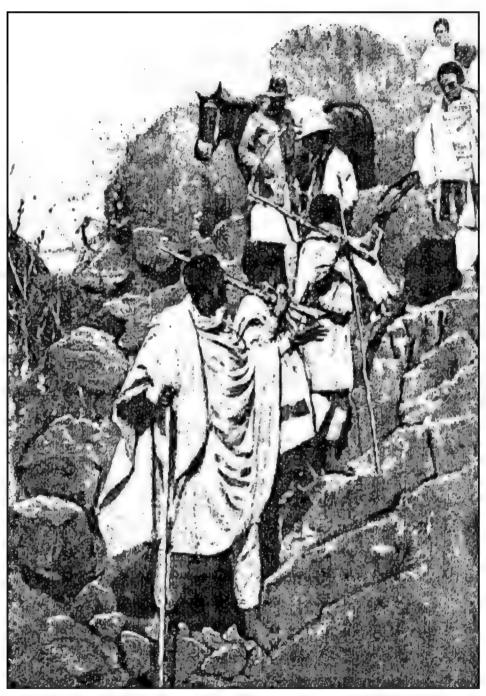
والقرويات اللاتى كانت ملابسهن مملوءة بالمنتوجات والشحاذين، والجنود، والقساوسة، وارتعدت فرائص جَمّاع الحطب خوفاً وهلعاً بسبب غضب باذاب الذى فى غير محله، وقع نَبُّوته على ظهور الرعاة الذين لا حول لهم أو طول، وجرى دفع بغالنا فى كل الاتجاهات ما عدا الاتجاه الصحيح، فى الوقت الذى انجرفنا نحن فيه أيضاً مع المد، وكانت آلات التصوير ترتفع إلى الأعلى وإلى الأسفل كما لو كانت أيدى ترفع أو تُسحب.

أستغرق عبورنا مئات الياردات القليلة وقتاً طويلاً إلى أن وصلنا إلى القمة الصخرية التي تهبط على مصاطب صخرية وشجيرات تزيد مساحتها على أربعة آلاف قدم، وصولاً إلى نهر أبّاى Abbai، ومع ذلك استطعنا الوصول إلى هدفنا على الرغم من أن رءوسنا ورئاتنا كادت توشك على الانفجار بسبب الكفاح الشديد، نزلنا زحفاً خلال المدة المتبقية من فترة العصر، عن طريق مساقط من الجلاميد، موجودة بين الأشجار الماكرة التي كانت تخبئ أشواكها وسط نضارتها وزهورها، كنت أود التخييم قريباً من النهر، حتى نتمكن من التسلق المخيف إلى قرية جوجام Gojam في فترة براد الفجر، لكنى وُجهت بالاعتراضات القديمة، قيل إن الماء لن يكون متوفراً بعد الآن، وقيل أيضاً إنه لن يكون هناك عشب للبغال، وإننا إذا ما واصلنا السير إلى دخول الليل فلن نصل إلى مجرى النهر، وعندما اعترضت على المسألة الأخيرة مُصرَّة، أننا طلما لا نستطيع تسلق خمسة آلاف قدم في شمس الظهيرة، فإننا يتعين علينا إحراز المزيد من التقدم قبل التخييم، وبذلك أصبح النهر أكثر قرباً بطريقة غامضة.

قال جابرا جورجس: "لقد كنت مخطئاً، لأن المسافة بيننا وبين النهر تقدر بمسير ساعة واحدة".

كان الجو شديد الحرارة، بفعل انعكاس وهج حار علينا من الصخور، كان المنظر أزرق اللون فيه شيء من اللون الوردى وبهيجاً، وكانت الوَهُدة من أسفلنا مغطاة بالضباب، وكانت قمم جوجان الصخرية مُكوَّمة على هيئة أشكال غير منظمة في المنطقة الواقعة خلف الوهُدَة.

قلت: "حسن، ضع الخيام على الرف الصخرى" موافقة بذلك، وأنا مُنوَّمة بفعل الجلبة والضوضاء، نظراً لوجود نحو خمسين جندياً من جنود



المنحدر الخطر، طريق صخرى في الحبشة

الفيترارى، كانوا لا يزالون معنا، ومنوَّمة أيضاً بفعل ذلك الصبى حلو الملامح الذى يصل طول رموش عينيه إلى نحو بوصة، وإسمه جرازماتش بالاى Grazmatch Balai، كان يترأس جماعة كبيرة أوفدت لمرافقتنا بواسطة راس هيلو، أثناء عبورنا لحدوده؛ معروف أن الراس هيلو هو رئيس Chief جوجام شبه المستقل، وهنا اتفقنا على أن نبدأ سيرنا في ساعة مبكرة.

قال جرازماتش مصراً: "على ألا يكون ذلك قبل طلوع النهار، لأن هناك لصوصاً بجوار النهر".

قال هارولد جونز: "ثعابين، تماسيح، وعصابات، أنا أتعجب مما يمكن أن يقال لنا بعد ذلك!"

بعد ذلك بدقائق معدودات عُضَّ واحد من جنود مقاطعة سلالًى Slalai لأنه كان يجوس غير مكترث خلال الأعشاب الطويلة، حدثت ضوضاء وهرج ومرج، قد يموت الرجل، كانت حيَّة سامة، كان السم لحظياً وفورياً. واقع الأمر، أن الرجل كان قد فارق الحياة! وفي محاولة منى لتذكر العلاج الصحيح لبعض الثعابين، اندفعت إلى صندوق أدويتي عارية الرأس، وعدت ومعى صندوق الأدوية، وأخرجت الميسم على وجه السرعة، وجلست بجوار المصاب، وقيل لى بأدب إن لم يكن بإسهاب، إن المصاب يؤثر تحمل تلكم الشرور التي ألمت به على الفرار إلى شرور أخرى لا يعرف عنها شيئاً! لم يمت المصاب، أنا أتوقع أن الرجل عضته بعوضة من البعوض العنيد عناد يمت المولدج Bulldog، والذي ينتشر في هذه المنطقة، أو ربما تكون هناك بعض الأشواك في تلك الحشائش الطويلة.

عندما زحفنا ببطء نحو الأسفل فى صبيحة اليوم التالى، بدت القمم الصخرية وكأنها تطبق علينا، وفى المناطق التى كانت تلك القمم تنقسم فيها إلى أطراف مستدقة، كنا نشاهد مجموعة من الأشكال جاثمة على تلك القمم المتقدمة كما لو كانت صقوراً، وكانت الشمس تتلألاً على السيوف ومواسير البنادق، كنا نعرف أنه كانت هناك فى الأيام الأخيرة مجموعة من الكمائن وأن القوافل الكبيرة هى فقط التى كانت تمر من هذا الطريق، أدى ذلك إلى المزيد من الاضطراب والفوضى على الطريق الضيق، نظراً لأننا لم يكن معنا

عشرون بغلاً وإنما مائة بغل محملة بالبضائع، والعسل والحبوب، وكانت تطلع وتنزل فوق الألواح والمدرجات المستحيلة، التي كان مسار طريقنا ينقطع خلالها لاهثاً من جسارته ووقاحته، جاءت لحظة مخيفة، عندما بدأت بغالنا تجوس خلال جنوع أشجار مُكسنَّرة وجلاميد مُكسنَّرة أيضاً، إذ جاء طوفان من الحمر التي تحمل أثقالاً أكثر من حمولتها، وراحت تتجه نحو هذه الجذوع المكسرة والجلاميد المكسنَّرة، هذا الطوفان جرى صندُّه بفعل أوزان أمتعتنا، وتحطمت حمولته، بل إن البعض من مكونات هذه الحمولة سقط من فوق القمة الصخرية، هرول سائقو الحمير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ هؤلاء السائقون كانوا مجرد أشكال هزيلة ترتدى عباءات قصيرة مصنوعة من جلود الأغنام كانت مفتوحة من جانب واحد، لكن حيواناً أو اثنين كانا يتشقلبان بالفعل نازلين نحو الأسفل ليصطدما بحافة بارزة من حواف الجبال.

كان عبور النهر طرفة بحق، ونظراً لتصميمنا على التقاط بعض الصور للقافلة وهي تخوص في طين يطاول ارتفاع سرج الحصان، ووسط جموع من حملة الرماح العراة الذين كانوا يبعدون التماسيح عن طريق إحداث طرطشة كبيرة في الماء، وذلك عن طريق خضخضة الماء بواسطة رماحهم المعكوسة، رحت أنا وهارولد جونز، نخوض بلا خوف، إلى حد أننا لم يتبق لنا سوى زوج واحد من الأحذية، كانت الصيحات تأتينا من فوق ضفة النهر حيث كانت القافلة تتجمع بكامل قوتها التي تصل إلى مائة فرد، كانوا جميعاً مستعدين إلى النزول إلى الماء على شكل حرف ٧، بحيث تكون البغال في المنتصف، لكننا واصلنا تخويضنا إلى أن أوقفنا تيار الماء، وسارع واحد من حملة الرماح لمعاونتنا في الإمساك بحامل آلة التصوير، تركت هذا الرجل، الذي تناسى التماسيح وراح يحملق ويطيل النظر إلى آلة جونز السحرية، لكن عندما ارتخت الأمتعة في الفيضان، بدأنا نمشى ببطء في اتجاه ضفة جوجام، كان الحرس المرافق لنا نشيطاً، على الرغم من غرقهم في الماء إلى خصورهم، حاول أفراد الحرس المرافق، عن طريق الصياح والقفز والنط، تخويف وإبعاد الوحوش التي ظنوا أنها تنتظر أولئك الذين يمشون وحدهم أو غير الحذرين، وفي منتصف المسافة، وبعد أن رفعت رجليَّ، وخرجي السَّرْج على شكل كومة في منطقة البغال، سمعت طلقة بندقية تدوى فوق المنخفض، منعني عرف

الفرس من السقوط، وعندما نظرت حولى وجدت جرازماتش هو وبعض جنوده يفتحون طلقات بنادقهم فى اتجاه السماء، حاملين البنادق فوق رءوسهم.

شرح لى حاسن "الضوضاء تخيف القروش (أله)"، وبعد ذلك بلحظة واحدة، وبصرخة مدوية، قفز رجل في الماء ووقف بجانبي، وقفت كالمشلولة، ورحت أحملق في المكان الذي كان الرجل فيه، لكن رفاقه ضاعفوا صياحهم ومجهوداتهم البدنية، إلى أن خرج الرجل ثانية من الماء مبتسماً.

"لقد قفز الرجل على صخرة وجرح قدمه، وظن أن تلك الصخرة كانت قرشاً، الحمد لله!"

أضيف إلى هذا الحادث لمسة من المرح بوصول راس هيلو فى تلك اللحظة، فى موكب حاملاً معه أحدث مشترياته، سيارة مُقَطَّعة، وهنا قام الحمالون بإسقاط الإطارات وكبُّود السيارة فى الماء وحاولوا الجلوس على هذه الأشياء!

كان تقدمنا بطيئاً خلال قمم جوجام الصخرية التى لا نهاية لها، انفصل نعلا حذائى وانشرخت رقبة فردة من فردتى حذائى من الخلف، كان ذلك احتجاجاً مبرراً، نظراً لأن ذلك الحذاء يرجع تاريخه إلى العام ١٩١١، وقد ارتديته خلال معظم البلدان وخلال أنواع كثيرة من المياه، لكن ذلك أحزننى مثل الزبانية الذين بدأوا يرددون عبارتهم المعتادة "هيا بنا نخيم" ويتمتمون ويغمغمون قبل الوصول إلى مكان منبسط يسمح حتى بوضع طبق واحد، ناهيك عن الخيمة، تناقص اتساع نهر آبًاى Abbai الكبير، الذى هو الجزء العلوى من النيل الأزرق، إلى ما يشبه شريط من الحرير الملوث بالزيت، وبدأت الحواف الصخرية تتشابك أعرافها مع بعضها البعض متجهه نحو الأعلى، وكانت القرى تبدو كما لو كانت متكئة على كل نقطة من نقاط الأفضلية بواسطة أسيجتها الخشنة، وصلنا أخيراً إلى الأرض المنبسطة التى الأوصول إلى دبرا ماركوس فى اليوم الرابع بدءاً من مغادرتنا فيش Fiche، الموسون فى اليوم الرابع بدءاً من مغادرتنا فيش Fiche.

القروش هذا لا تعنى أسماك القرش، لأن القروش لا تعيش في الماء العنب، ولكن الأحباش بطلقون اسم 'القروش' على التماسيح. (المترجم)

"لن نمشى أبعد من هنا، لقد تعبنا، لا يوجد ماء إلا فى نهر بيشات وهو على بعد مسيرة يوم كامل".

وهنا تذكرت على الفور لفهم ودورانهم.

قلت: "أشكركم شكراً جـزيلاً، الطريق واضح تمامـاً، وعليـه لا داعى أن تتعبوا أنفسكم أكثر من اللازم".

بدا عليهم عدم الاهتمام والفهم، عندما واصلت المسير مع جونز، الذى كان يساندنى دوماً عندما كنا نثير ضجيجاً أو عجيجاً مع الحبشى، ذلك اللاعب الضعيف جداً فى لعبة البوكر الذهنية، وفى غضون عشر دقائق، كانوا فى أعقابنا، ليقولوا لنا فجأة إنهم تذكروا عدداً من الثقوب المائية المنسية، عندما مررنا بآخر ثقب من ثقوب المياه هذه، بدأت "فى صبيحة اليوم التالى" القصة من جديد، الكذبة التى حدثت وتكررت ذات مرة؛ كنا قد سقينا حيواناتنا من قبل، وعندها خيمنا فى رقعة جرداء من الأرض ليست على مقربة من أية قرية من القرى المضيافة، وعليه لم نصغ إلى توسل ورجاء مفاده، أنه أولاً قريب كل شيء، هناك مجرى مائى (وبلا شك بعض الأكواخ التى تُصنَع مشروب التّلا Talla) فى المنطقة المجاورة.

أمطرت السماء في تلك الليلة، وعندما وجدنا أن أعمدة خيام الخدم جرى التخلص منها على اعتبار أن حملها يسبب للخدم نوعاً من القلق، وعندما وجدنا أن الزبانية لم يدخروا شيئاً من الوليمة – ثور ضخم ومائة وثلاثين رغيفاً – التي قدمها لنا آخر رئيس من رؤساء القرى التي زرناها، توصلنا إلى قرار مفاده أن التجوال في الحبشة يتعكر صفوه بسبب تهور القافلة، التي لا يراعي أفرادها راحتهم، وإنما يتوقعون أن يسقط المن والسلوى في أفواههم "بمشيئة الله"، والكسل المتأصل فيهم، الترحال، إن قدر له أن يكون آمناً، يتعين أن يكون بمعدل خمس أو ست ساعات في اليوم الواحد، وعليه ومن منطلق وعينا نحن الاثنين لهذه الحقيقة، مضينا قدماً كي نتحاشي يقين ذلك الذي نسميه "تعبير الساعة الثانية".

♦ الفصل الثانى عشر

لبلة مخيفة

جاء وصولنا إلى دبرا ماركوس بمثابة كابوس مؤلم للنتائج التي ترتبت على اللف والدوران، بعد أن تأكدت من الخارطة ومن ستة من المرشدين أننا كنا على بعد مسافة تقدر بنحو ثمانية عشر ميلاً من عاصمة مقاطعة راس هيلو، بدأنا تحركنا عند الساعة السابعة، وتركنا النهر ووادي بيشات Bechat في الجنوب، وتجاوزنا إنابي Enabi، التي كانت تبدو لنا من بعد، بعد نحو ميلين، وهدانا المرشد إلى "طريق مختصر" جعلنا نمر عبر أراضي الشعير ذهبي اللون وعبر حشائش أخرى جفت بفعل الشمس، إلى أن وصلنا إلى حفرة مليئة بالطين الأسود، لم تكن تلك الحفرة أكبر من أية بحيرة أخرى من بحيرات الطمى التي عبرناها، وعليه، نزلت من فوق حصاني، ورحت أتحسس طريقي خلال هذا الطين الأسود، ودهشت عندما غاصت قدماي إلى الساق في آخر مكان وصلت إليه، كنت أزيل طبقات الطين من على حذائي الذي قام بإصلاحه واحد من الزبانية مستعملاً لذلك خيطاً أصفر اللون، عندما سمعت صراخ مالكي البغال، كما سمعت أيضاً صيحة إنذار وتحذير من هارولد جونز، وعندما استدرت، شاهدت طين البركة حياً، وقد تحول إلى أشكال تتحرك؛ أشكال كلها سوداء سواد الأبنوس، اللهم باستثناء قطعة من أمتعتنا أو عرفاً أبيض من أعراف الحيوانات كان ظاهراً مرتفعاً نحو الأعلى؛ كانت تلك الأشكال تتجاوب مع امتصاص المستتقع، كان نصف أعضاء القافلة قد نزلوا معاً في ذلك المستتقع، وفي لحظة من اللحظات بدا الأمر وكأن هؤلاء الأفراد لن يخرجوا من ذلك الوحل، ومن يمن الطالع أن الجزء العميق من ذلك المستتقع الطيني كان قريباً من الشاطئ؛ أما فيما يتعلق بمالكي البغال اللذين كانا غارقين في الوحل إلى عنقيهما، فكانا يدفعان، ويجران الحيوانات

ممسكين بها من أعرافها أو أذيالها أو يرفعان أنوفها فوق مستوى الوحل، وأفلح السواد الأعظم من هذه الحيوانات في الوصول إلى الأرض الصلبة، كانت الحيوانات الثلاثة الأخيرة تحمل أثقال الأحمال، وعلى الرغم من نضال هذه الحيوانات وهي غارقة في الوحل فقد راحت تغوص ببطء في الطين إلى أن أصبحت لا يرى منها شيء سوى رءوسها وأصلابها، فصل البغالة الأحمال عن البغال، ومع ذلك بقيت البغال الثلاثة بلا حول أو طول، وبعد المحاولات الميتة التي بذلت لجعل هذه البغال تقف على أقدامها، والتي غرق خلالها مالكا البغال في الطين مثل حيواناتهما، اقترحت عليهم فكرة استعمال الأعمدة، إذ سبق أن رأيت هذه الأعمدة تستخدم في رفع الإبل من الرمال المتقلة، انكسر العمود الأول، أما العمود الثاني، الذي كان ركيزة من ركائز الخيام، فقد جرى تمريره من تحت بسم البغل وقام ستة رجال برفع الحيوان إلى أعلى في حين كان اثنان آخران بدفعان الحيوان من عرفه وذيله، بعد ذلك قمنا بغسل الأمتعة، على الرغم من أن بدفعان الحيوان من عرفه وذيله، بعد ذلك قمنا بغسل الأمتعة، على الرغم من أن البغالة كانوا مغتسلين تماماً، وعند الظهر بدأنا تحركنا من جديد، ونحن نتجادل، بطبيعة الحال، حول المسافة.

"إذا سرتم طول الليل فلن تصلوا دبرا ماركوس".

"لا، هذا ليس صحيحاً، ستكونون في المدينة بحلول الساعة الخامسة".

إن أكرمنا الله فإن المسافة من هنا تقدر بنحو ثلاث ساعات"، أخيراً وبعد أن غادرنا الأراضى المعشوشية، التى فيها مجرى مائى يمر أسفل كل سلسلة من السلاسل الصخرية، دخلنا منطقة من أحراش الست المستحية (ألم)، "من عرف الجبل القادم تصبح المسافة المتبقية مسير ساعة واحدة، نصل بعدها إلى دبرا ماركوس".

كانت الساعة قد وصلت الرابعة، وكنا متعبين، لكن الأمل المرتقب في فترة راحة طويلة في دبرا ماركوس أغرانا، وعليه سارعنا إلى صعود المنحدر، من بين شجيرات كانت لها زهور صفراء شبيهة بلون بضوء الشمس وقد أُمسك به في شبكة، زهور برية، زهرة شارون Sharon، الظيَّان (人)، والياسمين

الست المستحية: نبات مزهر من فصيلة السنطيات. (المترجم)

^{**} الظنّان: بتشديد الظاء وفتحها وتشديد الياء وفتحها، هو ياسمين البر، وهو نبات معترش. (المترجم)

زكى الرائحة على جانبى الطريق الذى نسير عليه، مررنا عبر كثير من النهيرات الصخرية، إلى أن وصلنا فى نهاية المطاف إلى قمة الجبل، وهنا صحنا قائلين: "حسن، أين دبرا ماركوس؟" وسبب ذلك أن الشمس كانت قد أوشكت على الغروب، والأحباش يكرهون الظلام.

"قريبة! إنها قريبة فعلاً، انظرى، تستطيعين رؤيتها من هنا".

رحنا نحث مطايانا وفى مقدمتنا جرازماتش Grazmatch على أمل الوصول إلى ما يمكن اعتباره مبتغانا الأخير، يا للأسف! ربما تكون منطقة دبرا ماركوس موجودة أسفلنا لكن قراها وأشجارها تقع على قمة جبل بعيد عنا.

كان ضوء النهار قد بدأ يخبو بفعل العاصفة، خيمنا بعد التشاور، وقمنا بجولة على ظهور الدواب إلى القرية فى فترة الصباح، لكن المسافة تكون خدًّاعه فى بعض الأحيان، كما أن عظامنا آلمتنا بسبب تحررنا من الستَّرُج مدة ست وثلاثين ساعة.

قال أحدهم: "القافلة قريبة منا فى الخلف"، وأردف هارولد جونز قائلاً: "لابد لمالكى البغال أن يتبعانا، كلهم يودون الذهاب إلى البلدة، وهم يعرفون أنهم لن يكون أمامهم من شىء يفعلونه غداً سوى الأكل والتسامر مع بعضهم البعض"، رددت عليه "هذه هى بداية صوم يستمر أربعين يوماً"، وواصلنا السير ودخل علينا الظلام فجأة، ونحن نثابر على السير فى الأرض المحروثة، الأمر الذى أدى إلى إزعاج مجموعة من طيور الزقزاق راحت تصرخ احتجاجاً حول آذان بغالنا.

قال جرازماتش: "يجب أن أسبقكم، وإلا فلن يدعونا ندخل البلدة".

تخيلت أن الصبى كان يتطلع إلى مأوى وموقد، ولذلك أصررت على ملازمته، وأن أكون لصيقة به، وواصلنا السير، بحيث كان حصائى خلف ركوبته، في ظلام دامس، ميلاً بعد ميل، إلى أن أشارت الساعة إلى السابعة، وعندها دخلنا منطقة الحشائش والأعشاب الموجودة أسفل دبرا ماركوس.

قال بَالَىُ Balai "بوسعكم التخييم هنا، الماء قريب منكم وسوف أحضر لكم بيضاً وحليباً".

أدى وصولنا إلى قريته إلى إيقاظ الكرم الذى يعد أفضل شيء في الحبشة، واندفع باليُ في جوف الظلام قاصداً السلب والنهب.

نظر إلى حاسن الذى كان يتبعنا نظرة تدل على البله وعدم الفهم، كانت النجوم قد ظهرت، لكنها كانت محجوبة بواسطة السحاب، وكانت الحشائش مبللة بالماء، لم يكن معى من شيء سوى معطف مطر خفيف جداً، ورحنا نطلع إلى الأعلى وننزل إلى الأسفل، ونحن ننتظر، في يأس، وصول هارولد جونز ومعه مالك الخيل، لم يأت أحد منهما، مضت ساعة وكان البرد القارس يخترق أجسامنا، كانت أسناننا تصطك، عندما عاد إلينا جرازماتش وهو يحتضن دجاجة.

قال: "يتعين عليك الدخول في منزل من المنازل، وستجدين فيه الوفرة وتحصلين منه على ما تشائين".

قلت مصرة: "يتعين علينا مقابلة الجنتلمان أولاً"، وبدأنا بعد ذلك بحثاً لا طائل منه، فقد أرسلنا بعضاً من الزبانية الضالين الذين سبقوا القافلة، معيدين إياهم إلى القافلة، وحركنا الحضر الحائرين إلى البحث عن ذلك الذي بدا لنا وكأنه خليط لا ينتهى من حزم النباتات الكثيفة، والسدود الترابية، والحشائش التي تطاول خصر من يسير خلالها، أو الشروخ المملوءة بالماء، عند الساعة التاسعة كنت خدرة ومرهقة، نظراً لأن الغداء كان عبارة عن لبن رايب وبضع كسرات من الخبز، حثني جرازماتش على التوجه إلى كوخ من الأكواخ، كانت تتبعث منه دخان نار وقودها روث البهائم.

واصلنا مسيرنا وتجاوزنا بعض الأبقار وعجلاً صغيراً إلى أن وصلنا قرية كبيرة من الطين والقصب (البوص)، كانت هناك نعجة وثلاثة كلاب حول الرماد، حيث كانت توجد امرأة تطبخ شيئاً فى نصف قرعة. كان هناك أيضاً عدد من الرجال والأولاد جالسين بجوار الجدران فى ضوء ناتج عن إحراق بعض الدهون، الموضوعة فى إناء من الصلصال، كان الهواء محملاً بالغبار، والدخان، وتفوح منه رائحة الزيت، وكان هناك أيضاً بعض الحيوانات وبشر غير مغتسلين، ومع ذلك كان الكوخ دافئاً، دُفعت وأنا مبتلة وأرتعد إلى حلبة مغطاة بالحصير، وفوق شئ ما عندما كنت أفرد يدى كى أوازن نفسى، كان واضحاً أن كثيراً من الدجاج وعائلاته كان يتقاسم معى هذه الشلّتة، ومن خلف الدجاج كانت هناك بعض أقراص الجلّة والدريس. قدم لى شاب، صاحب البيت، شيئاً من الحليب، وبابتسامة وعن طيب خاطر وضع كل ما لديه تحت تصرفى. وبطبيعة الحال، كان لابد من أخذ السرير، وهذا يعنى أن الرجل هو وأسرته سينامون فى مكان آخر، أصر رب البيت على وهذا يعنى أن الرجل هو وأسرته سينامون فى مكان آخر، أصر رب البيت على

ذلك ولاحظت أنا بدورى وجود فراغات منفصلة عن بعضها بعيدان القصب، لكن ثغاء الغنم وعراك الحيوانات كان ينبعث من السواد الأعظم من هذه الفراغات، عند هذه اللحظة حدث اندفاع في الطرق المؤدية إلى الباب، ودخل جابرا جورجس بطريقة مثيرة، لم يكن ذلك الرجل قادراً على مقاومة الفرص العاطفية كلما تهيأت له، وكان يستخدم يديه دوماً في التعبير عن ذلك حسب حدة هذه العاطفة. قام جابرا جورجس، ومن خلفه بالينا الصامت والمغلوب على أمره، بإلقاء حزمة تحت قدميً.

قال: "ضاع! لقد ضاع حقاً! جلس أرضاً! كل شيء معه، لا شئ، لا يوجد أى شئ، لا شئ، لا يوجد أى شئ، لا شئ، لا يوجد بسكويت، هذه الأشياء موجودة هنا،" طرح نفسه على الأرض، ووسط التراب والوحل راح يفرد بعض المؤن الغذائية المفككة من بعضها.

"ليس لديه فكر، لقد انتهت البغال، ماتت، هو جالس! ليست هناك خيمة، ولا سرير، لقد ضاع كل شيء ؟ ساعتين من هنا، جريت وأعطيت رجلاً ريالاً، أخذته من الحقيبة!"

عقُّب بالينا المسرف "أنا أعرف أن المبلغ كبير".

رفض ذهنى تسجيل أى شىء، لأنى كنت قلقة على هارولد جونز، الذى لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية أو اللغة الأمهرية، وقد تخيلت أنه ربما يكون قد تجمد فى واحد من المجارى المائية الكثيرة، أو ربما يكون قد تاه فى المقاطعة المجاورة، طالما أن جابرا جورجس لم يمر عليه فيما كنت على يقين من أنه الطريق الوحيد.

قلت وأنا مدركة هباء ما أقوله "لابد من عودتنا جميعاً لننظر ما جرى"، لكن جابرا جورجس دفعنى إلى الوراء،

قال جابرا: "سوف أطهو بيضا، لقد ضاع الخواجة Khawaga ضاع كل شئ، سوف أسوقًى بيضاً مقلياً".

رأيته وكأنه يضع بيوض شخص آخر فى طبق مستعار، وفى الحال نضج البيض المقلى، ربما كانت هناك فترة زمنية، لكن كما يحدث فى المعجزات، وفى وعاء قذر تماماً، جرى وضع البيض على ركبتى، وعندها دخل هارولد جونز، مصاباً إلى حد ما ويكاد يتصلب بسبب البرد.

"إلى أين ذهبت؟ لقد وقفت أنتظر ساعة كاملة عند البوابة".

قلت فى تواضع وأنا أدفع دجاجة كى أخرجها من قبعتى: "لا أظن أن هناك بوابة".

"أقول لك، إنى انتظرت هناك فترة طويلة، كان هناك جنود وقد أحضروا لى كرسياً، إنها البوابة الوحيدة في جدار هائل".

غمغمت قائلة "نعم" وأنا أدرى أن دبرا ماركوس لم تكن لها بوابة أو جدار "ألا تريد شيئاً من البيض المخفوق؟"

أكلنا في صمت، ونحن نحس بالخدر نتيجة البرد، والإرهاق ونتيجة تفكيرنا في الليل الذي ينتظرنا.

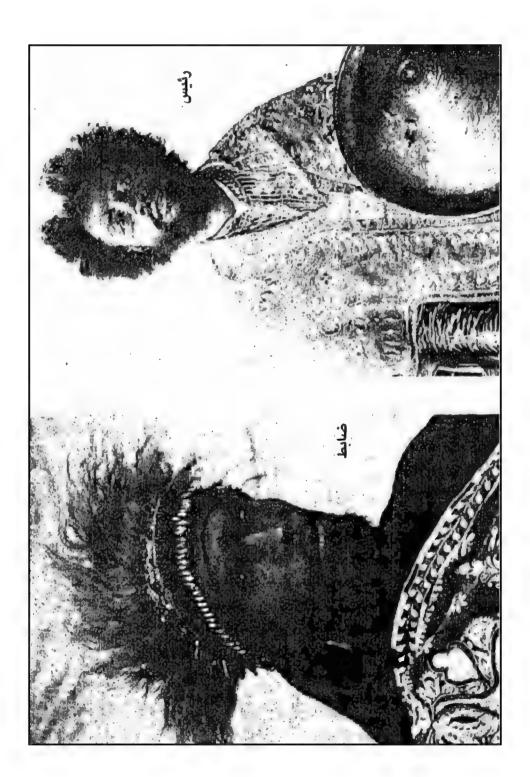
سالت "هل سنت قاسم هذه الحلبة مع الدجاج؟" قلت هذا الكلام وأنا مستأنسة بعض الشئ بسبب الدفئ، على الرغم من أن الدخان الحريف جعل عينيَّ تدمعان "أم أنك تود حُجيرة مع العائلة،؟" لكن هارولد جونز كان مصراً على مفامراته.

لقد رحمك جرازماتش عندما لم يحضرك إلى البلدة، لم يسمحوا لى بالدخول وطلبوا منى نصب خيمة خارج البوابة، لقد سمعت كلاماً كثيراً عن الخيمة Dunquan. إنهم هنا يغلقون البوابات عند غروب الشمس كما هو الحال في هرر.

وافقت قائلة: "ربما" وأنا أتعجب من مسائلة الإسراع فى تغذية الخيول وإعطائها قسطاً كافياً من الراحة حتى أبدأ البحث عن مالكى البغال، كان مستحيلاً تماماً تمضية الليل فى القرية التى أصبحت مزدحمة إلى حد الاختناق، نظراً لأن البغالة قد يمكثون فى مكان مريح على جانب جبل من الجبال، وأننا سوف نستدعى للقاء راس هيلو، ونور الصباح ونحن فى حال مذر من القذارة.

سألت هارولد جونز وأنا أدرس طبقات الطين المختلفة التي على بنطالي "كيف اكتشفت هذا المنزل؟"

"عثر على الجرازماتش وأرسلنى إلى هنا، أظن أن معه تصريحاً أو شيئاً من هذا القبيل، نظراً لأن الجنود سمحوا له بالدخول، كانت هناك قوات من الجنود لابد أن هذا المكان مُحَصَّن بصورة منتظمة".



اكتشفنا بعد ذلك أن الخادم كان قد وجَّه هارولد جونز مباشرة إلى بوابة القصر، حيث قام المسئولون اللُّحُرجُون، المأدبون والمُسنَتَ فَرُّون بذلك القدوم الذى لم يعلن عنه، بمناقشة مسئلة نصب خيمة لذلك الأوروبى المُشرَّد الذى رفض أن يفهم الحقيقة التى مفادها أن الرَّاس لا يمكن إزعاجه فى هذه الساعة المتأخرة، على كل حال، آوى هارولد جونز فى تلك الليلة إلى فراشه ومعه مخدة من الجلد، وبطانية من بطاطين البغال، وهو مصمم على أننا جرى طردنا إلى ضاحية من الضواحى، يزاد على ذلك أنى بلغت من التعب حداً منعنى من أن أُعيد القول: إننا كنا على بعد ياردات قليلة من السوق.

كنت قد خلعت حذائى ولفضت قدمى فى معطف المطر، لكن بعد عشر دقائق، وأحسست بأنى قد تجمدت بفعل الريح التى كانت تأتى من الباب المفتوح، كانت النار قد ضاعت وسط الدخان، إلى حد أنى لبست الحذاء من جديد، بمساعدة ستة من البشر كانوا مجتمعين حولى، ولفضت معطف المطر الرقيق جداً حول كتفى، ورقدت مرة أخرى ورأسى على جوال من البصل، لكن بعد بضع دقائق بدأ كل طرف من أطرافى يؤلمنى، إلى حد أنى شعرت أن جسمى كان متقداً.

قلت لنفسى "هذا شيء عصبى، أنت متعبة جداً، هذا هو كل ما في الأمر" لكن استيائى تزايد إلى أن بدأت أفكر أن ذلك لابد أن يكون نوعاً جديداً من الحمى، يزاد على ذلك، وعلى حد علمى، بدا ذلك الأمر وكأنه شيء داخلى، هذه مجرد خناقات داخلية ليس إلا، أحسست في نهاية المطاف، وكأن جسمى كله متقد، أحسست أن رأسي يدق، وقفت ورحت أدقق النظر في الحلبة منخفضة الحصير وأنا أقول: "هذا خيال، بطبيعة الحال!" لأنه لم يكن هناك متسع لأي شيء غير الدواجن، وأنه ليست هناك دجاجة لا تحترم نفسها يمكن أن تحقق مثل هذه الضوضاء، كانت هناك مجموعة من الأشكال الملقعة جالسين بلا حراك وصامتين، بجوار الرماد، وكلت أتعجب ما إذا كان الأحباش ينامون، أعتقد أن الأحباش لا ينامون إن كان لديهم ما يأكلونه أو يتحدثون عنه، شاهد رب البيت تحركي، ومد ذراعه مبتسماً تحت ألواح الخشب الرقيقة وأخرج العديد من الأشكال المفراة الواحد بعد الآخر.

لهثت، متعجبة إن كانت عيناى وجسمى المتقد يخدعاننى "ما هذه الأشكال، بالله عليك؟"

ردَّ على باللغة الأمهرية "هذه قطاط الزبَّاد، فروها يفرز زيتاً". بدا وكأنه سيقوم بعصر شيء من الدُّهن من تلك المخلوقات المفرَّاة، لكني كنت قد رأيت معصمي في الضوء، وكنت أطيل النظر إليه وأنا مرعوبة، بدا معصمي وكأنه خارطة مجسمة لبلد من البلدان الجبلية، لأنه لم يكن في بشرتي نقطة واحدة بلا بقع، إذ كان العض متراكماً فوق بعضه.

همست وأنا خائفة مما يمكن أن يكون قد حدث لبقية جسمى "جونز! هل نمت؟"

تأوه صوت يائس "تقولين نمت! أعتقد أنى غاضب!"

"لا، أنت لست كذلك، كل شيء على ما يرام، لكن بالله عليك، هيا بنا نخرج من هنا قبل أن نُؤكل أحياء".

تعثرنا فى الحيوان وفى الحزم البشرية الملقاة على الأرض، صدمتنا الريح الرطبة عندما وصلنا عتبة الكوخ، لكن برودة الرياح كانت منعشة بعد ذلك الذى لقيناه من ذلك المتكأون.

قلت: "سوف أحضر مالك البغال، الساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد، والخيل أكلت بعضاً من الشعير، هل ستبقى هنا إلى أن أعود إليك؟ أنا لن أغيب أكثر من أربع ساعات".

كان جونز يرتدى صُدرة خفيفة مصنوعة من الجلد فوق قميصه، وراح يرتعش عندما سقطت علينا زخة من المطر.

"أنا لن أعود إلى ذلك المكان، لابد أن هناك جحافل من البراغيث، وكلها جوعانة! كنت أحسب أن المسألة متعلقة برأسي، إنها الشمس، كما تعلم أنت".

أثبت الزبانية أنهم كيِّسون بشكل غير متوقع، فى الوقت الذى كان جابرا جورجس يصدر فيه تعليماته عن طريق الصياح، ويعود فيعترض على تلك التعليمات، متخذا الترتيبات اللازمة وهو يشير بيديه بطريقة غاضبة، ومسيئا إلى أولئك الذين يقومون بتنفيذ هذه التعليمات، وفرحاً بعدم رضاه عن فكرة الاستغناء عن البغالة، عندما ألقيت نظرة على الخيول تأكدت من أنها لا يمكن لها القيام برحلة أخرى طولها نحو اثنى عشر ميلاً فى تلك الليلة، وعليه اقتصرت على القيام برحلة بأبطأ من الرحلة المعتادة بدأنا تحركنا، فى شيء من البؤس، فى حين

كان فانوسان من فوانيس الهوريكا يتقدمان الموكب ويتراقصان، لن أنسى مطلقاً تلك الرحلة، يبدو أن الريح كانت تهب علينا فجأة من كل جانب، وكانت كل هبّة من هبات هذه الرياح مثل السكين، بدت المجارى المائية لنا وكأنها سبعة أمثال حجمها وبدت أيضاً وكأنها قد تحولت إلى أنهار. كنا نخوض دوماً خلال ماء مثلّج، نتسلق ضفافاً وننزل ضفافاً، متعثرين بين الأراضى الجبلية، وها نحن من جديد نزعج طيور الزقزاق (ألم التي تنطلق مهفهفة، وصائحة بصوت عال وهي تصطدم بوجوهنا، مُبعثرة بذلك البغال في جميع الاتجاهات، كنا نخشي ونهتدى إلى طريقنا، مرتين على الأقل، عن طريق أضواء الفوانيس، ثم نواصل السير متلكئين لفرط التعب، إلى حد أننا عندما اصطدمنا فجأة بخيمة من الخيام لم نستطع التخلص من السيّرة نظراً لتيبس أطرافنا بسبب البرودة الشديدة، كنا قد بلغنا من البرودة حداً يصعب معه الغضب أو التذمر، رحنا نخلع الأوتاد بالطريقة المعتادة، ومع سقوط قماش الخيمة خرج منها البغالة.

قلت: "أحضروا البغال وحمِّلوها".

نظروا إلى شذراً فى شىء من الغباء، لكن الزبانية هم والطباخ ومعهم أيضاً جرازماتش، كانوا يسحبون البغال والتى بلغت من الاندهاش حداً نسيت معه أن ترفس، لم نشغل بالنا بمسألة التحميل، وكنا ندفع بأقرب علبة أو صندوق إلينا إلى أقرب الحيوانات إلينا، ويبدو أن تصميمنا أخمد عناد البغال إذ لم يهرب منها سوى بغل واحد، ليسقط بعدها مباشرة فى حفرة من حفر الماء، وقفت بقية البغال مطرقة رءوسها، فى الوقت الذى كنا نتصارع فيه مع سرج التحميل من ناحية ومع الحبل من ناحية أخرى، فى حين كان مالكا البغال المترددان يحاولان مساعدتنا لمجرد ذر التراب فى العيون، بعد تحميل كل الخيام، وأكياس البراغيث، وحقائب الملابس، وعندما أوشكنا على التحرك، مخلفين وراءنا الأشياء غير المهمة ليُحتضرها البغالة فى الصباح، قفز هارولد جونز، وهو يصيح فرحاً، فوق بطانية شديدة القذارة.

قال: "هذا أفضل مما لو فتحت بقجتى فى الظلام"، كان مصباح من المصابيح قد سقط من حامله فى حفرة، الأمر الذى ترتب عليه عدم استعمال ذلك المصباح بعد ذلك.

[🖈] يسمونه ايضاً طائر التمساح، وهو من الطيور المائية. (المترجم)

نظرت حولى بحثاً عن فريسة، وجَّهتني كومة رمادية اللون إلى المكان الذي يقبع فيه نائماً واحدٌ من العبيد، مرتاحاً مستشعراً الدفء من خلال جلود الأغنام التي عليه، في الوقت الذي كنا نرتعد فيه في العراء، وما هي إلا لحظة حتى أصبح ذلك الفرو حول كتفي، في حين قام صاحب الفرو وهو متدثر ببطانيتين بتتبعى ليرى ذلك الذي حدث لذلك الجلد، وبفضل مساعدة هذا العبد تمكنا من ضبط الأحمال عشرات المرات على امتداد مسيرتنا الطويلة أثناء العودة، وبخطوات جنائزية، رحنا نمشى خطوة خطوة، خلال ظلام حالك، نظراً لأن السحاب كان يخفى النجم الأخير، انهمر المطر علينا، وكانت الحشائش تضرب وجوهنا بلطف عندما كنا ننحرف عن الطريق، كانت البغال ترقد على الروابي ثم تنهض من جديد وقد انحرفت السُّرُج على أجنابها، سقط جابرا جورجس في مجري مائي ومعه صندوق من البسكويت، راح يندب ويولول على فقدانه مثل جنيَّة تتوح إنذاراً بالموت، وهذا هارولد جونز، وقد ازرق وجهه، يؤكد لي بين سيل من العطس حاد الصوت أنه لم يكن بارداً بأي حال من الأحوال، تلعثمت وأنا أقول: إنه اعتباراً من النهير الأخير غير المرئى، والذي كان ينبغي ألا يكون موجوداً فإن الجرازماتش أصبح غير متأكد من الطريق تماماً.

أُخرس الأحباش أيضاً، عندما رحنا عند الساعة الثالثة والنصف نتجول على غير هدى، أثناء

العاصفة، خلال مجموعة من الأشجار، ابتعدنا عنها لنجد أنفسنا وسط كتلة من أخاديد وحزم كثيفة من الأعشاب ذكرتنا بأول وقفة لنا في دبرا ماركوس.

قال بالاى Balai متشككاً ومشيراً إلى ما كشف النهار عنه إنه سوق "القصر لابد أن يكون هنا، هيا بنا ننصب خيامنا هنا، المكان بعيد عن الماء، لكن، الله كريم، ما هذا؟"

هذا مجرد بغل قفز في مستنقع.

قلت وأنا متجهمة: "أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى إشغال أنفسنا بمسألة الماء".

نصبنا الخيام بصورة أو أخرى، وفردنا فيها أكياس البراغيث، وأرسلنا الخدم إلى أقرب الأكواخ إلينا.

"ماذا عن البغال؟"

قال حاسن بطريقة المتدينين: "سيرعاها الله".

"أنا لن أهتم إذا ما هربت البغال إلى أديس أبابا، سيكون ذلك بمثابة برنامج إحمائي للبغال". قلت هذا الكلام لأن منظر وجه جونز كان يقلقني.

قلت عندما كانت الخيمة تهتز بفعل البرد المتساقط "أنا أحتفظ بشئ من البراندى في مكان ما، الأوتاد"، أبرزت رأسي من الخيمة، في شيء من التردد، ووجدت مجموعة من حملة البنادق متجمعين بين حبال الخيمة.

"ماذا تفعلون هنا؟ اذهبوا إلى كوخ من الأكواخ".

غمغموا قائلين: "هنا بعض اللصوص، وأنتم ليس معكم بنادق."

قلت آمره: "لا تلغوا، هيا اركضوا!"

أقفلت طرفى باب الخيمة وأصابعى تكاد تتجمد، وعثرت على البراندى عندما قلبت الحقيبة المخصصة للأفلام وأقراص الحليب، والساعات، والنظارات المكبِّرة والمسدسات التى كنا نحملها معنا على سبيل الهدايا، وفى صمت رحت أنا وحاسن وهارولد جونز نشرب البراندى.

قلت عندما بدأ شيء من الدفء يتخلل أجسادنا: "نستطيع النوم الآن، إذا لم تسقط الخيمة علينا". قال هارولد جونز، وهو ينصرف مع المترجم "أعتقد أن أمامنا ساعتين قبل أن يجئ إلينا أول إنسان كي يسأل عنا وعن أحوالنا". حاولت خلع حذائي، لكن يبدو أنهما كانا ملحومين في قدمي وعليه توقفت عن محاولة خلع الحذاء، وارتديت فوق الحذاء ثلاثة أزواج من الجوارب القصيرة وجورباً طويلاً، رحت أرتدي كل ما وصلت إليه يداي، بما في ذلك تلفيحة قمت بلفها حول وركي، ووضعت شبكة البعوض فوق كتفي، وأدخلت نفسي في كيس البراغيث، والمؤسف، أن ذلك كان اسماً على مسمى، فقد خمنت من الأصوات الصادرة من الخيمة المجاورة أن هارولد جونز كان أرقاً مثلي تماماً، بقيت إلى طلوع الفجر أتقلب وأتهرش، جاء أول ضوء ليخرجني من بؤس البطاطين الذي كنت فيه، إذ كانت كل بوصة من هذه البطاطين عامرة بتلك الحشرات الجائعة، وقد جلبنا هذه الحشرات معنا من القرية، عامرة بتلك الحشرات متجمدة وملتهبة، ثم قمت بحمل الفراش إلى خارج

الخيمة ورحنا نطارد هذه الحشرات، استمرت هذه المطاردة ساعات عدة، وشارك فيها كل أفراد الحاشية، كان بالينا Balaina يفلًى المنطقة ما بين القماش والبطانة، وكان جابرا جورجس يفلًى معطف المطر والحذاء، وكان ينقض بوحشية ممسكاً بهذه الحشرات وهو يقول متعجباً "مسكينة أيتها السيدة! آه، يا له من عمل محزن! آه، من هذا المنزل السيئ!" كنت أنا وجونز داخل الخيمة المغلقة نهرس، وننفض، (وأكره أن أقول) نفقاً تلك الحشرات، السمينة والممتلئة التي كانت لا تزال داخل الخيمة، فضلاً علي وجود بعض الزواحف كثيرة الأرجل، ووسط هذه المطاردة وصلتنا رسالة مفادها أن راس هيلو ينتظرنا في القصر Gibbe الستقبالنا.

أنا لا أعرف إلى أي مدى كنا نمثل آثار تلك الليلة السيضاء؛ لكن بعد أن ارتدينا الثياب التي كنا نحتفظ بها للمناسبات الكبيرة، وعلى الرغم من عدم قدرتها على مقاومة التمزق في منطقة المعصمين والساقين، وصلنا ونحن نتلألاً في ضوء الشمس وألقينا أول نظرة خاطفة على البلدة التي ثبت خداعها . تتكون بلدة دبرا ماركوس من بضع مئات من الأكواخ المُلصقة على منحدر من المنحدرات ويهيمن عليها القسم الأكبر من ممتلكات راس هيلو، الذي تعتمد عليه الحياة في البلدة، سكان البلدة الذين يقدر عددهم بنحو ألفين أو ثلاثة آلاف نسمة كلهم موظفون في الحكومة المحلية، هم جنود، وأفراد في الحاشية الملكية، ومستولون هم وأتباعهم، وهم الذين يقطعون الأخشاب ويجلبون الماء الذي يلبي احتياجاتهم المادية، وبلدة دبرا ماركوس، هي أكثر بلدان الحبشة إقطاعاً، نظراً لأن هذه البلدة لها سيطرة كاملة على الرجال كلهم، والنساء أيضاً والأطفال المقيمين داخل حدود هذه البلدة، راس هيلو رجل ثرى جداً، بالمقاييس الأوروبية، ويقال إن لديه قوة مقاتلة قوامها ٤٠٠٠٠ رجل، لكن الرجل شأنه شأن الإقطاعيين الآخرين في الحبشة، ليس لديه ما ينفق عليه ثروته، بوسع هذا الرجل أن يطلب من إنجلترا طقماً من أدوات تناول الطعام مصنوعاً من الذهب، ويستطيع أيضاً الأمر بإعداد مائدة طعام يجلس عليها مائة فرد، وبوسعه أيضاً طلب سيارات لا يطلبها أحد مطلقاً، لكن انفاقه الرئيسي ينصب على الإبقاء على جيشه من ناحية والضيافة من الناحية الأخرى، وأنا لا أزعم أن أحداً من الراسات الكبيرة يمكن أن يقطع بعدد رجاله المسلحين، أحواش وأفنية هؤلاء الراسات تعج بمئات البنادق، وفى ضوء الأوامر التى تصدر من الراس ويحملها المراسلون الراكبون ينساب الآلاف من هؤلاء المسلحين قادمين إلى المدينة من القرى.

هؤلاء المسلحون شأنهم شأن جيش العاصمة مسلحون ببنادق حكومية، لكنهم أفضل حالاً بصورة أو أخرى من القوات النظامية، والسبب في ذلك أن رواتب الجنود خُهُ ضت منذ أيام منليك Menelik، بعد أن بدأت بتسعة دولارات في الشهر، تتقاضى جيوش الإمبراطورة في هذه الأيام رواتب تتدرج من خمسة دولارات إلى ثلاثة عشر دولاراً حسب الرتبة، تُدفع الضرائب المعتادة بواقع معشار الحبوب التي يجرى إنتاجها وأربعة حيوانات عن كل مائة رأس كل عام، وبذلك يمكن توفير الطعام Opergo (الطعام اللازم لمستولى التاج أو المراسلين الذين يوفدون حاملين أوامر حاكم الحبشة إلى مختلف القرى والبلدان)، كما يشارك الجنود أيضاً في الضرائب العرفية التي تفرض في المناسبات التي قد يحتاج فيها الإمبراطور إلى المال في حالة الحرب، أو بناء الكنائس أو المهور المطلوبة لعائلته.

تمنح الراسات الكبيرة أيضاً قطعاً من الأرض لمسئوليهم، الذين لهم حق العيش على حساب سيدهم عندما يكونون في عاصمته، كما يحصل الجنود العاديون على الملابس المطلوبة لهم، كما يحصل الواحد منهم على خمسة أحمال بغال من الحبوب في الشهر، كما يحصل أيضاً على دولارين أو ثلاثة دولارات نقداً، وفيما يتصل بمسألة الطعام، يتفوق جنود الراس على جنود الجيش، الذين يتعين عليهم توفير طعامهم بأنفسهم باستثناء أيام الأحد والعطلات الرسمية التي يجرى خلالها إطعامهم اللحم النيئ وإعطاؤهم مشروب التدج. تُستهلك كميات كبيرة من هذه الأشياء، فقد رأينا نحو ٢٠٠٠ ثور مملوكة لراس هيلو كان يجرى تسمينها استعدادا لعيد القيامة.

تبدو حياة الرئيس الحبشى الذى يكون من هذا القبيل، متباينة بين البساطة الشديدة، المتمثلة في المسكن، والأثاث، والافتقار إلى الراحة الشخصية، والإسراف الزائد عن الحد فيما يتعلق بطريقة التنقل، والملابس الاحتفائية، والأسلحة والولائم الضخمة التي تقام لجماهير لا حصر ولا عدد لها، هذه الضيافة تقدم لأى غريب يمر على البلدة، وقد بلغنى أن راس هيلو

يستخدم ناهيك عن عشرات الخادمات اللاتى يقمن بعمل مشروب التدج فضلاً علي ستة وثلاثين جزاراً يقومون بتقطيع القطعان إلى أوصال.

المصرف الثانى من مصارف نقود رجل عظيم من هذا القبيل، يتمثل فى البقشيش المستمر الذى يتواصل دفعه بطريقة سيئة للغاية، نفقات الحياة فى الحبشة رخيصة، الرجل يستطيع أن يعيش بدولارين فى الشهر، وبخمسة دولارات يستطيع أن يعول أسرة كاملة، الملبس أيضاً رخيص فى الحبشة، المظلة (الشملة العامة) تكلفه ما بين ٢,٥ إلى ٥ دولارات، والبنطال يكلفه دولاراً واحداً، والقميص يكلفه دولاراً واحداً وربع الدولار، الشئ الوحيد الفالى هو الشراب، ويمكن شراء أربعة جرار من التلا (الجعة) كما يستطيع أيضاً الحصول على جرة من مشروب التدج نظير (الجعة) كما يستطيع أيضاً الحصول على جرة من مشروب التدج نظير دولار واحد، يوجد فى كل بلد من البلدان بعض المنازل الصغيرة الكئيبة القذرة التى ترقص فيها نساء لطيفات، ويعرف فيها على الناى، ويجرى فيها الشرب أيضاً فضلاً على السهر على تلبية احتياجات الرجل البدنية الأخرى، وإذا ما نحينا هذه الملذات جانباً، نجد أن قيمة النقود قليلة، هذا يعنى أنى لا أستطيع شراء الراحة.

ليست هنالك أعمال تكفى سكان المدن وسكان القرى، وعليه، وعلى الرغم من أن الرجل قد يكسب ثمانية عشر دولاراً في الشهر من العمل كزباني Zabanier في رحلة من الرحلات، أو خمسة وعشرين دولاراً من العمل في الطبخ، قد يعجز عن الحصول علي عمل على امتداد الأشهر الستة التي تلى ذلك، وبعد أن ينفق نقوده على الشراب، يبدأ في الاقتراض من جيرانه بفائدة عشرة في المئة في الشهر. والنتيجة المترتبة على ذلك هي أن ثلاثة أرباع السكان مدينون ويتحول عدد كبير منهم إلى اللصوصية، للخروج من الدين، أو أن يعيش على البقشيش، نسبة صغيرة جداً من هذا البقشيش هي التي يجرى الحصول عليها نظير العمل، لكن البقشيش ينتشر على نطاق ليس له مصداقية في أوروبا، إعطاء المال على سبيل البقشيش يكون في حكم ستة بنسات من حيث القيمة؛ وعندما يسافر راس من الراسات يجرى بعثرة بنسات من حيث القيمة؛ وعندما يسافر راس من الراسات يجرى بعثرة أكياس عديدة من الدولارات في جميع الاتجاهات، حامل الخبر السار، أو أية هدية من الهدايا يتوقع الحصول على بضعة ريالات، وإذا كانت الهدية مقدمة

من رئيس من الرؤساء فإن حاملها لا يتوقع الحصول على أقل من اثنى عشر دولاراً، والراس عندما يهدي حصاناً لأحد، فإن السايس الذي يقوم بتوصيل ذلك الحصان يعود ويداه مملوءتان، والإمبراطورة عندما تهدى ثوباً ملكياً، فإن مستقبل هذا الثوب يجب أن يعطى المراسل مبلغاً يتراوح بين ٣ أو أربعة جنيهات إنجليزية، في كل حي أو جيزء من الحي، فإن المترحل المهم يكون برفقة مستول محلى مختلف، الذي يُلَمِّح بأنه يود الحصول على مسدس أو بضع مئات من الطلقات، في الوقت الذي ينتظر فيه العدد الكبير من الجنود الذين يرافقونه، وكذلك الخدم، والمرشدون، والعبيد، والحمَّالون، الذين لا يفعل أحد منهم شيئاً سوى الكلام، الحصول على مبلغ كبير نظير هذه الخدمة الشفاهية، وأنا أقول: إن ما لا يقل عن عشرين من الغرباء العابرين الذين هم رغم ذلك مفعمون بالأمل، حكوا لى قصصاً مؤثرة عن حوادث قتل وقعوا فيها وأنهم مطالبون بدفع دية القتيل لأسرته، ويشفعون ذلك برجاء وتوسل لدفع مائة دولار حتى يتحرروا من الثأر والانتقام منهم، وعازف البوق عندما يحاول الإضرار بطبلات آذاننا يتوقع الحصول على جنيه نظير ما يقوم به، والأشياء الأخرى كلها بنسبة أيضاً، إلى حد أن ما يوزعه الراس من بقشيش يصل إلى نسبة كبيرة من دخل هذا الرجل.

قامت الموسيقى بتحيتا ونحن نغادر مخيم دبرا ماركوس، وتشكلت فرقة موسيقية من العبيد السود معها طبول وأبواق، على شكل صفين كانا يسيران أمامنا، وفى الخلف كان هناك مائة جندى يمشون وراعنا، فى الوقت الذى كان فيه ضباط هؤلاء الجنود يمشون راكبين خيولهم على الجانبين أمامنا وهم يلبسون على رءوسهم أغطية شبية بعرف الأسد، ويرتدون تروسا مثل عرف الأسد، ويرتدون تروسا ويحملون سيوفا من النهب، ويلبسون ثياباً من الحرير ألوانها مثل ألوان قوس قزح، لم نتعرف الصبى جرازماتش إلا بصعوبة بالغة، لولا ابتسامته، ووجهه المدوّر المتلئ الذى كانت تحيط به عمامة خضراء من الحرير من تحت خوذة من الفضة، فى حين كان الفرو المكثكش الذى له لون أصفر ضارب إلى السنَّمَرة، واصلاً إلى أذنيه، كان جابرا جورجس ينظر نظرة حزن وأسى إلى حذائي.

قال جابرا جورجس عند الرحيل: "لم يتبق من الحذاء شئ، أليس معك حذاء آخر؟"

وعدت بالاحتفاظ بقدمى فى الخلف قدر المستطاع، لكنى نسيت هذه المسألة عندما دخلنا أول فناء من أفنية القصر، هناك سلسلة كبيرة من هذه الأفنية، كل منها على ارتفاع مختلف، وفى منتصف أعلى هذه الأفنية يوجد هيكل شبيه بالجرن، هو بمثابة غرفة الاستقبال وصالة الطعام الخاصة بالراس، فى ذلك الصباح كان كل فناء من هذه الأفنية فيه طبقة مختلفة من طبقات البلاط الملكى والجنود، وعليه كنا ونحن نصعد إلى هذه الأفنية نشاهد لونا رائعا ومجوهرات ومعادن ثمينة، وقبل الباب الرئيسى كانت هناك عشرات السجاجيد المفروشة التى يقف عليها القساوسة وهم يحملون صلبانا كبيرة، ومظلات من الحرير، أما الضباط فكانوا يرتدون أنجشة (**) من القطيفة المطرزة بالذهب، الأمر الذى يجعل من الصعب الوقوف على حقيقة ألوان هذه الأنجشة.

تقدم الرَّاس لاستقبالنا، وهو رجل ضخم له وجه ينم عن الذكاء، ويرتدي زياً أبيض من البروكار المذهَّب الذي لا يكشف إلا عن العباءة السوداء الطويلة، المرصعة بالأنواط التي منها أنواط إنجليزية وفرنسية وإبطالية، مضينا معاً من صالة إلى أخرى، والتي يصل طول البعض منها إلى ٢٠٠ قدم، والمفروشة، بسجاد كثيف ومسقوفة بأعلام متباينة الألوان وتتدلى من السقف، وأثناء سيرنا إلى الأربكة المغطاة بمخاد من حرير الساتان المطرز، والموجودة في نهاية الصالة، مررنا على جُبِب فخمة أو حرائر عليها رسوم ملكية، وأحزمة خرطوش، شاهدنا أيضاً فراء موضوعة على شكل ثنيات فوق مالابس من البروكار، وشاهدنا أيضاً جلود الأسود فيها مشغولات معدنية صغيرة، شاهدنا حواف، وشراريب، وقرابات سيوف، ومقابض سيوف، وشاهدنا أيضاً تروسا مستديرة جديدة كلها من الذهب، الذهب الحبشي له حمرة النحاس ولين مثل الحرير، أظن أن الراس قال بعد ذلك إنه كان يتطلع إلى الحديث مع أول إنجليزية زارته في دبرا ماركوس، لكن مثل هذا الحديث كان صعباً في ظل وجود ألفي زوج من الأعين المسلطة علينا، بعد أن اختفى حاسن، وهو يلهث ومقطوع الأنفاس من الخوف، جعلت من أحد الجنود مترجماً لي؛ هذا الجندي جثا على ركبتيه عندما رأى الراس، ودون أن ينظر إلى أعلى، أبقى على جبهته ملتصقة بالأرض طول الوقت.

انجشة: واحدة نجاش، بكسر النون وفتح الجيم، وهو سير جلدى بين فَرْعة الحذاء ونعله.
 (المترجم)

سألت هارولد جونز عندما غادرِنا القصر "هل التقطت صورة جيدة؟"

أجابنى "لا أدرى؛ أنا لم أر ذهباً من هذا القبيل طوال حياتى، لقد خطف بصرى ذلك الذهب".

كان هارولد جونز قلقاً فوق سرج حصانه، قال: "أنا لا أعرف ماذا حدث لى، أحس وكأن ملابسي مليئة بالكلابات".

قلت له: "أفضل لك أن تسترخى وتأخذ شيئاً من الأسبرين، مرحباً، ما الذي حدث لمخيمنا؟"

كان هناك جمع كبير من الرجال يرتدون ملابس فاخرة، لونها أخضر مائل إلى الزرقة،

ووردى وفوشيا، تحت شملاتهم (مظلاتهم)، كانوا جميعاً يشاركون فى تشييد خيمة خاصة، كان أربعون أو خمسون من خدم القصر الذين يرتدون ملابس من الحرير، يمسكون بالحبال، فى حين كان بعض آخر يمسك بالعمود الرئيسى، كانت خيامنا تبدو كما لو كانت أقزاماً قياساً على هذا البحر الشاسع، اندفع جابرا جورجس قادماً إلينا.

"هذه هي خيمة الراس الخاصة، وقد أرسلها لك لكي تستعمليها اليوم".

نظرت إلى الفواصل الثلاثة التي جرى نصبها بالفعل، ونظرت أيضاً إلى لفَّات البطانة الْمُقلِّمة التي تتظر التعليق.

بدأت أقول: "هذا عطف أكثر من اللازم..، أخا" يبدو أن كلاّبة كانت تحفر في ركبتي، دخلت خيمتي على الفور، وهذه آلة حادة أخرى تؤلمني في كوعي، وكان صوت هارولد جونز يولول في الخارج.

"أظن أن هذا المكان مسكون، أو أنى تحولت إلى مِدُبسة، من الأفضل أن تعطينى الأسبرين، أسرعى منِ فضلك!"

لكنى كنت أبحث عن الكلاّبات، كانت تلك الكلابات مغروزة في لحمى، وكنت أخرج بصعوبة بالغة أجزاء من تلك الرءوس السوداء.

صاح حاسن: "سيدتى، سيدتى" عندما كنت أحملق فى البقايا المتوحشة "أخرجى بسرعة لنحن لم نستطع رؤية أى شىء ليلة أمس، وقد نصبنا خيامكم على جحر من جحور النمل!"

تناولنا غداءنا في عتمة الخيمة الحكومية، التي كانت خليطاً من اللون الأحمر والأزرق؛ ومن هذه الخيمة الحكومية استقبلت موكب مشروب التدج ومشروب الجعّة، والأغنام، والثيران، وبقرة حلوب، وكميات من الأواني، والأسبتة، وبالات بقيت محتوياتها سرًا علينا، كانت هناك جرة بحجم جرة من الجرار التي اختفى فيها الأربعون حرامي، كانت مليئة بالعسل، أخرج جابرا جورجس لفلفة عنق الجرة لفافة من الحشائش وطبقات عدة من الطين، بعد أن قام جابرا جورجس بكشط قشرة سميكة عديمة اللون، بدت من تحتها جالونات العسل الصافى الذي يشبه لونه لون الكهرمان، وكنا نأكل من هذا العسل كلما أتيحت لنا الفرصة على امتداد أسابيع عدة.

جاء راس هيلو بعد ذلك لرد الزيارة التى قمنا بها فى الصباح، كان يركب بغلاً لم يكن يظهر منه رأسه، تحت ملابس التشريفات المطرزة بالذهب؛ ومن باب تأكيد الراس على الطبيعة الخاصة لزيارته ترك كتائب الخيالة وحملة البنادق على مسافة تقدر بيضع مئات من الياردات، لم يكن يجرى خلفه سوى خدمه الخصوصيين، حاملين سيفه، وترسه، وبندقيته داخل حقائب من البروكار، وكانوا جميعاً رافعين مظلاتهم لكى يحموا نزوله من فوق ركوبته من عيون الحاسدين، يعد هيلو الأمير الوريث الوحيد شبه المستقل الباقى فى الحبشة، والسبب فى ذلك أن الغازى منليك أقر بحق والده تكلا هيمانوت فى تسمية حاكم الحبشة Negus، أو ملك كوجام، على الرغم من عدم سماحه لأى رئيس آخر بالاقتراب من وقار لقبه، نيجوس نبراستا Nebrasta أو ملك ملوك الحبشة، تزوجت ابنة من بنات راس هيلو من ليج ياسو Negus Nebrasta ألأباطرة، المسجون حالياً بالقرب من فيش، ويقال إنه مربوط دوماً بسلسلة من الأباطرة، المسجون حالياً بالقرب من فيش، ويقال إنه مربوط دوماً بسلسلة من الإقطاعي، أقوى وأذكى حكام الإمبراطورة زيديتو Zaiditu، كان يرافق راس الإقطاعي، أقوى وأذكى حكام الإمبراطورة زيديتو Zaiditu، كان يرافق راس

قال هيلو بينما كنا جالسين فى الجزء الخارجى من الخيمة الحكومية، نشرب القهوة، التى رفض ضيفى استعمال السكر نظراً لأن الوقت كان الصوم الكبير، الذى يحترمه كل مسيحى حبشى لمدة أربعين يوماً يعيش خلالها على الخبز والعدس "باريس للعب ولندن للعمل".

واصل ضيفى كلامه "هذا حقيقى، النساء يشترين الملابس والمجوهرات من باريس، لكن البنادق والأحذية تأتى من لندن".

سألته ما إذا كان يحب الأوروبيين.

"نعم أحبهم، أنتم تتذكرون دوماً ذلك الذى قلتوه، مواطنى يقولون شيئاً فى لحظة ثم ينسونه فى اللحظة التالية".

قلت: "ذاكراتهم ليست مدرية".

ابتسم الراس "كتبكم هي ذاكراتكم".

تكلمنا عن السياسة المصرية، ولاحظت أنه باستثناء الإمبراطورة وولى العهد، أن الراس كان أول حبشى يناقش شئون بلاده الخارجية.

قال فى نهاية المطاف: "لقد فعلتم الكثير لمصر، لكنكم لم تعلموها فعل شىء لنفسها". تلى ذلك شىء من الصمت: "أردف هيلو، ليس من صالح أى بلد من البلدان أن يُجلب بواسطة الغرباء". أذكر أنه على الرغم من ترحيبنا بالرحالة العابرين وإكرامنا إياهم فنحن لا نسمح بالمسائل المالية والأعمال الأجنبية، أو التجار الأوروبيين، أو التجار العرب أو الهنود بالبقاء أو الإقامة فى كوجام، قامت شركة من شركات المشروعات بإرسال حمولة ستين جملاً من "البضائع الجافة" إلى دبرا ماركوس مستهدفة بذلك فتح سوق عامة، قام الراس بشراء هذه الأحمال كلها، وأعاد الجمال ورفض السماح بالدخول لأى أحد من أفراد هذه الشركة.

زد على ذلك أن نقود أديس أبابا لا تسرى في هذه المقاطعة الغريبة، وقد أجبرنا على استبدال قروشنا كلها، التي عليها صورة لأسد فاغر فاه، أو مغلقاً إياه، أو بلا أرجل، أو له ذيل مفري، بقوالب من الملح، كل قالب من هذه القوالب طوله نحو علا بوصة وسمكه نحو بوصتين وعرضه بوصتان أيضاً، وسنة من هذه القوالب تساوى دولاراً واحداً، وكل قالب من هذه القوالب ملفوف بعناية في بعض من ألياف عيدان القصب؛ وهذه القوالب تشكل ممولة واحد من الحمالين أثناء السير، وعليه يجرى استئجار رجل نظير جنيهين إنجليزيين وستة شلنات في الشهر، لا لشئ سوى حمل ما قيمته ثلاثة شلنات من قوالب الملح! وعندما يقوم رئيس من الرؤساء بالتجوال في كوجام،

يتحتم أن يكون معه عدة بغال محملة بقوالب الملح، علاوة على حملة البنادق، والسبياس الذين يقودون خيوله أمامه، وعبداته اللاتى يحملن جرار مشروب التدج، فضلاً على صبى أو اثنين من الصبية السود، يحملان سيفه وترسه، هذا يعنى أن الأكياس الدوارة تحمل ما قيمته جنيهان أو ثلاثة، أما قوافل الملح التى تأتى من الشمال فهى تتكون أصلاً من خيول النقل الذى يحمل الواحد منها ١٦٠ قالبا، قيمتها أقل من ٥ جنيهات إنجليزية.

وبينما كنا حيارى فى كيفية ومكان تخزين وحزم ثروتنا الثقيلة المتعبة جاءنا مراسل من القصر يحمل إلينا بعض الأسبتة الجميلة التى صنعتها نساء كوجام من الحشائش المحلية المصبوغة، كانت تلك الأسبتة دقيقة الصنع، من حيث الألوان والشكل، لأن البعض منها كانت شبيها بالقلاع التى لها أبراج مختلفة، والبعض الآخر منها كان مزودا بالكبائن على العكس مما كنا نتوقعه، واكتشفت داخل كبينة من تلك الكبائن قرطاً (حلقاً) من الذهب الطرى الذي يمكن تشكيله على أى نحو من الأنحاء، طلبت من بالينا أن يترجم جزيل شكرى وامتنانى، لكن صبينا الذي كان خدوماً ورزيناً وغبياً أيضاً، كان مشغولاً بالبحث في وجود عيوب في قوالب الملح.

تأوه الصبى "هذا القالب مشروخ، وأنا متأكد أن هذا القالب الآخر ليس مضبوط الوزن". وهنا حاولت تجميع بعض الكلمات الأمهرية إلى بعضها.

قال المراسل وهو ينحنى ليقبل قدميّ: "هذا لا يهم"، "قال الراس: أنا أود أن أعطى الكثير للسيدة، لكنى لا أظن أنها تود أى شيء منى"، ابتسم الشاب، "إنه مندهش لأنك قطعت في يوم واحد مسافة رحلة هو نفسه يقطعها في ثلاثة أيام".

قلت مُصرة: "لم يكن ذلك عن طيب خاطر، أؤكد لك أن ذلك لم يكن عن طيب خاطر!"

كان الحصان الكستنائى قد برك فى دبرا ماركوس، الأمر الذى جعلنا نقرر التخلى عنه فى هذا البلد، لكن فى زحمة الاستعداد للرحيل فى الصباح أرسل لنا راس هيلو ثلاثة خيول لننتقى منها واحداً بدلاً من ذلك الذى قررنا التخلى عنه، كانت الخيول الثلاثة من النوع صغير الحجم، ومن سلالة محلية، ولها أكتاف جميلة، وفيها لمسة من الخيل العربى وبخاصة فى رءوسها، لكن

كان فيها بعض العيوب فى بعض أجزائها، التى كانت خفيفة وضيقة، اخترت للرحيل يوماً كان أشق وأتعب الأيام، وتحركت فى ذلك اليوم وسط جمع كبير من أناس تمنوا لنا سلامة السفر والوصول، وأسدوا لنا الكثير من المعلومات والنصائح، قيل لنا إننا يجب أن نصل إلى دبرا تابور Debra Tabor خلال يومين، وقال آخرون: إننا لو سرعنا مسيرنا فقد نصلها فى ثمانية أيام، كان الجميع يتكلمون ما عدا مالك البغال، الذى اشترى بغلين جديدين، رفسا كل أمتعتنا، وخسر مالك البغال أيضاً أفضل حيواناته، التى أرجح أنها كانت فى طريقها إلى أديس أبابا، بسبب إهمال عبد من العبيد من ناحية، وعدم احكام ربط هذه البغال من ناحية ثانية.

الفصل الثالث عشر

(الأشباع والطبع

انتهت آخر التوديعات، وهذا آخر دعاء "في سلام الله"، "يسرَّر الله خطاكم"، "تحفظكم العذراء"، نظرت إلى الخلف على القافلة، وبدا علينا وكأننا ذاهبون إلى السوق، وبحكم الصيام، لم نستطع أن نفعل أي شيء مع الثيران والأغنام التي أعطيت لنا، كان الأحباش ينظرون إلى الثيران والأغنام نظرة اشتهاء، لكنهم لن يأكلوا منها شيئاً، وعليه كان هناك صف من الماشية ذات السنام، والنعاج السمان يسير خلفنا، نظراً لأن رفض قبول الهدية أو إعادتها يعد من أبشع أشكال سوء الأدب، من يمن الطالع أن هذه الحيوانات كلها أفلحت في "إضاعة" نفسها أثناء الأميال القلائل الأولى.

قال هارولد جونز لأكثر أفراد الزبانية براءة: «هذا جيد تماماً، أتمنى أن تكون حصلت على سعر جيد لهذه الحيوانات».

كان جرازماتش واسع الحيلة قد رحل، بابتسامة شبابية، وحل محله كوياز ماتس Koyaz match ماكونن Makonnen، الذى فيه شىء طفيف من الأنوثة، وله وجه ناعم مثل وجه البنت، وفم ممطوط، مثل برعم الوردة لولا أنه أسود، كان شديد الكراهية للترحال، وكان كل ما يتحدث عنه هو زوجتيه، حصل على واحدة منهما عن طريق الكنيسة، أما الثانية فكانت محظية على أكبر قدر من الاحترام بلا شك، وكانت هى المفضلة لأنها حملت منه وأنجبت له ولداً، وقد أسبغ على هذا الوليد الذى يبلغ من العمر عاماً واحداً، مجموعة من الأكواخ، التى أشار لنا عليها وهو يتفاخر بذلك، أصر على كلامه "مهما يحدث، لن يستطيع أحد أن يأخذ منه البيت". وعليه اندهشت إذ ربما يكون بينه وبين أسرته بعض من المتاعب.

شاهدنا فى ذلك اليوم خنزيراً برياً وفهداً له جلد أسال لعابى، إلى أن رحت أعزى نفسى بأن الموضة ربما بدأت تعاف ذلك الفرو قبل أن أعثر على هذا الفهد، توقف هارولد جونز لتصوير قطيع من طيور الكركى، التى بلغت من الألفة حداً جعلنى أركض حولها بحصانى لأجعلها ترتفع وترفرف بأجنحتها على شاشة آلة التصوير، كانت هناك نسورٌ أيضاً، وغربان بيضاء وسوداء، وكانت هناك أيضاً طيور من طيور البلشون، كما كانت هناك أيضاً صقور ضخمة كانت تحملق فينا طول الوقت، وهى ثابتة فى أماكنها من فوق طرف كل غصن من الأغصان تقريباً.

استدارت الأرض نحو الأعلى على شكل تلال صغيرة، كل واحد منها متوج بكنيسته البدائية المبنية من الطين والقش، وفي بعض الأحيان كان ممر التجفيف عامراً بمخزون القرية من الشعير، صادفنا مرة نحو اثني عشر قسيساً كانوا بقرءون المزامير من مخطوطة من الورق الرُقي تحت سياج من الزهور، كان تلاميذ هؤلاء القساوسة عبارة عن صبية صغار تبدأ أعمارهم من سن الإدراك، في السادسة عشرة ويرتدون ثياباً مصنوعة من جلود الأغنام السوداء، وأغطية رأس صفراء اللون مصنوعة من الجلد تتدلى إلى الخلف من أكتافهم، وينزل ذلك السن إلى العضاريت الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة، وهم عراة اللهم إلا من جلد كامل بني اللون بوبره وله ذيل ومخالب إلى حد أنهم عندما ينحنون على كومة أو حزمة من القش يبدون وكأنهم ثعالب صغيرة، حاولت تصوير هؤلاء التلاميذ، لكنهم سرعان ما اصطفوا على شكل صف متصلب، مثلما يفعل الأحباش عندما يرون آلة التصوير، والسبب في ذلك أن الأحباش خجولون، ويحبون التواضع دوماً، لكنهم يحسون بالقلق إزاء الشكل الذي هم عليه، وأنا أعتقد أن الأحباش الحضر لا يدفعون للمصور أجره إلا إذا صوَّرهم ببشرة شقراء، كان جنودنا يرفضون دومأ اللقطات السريعة التي كنا نلتقطها لهم بآلة تصوير عبقرية كانت تحمض الصورة وتنتجها خلال دقيقتين.

كانوا يقولون ساخطين، عندما يواجهون بصورة ممتازة للونهم الشبيه بلون قرون البن "هذه الصورة تجعلنا نبدو سوداً".

بينما كنا نتسلق سلسلة من المنحدرات التي عليها غطاء كثيف من أشجار

الورد، سمعنا غناء ترامى إلى أسماعنا من قرية مجاورة، وتجاوزتنا أيضاً المرأة، كانت تلوى يديها المتشابكتين توجعاً، وتصرخ بصوت عالٍ وهي تتأوه.

سألت حاسن "ما الخبر؟"

"هي ذاهبة لتنوح على شخص توفى".

مر طريقنا على مجموعة من الأكواخ، وأمام كوخ من هذه الأكواخ، كان هناك جمع من الرجال والنساء يقفزون إلى الأعلى وينزلون إلى الأسفل بطريقة رتيبة وهم يلوِّحون بأيديهم من فوق رؤسهم على إيقاع الأغنية التى يرددونها . تزايد الإيقاع بعد بضع دقائق، ثم ظهرت كنبة فوق مستوى الرءوس التى تثب إلى الأعلى، هذه الكنبة كانت مغطاة بشملة (مظلة) لونها خليط من اللون الأحمر والأبيض، كانت تلك الكنبة محاطة بالمحزونين، الذين كانوا يواصلون رقصهم، ويهيلون الرماد والطين على رءوسهم، ويلطمون وجوههم، وجرى نقل تلك الكنبة إلى الكنيسة بعد ذلك، في الكنيسة جرى تسليم الكنبة عبر الجدار إلى بعض القساوسة، لكن الطقس الديني الذي بدءوا يمارسونه ضاع وسط البكاء والنحيب والأيدى المتشابكة توجُّعاً.

كان الكوياز ماتش ماكُنُّون Koyaz match Makonnen شاباً صغيراً لا بستطيع تحديد المكان الذي يود التخييم فيه.

قال الكوياز ماتش: "إذا بقينا على جانب الجبل قد يكون هناك لصوص".

رددت عليه "أنا لا أحبذ التخييم بالقرب من قرية من القرى، نظراً لنباح الكلاب طولِ الليل".

قال ماكُنُون: "أنا أنتمى إلى المدينة، وأنا تخيفنى هذه الأماكن، إذا ما ذهبت إلى القرية لإحضار الشعير تعين على أخذ اثنين من زبانيتك ومعهما بندقيتاهما لكى يحيماني".

قلت والمترجم ينظر إليَّ نظرة تعاطف: "بوسعك أن تأخذ حاسن معك".

"هل ذهابى معه أمر ضرورى، أنا خائف جداً من البغل الجديد، لن يتركنى في حالى".

ضحكت رغماً عنى، لكن بعد نصب خيامنا على حافة مواجهة لسلسلة صخور آرًات ماكراك Arrat Makrak بأبراجها الثلاثة، أعطينا أهدأ بغال نقل

الأمتعة إلى حاسن المترجم وأرسلناه إلى القرية محملاً بقوالب الملح وبصحبته كوياز ماتش المتردد.

قال هارولد جونز، وهو يشاهد ماكُونن يشير إلى قرد صغير مع صبى عبد، ورأس هذا القرد الأصلع محاطة بحافة من الشعر شبيهه بالاستراكان (*) المتموج، عاقداً العزم على مطاردة ذلك القرد ببندقيته الطويلة المتفضنة مثله تماماً: "من الصعب الاعتقاد بأنهم محاربون".

"هم يكونون عال العال لو أن هناك عدداً كبيراً منهم يجتمعون مع بعضهم البعض، أنا أرى أن هذا شكل من أشكال الشجاعة الجماعية".

خطر ببال جونز "عندما يُعبِّرون عن أنفسهم عن طريق الغضب يبدون شرسين، لكنى أرى أن هذه الشراسة لا تدوم طويلاً".

قلت: "إن هذه الشراسة دامت لهم فترة طويلة مكنتهم من غزو السواد الأعظم من جيرانهم، ويجب ألا يغيب عنك أن هذه الشراسة كانت مسنودة بتعصب دينى أو الخوف من المنافس القوى، الأحباش شعب مستقل ومصمم على البقاء مستقلاً".

جلسنا على حافة شرفة من القش ورحنا ننتظر عودة مبعوثينا، لم يعد سوى حاسن وهو يمسك ديكاً أبيض اللون تحت إبطه.

"سيدتى، رئيس القرية غير موجود وعليه فإنهم لن يبيعوا شيئاً، لم أستطع إحضار علف للخيول، كل ما استطعت الحصول عليه هو ذلك الطائر السمين".

راح حاسن يمسك ذلك المحارب الخائف الذى خاص عشرات المعارك، التى خرج منها بعضلاته الصعبة التى لديه الآن.

قلت له متجهمة: "أشكرك شكراً جزيلاً؛ لكن أين كوياز ماتش؟"

"أنا لا أعرف، عندما لا يستمع الناس إلى ورقة الراس، التي تأمرهم بإعطائك الدريس والخبز والبيض، غادر على وجه السرعة.. أنا لم أره".

اكتشفنا أن الشاب المكروب، والذى يعد واحداً من الحاشية أكثر منه محارباً، قد التجأ إلى خيمة الطباخ، حيث قام جابرا جورجس بإطعامه

الاستراكان: نوع من الحرير المخملي.(المترجم)

البسكويت، خيم الحزن على المخيم، نظراً لأن حاشيتنا المسرفة وغير المسئولة بعد أن تناولت قدراً غير إنسانى من خبز الانجيرا الحبشى رمادى اللون مر المذاق، في الليلة السابقة، تخلصت من البقية الباقية من الهدايا التي قدمها لنا الراس هيلو، أفراد الحاشية يجلسون الآن بائسين وخاوين، ينتظرون المن Manna، أو أخرج أنا وأشترى لهم بعضاً من الخبز الطازج، وعوضاً عن ذلك وزعت عليهم بعضاً من البسكويت الجاف وقدراً كبيراً من النصائح المشددة.

تمثلت العقبة، بطبيعة الحال، في غياب رئيس القرية، الأمر الذي التمس العذر لأهل القرية، وليس من العدل أو الإنصاف: القول إن أهل القرية لم تكن لديهم السلطة أو المسئولية، جرى العرف في الحبشة أن كل أمر من الأوامر التي تصدر، يتحتم أن يأتي من حاكم الحبشة أو ولي عهده، ويمر من خلال الحكام المحليين ثم بعد ذلك إلى مرءوسيهم الذين يتكونون من نواب الحكام، وحكام الأحياء الصغيرة؛ ورؤساء القرى المجمَّعة؛ والرؤساء الذين يرأس كل واحد منهم قرية مستقلة بذاتها؛ وبذلك يعتور مثل هذا الأمر شيء من التغير عندما يمر من خلال هذه السلسلة، من هنا فإن أشهر الأمثال الحبشية "الكلب لا يعرف صاحب سيده" – ومعروف أن الكلب يخشى النباح خارج حظيرته! وأنا أرى أن منظومة السلم، التي تساند حلبة السلطة المركزية في أديس أبابا، كانت مقصودة من جانب منليك ثاقب الرأى، حتى يضمن ألا يخاطر أحد من الناس بالخروج من النطاق المحدد له، لكن إذا ما كانت درجة أو اثنتان من درجات هذا السلم مكسورتين، فإن الأمر يتوقف إلى أجل غير مسمى.

بدأنا فى اليوم التالى تسلق مرتفعات شوك Choke وتغيرت البلاد تغيراً مفاجئاً وغريباً، بعد ساعة واحدة أسلمت الرفوف والمنحدرات المغطاة بالحشائش الطويلة، والروابى المتوجة بالقرى، ومجموعات الأشجار التى تشير إلى كنيسة من الكنائس موهوبة لمريم أو القديس جورج المقاتل إلى كتلة من أشواك الإبل، ونبات نسرين الكلاب، وعنب الذئب، والمستاردة الصفراء، كانت هذه النباتات كلها تحولت إلى أشجار غابية، إلى حد أن أغصانها وسيقان نباتات نسرين الكلاب كانت فوق مستوى رءوسنا كما لو كانت أبراجاً، وكانت مغلفة بالطحالب وتتدلى مثل أحبال الزينة المصابة

بالعفن، كانت تلك الأشجار شبيهة بالنساء كبيرات السن اللاتى دب الشيب فى شعورهن، وتيبست أوصالهن، واللاتى يرتدين قبعات الربيع المحملة بالزهور الذهبية مع ملابس الشتاء، وصل طول أشواك الإبل إلى الثنى عشر قدماً من حيث الارتفاع، كما أن رءوسها ذات اللون الوردى الغامق ربما بلغ نصف قطر الرأس الواحد منها عدة بوصات، هذه الأشواك تشبه خراطيم الفيلة الضخمة، طرف من طرفيها مغروث فى الأرض، والطرف الثانى يحمل مجموعة من الأوراق الطويلة اللامعة، وهذا نبات غريب آخر، ربما كان نوعاً من نباتات الصبار، يرتفع ساقه نحو عشرين قدماً قبل أن ينتهى إلى مجموعة من الأوراق الخضراء، تبدي لنا بعد ذلك عنقود زهرى ذاو، رمادى واصلنا الصعود إلى أعلى وسط هذه الرماح الميتة عديمة اللون، إلى أن شاهدنا شجرة من أشجار عنب الذئب أسفلنا مثل سجادة من الكهرمان، لم يكن هناك سوى جلاميد صخرية رمادية اللون وضباب رمادى اللون أخذ يزحف فوق القاظة إلى أن بدأنا نرتعد ونلف أنفسنا فى كل الستَّر المتيسرة لنا.

التقينا في منتصف هذه الأفدنة من نباتات خراطيم الفيلة قافلة نازلة نحو الأسفل، شاهدنا في البداية بعض الخيول المزينة بالفضة، وعليها سرب من القماش الأحمر، تكاد تصل إلى الأرض، ثم شاهدنا بعد ذلك حملة الرماح وحملة البنادق، ونساء يحملن سلالاً من الخبز وأباريق مليئة بمشروب التدج، وشاهدنا أيضاً عبيداً ظرفاء، يحملون بنادق محشوة بالبارود، كانوا يستعملونها استعمال العصى، كانوا يمسكون البنادق من مواسيرها أو يلوحون بها خلفهم بطريقة عشوائية، وبعد ذلك كله، وعلى بغل أبيض، كان يركب الفيترارى Feterari، والد كوياز ماتش ماكونن الزاهد في الدنيا، كان عجوزاً لذيذاً يبلغ من العمر سبعين عاماً، متيناً ومتجعد الوجه ورمادى اللون، كان يمضغ قطعة من العشب حلو المذاق، نزل ذلك الرجل من فوق بغله وكان يدفعني من فوق سرج ركوبتي.

قال: "يا ابنتى، لو كنت جئت إلى منزلى، لكنت فعلت لك الكثير، لكن نظراً لأن التقائى بك جاء على الطريق، فإن ذلك يحتم عليك في أضعف الأحوال أن تشربي نخبك معى".

فكت امرأة سمراء سمرة الأبنوس قرعة ضخمة وأنزلتها عند قدمى من خلال زاوية مصنوعة من قماش قرمزى اللون وأخرجت منها قارورة من قوارير التدج، ورحنا نشرب منها جميعاً بالتناوب، متبادلين في ذات الوقت أطيب التمنيات المعتادة.

"باركتك العذراء (مريم)".

"أدام الله عليك صحتك".

نظر إلىَّ القائد العجوز وهو يغمز بعينيه.

"بلغنى أنه لا توجد امرأة مثلك فى الحبشة؛ وأنك لديك القدرة على إتعاب ثلاثة رجال وقادرة على مواصلة الركوب بعد ذلك، لكنك تخيبين ظن من ينظر إليك".

ضحكت متسائلة "ما السبب؟"

قال: "أنت نحيفة جداً، عدينى بالبقاء فى بيتى هذه الليلة، لأنى أحبك حب الأب لابنته، وسوف أجعلك كبيرة مثل سمعتك".

تساءلت هل تستطيع ضيافتك تحقيق ذلك كله لى في ليلة واحدة؟

أجاب الفيترارى (ألم)، "نعم، سأعطيك كثيراً من الزبد (المدخن، والسمن)، وكثيراً من الحليب والعسل إلى أن تمتلئى فى الغد وتصبحى متينة على النحو الذي يقلل من قدرتك على الركوب".

شكرنا الرجل كبير السن، واعترفنا بأن غرضه مغر، لكن سألنا عن المسافة التى تفصلنا عن ممتلكاته، أدار عينيه أكثر، وراح ينظر إلى الشمس ثم رد قائلاً:

"ليس لدينا ساعات، لكن إن صدقت الحكايات التي يروونها عنك، فستصلين عند الساعة الثالثة، وسوف تعانى بغالك الكثير من الآلام والمتاعب".

تسلقنا حتى وصلنا إلي ارتضاع ١١٠٠٠ قدم وتجمدنا إلى حد أنه على الرغم من وجود فردة حذاء مفكوكة النعل والأخرى فيها ثقوب أكثر من الجلد

[★] القيترارى: طائفة من البشر الأقرباء للإمبراطور، والمقربين إليه وهم من أصحاب الهيبة والمكانة. (المترجم)

المصنوعة منه، رحت أمشى وأواصل المشى بين الصخور وبين النتوءات رمادية اللون، وبين أنواع جديدة من العناقيد خضراء اللون الشبيهة بعناقيد الأناناس قبل أن ترفعها السيقان الحرشفية إلى أعلى. أخيراً، وبعد أن سرى الخدر في أصابعنا، تمدد الضباب بفعل هبة من هبَّات الريح وأبصرنا من تحتنا رقعة خضراء، وإثلا مقضباً مثل الحشائش الإنجليزية، تتخلله أشجار وبقع كاملة من نبات نسرين الكلاب، الذي ينصهر متحولاً إلى لون الزمرد والزبرجد.

قال كوياز ماتش، "هذه كلها أملاك أبى، وقد تجلى أحلى ما عنده عندما حثنا على النوم على أكبر كوخ من بين الأكواخ الموجودة داخل سور أنيق من عيدان القصب، والذى تظله وتحميه أجمة من الزهور، كانت القرى تبدو مريحة ودافئة لكن كنا لا نزال نعانى من بعض الالتهابات بسبب ما قاسيناه في دبرا ماركوس، وعليه وبعد الأعذار التي اختلفت بفعل دهاء جابرا جورجس، وحاسن وأنا أيضاً، نصبنا خيامنا على سلسلة صخور فوق المجرى المائي، أحضر إلينا الصبي في هذا المكان الدرجو (ألله المعتاد مضافاً إليه البصل والعدس، والزيت، والسمن (المحمد القرنفل، كما أحضر أيضاً جرة مليئة بسائل شفاف أبيض ".

سألت "ما هذا؟ وكانت عيناى مركزتين على أوانى التدج، التى جرى تخزينها في خيمة جونز.

ونظراً لأن التوسل والرجاء لم يمنعا مُضَيِّفينا من إرسال الشراب أو إقناعهم بأخذه معهم عند عودتهم، فقد جرب العادة أن أقوم بإعطاء كل عضو من الأعضاء المرافقين لنا شرية واحدة وأقوم بعد ذلك بتفريغ الجزء المتبقى من ذلك الشراب على الأرض أثناء الليل".

كانت عينا جابرا جورجس زائفتين وهو يحمل القرعة.

قال: "هذا من أجل الخدم، إنهم يستخدمونه في طهو الطعام". كنت سأترك له هذه الجائزة لولا تدخل جونز.

[﴿] السَّمَنْ: الزَّبِدُ المُحُمُّضُ: عَبِاْرَةَ عَنِ السَّائِلِ ٱلْمُتَّبِقِيُّ بِعِد تَحْوِيلِ القَشْدَةَ إلى زبد ويعرف في عصر باسم الخلاصة". (المترجم)

قال متعجباً: "أعطني إياها".

كانت الروح الفعالة غير الجيدة التى تعد مسئولة عن الانهيار الذى أصاب الطباخ فى هرر والمسئولة أيضاً عن وفاة عمر، مخبأة فى أعماق كيس براغيث هارولد جونز، حتى نتمكن من التخلص منها فيما بعد، لكن خيمة جونز جرى السطو عليها وكنا نتناول لحم الضأن والأرز فى ضوء النجوم، بل إن الخيمة جرى السطو عليها مرتين فى تلك الليلة، ساعة أن كان قائماً بعمله، فقد تسلل الرجال إلى الخيمة لأسباب حقيرة وتافهة، وبعيون زائغة ومتحفزة.

عندما خرجت من الخيمة في صباح اليوم التالي، كان ضوء الشمس قد تجمد متحولاً إلى حوض مصنوع من جذع شجرة، وجرى وضعه خارج خيمتى.

قال بالينا "عسل! لقد أحضرته العبدات من أجل إفطارك وقد أصيبت إحدى يديها وهي تؤلمها

وبحاجة إلى دواء".

قال جونز وهو يخرج من الخيمة ومعه كل الأشياء التى قام بإصلاحها أثناء الليل "حسبت أن ذلك شيئاً بخص الحمام".

هارولد جونز عبقرى فى مسألة التعمير والإصلاح، كل شىء بدءاً من الساعات المعطلة، إلى الزجاج المكسور، وشرائط المصابيح، يمر عبر يديه العبقريتين ليخرج صالحاً للعمل، تناول كل منا فنجانا مليئا بالعسل؛ وبعد أن حاولنا موازنة أنفسنا وإطباقنا على المنحدر، حاولنا قضم البسكويت الذى كانت له مقاومة الصخر، وبينما كنت أعجب ما إذا كانت كسر من البسكويت أم سن من أسنانى هي التى انشرخت، اقتربت منا فتاة وهى تشعر بالكسوف، واضعة ذراعاً من ذراعيها تحت مظلتها (شملتها).

قلت: "مـدِّى يدك"، ورحت أضع ركبتى تحت براد الشاى المنزلق، وذهنى مشغول بالإفادة من "فاكس ومسحوق البوريك، وفى الحال جرى سحب الثوب وكشفت البنت عن يدها أمامى، تمنيت لو أن وجهى لم يحمل سوى التعبير عن الهم والغم على ذلك البراد الذى انقلب فجأة رأساً على عقب، لكنى لم

أرغب فى مزيد من الإفطار فى صباح ذلك اليوم، شاهدت من بين كتلة ملتهبة ومشوهة، ومشقوقة من الأصابع إلى الرسغ، وقرمزية اللون من الداخل، شاهدت ما يشبه أملودين أو ثلاثة سوداء اللون لابد أنها كانت أصابع فى يوم من الأيام، والشئ الذى لا يصدقه عقل هو أن البنت كانت ممتلئة وغير مرتبكة".

قلت لها وأنا أفتش في صندوق الدواء "لابد من عرض نفسك على طبيب".

كنت أغسل وأضمد وأربط، في الوقت الذي كانت هي تلعب فيه بالصوف القطني وتقول: "ليس في بلادنا أطباء سوى الفرانجي (木 الموجود في أديس أبابا، والمسافة من هنا إلى هناك طويلة على أية امرأة".

نزلنا في صمت إلى آخر موقع من المواقع الحدودية في منطقة شوك المحاكالي أن بدأت سيقان الحشائش المتدرجة تطاول رُكبنا، وفي بعض الأماكن كانت تطاول أكتافنا أثناء مسيرنا، كانت هناك حركة نقل للملح عن طريق ممر عرضه ثماني بوصات، كانت البغال تمشى فيه مرتاحة، لكنه أتعب خيولنا، كانت القوافل كلها مكونة من أفراس قزمة قوية، يحمل الواحد منها حملاً يصل إلى حوالي ١٢٠ قضيباً من الملح، لكن كنا نرى في بعض الأحيان حميراً يحمل الواحد منها نصف هذا الحمل، حوالي ٢٠ قضيباً، أي ما تقدر قيمته بحوالي ٣٠ شلناً، كانت هناك أسرة أو أسرتان تسيران ضمن الموكب، كان رجال هذه الأسر يسيرون في المقدمة حاملين الرماح والقرع المفرغ، وكانت كل ممتلكاتهم ملفوفة في قطعة من الجلد يحملها الواحد منهم على رأسه، أما النساء والأطفال والدواجن والماعز الصغيرة فكن يحملن هذه الأشياء في لفة على ظهورهن، أما سلال الخبز فكن يحملنها متوازنة على الأشياء في لفة على ظهورهن، أما سلال الخبز فكن يحملنها متوازنة على جدائل شعورهن.

كانت مؤخرة القافلة ممثلة في حامل المحفظة المشتركة، الذي كانت ثروته من الملح معلقة في كتفه في طرف عصا.

[﴿] فرانجى: Franji: كلمة امهرية وهي ماخونة عن العربية، والكلمة العربية نفسها ماخونة عن الكلمة الإنجليزية Francs التي يترجمها اهل الشام 'الإفرنج' أو 'الفرنجة'. (المترجم)

بقينا نتحدث ساعات عدة عن موعد وصولنا إلى موتا Mota، أم أننا لن نصل إليها اليوم على الإطلاق، كان كوياز ماتش يقاطع هذه المناقشة ملحاً بصورة مستمرة، على الخرطوش الذى لم يكن بحوزتنا من ناحية، أو بإصرارى من ناحية أخرى على معرفة أسماء القرى التي كنا نمر عليها، وعندما أقنعنا مرافقنا، الذى كان متضايقاً منا تماماً وعلى استعداد لتركنا عندما يتوفر له المبرر المناسب، إننا لم تكن لدينا ذخيرة زائدة عن حاجتنا، أستأنف من جديد الحديث عن بلدة موتا Mota.

قال: "موتا بعيدة جداً عن هنا، لن نستطيع الوصول إليها اليوم".

"حسن، إذن بوسعنا التخييم، بعد أن نكون قد قطعنا مسير ثمانى ساعات، وعندها سنخيم فى المكان الذى سنكون فيه". أشرت بعد ذلك إلى مجموعة من الأكواخ تبعد عنا نحو مائة ياردة على تل له حافة من الأشجار "ما اسم هذه القرية؟" قال كوياز ماتش بصوت يعبر عن الدهشة "إنها موتا".

كان الوقت لا يزال باكراً وكان هناك ماء نظيف إلى حد ما فى حفرة بالقرب من بيارة عند بعض من أشجار ونباتات الست المستحية.

اقترحت على رفيقنا "هيا بنا نخيم هناك"، ورحت أشير إلى الظل "أعتقد أن هذا المكان سيكون بعيداً عن متناول كلاب القرية".

نظر إلى ماكونًن نظرة فزع ورعب.

قال: "هناك مقابر للمسلمين".

على الرغم من الكآبة التى خيمت على القافلة، التى كانت متحدة ذات مرة- لم يعد حتى من بينها اثنان يتفقان- أصررت على نصب الخيام تحت الأشجار الشبيهة بالمروحة، حيث كان المكان براداً ونظيفاً. كان المكان يبعد مسافة لا تقل عن خمسين ياردة عن السور المكسر الذى كان يحيط بجبلين أو ثلاثة فضلاً علي كوخ مهدم؛ وبعد الساعة الأولى من التخوف، التى اتخذ خلالها كل واحد من أفراد القافلة حجاباً (ألم) خاصاً به، بدأ أفراد القافلة ينسون الاحتياجات المعنوية لصالح الاحتياجات المادية.

^{*} المقصود هنا 'تعويدة'. (المترجم)

هذا الرجل المسن الفريد، والقصير الممتلئ، الذي يتمتع بسذاجة وبساطة فولستاف (*) جلب إلى مخيمنا ثلاثة آلاف رغيف من الخبز الحبشي Anjera ونتيجة للمرح والسرور الذي اختلطت أصداؤه بغروب الشمس، أظن أن بعض الجرّار المختلفة التي فيها الشراب، وكذلك بعض من القرعات المفرغة المخصصة للغرض نفسه قد هُلبت بعيداً عن نظر هارولد جونز الحاد، كان رفيقي في الرحلة قد أحضر معه نوعاً عجيباً من الصابون، الذي يقضى بصورة فعالة على البق بكل أنواعه، وبدأنا نتعامل باستعمال هذه النوع من الصابون مع سكان هذه القرية من قرى منطقة دبرا ماركوس، والسبب في الصابون مع سكان هذه القرية من قرى منطقة دبرا ماركوس، والسبب في ذلك أن سكان هذه القرية كانوا على قدر كبير من العناد والتشبث بالرأي، وقضينا بعد ذلك ساعة مفيدة في مطاردة أصدقائهم وأسرهم بدءاً من البطاطين إلى الخيش، لم نسمع أي شيء من هذا القبيل في الجانب الذي كنا فيه في المخيم سوى "أنا نفسي أستطيع الرفس لا لقد تفاديت رفسة كبيرة! كشرين رفسة، لكن البعض منها يكون دقيقاً جداً إلى حد أنه قد يشكل مذبحة لعض الأبرياء".

وهنا ببدو الاضطراب فجأة على حاسن.

قال حاسن: "أظن أن الكوياز ماتش يشرب ولا يزال".

اندفع الصبى خلف حاسن بصحبة ستة من أصحاب اللحى الرمادية، الذين كانوا ينحنون ويبتسمون وحيونا تحية حقيقية تسر الخاطر، لكن ماكُونِّن كان مثقلاً بالكلمات، كان نهر آبَّاى (﴿ Abbai (أَبَّاى بعد جزءاً من حدود الراس هيلو يبعد عنا مسير ساعة أو ساعتين، ولذلك سوف يعطينا رجلين يذهبان معنا وسوف يعود هو إلى عاصمته، لم يكن يود أخذ المسدس، الذى قدمته له عن طريق حاسن، على سبيل الهدية جزاء له على مرافقته لنا في السفر طوال ثلاثة أيام، ولم يسمح لخادميه اللذين رافقانا منذ الصباح، بأخذ الدولارات العشر التي أردت أن أعطيهما إياها.

همس فى أذن جابرا جورجس "هذا ليس كافياً، يجب أن أحصل على خمسين دولاراً وبندقية".

شخصية من الشخصيات الروائية في الأب الإنجليزي تتميز بالسذاجة. (المترجم)
 شخصية هو الجزء العلوى من النيل الازرق. (المترجم)

غمغم حاسن المسكين "هو سكران حتى الثمالة"

قلت: "ألا تريد شيئاً من القهوة؟ أنا على يقين من أنك تعبت بعد هذه الرحلة". وحاول جابرا جورجس سحب الشاب إلى خارج الخيمة، وبخاصة أن هذا الشاب كان لديه انطباع مفاده أن الأوروبيين كلهم من أصحاب الملايين وأنهم عبارة عن مصانع أسلحة متنقلة.

كان طباخنا لديه أسلوب يمكنه من إحداث تجديدات ممتازة تماماً في تتويع الأشكال التي نتناول بها البيوض، ولحم الدجاج والضأن، فقد أعد لنا في العشاء شيئاً جميلاً جداً من البطاطس المضاف إليها بعض الأعشاب إلى حد أنى لم ألاحظ مدى غرابة تلك الليلة، عندما أطفأنا الأنوار، فتحت جناحي باب الخيمة حتى أتمكن من رؤية السحاب يتخطى القمر الجديد (الهلال)، وأرى أغصان الشجر وهي تبدو على شكل دوامة من الظل والضوء الأبيض، كان الجو هادئاً تماماً داخل المخيم، لم يصدر أي صوت من خيام الرجال، وهنا قلت فيما بيني وبين نفسي إن بوسعى النوم دون أن أحشو أذني بالقطن الطبي، لكني ربما أكون قد افتقدت حميمية ذلك الجدل الودي والأغنية الودية اللتين كانتا يتخللهما صياح جابرا جورجس بصوت عال "سكوت، ممنوع الكلام! أنصتوا!"، والذي كان يؤخذ دوماً على أنه إشارة الإحداث المزيد من الضوضاء.

استيقظت عندما أشتد البرد وعندما أحدث الطرق الغريب رنيناً فى جوف الليل، سمعت حفيف الريح وهى تصطدم بخيمتى وكان هناك طائر ينوح بصوت حزين، كان يتكسر على شكل نشيج.

"ترى، ما الذى يطحنونه فى هذه الساعة من الليل؟" ريما خطر ذلك ببالى لأنى كنت أود التأكد أن المسألة ليست سوى قيام هارولد جونز بدق وتد من الأوتاد أو أن صاحبى البغال كانا يكسران ملحهما، خرجت من الخيمة وأنا أرتعد، كان القمر يختبئ خلف سحابة فضية الحافة، لكن النجوم كان لها ضوء رمادى تحت شبكة من الظلال التى كانت تبدو عامرة بالحيوية، ومن خلف هذا المنظر شاهدت كوخ الموت المهجور والأحجار المتساقطة من جدارة.

وجدت نفسى وأنا أطيل النظر إلى الفجوات أقول: "الحماية ليست على ما يرام". المؤكد أن الطرق يأتى من خلف هذه الفجوات، ريما كان الطائر أو قد

يكونان طائرين قد اقتربا من ذلك المبنى الذى تتهاوى جدرانه، لأن الصباح كان يجئ ويذهب من فوق رأسى، وكان واضحاً أن هذين الطائرين حزينان تماماً.

كررت كلامي دون أن أدري ما أقول: "هذا هراء! هذا هراء!"

مشيت إلى أقرب الخيام، بلغت الخيمة من الهدوء حداً أصبح من الصعب معه معرفة أن هذه الخيمة ينام فيها ستة زبانية، رفعت جناحاً من جناحي باب الخيمية، كانت الخيمة خالية، ومع تزايد ضربات قلبي ذهبت إلى الخيمتين الأخربين، لكني لم أكن بحاجة إلى النظر داخلهما، كانت الخيمتان مفتوحتين ومهجورتين، وفاغرتين فاهيهما لتلك الخيالات، تزايد الطرق على نحو مؤذ وبشكل لا يمكن تعليله، نظراً لعدم وجود أي أحد في المخيم سوى هارولد جُونز، الذي من المفروض أنه نائم، نظراً لأن خيمته كانت معلقة وصامتة، مشيت بخفة شديدة، خوفاً من إزعاج شيء مجهول، إلى أن أصبحت على مقرية من الجدار المنهار، كانت هناك خيمة منصوبة على بعد مسافة قصيرة من الخيام الأخرى، وفي ظل تلك الخيمة عثرت على بقجة بيضاء اللون، هذه البقجة كانت تهدهد نفسها إلى الأمام وإلى الخلف، وكان واضحاً أن هذه البقجة متلفعة بكفن، وكانت العينان مغلقتين، كانت البقجة تنبس بأغنية من خلال شفتيها، أغنية جافة، وبصوت أجش كان بعضه يضيع وسط أنين الأغصان، وتكسير الفضيات، وبينما كنت ألهث، فلابد أن هذه البقجة قد أدركت اقترابي، فقد صرخت هذه البقجة، وأخرجت أصابعها من أذنيها، معلقاً بها حوالي سنة خيوط من الأحجبة، ثم ألقت بنفسها على شكل كومة عند قدميّ، وذابت على شكل مظلة (شملة) هي عبارة عن الشكل المرعوب لسائس خيولنا .

تجرعت كما لو كنت أحس شيئاً فى حلقى "ماذا حدث، حسبت أنك". وأدركت بعد ذلك أنه ربما كان من الأفضل ألا أقول ذلك الذى دار فى ذهنى عنه! "ماذا تفعل هنا؟ أين الباقون؟ سألته هذه الأسئلة بحدة إلى أبعد الحدود، حدث ذلك قبل أن يصبح وُلدو سليسى منطقياً.

كرر السائس كلامه مرات عدة "إنها السيدة، ربنا يحفظنا لا ساعدينا يا مريم لا إنها السيدة لا وراح بعد ذلك يتوسل ببعض القديسين، السواد الأعظم

منهم غير معروفين لى، وبين كل جملة وجملة كان يشرح أنه بعد انتهاء مفعول ضيافة رئيس القرية، راح الزبانية، والخدم وكذلك الحرس المحلى يزحفون عائدين إلى القرية، وقال إنه بقى فى مكانه كيما يمنع بغال صاحبى البغال من أكل الشعير المخصص للخيول.

سألته لكى أعرف ماذا سيكون رده "ألم تخف لكونك لوحدك؟"

"نعم، هذا صحيح بلا أدنى شك، لكن الحصان الرمادى سينحف، إذا ما سطت حيوانات الأمتعة اللصة على نصيبه من الشعير".

وددت لو أنى رَبت على كتفه وهو يقف إلى جوارى مثل كلب لطيف، لكنى اكتفيت بأن قلت: "أنا لم أستطع النوم بسبب الطرق والخبط، حسبت أنكم كنتم لا تزالون تطحنون الملح حتى يناسبه".

نظر إلى نظرة الطفل البرئ.

"أرواح المسلمين هي المدفونة هناك، هذه الأرواح هي التي تدق وتخبط لكي تصعد إلى السماء، لكن السماء مغلقة دونها، لأنها لم تؤمن".

انبعثت نغمة الطائر خافتة، وكأنها نشيج.

قلت لنفسى "هو طائر، بطبيعة الحال".

سأل وُلدو سيلاسى "ألم تسمعيهم وهم يصيحون، الأرواح محبوسة فى القبور مع أجسادها وهى لا تستطيع الخروج، ليس هناك مكان تذهب إليه هذه الأرواح".

تلت ذلك فترة صمت، تمنيت ألا تطول.

قلت: "الخيول شبعانة". يتعين عليك الذهاب إلى القرية فوراً.

تردد.

كررت كلامى "فوراً، أنا ذاهبة لأنام"، هذا الأخير كنت أعرف أنه ليس حقيقياً.

حاولت فى الصباح أن أحكى لجونز تجربتى غير المتحضرة؛ جونز لندنى من القرن العشرين، يقظ، يفتقر إلى الخيال، وهو أيضاً من النوع العملى، ضحك جونز مما حكيته له، هذا شيء قريب جداً من نخير الخيل!

قال: "لابد أنك كنت تعانين من كابوس".

واقع الأمر أننا أصبنا بكابوس فيما بعد، عندما أفاق كوياز ماتش من سكره، ورجانى أنا بإنزال حمولة أحد البغال الذى كان قد سبق القافلة بمسافة كبيرة، كما طلب منى أيضاً فتح حقائبى، وأحضر له المسدس الذى رفض أخذه عندما كان تحت تأثير شراب التدج المسكر، كان الموقف واحدا من مواقف الضعة والإهانة، وأنا على يقين أن الموقف كان غير عادى، لأنى عندما رفضت، على اعتبار أن يكون عبرة لمن يعتبر من الليلة السابقة، أخذ يتقلب بين العجلة والإساءة إلى أن اضطررنا إلى النزول من فوق الركوبة ونسبقه إلى القرية، في هذه القرية كان رئيسها ينتظرنا ليرينا كنيسته التي عمرها ثلاثمائة عام، التي كان يتباهى ويتفاخر بها، القرويون يتحدثون عن كنيستهم بطريقة تشرح الصدر، باعتبار الكنيسة منزلاً لصديق يجرى فيه الترحيب بكل من يجئ إليه.

القرويون يقولون "يجب عليك المجئ والسلام على مريم"، أو قد يقولون: "تعال وحيى معنا القديس جورج- أنه على طريقك".

الصور الجصية الزاوية في هذه الكنيسة من كنائس موتا Mota قدم بساطة هذا المبنى الذي يحتوى عليها هي وكتب القداس كانت كلها مختلطة ببعضها مُشكِلة انسجاماً لونياً ناعماً، كان عنصر الاحترام البدائي في هذه الصور الجَصية يفتقر إلى عنصر "التخويف" الذي جرى إدخاله على الرسوم الدينية الحديثة، كان رئيس القرية مرشداً طيباً، عليماً بأساطير القديسين، وخطر ببالى أيضاً بساطة أولئك الحبشيين كبار السن، الذين بغض النظر عن كونهم جنرالات وحكاماً أو قساوسة في القرى أو رؤساء للقرى، كانوا يتمتعون بشئ من الثقة البسيطة المتحفظة الملكية مثل الغطرسة من جانب صغار السن التي هي بمثابة النقيض، في الشرق مسألة العمر تعد أمراً معترفاً به، الشباب يدير مهامه ويقبل أطراف ملابسه، والرجل "كبير السن" لديه خبرة كبيرة وتجارب كثيرة، وذكريات وحكمة، وهو بسبب كبر السن، وليس على الرغم منه، يحاط بعباءة الاحترام والتقدير، ويتوج بالإعزاز، وهو بدرك تماماً دلائل حاله هذه، وأنه جدير بذلك كله.

من المحزن التغاضي عن القصص التي رواها رئيس القرية عن الطمع

الجنونى للشاب كوياز ماتش، لقد ركب رئيس القرية دابته معنا خلال السوق الفارغة التى تظلها ثلاث من أشجار الواركا Warka العملاقة، بينما كنا نسير على جنب، خلال التراب وبين النظارة الفضوليين، في مسارات تتعرج بين أجمات أشجار الليلج، والياسمين، والليغطروم، والتى كانت الأكواخ مدفونة بينها، راح كوياز ماتش يرجو ويتخاصم، ويثور، عسانى أتنازل وأنقذ ماء وجه إخوانه المواطنين من هذا المنظر المشين، لولا حاسن، الذي أصر كان يطالب كثيراً بالبقشيش، وقد رفض الهدية، على أمل الحصول على ما هو أكبر، ولم يفعل كل ذلك الذي أمره به سيده، فقد أبلغه بالذهاب معنا إلى دبرا تابور Debra Tabor.

قلت بصوت ضعيف: "هو كاره للترحال".

رد حاسن بمثل ما قُلت: "هو يحب البقشيش، لقد استمع إلى كثير من الحكايات، وأنا أقول لك إن رجال هذا البلد لا يقنعون مطلقاً بأى شىء يأخذونه، وإذا ما بعثرت مئات الدولارات يومياً فلن ترضى أحداً، لا تعطى أحداً سبنًا أى شئ".

وعليه رجونا ماكُوتِّن أن يعود، وشكرناه، وحملناه شكرنا لوالده، وقلنا إنه تلطف وقبل منا الهدية البسيطة التي قدمناها له، لكنها كانت مغلفة ومحملة وعلى بعد أميال منا في المقدمة، وعليه آثرنا ألا نشغله بشئ تافه من هذا القبيل.

بعد أن أقتنع بفشله فى نهاية المطاف، تخلى كوياز ماتش عن حرصه وعن كرامته وضرب بذلك كله عرض الحائط، صرخ قائلاً: "عجِّلوا لأخرجوا لقد انتهى دورى معكم، لن أرسل معكم مرشدين، سيروا وحدكم الله

أدار بغله، وكان بوسعه أن يخزه ليزيد من سرعته، لكني تدخلت.

قلت على وجه السرعة: "أنا خائفة من السماح لك بالتصرف على هذا النحو، لقد قيل لك إن تذهب معنا إلى راس جوكسا Ras Gooksa، وهذا أصبح شيئاً مستحيلاً بعد كل ما فعلت، لكنك سوف ترسل معى مرشدين حالاً، وإلا بلَّفت الراس هيلو عن تصرفك هذا".

تلت ذلك فترة من الصمت.

قال حاسن عن قناعة: "وسوف توضع في السجن بلا أدني شك"

بدا الصراع واضحاً فى ذلك الوجه الضعيف الواقف أمامنا، فى الوقت الذى بقيت فيه أنا بلا حراك وغير مبالية، نظراً لأن حالنا قد يكون أفضل فى حال عدم وجود مرشدين غير راغبين فى مساعدتنا؛ وهنا كف كوياز ماتش عن المقاومة.

قال: "سآتي معكم".

"لن تجئ معنا، لن تنتقل ميلاً واحداً بعد الآن مع قافلتى، لكنك سوف توفر لى رجلين يعرفان البلاد، وسوف أقوم بدفع أجرهما، بوسعك أن ترسلهما بعدى".

استدرت بحصانى وانصرفت بعيداً عنه، بعد ذلك بعشر دقائق شاهدت اثنين من حملة الرماح يجريان خلفنا، لكننا كنا قد استأنفنا مسيرنا بالفعل على حد قول جابرا جورجس، ذلك المتعالم المحلى الذي أقسم بأنه يعرف كل جزء من أجزاء الطريق، وعليه تمكنا من تجاهل أتباع ماكُونًن.

من (النبل إلى شوسًا الخالبة من (الماء

قال هارولد جونز ونحن نستأنف النزول إلى الأعماق البعيدة التي تخفى نهر الأبَّاي وإن شئت فقل النيل الأزرق.

قلت: "واضح أن لديه انطباعاً خاطئاً عن أحوالنا المالية".

رد جونز قائلا: "حسن، أنا لا أعرف من أين جاء له ذلك الانطباع، معطفى الوحيد عليه آثار مختلف أنواع الوحل الذي مررنا به".

"هل قلت وحل mud أم وجبات MEALS؟"

تجاهل جونز سؤالي.

"فيما يتعلق بك، أنا لا أتخيل ذلك الذى يمكن أن يحدث إذا ما انقطع الخيط".

قلت وأنا أعرب عن أسفى "أنا أعرف ذلك. إنها الأزرار. هذه الأزرار تتخلع أثناء الليل عندما أكون متعبة أو عندما أود الكتابة، وهى تضيع منى فى الصباح".

قال جونز في شيء من المواساة "لا يزال معنا بعض من الشرائط الطبية اللاصقة"، ثم تساءل "هل ستكتبين لراس هيلر عن ذلك الصبي؟"

"لا، أنا لا أعتقد ذلك، إن أباه رجل لطيف".

" أنا لا أعرف! يا له من سبب أنثوى"!

لكن، أثناء نزولنا من خلال منحنيات ضيقة، كانت تقلل من حركة البغال، وتجعلنا نصاب بالدوار مثل إبرة البوصلة الرخيصة، رحت أتفكر في مسألة

الترحال في الحبشة، قوافل الترحال الأوربية لا تزال نادرة، يزاد على ذلك أن مفهوم الضيافة سخى ولا يزال، إلى حد أن ضريبة الدرجو الحبشية Dergo (ضريبة الطعام للإنسان والحيوان، تعطى في معظم الأحيان للصيادين، والمستكشفين وللدبلوماسيين الجائلين). ومن باب التأكد من تقديم هذه الضريبة، يوفر المستولون مرشداً رسمياً للتأكد من تنفيذ ذلك؛ هذا المرشد تختلف رتبته ومرافقته طبقاً لمكانة الرَّحال، الذي تكون مصاعبه ومشكلاته مناسبة تماماً للتشريف الذي يوليه إياه الحاكم المحلى Local Ras، في ظل عدم وجود ضريبة الدرجو Dergo قد يستحيل في معظم الأحيان الحصول على الطعام طوال يومين أو ثلاثة، لكن يمكن مقابل بضعة دولارات الحصول على مخزون مستقبلي كاف من الدجاج، والبيض والشعير لتغطية الفترات التي تكون من هذا القبيل، طبقاً للعقد الذي يبرم مع مالك البغال(本) يتحتم عليه توفير العشب المطلوب ليغاله، بمعدل أربعة أحمال حمار نظير ريال واحد، ويجرى دفع أجر الزباني والخادم مقدماً بواقع خمسة دولارات في الشهر نظير طعامه الرخيص والمتوفر، إذ يمكنه شراء مائة رغيف من الخبز الحبشي نظير ريال واحد؛ ورغيفان من هذا الخبز يكفيان الخادم أو الزباني طول اليوم، وإذا أردنا إطعام كل وحدة من وحدات القافلة، سواء أكانت بشرية أم حيوانية، فإن ذلك لن يتكلف أكثر من ٥٠٢ دولار للرجل، وثلاثة دولارات للبغل الواحد في الشهر، لكن الترحال بإذن مكتوب من الحكومة وتحت رعايتها يزيد هذه النفقات إلى عشرة أضعاف، قبل زمن طويل من تعرف الإنسان الإضافات الأخيرة التي طرأت على الحاشية المرافقة، والتي تتغير مع كل قرية أو حي، وقبل أن يتمكن المرء من زيادة عدد مرشديه الجدد، وقبل أن ينتهي المرء من التعبير عن شكره وامتنانه على ملء قرعة من الحليب، قبل ذلك كله يتعين انسياب الدولارات من كيس من الأكياس السحرية، نظراً لأن البغال لا تقوى على حمل العدد المطلوب من هذه الأكياس، واقع الأمر أن سخاء الحكومة هو الذي يُقدم للرحالة، لكن الجرازماتش أو الكوياز ماتش هما اللذين ينظمان انسياب هذه السخاء، وهما أيضاً اللذان ينظمان، في ظل كثير من الانحناء احتراماً وتقديراً، تكديس الفواكه الحمضية أمام الخيام،

[🖈] Nagadi: كلمة حبشية تعنى مقاول البغال". (المثرجم)

من الطبيعى أن المرء يتحتم عليه التعبير عن شكره وتقديره لهذا التقليد الطيب الذى سجّله الزمن ومجّده، لكن فى البلاد التى تشيع فيها الهدايا على نحو تتناسب فيه قيمتها مع ثمنها يصعب إرضاء الجميع.

"يا لبلاّم باراستًى من ملاك" ١

تنهدت وأنا أسترجع أدب جبرا سلستى Selessi الجم.

أردف جونز موافقاً "كان نوعاً طيباً تماماً، لكن لماذا تفكرين فيه في هذه اللحظة؟ المرجح أن هذه ستكون المرة الأخيرة".

أشار إلى النقطة التى يتوقف عندها الممر، والتى انزلقت عندها صخرة كبيرة انزلاقاً حاداً في الفراغ.

"هل سنترجل؟"

بعد شيء من التفكير جرى إنزالنا بواسطة الزبانية الأربعة الأقوياء، الذين كانوا يخشون أن ننفلت منهم، إلى حد أننا كنا نتدلى معاتبين، ونرفس بأقدامنا، وكادت مناطق تحت إبطنا تتشرخ، رفض حاسن الافتراق عن بغله، قال، "أنا لا أجرؤ على النزول به وأنا راكب عليه هناك مرة ثانية"، ثم أمسك بمقدمة السَّرِّج، وينزلق متدحرجاً، ويسمع صوت فرقعة! انقطع حزام بطن البغل، ويتكوم المترجم والسرج والبغل المدهش في أجمة شوكية قاومت الالتواء فترة طويلة مكنت من سحب الرجل والحيوان بسلام.

مثلت الخيل لنا أكبر المصاعب، مضى الحصان الرمادى بسرعة كبيرة وبتزييق كبير، الأمر الذى أدى إلى انزلاق أرجل الحصان الخلفية من فوق حافة الصخرة، وكتمنا أنفاسنا عندما قام اثنان من البغّالة بوضع أنفسهما تحت الجزء المنزلق من الحصان محاولين رفعه، رفض الفرس الكُميت بعد ذلك مواجهة عملية السقوط، وراح يدور حول نفسه، وضاعت منه خطاه وسقط متدحرجاً نحو الأسفل والسائس يُدوم بين الحوافر والأحجار متعلقاً بلجام الحصان.

قلت، عندما نجت الحيوانات بمعجزة "آمل ألا نصادف ثانية حفراً من هذا القبيل، أنا أشعر بالإعياء إلى حد ما".

قال جونز "الحرارة هي السبب، أنا لم أحس شيئاً من هذا القبيل من قبل".

كانت درجة الحرارة المسجلة على الترمومتر ١٠٨ درجات فهرنهايتية، ولما كنا محصورين بين الصخور السوداء، ومخنوقين بسبب التراب الذى كان يكسو كل بروز من البروزات ويملأ كل شق من الشقوق، ويصل سمكه إلى نحو قدم بين الأحجار، أحسسنا وكأننا يجرى إحراقنا.

قال هارولد جونز، عندما هبت علينا ريح حارة "نحن نحترق لكن ببطء، أتمنى لو أنهم أغلقوا الباب واكتفوا بذلك".

استغرق نزولنا من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم نحو خمس ساعات إلى أن وصلنا مجرى النيل الأزرق، بعد أن عبرنا خليج آجوم واها Agum Waha المتعوج شبه الجاف الذى حسبناه هو النهر، وبعد أن تسلقنا مجموعة مختلفة من الجلاميد، وقد غطتنا الأقذار، وبعد أن عبرنا كثيراً من الأشواك، رأينا شريطاً من الماء الأزرق. كان ذلك الشريط عميقاً ومضغوطاً بين القمم الصخرية التى بدت لنا قابلة للتسلق، لكن بعد تشاورنا في مسألة الجسر (الكوبري) البرتغالي، توصلنا إلى مسار كان محدداً في التراب عبر اللون الأسود، سرنا في ذلك المسار بأفواه مفتوحة وعيون جاحظة، وبمعدل ميل واحد في الساعة، كانت الشمس شديدة القسوة طوال فترة العصر، وفي ظل سكون الربح وركودها، وفي ظل عدم وجود سحب في السماء المنصهرة، واصلنا مسيرنا مكتئبين وفي صمت في اتجاه أرض مستوية، أوحت لنا والنساط أرضي لكنه يعلونا بنحو ألف قدم أو ما يقرب من ذلك.

قلت ونحن نتسلق بروزاً بعد آخر "إنه السراب"، لنكتشف أن هناك كومة أخرى من الصخور، الساخنة إلى حد يصعب معه لمسها، وملساء بشكل يصعب معه على الحوافر السير فيه، وقد مشينا الميل الأخير سيراً على الأقدام، وكان أربعة منا يعرجون في المقدمة وقد أغلقوا عيونهم، في حين وقعت بعض الإصابات في بقية القافلة التي كانت تمشى وراءنا، هذا بغل من البغال سقط مما أدى إلى التواء وتره الخلفى، كان معظم ظهور البغال ملتهبا، أصيبت البغال كلها بجروح في الظهر أو الركبة، أما بالينا Balaina فقد نزع ظفر إصبع قدمه، وهذا واحد من الزبانية شوق قدمه وهو يلبس نعله، وهذا زباني آخر خُلعتُ كتفه، وكان السائس يتلوى مما سمَّاه ضلعاً مكسوراً، لكني عندما هدني التعب، كنت قد أجهزت على كل ما بداخل صندوق الدواء، عندما هدني التعب، كنت قد أجهزت على كل ما بداخل صندوق الدواء،

ورحت بعد ذلك أطيل النظر إلى لفة صغيرة مكتوب عليها "أقراص دواء" Tabloid، وإلى إصبع مضغوط مكتوب عليه "ضمادة"، أخيراً رق قلب بالينا وأكد لى أن "الإرهاق يأكل وسطه".

"عند غروب الشمس زحف موكب من العُرِّج والمشوهين إلى أول جزء من الأرض المستوية على قمة الصخرة، وجلسوا أيضاً وسط ماشية مرتاحة إلى حد ما، جرى بعد ذلك نصب الخيام، ولا أعرف كيف نصبت ولا من نصبها، دخلت خيمتى، ووجدت فيها مخدة، ورحت في النوم وقدمى بارزة من بقايا فردة الحذاء البالية، بحلول الصباح درسنا الخارطة وكدنا نمزقها لأنها رفضت الإفصاح لنا عن أننا قطعنا أكثر من اثنى عشر ميلاً"!

قال هارولد جونز "أود أن أحضر ذلك الذى رسم هذه الخريطة واجعله يرسم خطاً مستقيماً من موتا Mota".

وافقت على هذا الكلام وأطلت النظر إلى قريتين توأم: ماجير ووولكا اللتين كانتا نقاطا على عشب الزعفران، "نعم، أعتقد أن هذه الخارطة مفيدة للملاحين الجويين".

أبديت ملاحظة، وأنا أتعجب من المدى الذى يمكن أن أصل إليه بهذه القافلة "أُحس وكأن عظامى كلها قد أزيلت وأستُبُدلت بقطن طبى".

"عجيب، عندى عشرات العظام اليوم، هذه العظام بارزة منى، وأنا أبدو كما لو كنت منصهرة عندما تؤلمني عظامي".

مشينا ببطء عبر الحشائش الجافة، التى تتخللها الأحجار، وتتخللها الشروخ فيما بين الكثبان إلى أن وصلنا مجارى مائية جافة، توجد فى كل سلسلة من السلاسل الجبلية الشبيهة بالسنام قرية لها كنيسة مخبأة وسط مجموعة من الأشجار، كانت قرية جنتا Genta عبارة عن بقعة خضراء عن يسارنا؛ أما تل شيماى Shimie، فكان عبارة عن وهج من أشجار اللبلاب الحمراء التى كانت تخفى أكواخ القرية، يجئ بعد ذلك واد، ذهبى اللون بفعل الدريس، ويخفف من حرارته نهر حقيقى، تترقرق مياهه بين حواف لها خضرة الزيتون، والأشواك، والخلنج المزهر؛ انفتح هذا الوادى أمامنا، هذا الوادى فيه امتداد لرقعة أخرى من أشجار الأثل التى ترعاها الماشية؛ الأمر

الذى وعدنا بشئ من الحليب، وكان هواء المكان معطراً برائحة الزهور، سرنا على ظهور دوابنا لمسافة أميال قليلة خلال هذا الوادى الضيق الذى انحدر متدرجاً ليتداخل مع الأجمات الواقعة على الجانبين، خضنا خلال المجرى المائى الذى كانت مياهه تجرى من فوق الحصى صافية صفاء البللور، وانجذبنا إلى مرج أخضر تظلله أشجار الست المستحية.

قال جابرا جورجس، كاثوليكى الملّة، وهو يسارع إلى تزويد نفسه بستة أغصان صغيرة، وثلاثة أحجار، وممسكاً بوعاء صنع القهوة، "الحمد لله، مريم المباركة"!

بدأت السماء تمطر عندما كان بالينا يرتب صناديق الأفلام ليجعل منها مائدة للطعام، وفي غضون ثلاث دقائق سقط وابل من الأمطار، دخلت السُّرُج والأطباق وأدوات المائدة وطبق الرَّاجوت Ragout، الذي لم نجرؤ على السؤال عن مكوناته! وكذلك دلف جونز إلى خيمتي في آن واحد مع ذلك الذي بدا لنا وكأنه مطر غزير مفاجئ، كان قماش الخيمة حولنا بيدو كما لو كان جزءاً من شبكة من شباك البعوض! ووسط هذا البرق وهذا الرعد الذي تحول إلى صدام صوتى ولهبى، بدأ المطر ينزل غزيراً علينا، أنطفأ المصباح في البداية، بعد ذلك، وأثناء محاولتنا إنقاذ ذلك الذي يسمى حساء الراجوت، حدث شد عنيف للحبال أثناء الظلام، وانخلعت أوتاد الخيمة وسقطت الخيمة فوق رءوسنا، وفي غضون دفائق معدودات حولت الريح الخيمة إلى أكوام وكنا جميعاً تحت هذه الأكوام، غُلبنا بعد ذلك وزن الماء، وتحول إلى ما يشبه الحمام الذي كان ماؤه ينصب علينا كلما تحركنا، لم يحظ نداءنا لخيمة الطباخ بطلب العون والمساعدة بأي رد أو اهتمام؛ كنا مشوشين فيما يتعلق بالطعام والأمتعة والفرش المنهارة، على نحو عجزنا معه عن إنقاذ أنفسنا، بذل هارولد جونز محاولة واحدة، لكن النتيجة كانت كارثة، إذا ما حكمنا عليها بالصوت الذي نتج عنها، أظن أن جونز اصطدم بحافة حادة من حواف علب الأفلام، ثم جثا على سكين من السكاكين، وعليه كان لابد من الاستمرار في عوائنا غير المحترم إلى أن خطر ببال بالينا أن يرد علينا ويستجيب لندائنا.

قال بعربيته الضعيفة: "يا حرام" لا لابد أن تكون الأوتاد قد ضاعت كلها الآن!

خطر ببالى، وأنا جالسة فى بُريكة من القهوة، وأنا مضطربة وقلقة، كثير من الإساءات البدوية لكنى كنت أخشى ألا يكون الصبى بارعاً بالقدر الذى يُمكِّنه من تفهم هذه الحقيقة.

جاء اليوم التالى على النقيض مما كنا فيه تماماً من حيث الطقس والمناظر الطبيعية، أولاً، نفض الوادى المسحور ثيابه الزيتونية ووروده البرية، وتكرمش إلى سلسلة من الجبال عبرناها بالقرب من قرية براً Burra، وعندما بدأت أشعة الشمس تبدد السحاب، وصلنا إلى طبق ذهبى بين التلال التى كان العمال فيها مشغولين بحصاد الحبوب، كانوا على شكل صفوف متتالية، وكل واحد منهم يلف حول وسطه وحول جبهته حزاماً من الجلد، ويمسك في يده منجلاً (محشّة) صغيراً، جهز هارولد جونز آلة التصوير وسط نباتات الحبوب التي يطاول ارتفاعها ركبة من يسير خلالها، لكن النتيجة جاءت مدهشة تماماً، نظراً لأن الحشد كله جثوا على ركبهم، وانحنوا مرات عدة، وأغمضوا عيونهم وراحوا يدفنون رءوسهم في الأرض.

قال حاسن وهو يخاطبهم بلغة أمهرية غير واضحة "هم يظنون أن هذا سحر".

قالت واحدة من النساء مولولة، وهى تحتمى بغطائها غير الكافى "إذا ما نظرت إلى هذا الشئ سوف أموت".

قال جونز "هذه صورة جيدة، الأحباش عرق مُتَعَبِّد".

سألته "هل ستطلق على هذه الصورة اسم، حصاد؟"

ما رأيك فى الاسم "حصاد الشكر"؟ قال هذا الكلام وهو يضحك، ثم أردف قائلاً "أقول، إن المرأة تظن أنها ميتة". والسبب فى ذلك أن حاسن كان لا يزال يحاول طمأنه الضحية من هجوم خيالى.

أسلمتنا حقول الشعير إلى أجمات كثيفة من الأشواك التى شققنا طريقنا خلالها ونحن واضعين أيدينا على وَجُوهنا، وبعد أن خرجنا من واحدة من تلك الأجمات شاهدنا عبر واد عامر بالروابى والمنخفضات قرية مهاديرا مريم Mahadera Maryam، تقف شامخة على قمة صخرة كبيرة، سرنا طوال فترة العصر متجهين صوب كنائس وأكواخ هذه القرية، ووصلناها عندما

استطال خيالنا على الأرض، بعد عثرة أصابت حصانى بالعرج، كانت النساء يسرن على شكل موكب فى اتجاه مجرى مائى لا يحمل سوى اسم واحد هو "ماء غسيل الملابس" Wash-clothes-water، كانت النساء يحملن جراراً كبيرة وبقجاً كبيرة أيضاً، فى حين كان الرجال يتكئون على عصيهم الطويلة وينظرون إلى ما يدور.

سألت شاباً كان يجرى إلى جانب أجمل البنات محاولاً استمالتها لتكون له صديقة "لماذا لا تساعدها في هذا الحمل الذي تحمله؟" ضحك الشاب في بداية الأمر، وبعد أن كررت السؤال، أجابني "المرأة للعمل، أما الرجال فعملهم الحرب"، وهنا خطر على بالى ذلك المثل العربي الذي سمعته من شيخ عربي في اليمن "الرجل يحمل البندقية، والمرأة تحمل الأطفال والمنجل، وهذا هو تنظيم الله" المرأة في الحبشة وحدها تحمل أيضاً وعاء الجعّة، وفي أغلب الأحيان يكون الرجال أكثر استعداداً بألسنتهم عنه ببنادقهم.

مهاديرا مريم، "مليئة بالقساوسة، والفقراء، والشحاذين" على حد قول حاسن، ولذلك رفض أهل القرية أن يبيعونا أى نوع من الطعام، على الرغم من عرضنا دفع الثمن بالدولار، أو الخرطوش أو الملح، لم تكن هناك أعشاب أو حشائش على الصخرة، وعليه مضت بغالنا وخيولنا بلا طعام، ونحن أيضاً كنا سنحذو حذو هذه البغال والخيول لولا مرور بنت من البنات، مرت على خيمتى بماء عامر بالطين جرى جلبه من حفرة من الحفر، والسبب فى ذلك، وهو سبب دائم، هو بعد القرية عن الأنهار التى فى الوديان الموجودة على الجانبين، وقفت هذه البنت فترة طويلة تطيل النظر إلى ما أفعله، وقد قطبت جبينها جراء ما يدور فى رأسها من أفكار، ثم هربت بعد ذلك لتعود إلى جبينها جراء ما يدور فى رأسها من أفكار، ثم هربت بعد ذلك لتعود إلى ومعها حفنة من البيض ودجاجة بيضاء، نظرت إلى هذه الأشياء بنهم شديد.

سألت جابرا جورجس: "ألا نستطيع إقناعها ببيع هذه الأشياء لنا؟" هز الطباخ كتفيه:

"ستكون بحاجة إلى مادة بيضاء أو قطعة من القماش". لكن بعد حوار ثنائى بصوت عال عاد جابرا جورجس إلى مندهشا، قال: "هى تريد صابوناً". "الحمد لله! سيكون لدينا شيء من العشاء"!

رحت أفتش في حقيبة ملابسي وأخرجت منها لفافة.

"هي تريد قطعة خاصة مثل تلك التي كنت تستعملينها".

"هذه اللفافة هي من النوع نفسه".

ترجم جابرا جورجس وانشرح صدر البنت وتهلل وجهها وهى تأخذ قطعة الصابون.

"ليس لدينا فى هذا البلد صابون يجعل البشرة بيضاء". قالت هذا الكلام وقبلت يدى، وراحت تتحسس يدها بعد ذلك، ربما يكون تأثير الغسل دائماً، أضافت البنت "فى البداية ظننت أنك لست حقيقية، بعد ذلك رأيتك تستعملين هذا الصابون، وعندها فهمت".

راح جابرا جورجس وأنا ننظر إلى بعضنا البعض في شيء من البله.

أمرت جابرا "يجب عليك أن تشرح لها الحقيقة، سيخيب أملها عندما لا ينقشع سوادها مع الغسيل"؛ لكن الطباخ كان يشعر بالاحتقار والازدراء.

"هذا لا يهم، ييدو أن الدجاجة سمينة".

لابد أن هذه الدجاجة كانت بيًاضة، ففي صبيحة اليوم التالي وبينما كانت الدجاجة مربوطة بين صندوقين من صناديق الأفلام على ظهر بغل من البغال، أفلحت في أن تضع بيضة أثناء سيرنا طالعين نازلين من الصخر المتغير الموجود فيما بين قريتي مهاديرا مريم ودبرا تابور Debra Tabor، هاتان القريتان تواجهان بعضهما عبر سلسلة من السلاسل الجبلية المنخفضة، وعلى امتداد ست ساعات واصلنا مسيرنا عبر أراض حبشية أصيلة. كانت تلك الأرض كثيرة الأشجار، وتتخللها بعض صخور الجرانيت المفككة والأحجار الرملية التي نتجت عن التربة، وانهارت على شكل ثنيات حادة لها أحواض نهرية تحت كل جبل من الجبال، وتعين علينا عبور نهر جومارا Gomara الموجود في منتصف الطريق بين القريتين، وكان الطريق على أنوفنا، في حين راح الرجال يبعدونه قطعة بعد أخرى.

دبرا تابور، هي عاصمة راس جوكسا Gooksa، ولى Woli، زوج الإمبراطورة ريديتو، وهو متآمر سياسي، لا يحترم الأمور الداخلية في الحبشة، ولذلك

فهذا هو الدافع وراء نفيه بعيداً عن أدبس أبابا، كما أن قصره بتكون من عدد من الأكواخ الكبيرة، بعضها مربع الشكل، وبعضها مستدير الشكل، حول مربع كبير، يبدو وكأنه معلق على حافة الصخرة الواقعة في الناحية الجنوبية وتطل على قرية مهاديرا مريم، على أجناب المربع الشلاثة الأخرى توجد المدينة الشبيهة بعيش الغراب، والتي تنتشر أكواخها في غير انتظام على منحدرات عدة، بل إنها قد تتجمع في بعض الأحيان على شكل تجمعات محددة المعالم، وقد تكون بين الأشجار والأحراش في بعض الأحيان، نصبنا خيامنا في الأسفل بجانب مصدر الماء الوحيد وأرحنا البغال، كانت البغال قد أوشك أن يبدو عليها التعب، وتشككت أيضاً، لأن صاحب البغال في الليالي التي لم يكن يرسل لنا فيها الطعام المحلى وإن شئت فقل: الضيافة المحلية، لم يشتر علفاً لتلك البغال، كان العقد المبرم مع صاحب البغال ينص على أن يقوم بنقلنا إلى أسمرة في زمن محدد، وهذا على سبيل التحذير من العادة المحلية التي تقضى بالتخييم في وقت الظهيرة، لكن، على الرغم من أننا أخذنا تقريباً ضعف العدد المطلوب من البغال لاستعمالهما في نقل أمتعتنا، وعلى الرغم أيضاً من شراء بغلين جديدين من دبرا ماركوس، فإن التسلق والصعود المستمر أثناء وهج الشمس والحال البشع الذي عليه الطرق، وفوق ذلك كله، الإهمال في مسألة التحميل في ظل عدم وجود عرَّاقات (本) كافية، كل ذلك كان وراء العرج الذي أصاب أرجل البغال والالتهابات التي طالت ظهورها.

خطر على بالى "إذا ما وصلنا إلى جُندار Gondar بما لدينا من إمكانات سنكون محظوظين". ثم خرجت بعد ذلك الستطلاع ما إذا كنا سنجد حيوانات إضافية يمكن استئجارها أو شراؤها في بلدة تنتعش فيها تجارة الجلود، التي تكرس لها كل حيوان من الحيوانات الحية، سواء أكان ذا أربع أم ذا اثنين.

عندما عدت من البحث الخائب وجدت المخيم مليئاً بالبنادق وبأغطية رأس لها مقدمة سوداء، لقد سمع راس جوكسا عن وصولنا وأرسل لنا تحياته، التي عبر عنها بطريقة جذابة واحد من ضباطه، وجرى التأكيد على

[★] عرًاقة: بتشديد الراء وفتحها، هي ما يوضع على ظهر البغل او الحصان او الحمار لحماية ظهره عند التحميل واثناء السير. (المترجم)

هذه التحيات عن طريق الخوار، والثغاء، والوقوقة، بعد أن عبرنا قدر المستطاع عن ردنا من خلال الوسيط جابرا جورجس، الذى كان مفتونا بطلاقته وفصاحته على نحو يصعب معه إخفاء ذلك الافتتان، سرت متجهة صوب خيمتى، لأرى هارولد جونز يخرج مندفعاً من خيمته.

تعجب هارولد جونز: "يجب أن تجيئى لإنقاذى، أخشى أن يكون راغباً فى قىعتى".

عندما نظرت داخل الخيمة رأيت شخصاً مشعراً، يرتدى عباءة من الصوف، عارى الرأس، يتحسس بإصبعه لبَّاد قبعة زميلي.

حثنى هارولد جونز "هى قبعنى الوحيدة، ولن يتركها أو يتركنى، وعليه، أنا لا أفهم كلمة واحدة مما يقوله".

رددت عليه "أحضر حاسن للتعامل معه، ومن أجل إنقاذك من ضربات الشمس، أنا لا يمكن أن أوافقه على ما يريد".

بفضل محاولتى التى قمت فيها يربط كل حبال الخيمة، وإطفاء المصباح، ثم قولى فى حزم "أنا نائمة" كلما كانت تجئ من الخارج همهمة "هو يقول: افعلى فيه معروفاً، وهو يريد" استطعت إحباط إلحاح الشحاذين، ومحاولات الأشغال وما إلى ذلك؛ وتمكنا من الرحيل فى الصباح ومعنا كل ممتلكاتنا بلا مساس.

بينما كانت القافلة تمضى قدماً، قصدنا القصر لتحية الراس جوكسا، الذى كان مكتئباً لأن إقامتنا لم تطل فى دبرا تابور.

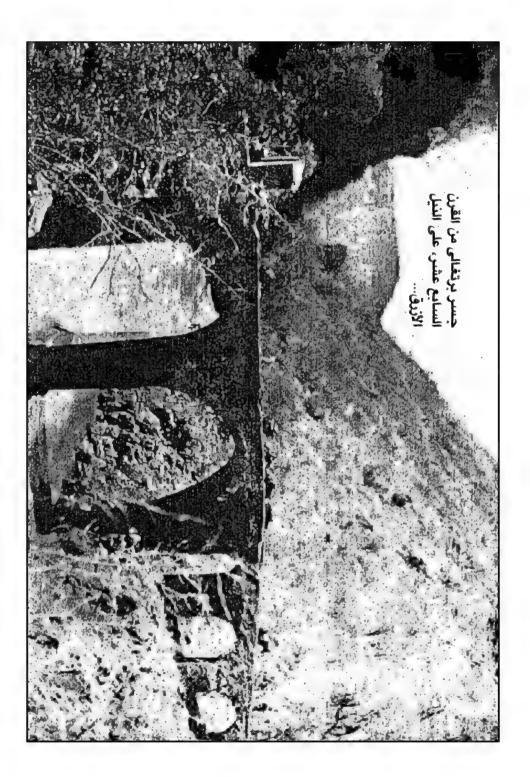
قال الراس جوكسا "يوم واحد ليست له قيمة أو أهمية".

طرقع بأصابعه ليبرز عدم أهمية الوقت، لكنا اعتدنا التعامل مع مثل هذا الأمر، لأننا كنا نسمع هذا التعبير كل ساعة من كل عضو من أعضاء القافلة.

نحن نقول في إنجلترا: "الوقت أهم من النقود".

قال الراس بصوت أصابه الفرع "كيف ذلك؟ الوقت لا جدوى منه ، أما النقود فلها استعمالات كبيرة".

استدارت عيناه مثل وجهه، الذي بدا شعره مرسوماً حتى الذقن المنكوش، جلسنا في جرن كبير، له سور من الطين، مفروش بالحشائش، كان سقف ذلك



الجرن من عيدان القصب المدهونة بلون بهيج؛ إلى الخلف من المسئولين البيض والسود الجالسين على سجادة واضعين أرجلهم الواحدة فوق الأخرى، كان هناك ديوان من الدواوين (ألم) الكبيرة المعتادة شديدة الطراوة، ومغطى بمفرش سرير أزرق اللون ومحاط بالستائر من ثلاثة أجناب، لم أر أحداً يجلس على مثل هذه الأريكة سوى الإمبراطورة، وعليه قد يكون ذلك مجرد تمثيل للعرش.

واصل الراس كلامه "لماذا تسافرون بمثل هذه السرعة؟ ليس لديكم متسع من الوقت للطعام أو الشراب".

رددت "بفضل كرمكم، أكل رجالى طول الليل، وأصبحوا متخمين على نحو يصعب معه أن يتحركوا أو يمشوا".

ابتسم راس جوكسا، "من الواضح أنك لم تحذين حذوهم"!

بعد أن كسب نقطة أردف قائلاً: "المشى فى الحبشة ليس طيباً، وقد بلغنى أن حصانك أعرج، وعليه سأعطيك حصاناً كبيراً جداً وسمينا ليحملك إلى أسمرة بالسرعة التى تريدينها".

وعلى الرغم من الاحتجاجات، وبعد أن وصلنا الحوش المسور ببنادق الحرس، وجدت حصانين محليين يحلان محل حصان السبق الذي كنت أركبه، كان أحدهما فرساً كميتياً راح يتعامل مع شكيمة لجامي وكأنها قطعة من ورق، إلى حد أننا كنا نتعامل مع الأشياء بطريقة ارتدادية، أما الحصان الثاني فكان قوياً وأبيض اللون، ومن النوع الاستعراضي، قفز الحصان إلى الأعلى وعنقه على شكل قوس وكان على استعداد للدخول في الحال في سباق للعدو أو الوقوف على رجليه الخلفيتين.

قال جونز "اشكرى الله، أن لهما عُرفين".

وافقت على ما قاله جونز، وأمسكت بالحصان الذى له عُرف كثيف؛ وتمكنت من التغلب على السَّرج الحبشى حتى لا يتحول إلى طوق لصدر الحصان، وركبنا دوابنا وخرجنا من دبرا تابور وسط جمع من الكلاب والماعز، والأطفال، والجنود، والشحاذين، والياوران، وعجل كان على وشك الاصطدام بفردة من ركاب سرج حصان جونز.

[🖈] بيوان: مجلس سلطاني. (المترجم)

كان ذلك اليوم مصادفاً لليوم السابع عشر من مغادرتنا أديس أبابا، ومنذ أن غادرنا أرض الصومال Somaliland كنا قد قطعنا مسافة ٦٢٨ ميلاً، كانت هناك تسعون ميلاً أخرى تفصلنا عن لالبيلا Lalibela، وقيل إن هناك "طريقاً مضطرباً جداً". في طريق ذهابنا إلى هدفنا، وعليه، كنا في الأماكن التي كان السير فيها هيناً، والغبار الناعم الأحمر في الفجوات التي بين التلال، نُسرِّع خطونا خلف القافلة، وندركها في غضون ساعتين، ونبدأ في السير على خطو البغال طوال الجزء المتبقى من اليوم، وبذلك لم تتح لصاحبي البغال فرصة لاستعمال كلمة "اجلس" Igliss، تلك الكلمة الميتة التي تعني كل ما هو سلبي، وتعنى الوقوف، وإنزال الأحمال، والجلوس أرضاً، كما تعني أيضاً الحديث حول النار، لابد أن هذه الكلمة مكتوبة في قلب كل حبشي! خيمنا فوق واد ضيق عميق وجرى إيقاظنا بعد منتصف الليل على صوت ضوضاء مرعبة في القرية التي تبعد عنا بضع مئات من الباردات، كانت الطلقات كثيرة لكن الأصوات كانت طاغية عليها، خرج زبانيتنا من خيامهم ولباسهم غير مكتمل، وعاقدين العزم على المشاركة في الهياج العام، أمسكت بأقربهم إلىّ وهو يجرى وشرحت له أن مهمتهم تتمثل في الدفاع عن المخيم، وليس المشاركة في أي نزاع محلى.

قال أحدهم "واحسرتاه لضياع هذه البنادق"؛ وسمعنا بعد ذلك صرخة من أصغر الزبانية جسماً وأكثرهم اسوداداً، والذي كان يعمل إسكافياً، ولكنه لم يتمكن من صيد غزالة كانت واقفة على بعد ثلاثين قدماً منه:

"عجباً إليس معى طلقات، لقد دفعت آخر طلقاتى اليوم ثمناً لشئ من شراب التلاً".

تلى ذلك صمت غير مريح ولم يقدم له أحد أى شيء من الذخيرة.

غمغم أحدهم "لقد استبدلت السيدة ملحها كله بطلقات فى دبرا تابور، آه، يا سيدتى، اصنعى في معروفاً، أنا معى قوالب الملح التى أعطينتى إياها عندما أصلحت لك حذاءك، خذى قالباً وأعطنى طلقة، أرجوك".

رددت عليه "أنت في مأمن أكثر في ظل عدم وجود الطلقة".

سخر جونز "ربما، لكن هذه الطلقة لن تحدث شيئاً في عَدُوِّه".

تضاءلت الفوغاء القادمة من فوقنا، وعرفنا، أنه على الرغم من معرفتنا أن اثنين أو ثلاثة من القروبين قد عانوا من ضربات جيرانهم سيئة التسديد، فإن اللصوص الذين دخلوا فناء رئيس القرية قد هربوا، كنت سعيدة لأنى تمكنت من المحافظة على عملتى الجديدة، نظراً لأن قوالب الملح التى لها قيمة في جوجام Gojam عديمة القيمة في جُندار أو لاستا، حيث تحل طلقات الخرطوش محل النقود، بواقع ست طلقات خرطوش نظير الدولار الواحد.

تقدر المسافة من دبرا تابور إلى لالبيلا بمسير أربعة أيام، لكن بعد ساعة تقريباً من نصب خيامنا عند معبر نهر يكالو Yikalo، سرنا في الطريق الخطأ، في هذا الجزء من الحبشة، يصبح الطريق مجرد إحساس بالاتجاه، وهنا قام مرشدنا، ذلك الرجل المسن الذي له وجه شبيه بحية اللوز التي لها حواف شبيهة بفرو الخروف الفارسي، بالتوجه نحو الجنوب بصورة قاطعة، كنت مندهشة، لأنه على الرغم من أن الخريطة لا تبين طريقاً بين المكانين، فإنها أوضحت أن محطة وصولنا، وإن شئت فقل هدفنا، يقع إلى الشرق من عاصمة الراس جوكسا، لم يتضح خطأ الاتجاه الذي سرنا فيه، إلا بعد مضي ساعتين، عندما أثبتت البوصلة والخارطة صدق هذا الكلام، وعندها طلبت من المرشد تفسيراً لما يدور بعد عشر دفائق تكلم خلالها كل أفراد القافلة دفعة واحدة، لكنهم لم يستطيعوا إعضاء مرشدنا أتو ميكيائيل Atto Miquael من الخطأ الذي وقع فيه، اكتشفت أن جابرا جورجس كانت لديه آمال في الحصول على شيء من النقود، سواء أكانت على شكل منحة، قرض أو مبلغ مستحق له عند رجل كان يعيش على ذلك الطريق الجنوبي، هذا يعنى أن جابرا جورجس رشا أتو ميكيائيل بهدية هي عبارة عن بقرتي التي قال إنها هربت أثناء الليل، لولا تعب وإرهاق البغال إلى أبعد حد ممكن لتحول الغضب الذي اجتاح القافلة كلها إلى مهزلة بعد انكشاف أمر هذه المؤامرة.

صاح أتو بلاشو Belacho إذا ما واصلنا سيرنا بهذه الطريقة فذلك يعنى أننا سنعود ثانية إلى أديس أبابا"، لكن عندما اقترحت العودة إلى يكالو كنت مدفوعة إلى ذلك بأن شيئاً حظيظاً ومحتملاً سوف يحدث. أقسم ذلك المرشد أن طريقه سوف يتحول بعد فترة قصيرة جداً إلى اتجاه الشمال، وراح

يقسم على ذلك مع كل ميل كنا نقطعه فى اتجاه الجنوب، أخيراً، وبعد توقف الطباخ عن تأكيده لى بأن الطريقين يلتقيان بعد التل القادم أو عند المنعطف التالى، أمسكت بيدى على الأمر كله، وحولت اتجاه البغال إلى زاوية قائمة عبر الأرض المحروثة والعشب، ومن خلال الصخور والأشجار القصيرة الكثيفة، وحافظت على استقامة ذلك الطريق بواسطة البوصلة، كان صاحبا البغال يبحثان عند الأفق عن علامة من العلامات الأرضية المميزة، فى حين كان المرشد الحزين، يأسف لانكشاف عمله الوضيع، لأنه يبدو أنه كان مصمماً على تركنا عندما يصل إلى منزل مدين أو مُحسن جابرا جورجس، ثم يعود إلى دبرا تابور متحججاً بأنه لا يعرف الطريق اعتباراً من هذه المنطقة، وعندما لاحظ أتو بلاشو أن البغل الخامس أصيب بالعرج دخل هو الآخر فى النقاش، فى حين قام أتو ميكيائيل بإدارة ظهره لنا.

قال: "لن أواصل السير إلى أبعد من هذا المكان، هذه حماقة لقد ضللنا طريقنا". ثم ابتعد عنا، لكنى أرسلت فى إثره اثنين من الزبانية أخبراه أنه سيوضع فى السجن إلى أن يصل بنا إلى قرية على الطريق الصحيح، يزاد على ذلك أن وجود بندقية على كل جانب من جانبيه كان له تأثير كبير على تصرفاته، ولكن من باب التأكد من انصياعه لنا أخذنا منه بغله، وعبده وبندقيته، وأركبناه على واحد من دوابنا، ومع دخول فترة العصر خاب أمل أفراد القافلة كلهم فى بوصلتى.

قال دايويتو Daiwitu، المالك الثانى للبغال "البوصلة لا تستطيع أن ترى إلى أين نحن ذاهبون، لأنها ليست حية، كيف يمكن لها أن تساعدنا؟" ويعد ذلك بدقائق معدودات "بحق يسوع.. إنها مسحورة، هذه هي قرية ماش الأميا Mashallamia

نظرت إلى القريتين التوأم على تل موجود أمامنا مباشرة، "هل هما على الطريق إلى لالبيلا؟" انعقد بعد ذلك مؤتمر كئيب، قال أتو بلاشو مؤكداً "على أية حال هما ليستا على الطريق المؤدى إلى أديس أبابا".

علمنا بعد إلحاح كبير أننا كنا فى ذلك الوقت فى طريق يمكن أن يصل بنا إلى مقصدنا في نهاية المطاف، لكن يتحتم علينا المرور من خلال شوشا التى هى فى طريقنا أيضا، أما ما هى شوشا تلك فى حقيقة الأمر، فهذا هو ما لم نكتشفه.

قال واحد من البغّالة "شوشا هذه مكان شرير"، "هيا بنا، نُسرِّع مسيرنا لنجتازها قبل دخول الليل"، غمغم جابرا جورجس مكتئباً لكنه لم يكن مكسوفاً أو خجلاً بأى حال من الأحوال "لا،لا، يجب أن نبقى هنا إلى ساعة مبكرة من صباح الغد". كان الجميع غاضبين من المُشَرَّد إلى حد أنهم لم يسمعوا ما قال، وشرعنا في سيرنا تحت سماء عامرة بالسحب أملاً في الوصول إلى شوشا ذلك المكان العجيب، عند الساعة الثالثة كانت المراعى قد انقسمت إلى مضايق ووديان عميقة، لها أطراف مدببة ومن فوقها قمم صخرية مسطحة. بعد ذلك بساعة نزلنا إلى أكثر هذه الوديان عتمة وإظلاماً.

قال أتو بلاشو: "نحن أمام البواية"، ومن باب إثبات ذلك، طلع علينا من بين الصخور شكل أبيض وطلب الاطلاع على تصريح الجمارك الذى نحمله معنا، كان هو الآخر، مثل بقية زملائه لا يعرف القراءة، لكن الختم الذى كان على التصريح أثر فيه وأشار إلينا بمواصلة المسير.

أبدى ذلك الشكل ملاحظة "لن تعبرو شاشا قبل دخول الليل، كما أنه ليس هناك ماء".

شوشا عبارة عن شبه جزيرة من الصخور، شكلها شبيه بشكل الأخطبوط، وهى تتصل عن طريق ذراع بالأرض المنبسطة الموجودة بعدها، فى حين تمتد سائر الأذرع الأخرى إلى الأخدود الذى يحيط بشوشا، لكنى لا أعرف السبب الذى يحتم اجتياز هذه العقبة، لكن عن طريق المثابرة المؤلمة، كان المسار الذى سلكناه يتلوى طالعاً نازلاً ودائراً حول كل تل من هذه التلال التى تتشر فيها الصخور المسننة، دخل علينا غروب الشمس ونحن فى حيرة ومرتبكين بفعل تلك المنعطفات الكثيرة، ومفزوعين من احتمال عدم وجود الماء لسقيا الخيول بعد مسير دام عشر ساعات، كانت الأرض مخيفة، نظراً لوجود أعداد قليلة جداً من الماعز أو الماشية ترعى فوق كل بروز من تلك البروزات الجبلية، في حين كان هناك رف صخرى يعانى من الجفاف. كان العشب محشوشاً وعيدان الذرة مخزنة بطريقة أنيقة فوق كل سلسلة من تلك السلاسل الجبلية التى اكتسحتها الريح، ومع ذلك لم تكن هناك أية دلائل أو إشارات على وجود أكواخ أو أى أثر لحياة البشر. وشاهدنا قافلة تضم نحو مائة قرد كانت تتجول خلال ذلك القش، وراحت تتبع ونحن نمر عليها.

قال بَغَّال خائف: "ربما كانت هذه القردة هي التي تفلح الأرض".

رد عليه أتو بلاشو، مالك البغال: "واقع الأمر، أن هذا بلد عجيب، مزارع على كل الجوانب، لكن المنازل لا وجود لها! الناس لابد أن يكونوا هنا مثل الحيوانات ويعيشون في جحور تحت الأرض".

عندما دخل علينا الظلام كنا قد قطعنا بضع ياردات من الأرض المستوية، الموجودة تحت واحدة من تلك الكنائس المعزولة المحاطة بالأشجار التى تتوج كل ربوة من روابى هذه الأرض التى يحكمها أحد القساوسة، كانت تلك الأرض مهجورة، وكانت الريح تعوى من خلال التلاعب بالقش ومرجحة الصليب إلى الأمام وإلى الخلف من فوق ذلك السطح المصنوع من القش.

خيمنا ونحن مكتئبون، وتحتم علينا إعطاء الماء القليل المتبقى معنا إلى المرافق الذى تصرف بلا تبصر مثل بنى إسرائيل، الذين شريوا كل ما معهم من ماء قبل دخول وقت الظهيرة، كان لدى أنا وجونز نحو ربع كوب من الحليب لكل منا نحن الاثنين، قسنا هذه الكمية بدقة وكنا حريصين عليها تماماً، واحتفظنا ببضع ملاعق منها للصباح، وبينما كنا ندخن ونحاول التظاهر بأننا لم نكن عطشانين، ظهر على المنحدر المقابل لنا شخص غريب يلبس عمامة بيضاء مرتفعة وغطاء رأس مصنوعاً من الجلد، من خلال ضوء بلبس عمامة بيضاء الطويلة، بدا لنا هذا الشكل غير حقيقى، ولم أكن القمر ومن خلال الأعشاب الطويلة، بدا لنا هذا الشكل غير حقيقى، ولم أكن متأكدة أنى لم أتخيله إلا بعد أن رأيت تذبذب الضوء ورأيت شكلاً عجيباً يقترب منه، لم يَرُدُ ذلك الشكل على التحية التى ألقيناها عليه، وقبل أن يتمكن من الوصول إليه أطفئت النار واختفى ذلك الشكل.

جاءت أمتع لحظات المساء، عندما عاد حاسن، الذي كان قد ذهب لإحضار علف للدواب، مسروراً وهو يحمل معه جوالاً من عشب الشمبورا Shimbura للبغال.

سألته "هل سرقت هذا العلف؟ أم أنك عثرت على منزل من المنازل؟"

أجابنى "لا توجد منازل هنا، وهذا أمر غريب جداً، لقد رأيت رجلاً جالساً بجوار نار فى العراء يحرس حبوبه، سألته: أين كوخك؟" ولم يجبنى، لكنى عندما أعدت عليه السؤال مرات عدة قال: منزلى بعيد، ولم يتكلم بعد ذلك مطلقاً، وعليه أعطيته قبضة من الطلقات، ولذلك سمح لى بأخذ عشب الشمبورا، لكنه لم ينظر إلى مطلقاً.

قلت لحاسن "سأعطيك أى شىء تريده إذا ما ذهبت إليه ثانية وسألته عن مكان وجود الماء".

ارتعدت فرائص حاسن.

ردَّ عليَّ: "أنا لا أجرؤ على فعل ذلك".

راح الزبانية يفتشون عن الماء في أقرب المنخفضات إلينا، وفجأة سمعنا صيحة انتصار، "ماء" لكن كانت هناك بضع بوصات على شكل نز خلال الطين، كان السائل بلون البن ولم يكف لملء زجاجة واحدة.

♦ الفصل الخامس عشر

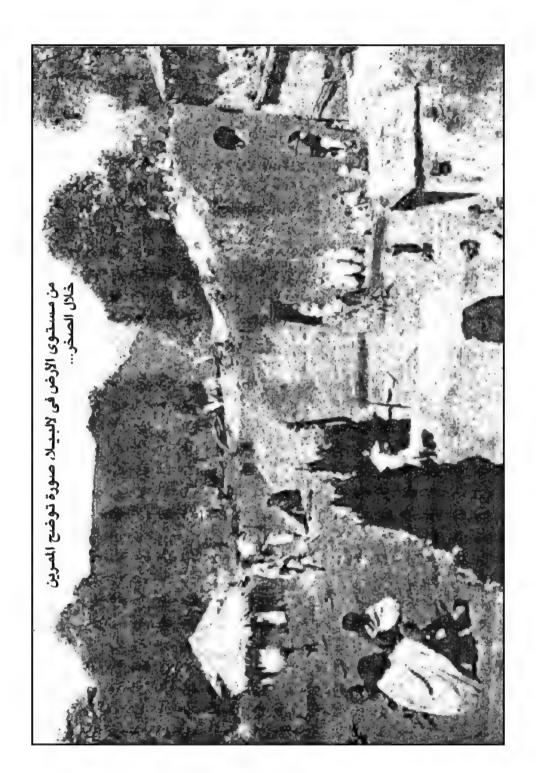
لالبيلا (لحمراء

صحونا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ودرنا حول أذرع جبال شوشا قبل أن تتصر الشمس فى معركتها اليومية ضد الضباب، لكن سرعان ما عرفنا أن الجو سيكون حاراً فى ذلك اليوم، ولم تظهر لنا بعد أية دلائل أو إشارات على وجود الماء، كانت هناك كنيسة أخرى تطيل النظر إلينا من عل من فوق شكل مخروطى، لكن تلك الكنيسة كانت خالية؛ لكن على الرغم من أن القمح والماشية كانا يشكلان مشكلة محيرة، لم نر منزلاً أو أحداً من البشر باستثناء قرد من قردة البابون، إلى أن وصلنا "البوابة" البعيدة لذلك الجبل الغريب، وهنا بدا لنا شخص من بين الصخور والتراب وألقى نظرة على التصريح الذى نحمله وقال بلا مبالاة: "الماء على بعد مسير ساعة من هنا"، مختفى ذلك الشكل بعد ذلك داخل آخر رقعة من رقع الضباب.

كانت الأرض المستوية عبارة عن حشائش ناعمة، وفي بداية الأمر كانت كل مجموعة من الأجمات توحى لنا بأمل العثور على ثقب من ثقوب الماء، التقينا كثيراً من المسافرين سيراً على الأقدام أو راكبين البغال، وكانوا جميعا يطيلون النظر إلينا ويقولون بطريقة غامضة: "هناك نهر في الأمام، ليس ببعيد"، أو "ستعثرون على الماء في غضون ساعة على أكثر تقدير،" كان قد مضى أكثر من أربع وعشرين ساعة على آخر مرة سقينا فيها الدواب، وفي حرارة الشمس الحارقة راحت الخيول والبغال تتباطأ في الخلف، خافضة رءوسها، ومتأرجحة أرجلها، وضعفت همة البغال؛ الأمر الذي حتم علينا تغيير الأحمال مرات عدة، في حين استبد العطش بالرجال حتى أن أحداً منهم لم يتكلم طوال ثلاث ساعات.

لم نعثر مطلقاً على النهر طوال ذلك اليوم، لكننا وصلنا بعد مسير ست ساعات، إلى ثقب من ثقوب المياه تحت رف من الرفوف الصخرية، ألقت البغال بنفسها في ذلك الثقب، مستخدمة أحمالها كروافع في بداية الأمر، ثم استخدمتها بعد ذلك كحاجز صلب، كانت الخيول ستشق لنفسها عنوة طريقاً خلاله مستخدمة في ذلك أسنانها وحوافرها لولا تدخلنا لمنع حدوث ذلك، واصلنا طوال الفترة المتبقية من فترة العصر، مسيرنا في أرض منبسطة، وبفضل استعمالنا للبوصلة من ناحية وسيرنا في المسار الذي حذرنا أتّو ميكيائيل العجوز، من أنه ليس هو المسار الصحيح، استطعنا الوصول إلى حافة الصخرة الكبيرة الموجودة أعلى وادى جرًّا جرًّا Garra Garra . نزلنا إلى ذلك الوادي عن طريق حلزون حجري، وبحلول الساعة الرابعة، كنا قد اجتزنا آخر رف من الرفوف الصخرية المدهشة، الذي جعلنا ننحدر انحداراً مباشراً استمر مئات الأقدام إلى أن وصلنا إلى أرض فيها قرى صغيرة والحقول الصغيرة تنتشر فيها الصخور والماعز انتشاراً كثيفاً، أمضينا في تالجا Talga ليلة بائسة بفعل ملاحظات السكان الودودين الذين قالوا لنا: "إننا شاهدنا جزءاً كبيراً من هذا البلد" أو "أننا قمنا بمسيرة عجيبة"، ومن باب مواساتنا والتعاطِف معنا قدموا لنا الدجاج وبيضا غير طازج، كان صيام الأيام الأربعين مسئولاً عن إصابة هؤلاء البشر بالامتلاء الدموي ١.

غادرنا تالجا، العامرة بالشحاذين، والجراد والطيور الصغيرة صغر الفراشات ذوات اللون الأزرق المعدنى البراق، وكنا عاقدين العزم على الوصول إلى لالبيلا عند غروب الشمس، كانت البغال تقتات طول الليل على عشب الشمبورا والشعير، ومن هنا راح صاحبا البغال يستحثانها على المضى قدماً عبر أرض جبلية وعرة، كان نصف مجاريها المائية جافة، وكان العشب المحروق أبيض اللون، وكان فحيح الأفاعي يصدر من الشقوق في الأرض الجافة التي يصل اتساع الشق فيها إلى بوصات عدة، كان السواد الأعظم من الأشواك ذات لحاء قرمزى اللون، وكانت الأشواك الوخاذة تبدو فوق هذا اللون الأحمر العجيب كما لو كانت مسحوقاً من الفضة، شاهدنا طيوراً ضخمة سوداء اللون شبيهة بالديوك الرومية إلى حد ما، كما شاهدنا أيضاً العديد من حيوانات ابن آوى، وعدداً لا يحصى من فئران



الحقول، التى كان لها جحور متعددة مما جعل الأرض فى بعض الأماكن شبيهة بقطعة الإسفنج.

كان اليوم مصادفاً ليوم السبت، وعليه كان يجرى نقل الملح والخرطوش والجلود على الطريق، لحق بنا رجل كان يرتدى جلد فهد، والرأس يتدلى من كتفه، وكانت جدائل شعره مدهونة بالزيد وضح أتو بلاشو ذلك بقوله: "هذه إشارة إلى أن هذا الرجل قتل هذا الوحش باستعمال الرمح. في زمن والدى كان الرجل لا يمسح نفسه إلا إذا قتل أسداً بحربته، لكن هؤلاء الناس يتباهون بأشياء صغيرة!"

ظللنا طول اليوم نسأل كل من نلقاه "هل يمكننا الوصول إلى لالبيلا هذه الليلة؟" وإذا ما كانوا سعداء كانوا يردون علينا، "طبعاً، إنها قريبة". أما إذا كانت أقدامهم متورمة أو كانوا مُتُعبين فقد كانوا يقولون لنا "إنها تبعد عن هنا مسير يومين". ظلت سلسلة من الصخور المستوية السطح طولها نحو ١١٠٠٠ قدم تسد الأفق أمامنا، حاولنا الاقتراب من هذه السلسلة عن طريق عبور منطقة بعد أخرى، كانت تعد أقزاماً قياساً على تلك السلسلة؛ وكنا نتطلع دوماً إلى أن يكون هدفنا واقعاً على بروز واضح من بروزات هذه السلسلة المستوية من الصخور، عندما بدأ اللون يتحول إلى لون نحاسي مؤذناً بدخول المساء درنا حول جانب جبل بيفو، وبعد حصيلة من الوعود الكاذبة: "النهر قريب، أمامكم"، وصلنا إلى نهر التكازي Takkazye العظيم، كان مجرى ذلك النهر عبارة عن ملاءة من الأحجار، وفيه نهيرات عدة تتساب خلال أعمق القنوات، كانت هناك خلف ذلك النهر أرض من التلال الحمراء والأشجار الحمراء، وكان هناك على مبعدة منا، جبل على شكل قلعة بدأ الظلام يخيم عليه بالفعل، خرجنا من ذلك الذي يعد في موسم الأمطار سيلاً جارفاً عرضه حوالي ٢٠٠ ياردة؛ وفي بطء شديد صعدنا متجهين صوب القمة الصخرية لازوردية اللون، أسفل السيل، كانت هناك بعض الروابي، أو ربما الأشجار؛ قال رجالنا: "لالبيلا موجودة خلف هذه الروابي أو الأشجار".

ظهر لنا ثلاث قرى على تلال صغيرة اكتست ملاءة من الورد الجبلى الشوكى؛ وبدون موافقة كلامية تحولنا إلى شريط من الأرض المحروثة أسفل هذه القرى، هنا، وفي هذه المنطقة التي خلت الأرض فيها من خناجرها

نصبنا خيامنا قبل أن تهب علينا واحدة من العواصف الهوجاء، تبلغ قوة الماء في هذه المناسبات حداً تستطيع معه تسوية كل شيء بالأرض اللهم إلا إذا كانت تلك الأشياء مدعمة بحبال مزدوجة وأوتاد مزدوجة أيضاً.

بدأنا تحركنا فى صباح اليوم الخامس من مغادرتنا دبرا تابور، عند الساعة الخامسة والنصف، ونحن عاقدون العزم على مشاهدة لالبيلا أو الوفاة؛ ركبنا دوابنا، متناسين المسارات التى كانت تستهزئ بنا بفعل تعرجاتها اللولبية، وتركنا القافلة وراءنا، وتسلقنا آخر سلسلة من السلاسل الجبلية، سيراً على الأقدام، وعندما نظرنا إلى الأسفل من الجانب البعيد، رأينا عبر الوادى الأكواخ التى جعلناها هدفاً لنا منذ البداية، كانت تلك الأكواخ مجمعة على رقعة من الحجر الرملى أحمر اللون فيها مجموعة من الأشجار مما يؤكد القحولة الشديدة للأرض المحيطة بتلك الأكواخ.

تأوه حاسن "لا تزال تبعد عنا مسير ساعات" لكننا عثرنا على مسار كان يتلوى فوق منحدر وعر مثل سحلية من السحالى، مندفعاً نحو الأغوار، وصاعداً فوق الصخور، إلى أن وصلنا إلى آخر مطلع من المطالع الحمراء، في المناطق المتجاورة كانت القرى منتشرة على رواب عدة وقد وصل عددها إلى ما يقرب من ٥٠٠ قرية، لكن الكنائس الشهيرة الشبيهة بالكهوف تبدو وكأنها منحوتة من التلة المركزية نفسها.

تجاوزنا هذه الكهوف، وألقينا نظرة خاطفة على السقف المنحوت مستوياً مع سطح الأرض والمحاط بفناء محفور في الأرض كما لو كان خندقاً.

قلت: "ليس في هذا المكان أي شيء من النباتات، وإذا أردنا لمالكي البغال ألاً بقتلونا فما علينا إلا أن نبحث عن الشعير".

تجولنا بين مجموعات الأكواخ بحثاً عن الشعير، ولكن كالعادة، كان رئيس القرية غير موجود، ولم يرغب أى أحد من السكان في بيع أى شيء لنا سوى قليل من البيض ودجاجة واحدة، أخيراً، عثرنا على شخص، تأثر بلون المظروف الأزرق الفاتح الذي وصلنا في إتشيجو Itchegue لم يتمكن من قراءة العنوان المكتوب على المظروف، وأخذنا إلى كوخ مكون من طابقين كان الأطفال، والنساء والماعز تطل علينا من طابقه العلوي وهي تتحرك بخفة ومهارة مثل السناجيب، ومن بين جمع من النظارة الحرانين والمدهونين بالدهون، تقدم رجل شديد السواد وراح يدرس خطاباتنا من كل الزوايا

المكنة، وكان الوضع المفضل عنده هو وضع الرسالة وهى مقلوبة رأساً على عقب، وأكد لنا أنه عندما يتيسر أحد يقرأ هذه الرسائل، فسينتج عن ذلك تقديم الشعير على الفور، تسلقنا في شيء من الشك والتردد، تلا قاحلاً على نحو بدا معه وكأنه حليق، وجلسنا على قمة هذا التل انتظاراً لوصول القافلة.

بدأنا نحس بالقلق بعد مرور ساعة من الزمن، وبعد ساعتين جاءنا زبانى برتدى ثياباً مهلهلة وبلا مظلة (شملة) أو بندقية.

ترجم حاسن ما قاله الزبانى ترجمة غير أمينة "هناك معركة، لقد ضاعت ملابسهم، هناك رجلان مخموران، وسكر أربعة آخرون أيضاً". ودخل حاسن بعد ذلك فى جدال عنيف مع ما بعد آخر تذكار لجيشنا، خطر ببالى أن مررت على خيالين كانا مخمورين إلى حد أنى حسبت أنهما سيسقطان من فوق سرجيهما فى أى لحظة، وكان هناك اثنان مسلحان من حثالة القوم يجريان خلفهما.

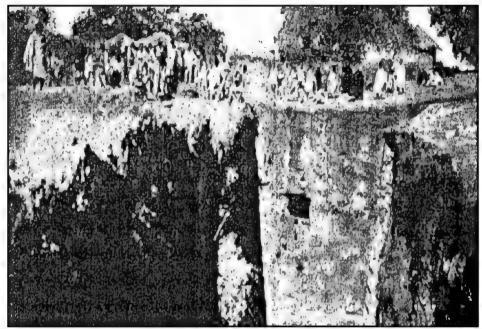
عند هذا الحد كان حاسن هو والزبانى قد بلغا من الانفعال حداً قد يجعلهما يمسكان بخناق بعضهما فى أية لحظة، وهنا تحتم على أنا وهارولد جونز أن يمسك كل منا بواحد منهما ويرجه رجاً عنيفاً قبل أن نحصل على تفسير لما جرى، استطعنا أخيراً، وبفضل تكرار الأسئلة، التى كانت تتخللها هزات عنيفة، اكتشاف أن الزبانية سخروا من السكيرين، الذين قامت حاشيتهم على الفور بالهجوم على المستهزئين، اختلط الحابل بالنابل فى العراك، الذى جرى فيه استخدام البنادق واستخدام الهراوات، اشترك الغرباء العابرون فى العراك دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عن سببه، كان رجالنا، بحكم أنهم كانوا الأقل عدداً، على وشك أن يفقدوا بنادقهم التى اعتبرها الطرف الآخر غنيمة مبررة، لولا وصول مالكى البغال اللذين كانا مسلحين بركائز الخيام، فى اللحظة المناسبة ومشاركتهما فى العراك.

سألت حاسن وأنا أمسك به كما لو كان لعبة من الألعاب النارية على وشك الانفلات في أية لحظة "حسن، قل لي ماذا حدث في النهاية؟"

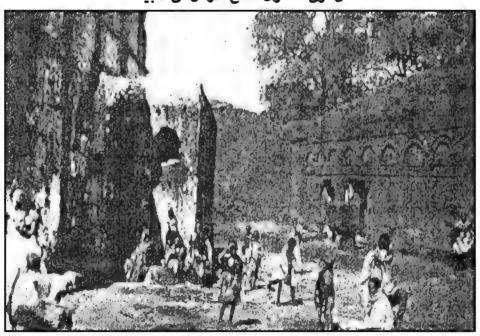
صاح الاثنان "لا يزال العراك مستمراً، هم على بعد مسافة كبيرة! والأحباش كلهم يجرون إلى مكان الحادث!"

لم يكن هناك مبرر للكلام بعد ذلك.

"هيا يا هارولد جونز، سننزل هذا الرجل عند منزل شوم Chum كيما نحصل على شيء من المساعدة ونحن ذاهبون إلى مكان الحادث".



من فوق مستوى سطح الأرض في لالبيلاً.



النظر إلى غدير حول المساكن الصخرية

"كان وُلدو سيلسى قد أحضر حصانين بالفعل، كان الحصانان لامعين، ومعهما مسدسات إضافية، أعطينا واحداً منها لسائسنا، وكنا مستعدين للقيام بحملة إنقاذ، كانت حملقة خمسين طفلا من الأطفال الصغار تلاحقنا إلى قمة الصخرة، التى التقى عندها أول بغال القافلة الصاعدة هارولد جونز، بشكل مفاجئ وغير متوقع إلى حد أنه كاد يسقط من فوق سرج الحصان!"

كان الرجال منتصرين على الرغم من تلوثهم بالطين، لأنهم تمكنوا من دحر بعض الأعداء الذين تزايد عددهم، وكانت الخسائر عبارة عن ثلاث مظلات جرى تمزيقها أثناء العراك، بعد ذلك، وعندما بدأ يهطل مطر فترة العصر المعتاد وبعد أن تحول ذلك المطر إلى عاصفة هوجاء، تعذر معها على الحبال والقماش تحمل ذلك الشد والتوتر الناجم عن العاصفة، وبعد أن تحتم علينا الرقود أرضاً في أكياس البراغيث أسفل خيام منهارة بسبب العاصفة، كان الأفراد الذين لا ملابس لهم يتعجبون ما إذا كان النصر الذي حققوم مساوياً لهذا البرد القارس.

كانت تلك أقسى الليالى التى مرت بنا، لأنى لم أحس مطلقاً حتى فى المناطق الاستوائية بقسوة الماء على هذا النحو، كان الماء من حولنا شبيهاً بجدار صلب، ولم يقو أى أحد منا على اعتراضه أو تحمله، سرعان ما ابتلت أكياس البراغيث هى وقماش الخيام ابتلالاً تاماً، وبعد ما يشبه فترة لا تذكر من الزحف فى الظلمة الرطبة، هبت العاصفة، وغرق كل ما كان تحت ركائز الخيام الساقطة، فى الماء، بل إننا نضحنا ماءً ارتفاعه نحو بوصتين من تحت الفرش الموضوع على الأرض، هذه الريح التى جاءت لإنقاذنا كانت سبباً فى خسائر أكثر من تلك التى أصابتنا بسبب المطر، لأنه على الرغم من فلاحنا فى نصب الخيام أثناء هبوب هذه الريح، فإن خيمتين أو ثلاثاً تمزقت خلال الساعة الأولى وأمضى جونز القسم الأكبر من الليل فى دق الأوتاد، بعد أن قمنا بتجفيف محفتى قدر جونز القسم الأكبر من الليل فى دق الأوتاد، بعد أن قمنا بتجفيف محفتى قدر المستطاع، وبعد أن كومنا فوقها كراسات الملاحظات والخرائط، جلست فوق هذه الأشياء، وأنا أرتدى كامل ملابسى، وملفوفة بكل قطع القماش التى وصلت اليها يداى، بما فى ذلك الفوط، لكن النوم كان أمراً مستحيلاً، إلا بعد أن توقفت الريح قبل طلوع الفجر بفترة وجيزة.

طلع النهار علينا ونحن متعبون وفينا ضروب مختلفة من الإصابات والأوجاع، أرسلنا القافلة بصحبة الرجل الوحيد الذى كان مستعداً للسير فى طريق مختصر إلى جندار Gondar، ثم نزلنا إلى الأسفل إلى القرية التى تخفى أكواخها كنوزها الأرضية إخفاء تاماً، مررنا ونحن فى طريقنا إلى القرية على صبى كان يجرى ورأسه وكتفاه منحنيان إلى الأمام، ويتأرجح بطريقة عجيبة.

قلت: "انظروا، إنه أعمى!" لكن حاسن رد على "إنه مخمور" إلى أن فهم حاسن معنى الجمهور الذي كان يجرى خلف هذا الصبي.

بقوا على بعد مسافة محترمة، وكلهم فضول لمراقبة ما يجرى، لكنهم كانوا على استعداد للتفرق إذا ما اقترب الصبى منهم.

قال حاسن: "إنها لباسكيا" (本)، وراح يشرح بطريقته المشوشة المعتادة، لكنى سبق لى أن قرأت وسمعت شيئاً عن هذه الطريقة الشعبية فى إلقاء القبض على المجرمين، دون أن تتاح فرصة مشاهدة ما يجرى خلالها، الأمر الذى جعلنى أواصل سيرى ولا أنتظر لسماع أى شىء.

كان الصبى يتحرك بطريقة الضباع وكانت يده موضوعة بين كتفيه وهو متردد بجوار سور المجمع السكنى، امتدت يداه وكأنهما ستمسكان بشئ معين، ثم كتم أنفاسه على طريقة زمجرة الكلاب، واستدار وراح يجرى خلال الفتحة، مقترباً منى إلى الحد الذى تمكنت معه من رؤية شئ من الزيد حول طرفى فمه، كان مفروضاً أن أتابع ما يجرى، لكن امرأة من داخل القرية صرخت واندفع الجمع مثل الكلاب عندما تشم رائحة نتنة.

أعلن وُلدو جورجس فى شىء من الارتياح "لقد أمسكوا باللص!" يجرى قراءة الرُّقى والعزائم على مثل هذا الصبى، فى الوقت الذى يقوم فيه كل من يشهد هذا العمل بلمس تميمته بإصبعه ويروح يدعو بصوت خائف ومسموع، وهنا، وعندما يكون الصبى تحت تأثير المخدر يتخيل النحو الذى ارتكبت به الجريمة ويروح يقتفى أثر المجرم شريطة ألا يكون قد عبر الماء، لأن ذلك يفسد الرقية أو العزيمة، هذا الصبى يعرف، بطبيعة الحال، ذلك الذى ينبغى عمله قبل أن يستشق الخلطة، ويجب أن تظل معه هذه المعرفة، فى اللاشعور، فى أضعف

لباسكيا Libascia : كلمة امهرية، تعنى إلقاء القبض على المجرمين المعروفين. (المترجم)

الأحوال، ليكون مسئولاً على الأرجح، عن كثير من حالات إجهاض العدالة، ونقلاً عن الراوى المطلع الذى لقيته فى لالبيلا، فإن هذا الطقس لا يمارسه الصبى سوى مرة واحدة، وإذا ما ثبت أن الصبى موضوع جيد فى هذا الصدد، فإنه يقوم من جديد بإعادة وتكرار حركات المجرم هذه، ويسلك الطريق نفسه الذى هرب منه، إلى أن تطرد أنفاسه ويتعرق، وعندها يقوم بالإمساك بملابس المتهم، ويقوم بدفن وجهه فى هذه الملابس وهو يتأوه.

لم نتوقف لنرى نتيجة اندفاع هذا الوسيط المفاجئ خلال مجموعة الأكواخ، نظراً لأننا كنا مرتبطين بزيارة القديسين العديدين الذين تقع منازلهم أسفل سجادة الأكواخ الشبيهة بعيش الغراب.

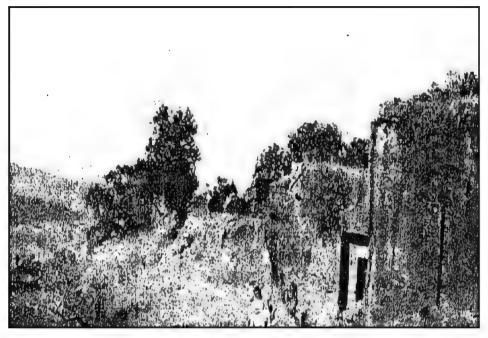
لم يزر كنائس لالبيلا الصخرية سوى نفر قليل من الرحالة الغربيين، ومع ذلك فإن هذه الكنائس تتدرج ضمن أعظم عجائب الدنيا؛ يزاد على ذلك أن أساطير الإنشاء الإعجازى لتلك الكنائس، وأن الشفاء العجيب الذى تجلبه أيضا هذه الكنائس بفضل مجرى الجوردان Jordan الصغير الذى يسقى هذه الكنائس، جعلا لهذه الكنائس على مر العصور، مكانة عند المسيحيين الأفارقة مثل مكانة مكة (المكرمة)، يعد الآب الفاريسي Alfarez، ذلك القس اليسوعى، الذى رافق الحملة البرتغالية على الحبشة في الفترة من ١٥٢٠ – ١٥٢٧، أول أوروبي يرى هذه الكنائس، وبعد أن وصف هذا الرجل تلك الكنائس وصفا وحيفاً بدأ يدرك، احتمال عدم تصديق عالم العصور الوسيطة، لذلك الوصف من ناحية والعجائب الغريبة الداخلة في روايته، مما جعله يردف قائلاً: "أنا أحس بالقلق كلما حاولت كتابة المزيد عن هذه الكنائس، نظراً لأني أحسب أن الناس لن يصدقوني إذا ما كتبت المزيد عن هذا الموضوع، ونظراً أيضاً لأنهم قد يصفون ما كتبت بأنه غير حقيقي، وعليه فأنا أقسم بالله، الذي أستمد قوتي منه، إن كل ما كتبته هو صدق، وأن هناك أيضاً ما هو أكثر مما كتبت وأني منه، إن كل ما كتبته هو صدق، وأن هناك أيضاً ما هو أكثر مما كتبت وأني منه، إن كل ما كتبته هو صدق، وأن هناك أيضاً ما هو أكثر مما كتبت وأني منه، إن كل ما كتبته هو صدق، وأن هناك أيضاً ما هو أكثر مما كتبت وأني منه، إن كل ما كتبته هو صدق، وأن هناك أيضاً ما هو أكثر مما كتبت وأني

 [★] المرجح أن توماس دى جانجت، وهو من الرهبان الفرنسسكان، زار لالبيلا فى العام ١٩٧٧ أو المرجح أن توماس دى جانجت، وهو من الرهبان الفرنسسكان، زار لالبيلا فى العام ١٩٧٧. توجد فى أوروار Ūruwar الثني عشرة كنيسة، وبعض الرهبان، كما يوجد أيضاً قبر الملك المقس لالفريكا Lalfreca، هذا مكان مهم من أماكن الحج، كستاوبوزو Castauboso، مؤرخ الحملة التى قام بها دون كريستوفيرا دا جاما الحملة التى قام بها دون كريستوفيرا دا جاما ألاجام الحمالة التى قام بها دون كريستوفيرا دا جاما Negus في Negus في العام ١٥٤١ المسلمين بعيش فيها رجال النبن عشر معبداً من معابد الرهبان أو الكنائس التى يعيش فيها رجال الدين".

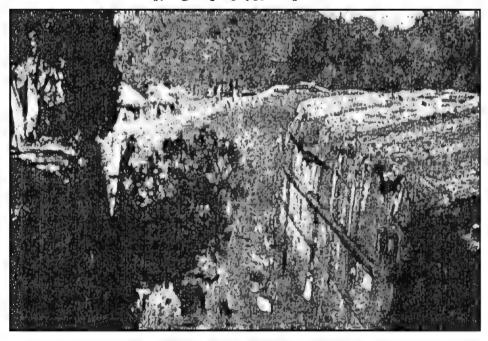
نسى الغرب لالبيلا، طوال ثلاثة قرون بعد الحملات البرتغالية، بعدها قام القنصل الفرنسى فى مسنّاوا، آكيل Achille رافراى Raffray، ومعه جبرائيل سيمون، الذى كان ضابطاً خيالاً من قبل، قاما باختراق جبال لاستا Lasta سيمون، الذى كان ضابطاً خيالاً من قبل، قاما باختراق جبال لاستا Mountains، وترك كل منهما تسجيلاً لتلك المدينة فى كتب نشرت فى العام ١٨٨٧ و ١٨٨٥، جاء بعدهما المستكشف الألمانى الشهير، لكن لم تأت أية قوافل غربية أو أمريكية، إلى أن قام الوزير الفرنسى فى أديس أبابا السيد/ دى كوبيت Coppet، هو وزوجته بالمرور خلال لالبيلا وهما فى طريقهما إلى إريتريا فى العام ١٩٢٣، ومن بعدهما جاء هارلان Harlan الأمريكى، ومن بعده هارولد جونز ثم أنا من بعده.

تُعزى بشكل عام الكنائس الصخرية فى لالبيلا إلى ملك يحمل الاسم نفسه، جاء حكمه فى أواخر القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر، لكن الأساطير ومعتقدات القساوسة والناس تعزو وجود تلك الكنائس إلى سبعمائة عام قبل ذلك التاريخ، نقلاً عن بعض المصادر فإن الملك لالبيلا كانت له زوجة عربية تزوجها عندما قام بالحج إلى مدينة القدس، جلب لالبيلا عند عودته العديد من العمال الفلسطينيين، الذين عهد إليهم ببناء هذه الكنائس الصخرية، التى رأى فى منامه مواقعها، القساوسة، لديهم على الرغم من ذلك، مخطوطات بلغة الجعز، وباللغة العربية، وباللغتين معاً، التضح أنها صحيحة، إن مبانى تروجلودايت لها تاريخ أبكر بكثير عما هو سائد فى لالبيلا حالياً.

تقول بعض الروايات إن العمال الستمائة كانوا مصريين، ولم يكونوا عرباً، لكن المصادر المحلية كلها تتفق على أعمال حفر الكتل الواحدة الكبيرة وقطعها من الأرض، ثم حفر النوافذ بعد ذلك، هى والأبواب، والعقود، وكذلك الممرات والأعمدة من الصخر الصلد، تعد كبيرة جداً على الجهد البشرى، وعليه، فإن فيلقاً من الملائكة، كانوا يأتون فى الليل أثناء نوم النحاتين والبنائين، ويروحون يستعملون عددهم ويواصلون العمل فى الظلام، وترتب على ذلك أن العمال كانوا يجدون كل صباح، عاموداً كبيراً قد أضيف إلى الواجهة، أو البدء فى عمل حوش جديد، وعليه كان ضيوف السماء، والغرباء من كل من النيل أو الأردن يعملون بالتناوب طوال سنوات، من هنا، بدأت تكتمل كنيسة بعد أخرى



مدخل كنيسة تروجلو دايت في اللبيلا



ميدان اليم، اكبر كنيسة صخرية في البيلا...

فى ضوء الشمس وفى ضوء النجوم، كتل وحيدة، كل واحدة منها منحوتة من كتلة منفردة من الصخر، ليست تحت مستوى سطح الأرض وإنما في مستواه.

كل فناء أو حوش فى تلك الكنائس عبارة عن حفرة مستطيلة الشكل عمقها نحو أربعين قدماً، وفى وسط هذا الفناء مستطيل الشكل توجد الكنيسة، التى توحى خطوطها بالهيبة التى تؤكدها البساطة الجريئة للنحت والزينات، الأرض الموجودة حول الكنائس بصورة ملاصقة، مُسوَرَّة بسياج من عيدان القصب، وتمتد أكواخ القساوسة إلى أن تصل إلى حافة الأحواش الفائرة، التى تتصل أحياناً ببعضها البعض عن طريق خنادق منخفضة لا يستطيع الإنسان السير فيها منتصب القامة، الجدران الطبيعية التى بين اثين من هذه الخنادق يصل سمكها إلى ما يتردد بين ١٥ و ٣٠ قدماً، والمرء الذي أنفق فى هذه المتاهة من هذه الكنائس، يتولد لديه انطباع عن العمل الذى أنفق فى هذه المتاهة من المرات، والأحواش، والمداخل الكنسية، وأبهاء الأعمدة المحفورة فى الصخر، كما يستطيع أيضاً مقارنة علامات الفترات المختلفة.

يعزو آكيل رفرارى الذى اطلع على التسجيلات والسجلات، والتى قام بترجمتها كلها، إنشاء كنائس لالبيلا كلها إلى القرن الخامس الميلادى.

كان الملك نجاشى لالبيلا، الملك المسيحى النجاشى الخامس، وثالث الملوك النين حكموا لالبيلا، هو الذى أمر ببناء هذه الكنائس، كان الملكان اللذان جاءا قبله قد حكما أكسيوم Axum. وكان القديس فرومنتيوس Frumentius هو الذى نصَّر الحبشة وبشر فيها بالإنجيل في مطلع القرن الرابع الميلادي، وكان لالبيلا هو النجاشي المسيحي الخامس في لالبيلا، والمرجح أن فترات الحكم كانت طويلة في تلك الحقبة؛ تقول الأساطير والمخطوطات إن مائة الحكم كانت على خمس ممالك، وبناء على ذلك يمكن القول إن إنشاء هذه الآثار كانت في بداية القرن الخامس (ألم).

يشير السيد/ آكيل رفراى أيضاً إلى أن الملك استخدم أربع مائة أو خمسمائة عامل أوروبى، وتشير مخطوطة أثيوبية قديمة إن هذا العمل أنجّز بواسطة رجال بيض، وهناك مخطوطة أثيوبية أخرى تورد الوصف التالى

^{*} هذا الكلام مترجم عن كتاب أكيل رفراى "ترحالي في الحبشة وفي بلاد الجكلا".

لعمل ذلك الملك: أمضى لالبيلا ثلاثة أيام فى وجد وسرور؛ فقد كشف له ملاك الرب أسرار السماء، قال: "بهشيئة الله، أذهب وأبنى عشر كنائس يحصل فيها الخطاءون على العفو". نهض، وحكم، وبنى كما قال له ملاك الرب. صنع من حجر واحد فى البداية منزل مريم، ثم بنى بعد ذلك دبرا سينا Sina؛ وعن يمين دبرا سينا أقام جولجوثا Golgotha، وأقام منزل مسكال (الصليب) عن يسارها، ثم أقام كنيسة ميدان آلم، ومنزل دناغل مسكال (العدراء)؛ الجدران والأعمدة كلها من الحجر، بنى الملك أيضاً منزل جبريل Gabriel ثم بنى بعد ذلك منزل ليبانوس Libanos. جدار هذه المبانى كلها واحد، وبنى أيضاً منزل ميركيورى (ألم)، ثم بنى بعد ذلك منزل المانويل وأحاطهما بجدار، وبنى على انفراد منزل جورج، ولم يفعل ذلك الملك شيئاً إلا طبقاً لما أمره الرب به.

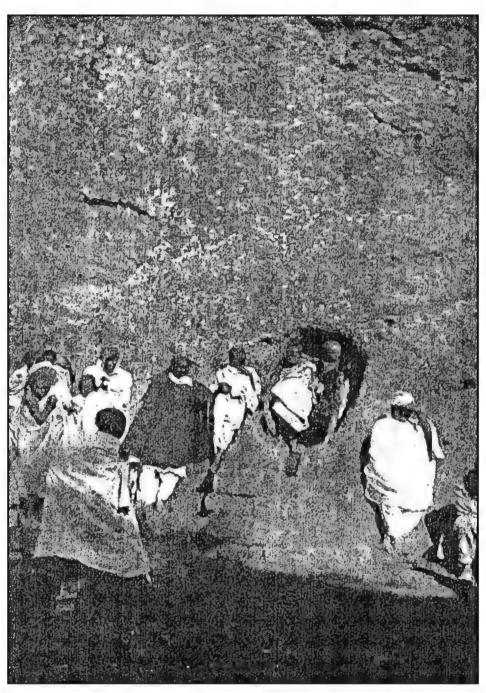
لا تزال هناك مخطوطة فى لالبيلا، فيها صفحة واحدة مكتوبة باللغة اليونانية، واللغة العربية، ولغة الجعز، وهذه الوثيقة التى تعطى الكنائس، والمدينة، والأرض المحيطة بها إلى الرهبان إلى أبد الآبدين، وهذه الوثيقة تحكى أيضاً عن مولد الملك لالبيلا (الملك الله النسبية، وقد دام حكمه أربعين عاماً، كان غذاء هذا الملك هو الزنجادا Zengada وثلاث لقمات من الأونت عاماً، كان غذاء هذا الملك هو الزنجادا add وثلاث لقمات من الأونت عاماً، كان غذاء هذا الملك هو الزنجادا المعة وليعة تعلم القراءة دون أن يلحن فيها؛ بعد عشر سنوات من تتويجه ملكاً كان قد بنى إحدى عشرة كنيسة، أنجز خندقاً واحداً أثناء النهار وصنع له الملائكة أربعة أثناء الليل، وصل ذلك الملك إلى سن السبعين وأنهى كل ما بناه خلال عشرين عاماً".

وهناك أيضاً مخطوطة أخرى تقول:

خلد إلى الراحة، فى اليوم السابع عشر من شهر يونيو، التأمل المبارك للأسرار السماوية، لالبيلا، إمبراطور الحبشة، عندما ولد هذا القديس، علمه والده خشية الله والخوف منه، وعندما كبر وأصبح شاباً، قيل لأخيه

[🖈] إله عند الرومان يقابِل هرمس عند اليونان (كان رسول الآلهة). (المترجم)

[﴿] لَكُ كَانَ الْبَيْلَا مَلَكًا مِنَ الْرَاجِيوس Zagues، تلك الأسرة المَالكَة المُغْتُصِبة التي لا يعرف عنها الكثير، وكد هذا الملك في روها Roha في لاستا Lasta.



نفق في الصخر يؤدي إلى الكنيسة في البيلا

الإمبراطور إنه سوف يمتلك إمبراطوريته ويجلس على عرشه، وغضب الأخ وزاد حسده، وأرسل في طلب هذا القديس وأمر بجلده بالسوط؛ لكن شرائط السوط لم تلمسه، إذ خلصه ملاك الرب، وهو الملاك الذي كشف له أنه سوف يتعين عليه بناء عشر كنائس، وأنه سيخلد إلى الراحة بعد الانتهاء من بنائها.

يحدد سالت Salt العام ١٠٩٥ الميلادى تاريخاً لبناء الكنائس الرئيسية، أما سايمون الذى رافق حمله رفرارى، والذى يشترك معه فى أنه كان أول أوروبى بعد الفارز Alvares فى القرن السادس عشر، يقوم برؤية لالبيلا؛ هذا الرجل يؤكد أن العمل فى تلك الكنائس بدأ فى زمن البيزنطيين فى القرن الخامس، وأن الفنانين العرب واصلوا هذا العمل خلال القرنين السابع والثامن، وتم الانتهاء من هذا العمل فى القرن الثانى عشر بواسطة الملك لالبيلا.

الكنائس مقسمة إلى مجموعتين مميزتين، وتضم المجموعة الأولى كنيسة مريم العذراء، ميدان آلم (منقذ العالم)، مسكال (صليب)، وأخيراً جولجوثا وميكائيل (وهما كنيستان محفورتان في صخرة واحدة، أما المجموعة الثانية فتضم كنيسة جبريل، ليبانوس، مبركيريوس أما ماركويوس وعمانويل، وكنيسة القديس جورج فتقف لوحدها).

هناك مخطوطة عربية تتكلم عن الحملات التى قام بها الإمام أحمد على الحبشة المسيحية، وقد وردت العبارة التالية فى تلك المخطوطة، والخاصة بالملك لالبيلا، أعد أحمد التجهيزات اللازمة لدخول بلاد التجرى Tigre... تم علم بعد ذلك أن عبدة الأصنام قد تجمعوا بالقرب من الكنيسة التى تدعى لالبيلا، هاجمهم أحمد عبر الجبال وسلك طريقاً صعباً فى ظل المطر المستمر: مات رجال أحمد بسبب البرد القارس، وصلوا إلى الكنيسة، التى تجمع الرهبان فيها ليموتوا دفاعاً عنها، عاين إمام أحمد الكنيسة ووجد أنه لم ير نظيراً لها مطلقاً من قبل. كانت الكنيسة منحوتة فى الصخر، وكذلك كان حال الأعمدة الحاملة لهذه الكنيسة، لم يكن فى الكنيسة قطعة واحدة من الخشب، اللهم باستثناء الأصنام التى كانت داخل أضرحتها، كانت هناك أيضاً حفرة مقطوعة من الصخر وجمع الإمام الرهبان كلهم وأمرهم بجمع الخشب وإحضاره، وأضرمت نار كبيرة، وعندما اشتد لهب النهار، قال الإمام الخشب وإحضاره، وأضرمت نار كبيرة، وعندما اشتد لهب النهار، قال الإمام

أحمد للرهبان "هيا، ليدخل واحد منا وواحد منكم إلى هذه النار" رغبة منه في الوقوف على ما سيفعلون ومن باب اختباره لهم، وهنا قال رئيسهم "على الرحب والسعة، سوف أدخل أنا"، لكن امرأة كانت تسلك طريق الدين وحياته نهضت وقالت: "إنه هو الذي يشرح لنا الكتاب المقدس، هل سيموت هنا أمام عيني؟" ثم ألقت هي بنفسها في النار، صاح الإمام «أخرجوها.. أخرجوها من النار».. لكن قسماً من وجهها كان قد حُرق، ثم قام الإمام بعد ذلك بتحطيم أصنامهم الحجرية، وأخذ الأطباق الذهبية كلها والمنسوجات الحريرية التي عثر عليها.

طول هذه الكنيسة ١٢٠ شبراً وعرضها اثنان وسبعون شبراً، سقف الكنيسة يرتكز على خمس دعائم، اثنتان على كل جانب وواحدة في المنتصف، البهو المُعَمد الذي يحيط بالكنيسة شبيه بالأروقة المعمدة في الكنائس ومنخفض عن جسم الكنيسة ويستطيع المرء النزول من الكنيسة إلى ذلك الرواق: هناك ثلاث نوافذ على كل جانب، والمرء إذا ما نظر (على سبيل الافتراض من الخارج) خلال كل نافذة من هذه النوافذ المواجهة للشمس، يستطيع أن يرى القبر على الجانب الأيمن من مذبح الكنيسة المرتفع. وفي منتصف الكنيسة توجد علامة تدل على باب سرى، هذا الباب مغطى بحجر كبير شبيه بالمذبح المصنوع من الحجر، هم يقولون إن هذا الباب هو مدخل الغرفة السفلى، وأن أحداً لا يدخل هذا المكان، ويبدو أنه الحجر ولا الباب يمكن رفعهما، الحجر فيه ثقب في منتصفه يخترقه بالكامل (*).

هناك قبر ثان فى هذه الكنيسة ويقال إن هذا القبر صورة طبق الأصل من الضريح الموجود فى القدس ومن قبر آدم، تعرف الأقبية المظلمة والمرات الموجودة أسفل هذه الكنيسة والكنائس الأخرى باسم "جهنم"، ويقال إن المؤمنين وحدهم هم القادرون على الأحجار الثقيلة التى تغلق هذه الأقبية والمرات، ويقال إن قبر لالبيلا جرت تغطيته بالجوخ عندما كنا هناك، وأن لون هذا الجوخ كان أحمر وأبيض، نظراً لأن القبر يبلغ من القدسية حداً لا

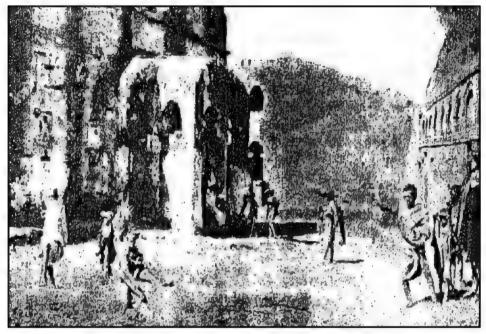
[🖈] يصل عرض هذا الثقب إلى نحو قدم.

يسمح برؤيته، السيد/ هارلان يتحدث عن عمود جرت تغطيته بالطريقة نفسها وللغرض نفسه.

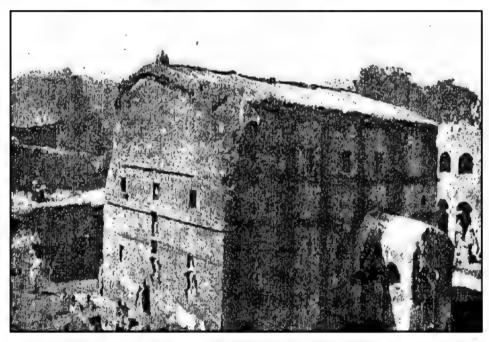
كانت هناك صورتان عظيمتان منحوتتين فى الجدار، بحيث تظلان منفصلتين عن الجدار، أرونى هذه الأشياء كما لو كنت مضطراً إلى الاندهاش عندما أراها، إحدى هاتين الصورتين كانت للقديس بطرس، والثانية كانت للقديس جون، كانوا يوقرون هاتين الصورتين توقيراً كبيراً.

هناك مُصلين للقديس ميخائيل، وهو مربع الشكل تقريباً وله ثلاثة ممرات، المصليين للقديس ميخائيل، وهو مربع الشكل تقريباً وله ثلاثة ممرات، والمصلى الثانى له شكل شبيه ببيت المعمودية، وبجوار النوافذ المربعة، يوجد في الجدار عدد من الثقوب المسدودة بأحجار توحى بأن هذه الثقوب ريما كانت قبوراً، عندما كنا في لالبيلا كانت هناك ملاءات معلقة أو ملابس معلقة على سبيل الحداد على واحد من كبار القساوسة، وعليه لم نتمكن من رؤية الجدران لكن السيد دى كوبيت رأى عشرة تماثيل مضطجعة أو واقفة، كما أن هارلان يكتب عن أن الكنيسة مزينة بتماثيل منحوتة نحتاً بارزاً على الجدران، فالكن هذه التماثيل ليست منفصلة عن الجدران، يقول: إن هناك عشرة من لأنه هذه الأشكال وأهم شكل بينها هو ذلك الشاب المصاب بمرض عضال لأنه رفض الزواج طبقاً لأوامر والده.

ربما كانت كنيسة جورجس Gorgis أهم هذه الكنائس لأنها مبنية على شكل صليب مالطى، إذ أن جانب من جوانب هذا الصليب متصل بالأرض، التى يتساوى مع سطحها سقف الصليب المزين بصليب مزدوج، ومن خلال الفتحة التى مررنا منها إلى المطهر توجد بعض الشامات على وجه الصخرة، والتى يقال إنها آثار أقدام حصان القديس جورج، تقول الأسطورة إن القديس المحارب كان غاضبا لحذف اسمه من قائمة رعاة كنائس لالبيلا التى جرى نحتها مؤخراً، وعليه ركب القديس جواده ذا الحدوات النيرانية، ونزل من السماء مُقسماً بالثار، لكنه جرى استرضاؤه بوعد ببيت أجمل من أى بيت من البيوت الأخرى، وسمعت أيضاً أن المحاوفر هذه ناجمة عن أقدام حصان لالبيلا أثناء ركوبه حصانه متفقداً العمل، وهذا التعليل أكثر منطقية، في ضوء وجود هذه الآثار داخل مجرى منحوت بالفعل.



في واحد من الأفنية الصخرية في لالبيلا



كنيسة مريم في لالبيلا.....

يجرى الدخول إلى "منزل جورج" عن طريق غرفة تحت الأرض تستخدم غرفة للقساوسة، صعدنا بضع درجات، من خلال باب صخرى، لندخل بعد ذلك غرفة معلقاً على جدرانها صوراً مقدسة مرسومة على لوحة من القيماش القطنى الأبيض، ثم دخلنا بعد ذلك مكاناً صغيراً على شكل صليب، على جانب من الأجناب، وعلى ارتفاع نحو ستة أقدام من الأرض وفي تجويف داخل الجدار، يوجد حوض صغير منحوت مملوء بالماء الذي يقال إنه يأتى من ينبوع مخبّاً، هذا الخزان أو الحوض يرشح ببطء، والأرجح أنه ربما كان من رافد تحت الأرض من روافد نهر الأردن النهر إلى بعض الذي ينساب من حول لالبيلا، وربما يكون تسرب هذا النهر إلى بعض الأماكن سبباً من الأسباب التي سهلت عملية النحت، يقال إن ماء هذا المجرى يشفى معظم الأمراض الفتاكة، والتعميد في هذا الماء أمر مطلوب كما لو كان في نهر الأردن الحقيقي.

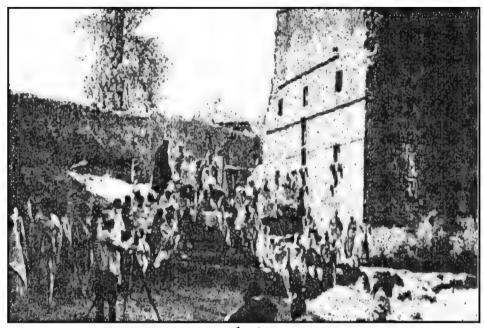
اسم النهر يحدث شيئاً من الارتباك، نظراً لأن أحد الكتاب بعد أن قيل له إن بحيرات مريم فيها "ماء أردنى" Jordan water، راح يعزو ذلك إلى النهر الفلسطيني.

الفناء المحيط بكنيسة القديس جورج ملئ بالمقابر، وأنا أتخيل أن الثقوب كلها الموجودة في الصخر، شبه مسدودة بالأحجار، التي تتشر في سائر أنحاء لالبيلا عبارة عن مدافن، نظراً لأن الناس ينظرون إلى المدينة على إنها مقدسة، وأن الدفن داخل حدودها يعد طريقاً مؤكداً إلى الجنة، وهذا هو سايمون يكتب عن جثامين مجففة في السراديب الموجودة تحت الكنيسة، كانت ملفوفة في جلود ثيران أو موضوعة داخل السيقان المجوفة لبعض الأشجار.

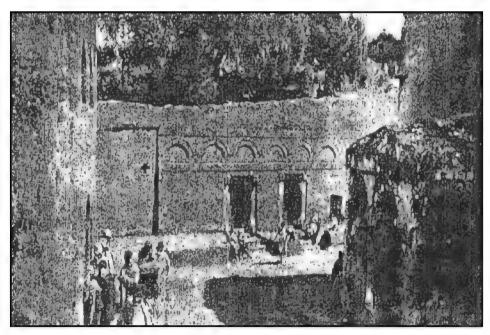
المدخل الذى على شكل عقد والمؤدى من باب الكنيسة إلى داخل كنيسة القديس جورج منحوت نحتاً جميلاً، والنوافذ تعد من بين النوافذ المبتكرة في لالبيلا، لأن هذه النوافذ تحمل الصليب اليوناني والهلال الإسلامي، وقطر المدخل من الداخل يقدر بنحو أربعين قدماً.

وأنا أعتقد أن أجمل كنيستين هما ميدان آلم (منقذ العالم) ومريم واللتان لا يفصل بينهما سوى برج ناتئ يخترقه من الأنفاق التي تشبه جحور الأرانب، قاعدة الكنيسة الأولى التي تبرز بضعة أقدام أسفل الجدران يصل طولها إلى ثمان وثلاثين قدماً وعرضها سبع وعشرون قدماً، في حين بصل طول الفناء الذِّي ترتكز عليه هذه القاعدة إلى نحو ٤٥ ياردة.. أما عرضه فيتناسب مع هذا الطول، قال لنا القساوسة إنه كان هناك ٧٢ عاموداً داخل وخارج هذه الكنيسة، لكن عدداً كبيراً من هذه الأعمدة تحطم، لا يزال هنا بهو مُعَمَّد منحوت من صخور قوية في الواجهة الشرقية للكنيسة، ولا تزال هناك أيضاً قلة قليلة من الأعمدة في الطرف الجنوبي من الكنيسة، في داخل الكنيسة توجد في البداية غرفة مؤدية إلى غرفة أكبر منها شبيهة بالمر الواسع، وفيها باب ثان يفتح على المرات الخمس المركزية، هذه الممرات المركزية مقسمة بواسطة اثنتي عشرة ركيزة، ضخمة ومربعة الشكل، تحمل عقوداً مستديرة، البعض منها مزين بلوحة منحوتة ومستديرة، لا يوجد بالكنيسة معبد مركزي، كما هو الحال في السواد الأعظم من الكنائس الحبشية، لكن ذلك الذي يعد في أوروبا مكان المرتلين، يكون عبارة عن مكان معزول بين الأعمدة الأربعة الإضافية في الممرات الجانبية، وتوجد ستارة معلقة عبر الفراغ الموجود في الوسط، والقساوسة لا يسمحون برفع هذه الستارة، إذ نستطيع أن نرى من فوق هذه الستائر رءوس أربع ركائز أخرى، هي والعقود المستديرة المقابلة لها، والتي تحمل هي الأخرى السقف بدورها. سقف الكنيسة منحوت من الخارج بطريقة توحى بأن هذه منطقة من المناطق التي تكون بين طرفي القوس في البناء، كما أن خط النوافذ المزدوج بسيط التصميمات التي هي من قبيل الصليب المالطي، وصليب القديس آندرو (الذي يشبه حرف X الإنجليزي)، والصليب المعقوف (木).

 [★] نوافذ الواجهة الشرقية فيها فتحات غير منتظمة مزينة بعقود متراصة فوق صليب يونانى او نموذج من الصلبان.



السيد/ هارولد جونز يُصنور مريم في كنيسة اللبيلا



في فناء مريم في كنيسة اللبيلا...

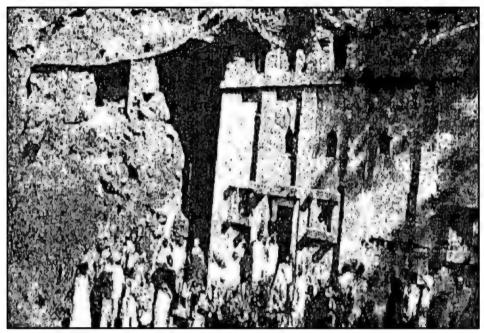
لا يسمح في كنيسة مريم، كنيسة العذراء، ولسبب حبشى غير منطقى، سوى بدخول الرجال فقط.

سألت كبير القساوسة، الذى كان بصحبته أحد شماسة الكنيسة ويمسك بيده مذبَّة "لماذا تمنعون النساء؟" قال: "هذا هو النظام والقواعد".

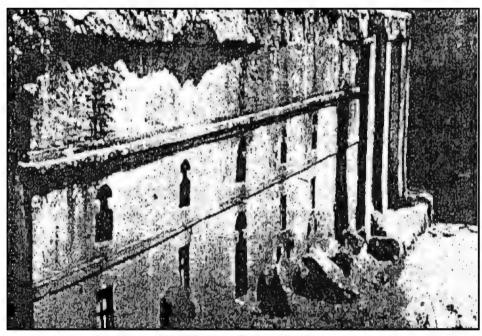
ماذا يحدث لو أن مريم ظهرت على الأرض وطلبت دخول بيتها (كنيستها)؟ ضحك المتعلم، "هذه نكتة جيدة تماماً لا ويتعين علينا معرفتها بطبيعة الحال". قال هذا الكلام بسذاجة مثل سذاجة الأطفال.

"كنيسة مريم" لها ثلاثة مداخل بارزة عن مبنى الكنيسة الأصلى، والكنيسة أصغر بكثير لا من كنيسة ميدان آلم (مخلُص العالم) المجاورة لها، لكن بالنسبة أيضاً إلى حجم فنائها، الذى يحتوى على بركتين محفورتين وبعض البقايا، أو ريما كان ذلك بداية لحوض المعمودية أو منبراً للوعظ، جدار الكنيسة الشمالي مزين بزينات جميلة على شكل عقود مستديرة غائرة النقوش، وفي الخلف يوجد شيء شبيه بالمستودع، أو برواق الدير المسقف، الذي ربما قصد به أن يكون كنيسة أخرى.

تقع المجموعة الثانية من الكنائس والتى تضم كنيسة ليبانوس، وكنيسة عمانويل، وكنيسة جبرائيل على الجانب الآخر من لالبيلا، هذه الكنائس الثلاثة منحوتة في جبل واحد، والانطباع الأول عنها يعطى إحساساً بأنها حصن مستدير هائل الحجم يحيط به خندق يصل عمقه إلى ٤٠ أو ٥٠ قدماً وله جدار خارجي، نزلنا إلى هذا المنخفض، ومن خلال ثقب يبدو أنه مثقوب خلال متراس سمكة نحو ٢٨ قدماً، أو ريما يكون ذلك الثقب قد وصل إلى شكله الراهن وبروزاته الحالية بفعل أقدام المتعبدين التى لا تحصى ولاتعد، والتى داست أرض هذا الثقب، تسلقنا ذلك النفق، وإن شئت فقل الخندق، لندلف بعد ذلك إلى فناء طوله ثلاثون ياردة، فيه كنيسة عمانويل المقامة على حلبة مثلثة طولها ١٩ ياردة وعرضها ١٣ ياردة، والكنيسة من الداخل، شأنها في ذلك شأن الكنائس الحديثة، مقسمة إلى ممر خارجي، وقدس الأقداس بين أربعة أعمدة مربعة، تحمل عقوداً مستديرة تقع أسفل السقف؛ وهناك أيضاً عدد آخر من الركائز المنحوتة في الجدران.



كنيسة ليبانوس في البيلا



كنيسة ميدان اليم، في لالبيلا

أوضح لى واحد من القساوسة، وهو يمسك بيدى، ويقتادنى إلى الركن الأشد إظلاماً ثم راح يبحث فى الأرض "أن منزل (كنيسة) ماركويوس موجودة أسفل المكان الذى كنا نقف فيه". وأنا أزعم أن القس رفع حجراً، وما هى إلا لحظات حتى اختفى رأسه كله وكتفاه.

حثنى القسيس على النزول "هذا هو الطريق، تعالى وزورى ماركويوس"، لكنى إلى أن جرى إحضار شمعة رفيعة، ورحنا بعد ذلك نتحسس طريقنا، فى خطو غير منظم، نازلين إلى ما يقرب من اثنى عشر قدماً، إلى ممر تحت الأرض، يصل ارتفاعه إلى ارتفاع قامة رجل طويل ويتسع لشخصين يسيران جنباً إلى جنب.

كانت الأرض غير ممهدة، والضوء غير كاف لرؤية ما هو أكثر من ذلك، كانت الجدران ناعمة الملمس وبلا زينيَّات، تبعناً جمع من البشر داخل هذا المكان المحكم، وكانت أصوات البشر تدوى كما لو كنا محبوسين في طبلة، وعندما انتهت الشمعة الرفيعة، فإن الاندفاع، والرائحة، وكذلك الصدى الغريب في ظلمة المكان، كل ذلك كان كافياً لجعلَى أمِّتَنَّ لذلك الشخص الذي سحبني إلى الأمام، والواضح أن ذلك كان فوق جثامين مختلفة غير محمية، سحبوني إلى ركن من الأركان، ثم بعد ذلك إلى الأعلى في اتجاه وميض ضوئي، كشف لي عن وجود أعداد من الأرجل الحافية، لو تحركت للحظة بعد ذلك الذي وصلت إليه، لأصبحت في مستوى الجثامين التي على الأرض، كنا في ذلك الوقت في رواق ماركويوس، المنحوت نحتاً مجوفاً من الصخرة السطحية، هذا الرواق ليس فيه حوش أو حفر، وكل ما فيه عبارة عن عقود بسيطة محفورة تحت الأرض. كانت هناك عقود أخرى تقسم الكهف إلى ممرين جانبين، إلى حد أن هذا المكان هو عبارة عن كنيسة من الكنائس الكهفية القديمة، التي تخترق الأرض إلى مسافة تتردد بين ٢٠ و ٣٠ قدماً تحت السطح أما سقف الكنيسة فيقع أسفل ذلك بحوالي بضع ياردات قليلة، الضوء يدخل هذه الكنيسة من خلال فجوات في المقدمة، التي يجري فيها ملء الفراغات التي بين العقود بالقماش الملون، ويجرى في بعض الأماكن الأخرى دعم التربة البارزة من سطح الصخرة بواسطة الطوب اللبن.

تسلقنا متراساً خلف كنيسة ماركويوس، وكان ذلك المتراس متوجاً بأشجار

الزيتون والعشب الطويل. ومن فوق ذلك المتراس شاهدنا منظراً مفاجئاً، من الخنادق التى تشكل متاهة من المتاهات، كما شاهدنا أيضاً جداراً بعيداً تتخلله الزهور، وفى حفرة صغيرة رأينا قساً جالساً يطحن الحب، حَبًا ذهبى اللون مثل جلد كتاب القداس الموضوع بجانبه، كان جانب من جوانب هذا الفناء البدائى عبارة عن صخرة قانية الحُمرة، محفورة على شكل مدخل ضخم مهيب، القواعد التى يرتكز عليها المدخل هى وعارضته الأفقية صلبتان تماماً مثل السلم المؤدى إلى ذلك المدخل، كما أن بساطة هذه الأشياء البدائية تتماشى مع الجبال وأشجار الزيتون العجوزة، أكثر من مسايرتها للمنحوتات المركبة التى كانت تخترق الواجهة النادرة تماماً لكنيسة ليبانوس المجاورة، وأنا لدى انطباع مفاده، أنه على الرغم من أن واجهة المبنى، التى تفتح على غور ملئ بالأعشاب والأحجار، مصابة بتلف كبير، فإن الكنيسة من الداخل تعد أحسن الكنائس التى فى لالبيلا.

الكنيسة صغيرة، ولها باب يبلغ من الضيق حداً يجعلنا نقول إنه كان باباً لبيت دمية، يزاد على ذلك أن تيجان ركائزه مربعة الشكل، تكشف عن تصميمات بيضاوية الشكل، ومن فوقها إفريز بارز بيضاوى الشكل، له دعامات بارزة.

لم نر بقية الكنائس رؤية كاملة، وسبب ذلك أننا بعد الحماس الذى أبديناه للساعات الحارة، وبعد أن تسلقنا الحصون الصخرية، وبعد تجولنا خلال الأنفاق والخنادق الشبيهة بجحور الأرانب، وجدنا أن القساوسة وصلوا من الألفة حداً ظنوا معه أن هذه المصلحة يجب أن تتمخض عما هو أكثر واقعية من الصور.

تركنا حاسن كى يلبى احتياجات القساوسة المادية، وصعدنا إلى أعلى التل وسط بضع مئات من المتدينين الذين يحملون العكازات بدلاً من البنادق، ونحن مصرون على سيرنا، سألوا ولدو جورجس عما إذا كنا من اليونانيين أو الأرمن، وعندما قيل لهم إننا إنجليز، وقعوا في حيرة.

غمغم عجوز كبير السن، حوله الزمن ومجمداً إياه إلى شكل لا حراك رمادى اللون "ليس هناك فرق، كلهم واحد". يبدو أن هذا المسن لم يغادر لالبيلا مطلقاً، وكنا نحن الإنجليز الوحيدين الذين رآهم هذا العجوز. واصل غمغمته قائلاً: "لا فرق!" إلى أن أصبحنا بعيدين عن مرمى سماع صوته!

كتب الأب الفارز Alvarez عن لالبيلا، في القرن السادس عشر، "لا يستطيع تاجر الفضة ولا صانع الشموع أن يفعلا شيئاً أجمل من ذلك"، لكن إذا ما نحينا جانباً العلامات الدالة على تأثيرات الفترات والمدارس الصناعية العربية، والمصرية والبيزنطية، نجد أن الانطباع الرئيسي الناجم عن أحجام الكتل الصخرية الضخمة (نظراً لأن الكنائس الكهفية تكون قليلة الأهمية، وأنها تذكرنا بحمرة بلوة بترا (تدمر) الوردية في الحجاز) يتمثل في مريعانية كل تفصيلة من التفاصيل، ونحن إذا ما نحينا جانباً مستوى الأرض فوق الحصون والأنفاق، والعقود والمنحنى غير الملحوظ لحواف السطح النازل نحو الأسفل، نجد كل شيء منحوتاً نحتاً جيداً وكاملاً، وإذا ما كان خط الجمال هو المنحنى، فإن لالبيلا لا تعد جميلة، ذلك أن الأفنية، والحُليَّ المثلثة في واجهة البناء، وكذلك الكنائس، وأحواض المياه المنحوتة في الصخر، والنوافذ، والتصميمات الهندسية الخاصة بأطرهذه الأشياء، وكذلك الأعمدة ورءوسها، وأيضاً المداخل المسقوفة، كلها مربعة أو مستطيلة، لا يوجد أي شيء مستدير سوى العقود، والأسقف، وبعض الخنادق والأنفاق الخارجية الأخرى التي تحيط بالجروف الصخرية الضخمة التي تضم منازل (كنائس) قديسي الرب، عندما كان الرجال أو الملائكة يلمسون الحجر فإنهم كانوا بشكلونه إلى زوايا حادة وامتداد لا نهائي لخط مستقيم غريب على الأرض التي اقتطعوه من صدرها، لكنه يجيِّ مواكباً ومسايراً للسلاسل الجبلية المنسقة، والمخروطات، والركائز الصخرية التي هي نتائج للطوفان البركاني في هذه الأرض التي كانت محلاً لعنف قديم.

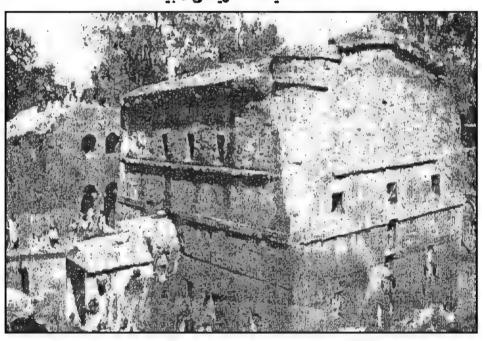
يوجد فوق منحدر أبراج لالبيلا المستدير أثر، قطعته الطبيعة بأزميلها على شكل متراس ومذبح، الذى ريما كان نموذجاً احتذته الكنائس القلاعية فى ظلاله، نظرت إلى هذه الصخرة عندما كانت إلى الخلف منى، ونحن نمر على أكوام الحجارة، التى تتخللها بعض الأغصان، والتى تعد إشارة إلى نهاية حدود الأرض المقدسة.

قلت: "هذه علامة مُميزة على مدى الأيام".

قال هارولد جونز: "سوف نحتاج هذه العلامة". كان هارولد جونز متشككاً فيما إذا كانت الخارطة الصماء التي لا يرجى منها فائدة، في الوقت الذي كنا



سقف كنيسة صخرية في البيلا



صورة توضح موضع ترميم كنيسة صخرية باستعمال الصخور.

بحاجة ماسة إليها، يمكن الاستعاضة عنها بالبوصلة ومرشد جذاب، لكنه مراوغ فيما يتعلق بالأسماء والمسافات، وعلى نحو يصبحان عنده كافيين لأن نقطع بهما مسافة ١٤٠ ميلاً في واد وجبل خال من المدقات والطرق إلى أن وصلنا جُندار Gondar.

قلت وأنا أحث الجميع "أنا لا يمكن أن أطيق العودة إلى دبرا تابور، المسافة تقدر بمسير تسعة أيام في ذلك الطريق، في حين أن مسافة هذا الطريق"...

غمغم حاسن: "قد تصل إلى عشرين يوماً، آخر رجل فى القرية هو الذى قال ذلك".

"هل يعرفك المرشد؟"

قلت وأنا مصرة على كلامى "هو فقط يريد المزيد من النقود، على أى حال، هو طريق جديد وملئ بإمكانيات الوصول إلى مكان ما هذه الليلة".

قال هارولد جونز: "أنت تحبين الأشياء الجديدة، أليس كذلك؟" أتمنى ألا ينفذ تبغى؛ وما هى بالضبط احتمالات وصولنا إلى مكان ما هذه الليلة؟

"آه، اليوم كئيب، هناك مسار مُعَلَّم باسم دامبيتا مريم Dambeta Mariam". "هل سبق للمرشد معرفة هذا الطريق؟"

يتعين على هنا الاعتراف أن وُلدو سبات Woldo Sabat صاحب الطلعة البهية، كان متشككاً فيما إذا كانت السلاسل الجبلية بمثابة مسند لكنيسة مريم، لكن الشاب الذي عمل مرشداً لنا إلى أن لحقنا بالقافلة لم يكشف عن أميل من أشكال التردد، كان ذلك المرشد يوازن نفسه مثل الماعز على المنحدرات الوعرة، وكان يخشى الطرق والدروب الواسعة التي تكون عامرة بالأفاعي كبيرة الحجم، وهذا هو حصاني الأبيض، بعد أن شفى من رغباته الاستعراضية، وفي ظل خوفه من حد السكين، يسير من خلف هذا الصبي، وقد ركز الحصان رأسه على الطريق بغية السلامة، كان المفروض أن أنزل من فوق الحصان، لكني كنت متعبة بعد العنف الذي دار أثناء الليل، إضافة إلى فوق الحصان، لكني كنت متعبة بعد العنف الذي دار أثناء الليل، إضافة إلى خاطرت مرة أخرى بركوب الحصان وهو يسير في مسار حلزوني، كانت بعض خاطرت مرة أخرى بركوب الحصان وهو يسير في مسار حلزوني، كانت بعض حبات الحصى تنفلت من حت حوافر الحصان، تعثر الحصان، وراح يترنح

على الجانبين وصححت أرجله الخلفية وضعها، أحدث الحيوان المرتاح نخيراً، وحدث خلفي سيل من الصراخ، ثم بعد ذلك انزلاق كبير، لم أنتظر إلى أن تنثنى رجلى، ورحت أرفس بعد أن تحررت رجلاى من الركاب، ثم تدحرجت على جانبى الأيسر، من رحمة الله بى، أن بقى مقود الحصان في يدى، وعليه، وعلى الرغم من وجود لحظة كان رأسى وحافرا الحصان الأمامى لا ينفصلان عن بعضهما، وعلى الرغم أيضاً من وجود لحظة أخرى كنت خلالها مجرورة من فوق الحصان الذى كان يناضل محافظاً على نفسه، فإن قدميه الأماميتين توازنتا وكان إمساكى بلجام الحصان عوناً ومساعدة كبيرة لى، وأخيراً، وبعد نضال وقف الحصان وهو يرتعد على الطريق، لكن كبيرة لى، وأخيراً، وبعد نضال وقف الحصان وهو يرتعد على الطريق، لكن خوف الحصان من القمم الصخرية جعله نذير خطر للقافلة كلها، نظراً لأنه خوف الحصان من القمم الصخرية جعله نذير خطر للقافلة كلها، نظراً لأنه يرى الوقوع أو السقوط فإن أرباعه الضخمة يمكن أن تتحرك بتثاقل مثلما يرى الوقوع أو السقوط فإن أرباعه الضخمة يمكن أن تتحرك بتثاقل مثلما

♦ الفصل السادس عشر

أخطار الطريه المغمر

سرّعنا الخطى فى ذلك اليوم خلف مالك البغال، لكن الرجل كان قد ضبط خطو بغاله على نحو جعلها تحافظ على مسافة ثابتة بينها وبيننا، إلى حد أننا عندما كنا نسأل أولئك الذين التقيناهم على الطريق، كانوا يؤكدون لنا: "نعم، لقد رأيت صاحب البغال، رأيته على بعد مسافة كبيرة، كبيرة جداً في المقدمة". كان سطح هذه المنطقة يتردد بين الصخر والشجيرات القصيرة الكثيفة التى لا تسمح بوجود أية مساحة فيما بينها لاستغلالها فى الزراعة، كنا نسرع الخطى فى شمس الظهيرة الحارقة، التى كانت تتخللها هفهفة أجنحة طيور الهدهد أو لمعان طيور الأوريول Aurioles ذهبية اللون، دخل علينا غروب الشمس، ونحن نكاد لا نلتقط أنفاسنا وكنا عطاشا، فقد قمنا بالهجوم على سلسلة جبلية ضخمة بدت لنا وكأنها تمزق السماء بحاجزها الصخرى المدبب مثل الأشواك.

قال مرشدنا الصبى: "هناك قرية فى الأعلى فى منتصف الطريق، سوف لا يتجاوز مقاول البغال هذه القرية مطلقاً". لكنه فعل ذلك! شهد شفق الغروب مطاردة، مخافة أن يدركنا الظلام ونحن على الصخور، استسلم بغل هارولد جونز على بعد نحو نصف ميل من قمة الصخرة، ورحت أستحث بغلى على المضى قدماً.

قلت: "إذا لم تكن الأرض منبسطة عند القمة، فذلك يعنى أننا انتهينا، وتحت أى ظرف سيصبح الجو مظلماً إلى الحد الذى يتعذر معه السير".

استطاع بغلى، بجنبيه اللذين كانا على وشك الانفجار، تخطى الجلاميد الصخرية الأخيرة.

صَرَخُتُ قائلة: "جونزا كل شيء على ما يرام، لقد شاهدت ذيل كلب"ا

وبعد ذلك بلحظة رأيت الحيوان كاملاً، والواضح أنه يقوم على حراسة قرية من القرى، إذ راح ينبح على، وعلى بعد نحو مائة ياردة كانت هناك ثلاث مجموعات من الأكواخ، وشاهدت في التجويف الذي بين هذه المجموعات من الأكواخ خيامًا يجرى نصبها بالفعل.

قال مقاول البغال متباهياً: "لقد أخبرتنى بالذهاب إلى دمبيتا Dembeta، وتذكرت الاسم وجئت إلى هنا"!

من الطبيعى أن يكون رئيس القرية غير موجود، يبدو أن رؤساء قرى شمالى الحبشة لديهم حاسة سادسة تتذرهم باقتراب أى مسافر من المسافرين الذين لهم حق الطعام Dergo، ومن ثم فهم يختفون تحت الأرض مثل الأرانب.

سألنا المرشد "أين منزل رئيس القرية؟"

"آه، المنزل بعيد جداً" ١

"أين نائبه، إذن؟"

"هو قائم برحلة طويلة" أو "إنه في أديس أبابا"؛ هاتان هما الإجابتان المعتادتان على السؤال الأخير، لكن دمبيتا كان يود التأكد.

قالوا بطريقة لطيفة: "مات".

"حسن، هل تبيعنا شيئاً قليلاً من الشعير؟"

ترددوا أيضاً فى ذلك البيع، من باب معرفتهم أنهم إن أقدموا على ذلك فهو نوع من دفع الضرائب، لكن بعد نقاش استمر ساعة، وبعد القيام برحلات عدة إلى مختلف الأكواخ تمكنا من جمع نحو جوال من مختلف الحبوب، وهذه أرملة حليقة الرأس تماماً وعلى نحو يجعل الإنسان يحس بالألم عندما ينظر إليها، باعتنا دجاجة بحجم الزرزور نظير طلقة واحدة من طلقات البنادق.

نخر جابرا جورجس بعد أن استنفد كل ما لديه من احتقار لهذا الإجراء "ينبغى عليها ألا تفقد الأمل فى الحصول على رجل آخر، النساء المسنات هن اللاتى يحلقن شعر رءوسهن إشارة لحزنهن، نظراً لأن الأزواج يسهل استبدالهم فى الحبشة، التى جربت النساء فيها أزواجاً عديدين.

فى اليوم التالى، وبعد أن سرنا مدة ساعة على الطريق، جرى إبلاغ الدجيزماتش المحلى عن رحلتنا، الذى أوفد فى إثرنا بعض الجنود ليعتذروا لنا عن تصرف القروبين، وبدعونا لقضاء الليل فى ممتلكاته الخاصة".

"هذه السيدة العظيمة ينبغي ألا ترحل بهذه السرعة".

تكرر شعار الحبشة مرة ثانية، لكنى صممت على الكشف عن تصميمى وردى المختصر، بأن كررت شكرى مرة ثانية، وعبرت عن أسفى، ورحت أستحث القافلة على إسراع خطاها، خيمنا فى قرية بيركواكوا مريم Berkwakwa Mariam، بعد صراع مع الأشواك اضطررنا خلاله إلى رفع أرجلنا من على سروجنا، كما أن بغلاً من البغال داس على قدمى بعنف محولاً إصبعها الكبير إلى عجينة شديدة الزرقة، لم أستسغ منظر إصبعى، أو الإحساس الذى ولده داخلى، لكن هارولد جونز، بحكم نجاحه فى اقتلاع سن من أسنان حاسن عن طريق زرادية، كان على يقين من قدرته على بتر إصبع الرجل الكبير باستعمال مدية الم

قرية بيركواكوا مريم، شأنها شأن قرى الشمال كلها، سميت باسم الكنيسة التى فيها، توجد فوق كل حلبة مسطحة فى أى جبل أو تل من التلال، عدد من الأكواخ يعد على أصابع اليد الواحدة ومجموعة من الأشجار، وعندما كنا نطرح الأسئلة طلباً للحصول على المعلومات، كنا نجد المرشد أو المار علينا من السكان المحليين يطلقون على الكنيسة اسم "مارى" Mary أو "جورج" George أو "الثالوث" Trinity، لكن عندما ضغطنا طلباً لاسم القرية، كنا نجد المرشد يقول: "لا أعرف" أو "لقد نسيت، وهذا أمر لا يهم". الأحباش كلهم ينصاعون للقساوسة، لكن أهل الشمال، وهذا يعنى أن نصف السكان تقريباً متدينون ويحكمون القرى كلها.

مسيحية الفلاحين الأحباش غريبة جداً، من منطلق أن المسيحية عقائد دينية جوهرية وليست شريعة، والأحباش يرفضون أكل الخبز المسموح به في الصوم، إذا ما تسلم الصائم الخبز من يد لمست أصابعها

اللحم قبل وقت قصير من إمساكها بالخبز، كما أن الحبشى لا يمر على جدار كنيسة دون تقبيل ذلك الجدار، لكن الحبشى لا تحدد له ملته مستوى سلوكه.

الفارق كبير بين العربي والحبشي فيما يتعلق بالأخلاق، ويتمثل الفارق الكبير في التزام العربي التزاماً حرفياً بشريعته، في حين لا يفعل الحبشي ذلك، العربي الصحراوي، من ناحية أخرى، نظيف، وصادق في كلامه، ومخلص لضيفه، وهو شجاع وكريم وذلك من باب تعويض قسوته، عقيدة العربي الصحراوي (البدوي) هي جوهر حياته ووجوده، وهو يصلي خمس مرات في اليوم، سواء أكان في قريته أم وحيداً مع جمله في الرمال، كما أن حياته في بساطتها الشافة تعتمد على الإيمان بقدرة الله العلى القدير، عند العربي، كنت أحسب دومـاً أن عـقـيـدة التوحـيـد أمـر مستحيل في الصحراء، رد عليّ ساخراً "ومستحيل أيضاً أن يكون المرء مؤمناً في الحبشة". وأنا أرى أن الصحراء إذا كانت تضفي شيئاً من عظمتها على من بعيشون فيها، فإن الجبال هي الأخرى تضيق نظرة الإنسان العامة إلى الحياة، وتعزله داخل عالم صغير عامر بالمصالح الصغيرة، عينا الحبشي متسلق الجبال كثيبتان، بمعنى أن من ينظر إلى عيني الحبشي لا يرى فيهما تلك العزلة الرائعة، التي تولدت نتيجة الوحدة والأفق الذي يصل امتداده إلى مئات الأميال، الأحباش لا وجود لحكمة الجبال بينهم، لكن حكمة الصحراء تشيع بين العرب، الأحباش أعداء لصحاريهم وصخورهم ويخشونها ويخافون منها، في حين نجد أن العربي تربطه قرابة برماله، فضلاً على رضاه ووده مع تقلبات تلك الصحاري، قد يكون الفرق هنا راجعًا إلى الحقيقة التي مفادها أن الفلاح Peasant الحبشي ليس رحالاً، الترحال عند الحبشي يعني الفزع من اللصوص، وهو عندما يمضى يومين بعيداً عن موطنه يكون في "بلاد بعيدة"، ومخفى الاسم وبلا مصلحة، العربي الصحراوي لا يتحدث إلا عن أمرين، الدروب والأبيار، والحبشي يتكلم عن الطعام، والنقود واللصوص، الماء لا أهمية له عند الحبشي، لكنه حيوى عند العربي، الذي يتحتم عليه الوضوء خمس مرات في اليوم أو التيمم بالرمل في حال عدم وجود الماء.

نحن لا يمكن أن نلوم القروبين الأثيوبيين على قذارة منازلهم، ولون ملابسهم، الذى يتفق مع لونهم بصورة متدرجة، نظراً لأنهم يبنون أكواخهم في أماكن تبعد كثيراً عن أقرب مجرى أو حفرة مائية إليهم، وهذا أمر ضرورى في معظم الأحيان نظراً لأنها تكون جرداء وغير صحية، ولا تصلح إلا للقردة، والباعوض وعصابات اللصوص، أما في الشمال فإن السكان يتخيرون، في معظم الأحيان، أعلى المخروطات نظراً لسهولة الدفاع عنها في حالة الحرب أو الغزو.

كانت قرية بيركواكوا مزودة بمصدر مائى عامر بالطمى، لا يكفى سوى لسقيا بغالنا وتزويدنا ببضعة أكواب من ذلك الذى حسبته قهوة إلى أن أكد لنا بالينا Balaina وهو يبكى إنه كان "ماء، جديداً ونظيفاً".

جاء إلينا رؤساء القرى الشبيهون بالقساوسة مرتدين قمصانأ وأغطية رأس بلون الطمي، وقد بلغوا من القذارة حداً تساووا فيه مع قطعانهم، لكنهم كانوا شغوفين ومؤدبين، أحضر أحدهم لنا دجاجة مهتاجة، سارعت إلى الهرب وراح المخيم كله يبحث عنها مطارداً إياها على امتداد خمس دقائق، الحبشى رجل رياضى بطريقة صبيانية مبهجة، وهو لا يستطيع مقاومة أي شيء بدءاً بقافلة القردة إلى العشاء الشارد، وهو معتاد على فتح النار على أبعد مدى حتى آخر طلقة من طلقاته، حتى وإن كانت هي التي ستمكنه من شراء الخبر أو الجعِّة، على أي شيء بدءاً من الغزال إلى النسر، أو الفهد أو الصقر، لكني أقر أنى لم أره يصيب شيئاً من هذا القبيل، الأحباش فضوليون من حيث أنهم ليسوا متخصصين في عملهم، الأحباش مقاتلون بلا شك، ومع ذلك، أثناء السير تجد الزباني يحمل بندقيته غير مُعَمَّرة، وآخر يسير خلفه على بعد نصف ميل تقريباً حاملاً الذخيرة، مقاولو البغال، لفترات طويلة، وسكان الخيام لا يعرفون طريقة دق أوتاد الخيمة، وهم يدقون الأوتاد مائلة إلى الداخل، الأمر الذي يجعلها تنخلع بأقل قدر من التوتر. والأحباش عند تحميل الأشياء، لا يزنون البنود المختلفة وزناً دقيقاً، إلى حد أنهم، قد يبدأون السير في توقيت أبكر من توقيت أية قافلة من القوافل العربية التي شاهدتها في حياتي، والتي تنفق

الواحدة منها ثلاث أو أربع ساعات فى ترتيب الحمولات الأولية، ثم يروحون (الأحباش) بعد ذلك يعدلون كل بند من بنود الأمتعة عشرات المرات على طول الطريق، يزاد على ذلك أن العربى يعد صديقاً شخصياً لكل جمل من جماله، كل بغل من بغال مقاولى البغال الأحباش بعد عدواً شخصياً لذلك المقاول.

ودعتنا قرية بيركواكوا بتحذيرات مشددة من اللصوص، وبينما كنا نمر على آخر بيت "مجاور من بيوت المسيحيين" (كنيسة)، نسيت إن كان ذلك كنيسة مارى أم جورج، وجدنا مخلوقين سيئى الحال يتتبعانا.

قالا: "لقد جئنا لإنقاذكم من لصوص هذا الطريق، هناك عصابة بالقرب من نهر تكازى Takkazye ولدى هذه العصابة اثنتان وسبعون بندقية".

رفع هارولد جونز غليونه فى شىء من التأمل، قال: "يجب القول هنا إننا إذا ما أخذنا هذين الرجلين معنا سيكون لدى العصابة أربع وسبعون بندقية".

بعد أن وافقت على ما قاله جونز، تخلصت من المدافعين المزعومين باعتذار سريع مفاده أنى ليس معى شيء من النقود.

لم نقابل اللصوص المزعومين، لكن انطباعاتى عن ذلك اليوم القائظ هى أن الجبال كانت عبارة عن أحجار مفككة، مرتبطة ببعضها عن طريق الأشواك، عبر جونز عن ذلك بطريقة أكثر وضوحاً عندما وصفها بأنها، "جهنم"، مشينا في شمس محرقة، وبصورة آلية، ونزلنا إلى منحدر من الأحجار وصعدنا منحدراً آخر، لم أستطع المشي بسبب إصبع قدمي الكبير المصاب، من ناحية وحذائي من الناحية الأخرى، حذائي الذي حاول الزباني الإسكافي إصلاحه عن طريق الزوجين من الأحذية في زوج واحد، الأمر الذي أسفر عن حذاء ضيق غير مريح مما أسفر عن تمزقه مرة ثانية من الخلف، يزاد على ذلك أن قربوس (ألله السترج هو واللجام بلغا من السخونة

قربوس: الجزء الأمامي من سرج الحصان. (المترجم)

حداً يستحيل معه لمسهما، كانت الأشواك تشكل ستارة ترتفع عن مستوى سرج الحصان بنحو قدم أو قدمين، وعليه كنت أنحنى إلى أن أصل إلى رقبة البغل فى محاولة منى لتجنب الأشواك المدببة، وبعد مسير ثمانى ساعات على هذا المنوال، تصلبت كل عضلة من عضلات ظهرى، وانسلخ جلد ركبتى بسبب جذوع الأشجار التى كانت ركوبتى تمر خلالها، فى الوقت الذى كنت أرفع فيه يدى كى أحمى بهما رأسى، وكان هناك ألم من نوع خاص ينتابنى مع كل هزة نحو الأسفل بفعل نزول الحصان من الأعلى إلى الأوطى؛ ويبدو أن أرجل الحصان فى تلك اللحظات فقدت علاقتها ببقية الحصان، تمزق معطفى المصنوع من الجلد فى نهاية المطاف، وتحول قفازى إلى واق مُخَرَّم للأصابع، وتمزقت قبعتى من أعلاها، كما تمزق المنديل الذى وضعته من للأصابع، وتمزقت قبعتى من أعلاها، كما تمزق المنديل الذى وضعته من تحتها كيما يقينى من الشمس، فى حين تحول بنطالى ورقبة الحذاء إلى وسادة من الدبابيس.

لفح الحر أعيننا، وغطاها التراب والعرق لنصل بعد ذلك إلى قطعة منبسطة من الطمى عليها أكواخ تعد على أصابع اليد الواحدة، نظرت حولى بحثاً عن مكان نظيف، فلم أر شيئاً، ولذلك جلست أرضاً في المنطقة التي عليها أقل قدر من الأحجار، وكنت لا أعي سوى خليط من أوجاع مختلفة، إلى أن داهمتني البغال الأولى من القافلة، كانت تلك البغال شبه خائفة مثل المحاربين المنهزمين في معركة من المعارك، ولم يكن هناك شيء سليم من أمتعتنا سوى الصناديق التي تحتوى على أفلام هارولد جونز، كانت أكياس البراغيث قد مُزِقت من أطرافها، وانشقت الزكيبة التي تحمل الخيام كما لو كانت أجريت لها عملية فاشلة، اندمرت حقيبة من حقائب الملابس، وضاع قفل حقيبة أخرى، وتمزق غطاء صندوق الأدوية، وتحولت صناديق أدوات الطبخ إلى مجموعة من الأشلاء المربوطة إلى بعضها بحبل من الحبال.

كانت الحاشية مثل الأمتعة بحاجة إلى كثير من الإصلاح، وعليه اغتسلنا مرة ثانية، ومسحنا أنفسنا بالزيت، وحزمنا أشياءنا، وحاولنا لملمة أوجاعنا، التى تركزت على أوجاع في منتصف ظهورنا، قام جونز بعد ذلك برتق التمزق الذي في خيمته بصليب من الشريط اللاصق، وراح حاسن ينزع الأشواك منا باستعمال الكماشة، في حين قام جاربا جورجس بتحويل صناديق عدة إلى

صندوق واحد، واستهلك الإسكافي خيطه في رتق الأغطية والجوالات، وجرى أيضاً إصلاح معدات مظلاتنا الباغودية (ألم) باستعمال الجيائر المصنوعة من أشياء اسطوانية، تزين أيضاً زجاج ساعتى ونظارة شمس هارولد جونز ببعض الأوراق التي التصقت بهما والقدر الأكبر من الزجاج الناجم عن خليط من المربى والبن والمكرونة بعد أن انطحنت مع بعضها.

كان الفلاحون يحرقون الأعشاب القصيرة لتخصيب التربة التى لم تدر عليهم سوى محصول هزيل، لكن وُلدو جورجس، الذى كان رأسه عامراً باللصوص، أصر على أن تلك كانت إشارة من الإشارات، تشاورنا فيما بيننا مع مقاولى البغال نظراً لأن أتو بلاكو Belacho كان غير عاطفى.

قال: "هناك لصوص بالفعل؛ وهذا يحتم على القافلة السير مع بعضها البعض، لن يهاجم اللصوص القافلة إذا ما رأوا أوروبيين معها، لأنهم يعرفون أن ذلك يعنى دخول الدولة في حرب".

قال أَتُّو دايوتيو Daiwitu متهالاً: "لن ينتظروا معرفة ذلك، نظراً لأن الأوروبيين لا يأتون إلى هذا الطريق، وعليه هيا بنا نستعد".

بدأنا استعدادنا بتعمير مسدساتنا الإضافية، وسلَّحنا كلا من الخادم وبالينا مع بقية الأفراد وأصدرنا أوامر بعدم فتح النار على أى شىء سوى العصابة، وأصررنا على تعمير البنادق كلها وأن يحملها أولئك الذين يحملون الذخيرة، فى الصباح بدا الجميع، كما لو كانوا فى استعراض من استعراضات الغرب البرى فى أوليمبيا.

سألنى جونز وأنا أخرج من خيمتى: "ما هو إحساسك الآن؟"

 [★] هيكل او معبد صينى او بابانى متعدد الادوار. (المترجم)
 ★★ لازوردى: اللون الازرق الياقوتى. (المترجم)

فكرت لمدة دقيقة، وأنا أتتاول بيضة مكسورة، وأخرج جرادة طولها نحو خمس بوصات من العسل.

"لقد تعقدت النتف الباقية من جواربى حول قدمى، وأحس وكأنى نملة تزحف خارجة من مولد كهربائي".

"إحساسك سيئ إلى هذا الحد؟ لقد تعين على الصياح ثلاث مرات هذا الصباح كيما أوقظك في الصباح، على فكرة، حاسن ليس راغباً في حمل مسدس، وهو يقول قد ينفجر في جيبه".

قلت وأنا أشعر بمرارة "واقع الأمر أنه سيخر ساقطاً على الأرض إذا -ما أنفجر- شيء على بعد ميل منه". كانت الجرادة قد خلفت شيئاً منها في الحسالة المتبقية من العسل الذي شربته؛ وكان قماش السرج الذي كان يتداخل مع عظامي طوال أسابيع عدة قد تحول إلى خرق ممزقة.

بينما كنت أدرس تأثير صناديق جابرا جورجس المرقعة، التى كانت تبرز منها المقابض والبزابيز من أماكن غير متوقعة، تجمع حولنا جمهور كبير طلباً للأدوية، كانوا يحضرون معهم قليلا من الحليب فى قرعات مفرَّغة، ويعتذرون عن صغر الكمية نظراً لجفاف الأرض، وراحوا يكشفون عن التهابات ناتجة عن الجرب، كما أرونى أيضاً طفلاً له عظمتان بارزتان فى مؤخرة رأسه، فضلاً عن أشياء سيئة أخرى، وقد اندهشت من أن الجفاف الذى كانوا يشتكون منه، والذى كان بمثابة واق من العدوى، كان أكثر فائدة لهم من الطبابة المراهقة.

سألت الطفل صاحب الجمجمة المكشوفة "هل تؤلمك العظمتان؟"

ردت على أمه "لا تؤلمانه عندما يكون القمر مكتملاً، لكنهما تؤلمانه عندما يكون القمر هلالاً".

وافق الآخرون أن آلامهم تتزايد عند بداية الشهر القمرى أو فى نهايته، كان هناك حالة واحدة ظريفة لعفريت صغير كان يحس ألماً فى وسطه، وكنت على وشك أن أصف له العلاج الواضح، عندما قام أخوه الأكبر بتوضيح الأمر بأن قال: إنه أمسك بطائر صغير وأكله وهو حى.

قال وهو يحرك فكيه تأكيداً لما يقول: "لم يمضغه جيداً، وأن الطائر لا يزال حياً في داخله، هذا الذي يحسه هو أثر منقار الطائر".

اتفقنا على أن ذلك كان أمراً سيئاً للغاية، وألقى حاسن محاضرة، لا عن القسوة، ولكن عن الاقتصاد، نظراً لأن الحبارى الصغيرة يمكن تشجيعها لتصبح حبارى كبيرة، إذا لم يجر التهامها قبل الأوان.

غادرنا كوا آمبا Kwa Amba ونزلنا في اتجاه، تكّازي Takkazye المضللة والمراوغة، والتي تخفى شريط مائها في مكان بعيد في الأسفل فيما بين القمم الصخرية والأجمات الشوكية الملتفة، كانت الأرض مخيفة، وكان جفافها الناجم عن العطش الشديد قد حول لونها إلى اللون الرمادي على العكس من كل ما رأيته ما عدا شجرة الصمغ التي شاهدتها في أستراليا، كانت الصخور والأشجار الغريبة المتجعدة تبدو وكأنها خرق الزمن، ملفوفة في عباءة الجفاف، منكمشة وقد تغير لونها بفعل الشمس، كان العشب بلا لون وكان الريف كله أبيض اللون وبلا عصارة، كانت الأشجار منحنية نحو الأرض وعليها كتل من الأغصان المفككة، على نحو يلهم بصورة من الصور العجيبة التي يرسمها الأغصان المفككة، على نحو يلهم بصورة من الصور العجيبة التي يرسمها الصخور التي أحرقت جلد بشراتهم المتشققة التي كانوا يلفونها في جلود الحيوانات، الشعر، والوجوه، والعيون، كلها كانت تبدو رصاصية اللون بشكل الحيوانات، الشعر، والوجوه، والعيون، كلها كانت تبدو رصاصية اللون بشكل عجيب، بسبب التراب المتراكم عليها، جلسنا على صخرة ربما كانت غطاء لفرن من أفران جهنم، وأكلنا جناح دجاجة الذي كان طعمه شبيهاً بطعم ومذاق لحاء من أفران جهنم، وأكلنا جناح دجاجة الذي كان طعمه شبيهاً بطعم ومذاق لحاء الشجر الجاف، ولاحظت أن كل ظفر من أظافرنا كان مشقوقاً.

بعد أن انهزمنا في صراعنا مع أوتار أرجل الطائر المصنوعة من أمعاء الخيل والحمير والغنم، نزلنا بالقافلة إلى آخر منحدر صخرى، وبعد نزع الشوك من كل أفراد القافلة قررنا على الفور عبور المياه الخضراء الباردة برودة مستساغة ولذيذة، وهنا رحنا نستمع إلى جوقة من الاحتجاج من وُلدو سمبات، وصرخات وحجج من جابرا جورجس، وصخب وضجيج من باقى أفراد القافلة حول الموضوع نفسه، كان المرشد قد أمسك بدجاجة وربطها بطريقة مريحة في التجويف فيما بين علبتين من علب الأفلام، مما يعنى ضمان وجود العشاء في حال عدم مصادفة أية قرية على طريقنا، أطلق المرشد سراح تلك الدجاجة وكان على وشك إلقائها في النهر، عندما أمسكت أنا بذراعه.

سألت حاسن "هل جُن جنونه؟"

غمغم مترجمنا المزعوم "لا،لا". وبلا أى مبرر راح ذلك المترجم يشارك فى المعركة الكلامية الأمر الذى حتم على الاستعانة بجابرا جورجس، وعرفت من جابرا أنه جرت العادة عند عبور نهر تكازى Takkazye أن تجرى التضعية أما لإله الفيضان القديم أو للتماسيح.

قلت محتجة على هذا الكلام "الماء الذى فى النهر لا يكفى لتغطية سمكة من أسماك الأطروط النهرية، ناهيك عن أى شىء خطير آخر، أنت لست بحاجة إلى التضحية بغدائى فى كل مرة أود فيها عبور حفرة ضحلة بالطريق تمتلئ بمياه المطر".

بدأ الشك يتسرب إلى نفس جابرا جورجس، هز كتفيه وراح يتكلم عن "هؤلاء الناس الجاهلين،" لكنه أنقذ، عندما وجدت أن الحل الوحيد لجعل ولله أند سمبات يمضى قدماً، يتمثل في موافقتي على التخلى عن الدجاجة شريطة قتلها قبل إلقائها في الماء، حدثت مشادة كلامية أخرى حول هذا الموضوع، لكني بقيت على عنادي، وعليه وفي ضوء الغمغمة والتمتمة حول "الحظ السيئ"، وحول التوسل بالقديسين المسيحيين، جرى تقديم دجاجة ميتة وفاءً بطقس وثنى مثل الخرافة التي بني عليها.

مشينا في أعالى حوض النهر مسافة ميل تقريباً، عبرنا خلالها الماء المنحسر مرات عدة إلى أن وصلنا رافداً من روافد نهر تكازى اسمه تخن Tekhen، متفرعا من الاتجاه الشمالى الغربى، مشى وُلُدو سمبات في أعالى ذلك الرافد على الرغم من احتياجات مقاولى البغال الغاضبين، اللذين تتألم أقدامهما من أي نوع من أنواع المسارات والمدقات الجبلية أكثر منها من الأحجار الزَّلقة، المغطاة بالطمى في هذا المكان الذي كان مجرى مائياً في يوم من الأيام، سرنا مدة ساعتين ونحن نلهث خلال جو حار وخانق وفاسد الهواء، محققين بذلك تقدماً طفيفاً على الأحجار المستديرة، إلى حد أن الأمر بدا لنا وكأننا نخطو خطوتين إلى الوراء مقابل كل خطوة نخطوها إلى الأمام، بعد ذلك، ومن حسن حظنا، ضل مرشدنا، لم يضل الطريق، وإنما شرد ذهنه، لأن مسارنا انعطف إلى اتجاه الشمال، إلى حد أن المرشد قال لنا وهو مرعوب، إننا سنجد أنفسنا مرة أخرى في دبرا تابور Debra Tabor،

وافقت على ما قيل فى هدوء وأخرجت خارطة، لم تكن خاصة بالتجوال فى تخن Tekhen، وبعد دراسة مبدئية، أعلنت أن أول ممر جبلى على يميننا سيوصلنا إلى كواليسا وخيمنا وحيمنا الله كواليسا الله واليسا الله وخيمنا تحت مجموعة قليلة من الأكواخ التى تحيط بها الأشجار، التى بدت لى وكأنها تحمل بدلاً من الزهور فرُشا ناعمة ومفرَّاة شبيهة بالقوارير.

بدأت الليالى، اعتباراً من العاصفة التى هبت علينا فى لالبيلا، تصطبغ بحرارة النهارات، وكان البدر يغرق تلك الليالى فى سحر أبيض، كانت الدنيا مشدودة، بل ومتوترة إلى حد السكون، الأمر الذى جعل أغنية الجراد شبيهة بالنغمة الرئيسة التى يقال إن كل جسم بشرى يجب أن يستجيب لها عند نقطة الانفصال، لم ينم أحد منا، وقاسى الجميع من النورالجيا (ألم).

بدأ يومنا الخامس من لالبيلا بداية طيبة، نظراً لأنه على الرغم من عدم ظهور الماء رسمياً، كما لو كان يتحدى ويحتقر الخطوط الحمراء الموجودة على الخارطة، فقد خرج من منطقة الأشواك واتسع ليصبح مساراً عرضه نحو قدمين.

قال جونز، الذى كان لا يزال يحلم بنصب خيمة بجوار نهر حقيقى فيه ماء وليس فيه مجرد أحجار وروث المواشى "إذا ما استمررينا بهذا المعدل فسوف نصل إلى زوس جورجس Zos Gorgis في ساعة مبكرة وسوف أتمكن من الاغتسال". عندما كنا في دمبيتا Dembeta قد رأينا من بعد ولأول مرة في أقصى الشمال الغربي، الأرض المربعة الكبيرة المنبسطة في منطقة زوس أقصى الشمال الغربي، الأرض المربعة الكبيرة المنبسطة في منطقة زوس كرة وأيناها هي والصخرة المصاحبة لها التي على شكل الرغيف الريفي، الآن تبدو القمة الصخرية وكأن عليها مفرش بنفسجي اللون، وهناك صف كامل من القمم الصخرية التي على شكل أرغفة ريفية وتمتد بطول السلسلة الجبلية التي يتحتم علينا عبورها ونحن في طريقنا إلى جوندار.

قلت "لحد الآن، اتضح أن الطريق المختصر كان ناجحاً".

رد جونز الذى كان أمضى ساعات فى نزع سبعة أنواع من الشوك من مختلف أطرافه "نعم، نعم".

النورالجيا: الم حاد في اعصاب الراس او الوجه غالباً. (المترجم)

صمت جونز لحظة وعيناه مثبتتان على ركبتى العاريتين والمصابتين بفعل التمزق الأخير "البغال كلها عرجاء، ونحن لم تعد معنا قطعة واحدة سليمة من الأمتعة أما فيما بتعلق بملاسنا"

كنت سعيدة لأن وُلدو سمبات آثر الاختفاء في تلك اللحظة، في مجرى من المجارى المائية الجافة الخفيضة، التي يَنَشَدُّ إليها على نحو يصعب تفسيره، ولما كان ذلك المجرى الجاف يتجه جنوباً بصورة مباشرة، فقد رحنا نحتج على مرشدنا ونحثه على الرجوع إلى المسار (المدق) الواسع الذي بدا أنه يتجه مباشرة إلى زوس Zos، سار المرشد بائساً في المسار الذي حددناه، لكنه بعد أقل من ميل واحد، تهلل وجهه، وصم أذنيه عن النداءات كلها ودار حول جانب جبل من الجبال فوق خيط من التراب المدعوس لا يتناسب مع "الطريق" الذي نسير عليه.

"هذا الطريق دائري، دُر أو أرجع إلى الخلف (* Tamallas".

كانت تلك المرة الأولى التى سمعت فيها تلك الكلمة المربعة، التى تملكتنا طيلة أيام بعد ذلك، استعمل وُلدو سمبات هذه الكلمة استعمالاً صحيحاً، نظراً لأن طريقه كان مرناً مثل سمك الانكليس وشديد الروغان، كنت كلما أوضحت له طريقاً مباشراً وأوسع من الطريق الذى نسير فيه، يروح يؤكد لى أن هذا الطريق لا يوصل إلا إلى القرية القريبة.

قلت: "عقله مشروخ"،

أردف جونز "أو قد يكون من أهل اليسار".

قدم حاسن التفسير الصحيح عندما بدأت الشمس الاختفاء خلف الأفق، وبعد أن تهنا في دوامة من الجبال المستديرة، كان كل واحد منها أعلى من سابقه، الأمر الذي حجب عنا رؤية أي شئ.

أعلن المترجم "المرشد لا يعرف أى طريق من الطرق المباشرة، هو لا يعرف سوى الطرق الطويلة عن طريق مجارى الأنهار وعن طريق الصخور، وهذه الطرق لا تقترب من أية قرية من القرى".

قلت معترضة "لكن ما السبب، ما سبب ذلك؟"

🖈 اوريت المؤلفة هذه الكلمة باللغة الأمهرية Tamallas. (المترجم)

"السبب ببساطة هو أن هذا الرجل منذ سبع سنوات، كان يبيع العبيد عن طريق هذه الطرق الخفية، كان يتحتم عليه التزام الحرص عندما يمسك بالعبيد، ويروح يقتادهم على طول الأنهار وتحت الأجمات، بعيداً عن القرى، التي يلقى فيها رجال الشرطة القبض عليه ويضعونه في السجن".

هذا يعنى أن مرشدنا كان من قبل واحداً من تجار الرقيق، وأنه أرغم على ترك هذا العمل المربح عندما بدأ سريان القانون الذى يكافح هذا النوع من الاتجار، لكن معرفته بالطرق الفرعية، كانت تناسب العبيد الخائفين الذين لا يستطيعون الاحتجاج أو المقاومة، وكانت تدخله أيضاً في منازعات شرسة مع القافلة كلها، وسط ضجيج صادر عن ستة عشر صوتاً متنازعاً، اقتربنا من حوض نهر آخر، ومن باب تجنبنا لحوض ذلك النهر، سارعت أنا وجونز ومعنا حاسن، وتسلقنا المطلع العشرين أو الثلاثين من المطالع المفروشة بالشوك، والحشائش ذات الأطراف المدبية، ثم جلسنا في ما بين المطلع الحدى والثلاثين، انتظاراً لمجئ القافلة، لكن القافلة لم تجئ.

قال جونز وهو يبدأ عملية اغتساله الصغيرة "إنهم يُسرَّون عن أنفسهم في النهر".

رددت عليه "قد نصل جوندار في غضون ثلاثة أيام، وقد نستطيع الحصول هناك على شيء من الماء".

وصل وُلُدو سيليسيِّي بعد ذلك وهو يلهث، ليروى لنا حكاية عجيبة.

"هناك لصوص بجوار النهر، كانت البغال تبحث عن شىء من الماء فيما بين الصخور، واندفع الرجال عليها قادمين من بين الأجمات، وأمسكوا بالبغال وحاولوا سحبها إلى مكان بعيد".

بدت لى فكرة سحب أى إنسان لبغل من البغال أو دفعه، أو إقناعه بأية طريقة فى اتجاه غير الاتجاه المحدد بواسطة مقاولى البغال، على أنها فكرة مضحكة، لكنى قاطعت وُلُدى سيليسى.

"أنتم معكم خمس بنادق، هل خطر ببالكم استعمال هذه البنادق؟"

ضحك وُلدو سيليسى، في البداية حدث عراك بين مقاولي البغال من ناحية واللصوص المنتظرين من الناحية الأخرى، هذا في الوقت الذي قال فيه السابس "تحدثنا معهم لإيقافهم". بعد ذلك، وعندما بدأت البغال تعترض على ذلك الجزء من العظمة التي بين كلبين، راحت ترفس بعد ذلك كل الناس بلا تمييز، وحدث أن كان الزبانيان يحملان بندقيتيهما على ظهريهما، مع انطلاق الطلقة الأولى لاذ اللصوص بالفرار إلى داخل الغاية، وراحت القافلة تهنيُّ نفسها وتهنئ القديسين بانتصارها، هذا الجهد المحبط كان هو أقصى ما حققته تلك العصابة، والسبب في ذلك عجلنا في سيرنا بضعة أميال أخرى، وخيمنا في موقع استراتيجي، يجمع بين أكبر قدر من المتاعب والتحكم في جميع المداخل المؤدية إليه، وبقينا في ذلك المكان بلا متاعب، أضفى حاسن على الموقف شيئاً من المرح، كما هي عادته، لأننا عندما أرسلناه لشراء شيء من العلف من أقرب الأكواخ، أخذ معه كل حملة بنادق القافلة، فيما عدا واحدة من البنادق نظراً لحدوث عطل فيها عندما انحشرت طلقة في خزينتها، كان المترجم قد عاد عندما انتهى جونز فعلاً من إصلاح ذلك العُطل، عن طريق تفريغ الذخيرة من خزينة البندقية، كان المترجم يلوح بدجاجة وهو يمسك بها من أرجلها، وهنا قام حاسن بوصف الأخطار التي ستترتب على إحضار هذه الدجاجة، وأثناء انهماكه في حكايته، أمسك بالبندقية وانحنى عليها بطريقة عشوائية وكان إبهامه على ماسورة البندقية، وذقنه متكناً على الماسورة، وكانت أحدى رجليه تضغط على الزناد.

قال جونز "احترس! هذه البندقية قد تنطلق في أي وقت، وأنت تعلم ذلك". بدت الدهشة على حاسن، قال: "أوه، لا، إنها ليست من طبيعة المسدسات التي تحملونها".

♦ الفصل السابع عشر

فصور جنر(ر

اكتنف شيء من الشك رحيلنا في اليوم التالى، فقد دخل المرشد عمداً إلى حررش راح يَسمنا من جديد، أنقذنا صبى صغير، ووضعنا على ما سمّاه "الطريق المباشر" إلى زوس جورجس Zos Gorgis، بعد مسير ميل واحد ضاع منا ذلك المدق (الطريق) وسط الأجمات الخضراء التي تحتوى على عيدان النباتات المدببة الخادعة، أمضينا شيئاً من الوقت في صراعنا مع متاهة من الأعشاب القصيرة، كان المرشد يبتسم طوالها ابتسامة غامضة تماماً، اكتشف هارولد جونز وأنا أيضاً بعد ذلك مسارات أفقدتنا شيئاً من خيبة الأمل، بعد ثلاث ساعات، بدأ ثلاثة أو أربعة منا يتسلقون جانب الجبل بطريقة مباشرة، ونحن نسحب بغالنا خلفنا، تناهى إلينا قادماً من وسط غيضة من النباتات المدببة، كانت في الأسفل، صوت جوقة من الصفير والصياح.

ترجم لنا حاسن "الأمتعة مقسمة على ثلاث جماعات، لقد ضل آتّو بيلاكو ومعه واحدة من هذه الجماعات، وفقدت الجماعة بغلاً، وضاع أيضاً ذلك الرجل الذي راح يبحث عن ذلك البغل، هذا يعنى أن الجميع أصبحوا في عداد المفقودين".

كانت جوقة الشكوى والتوسلات تتناهى إلى مسامعنا من نحو ستة أماكن مختلفة كانت بعيدة عنا تماماً.

راح جونز وأنا أيضاً ننظر إلى بعضنا البعض في شيء من الإحساس بالذنب.

قال فجأة ذلك الشاب الملتحى المتعجل الذى يرتدى معطفاً جلدياً ملطخاً

بالطين وقلشينة متسل الأطراف وبشرته مشلَّخة ونظارته الشمسية مشروخة ويسحب في ذراعه بغلاً غاضياً.

"لن يصلوا مطلقاً إلى هنا، هذا أمر مستحيل تماماً".

قلت دونما اكتراث "أنا لا يهمنى هذا، سوف أصل إلى القمة لأرى أين نحن".

واصلنا سيرنا بلا كلام، ونحن نلهث وننزلق إلى أن أوصلتنا الصخرة الأخيرة فجأة إلى كومة من الدريس مكومة على حافة الصخرة، كان هناك حقل يمتد خلف هذه الكومة، ومن فوق هذا الحقل يوجد ذلك الجبل غير المرقم الذى ربما كان آخر القمم أو مجرد قمة من سلسلة من القمم لا حصر لها.

من حسن حظنا أن كانت تلك القمة آخر القمم، كانت تلك القمة متوجة بثلاثة أو أربعة أكواخ حقيرة، كانت النساء فيها يرقصن ويندبن يولولن على قريب فقدنه منذ أسبوع، ورحن يطلن النظر إلينا وهن يضربن بأيديهن ويهزونها كما لو كن انتهينا من غسلها، عندما تحدث السائس إليهن، صرخن وهربن، بعد أن أحس السايس بالارتباك، نظراً لأنه كان شاباً صاحب شخصية، ثم نظر إلينا وهو يكشر عن أسنانه.

"هن لسن معتادات على الغرباء"،

كنا بالفعل تحت صخرة زوس الضخمة، وقد اكتست سلسلة الصخور التى أمامنا مسحة من الحُمرة لتكشف لنا عن الواجهة الصخرية المنحوتة زوس جورجس، التى هى عبارة عن كنيسة تحت الأرض، بعد أن أوفدنا حاسن ليحصل لنا على مزيد من عينات المرشدين، عدنا لتشجيع القافلة، انتظرنا مدة ساعة على قمة الصخرة، ونحن نصيح بصوت عال لإصدار التعليمات وتشجيع الأفراد.

قلت: "ببساطة شديدة جداً أنا لن أجازف بالنزول إلى الأسفل".

كرر جونز كلامه "أنا لا أود أن أراهم يصعدون إلى الأعلى".

عندما تمكن آخر الدواب، وبطريقة لا تخطر على البال، الوصول إلى القمة، اخترنا من بين المجندين الذين أحضرهم حاسن، أقلهم غباء، وعبرنا

سلسلة الصخور الشبيهة بأقماع السكر، ببطء، بل ببطء شديد جداً، ودرنا خلال الرمل والصخور، وعدد كبير من الروابى المستوية المتوجة كل منها بنباتات الفربيون وقرية من القرى، وصف ذلك اليوم سيكون مرهقاً بكل تأكيد مثل ساعاته التي لم تنته.

أخذنا بالقوة مرشداً جديداً من كل قرية، نظراً لأن المرشد العجوز فقد صوابه، أو ضاع منه الطريق، أو الاثنين معاً، وتَركنا بصورة مفاجئة، ملوحاً بذراعيه في اتجاهين، الشمال، الغرب، "جُندار موجودة في ذلك الاتجاه"، ثم جنوب، غرب، "ذلك هو الطريق، أرجعوا إلى الخلف! الطريق دائري".

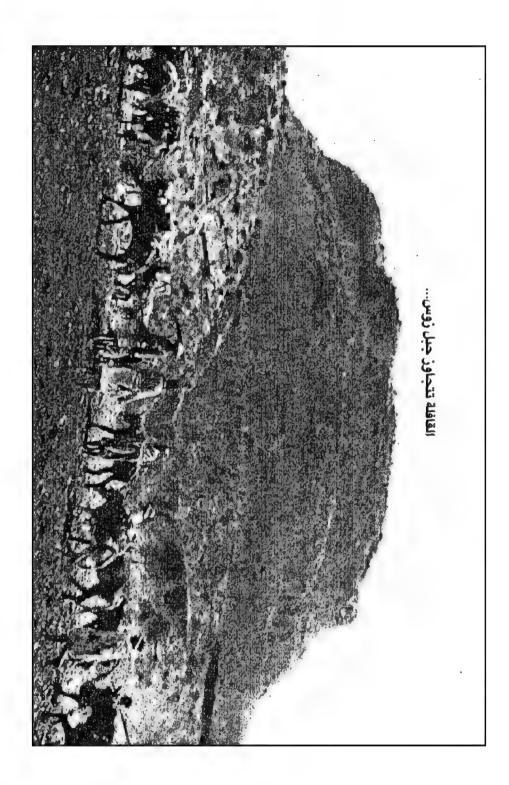
استدار الطريق واستدرنا نحن معه! وعلى الفور، تجولنا خلال ساعة مبكرة من فترة العصر، في نحو ست قرى، تمكنا من تحديد موقعها على الخارطة عندما أضفنا إلى اسمها _ ميديرج _ Mederje مقطعاً ليصبح _ ميديردنج ثلاثة مرشدين وشرطى، لمدة ميديردنج ثلاثة مرشدين وشرطى، لمدة ساعتين هما الأكثر صخباً في زمن الرحلة التي تميزت بقوتها الرئوية، وخاصة عندما رحنا نتجول هنا وهناك، وظهورنا أو بالأحرى أكتافنا اليمنى في اتجاه جُندار، عندما كنت أحدد الاتجاه الصحيح عن طريق البوصلة، كان المرشدون يتفقون معى ويروحون يلوحون بمشاعيبهم (أله في اتجاهات ثلاثة مختلفة، ويعلنون في آن واحد، "هذا هو الطريق الرئيس، استديروا!

عبرنا نهراً آخر وبدأ وُلُدو سمبات يستعيد اهتمامه بالحياة.

قال "صحيح أنى فقدت صوابى بعض الوقت، حدث كلام كثير، أما الآن، وحتى عندما أغلق عينيَّ، لا يمكن أن أضل الطريق إلى جُندار".

سارع وُلِّدو سمبات إلى المقدمة، وبينما كان جونز وجابرا جورجس يبحثان بين الأحجار عن جيب من جيوب الماء النظيف، تبعتهما، وبعد مسير ثلاثمائة ياردة اختفى المدق (الطريق) في رقعة مزروعة بنبات القطن، وبدون اهتمام أو إحساس بقيت ثابتة على سرج الحصان، في الوقت الذي بدا فيه التردد على المرشد، وشاهدت اثنين أسودين يقتريان منا وسألتهما:

واحدة مشعاب، والمشعاب عند البدو، عبارة عن عصاء في اعلاها نتوء جانبي يجعلها على V (المترجم)



"أين الطريق؟" تمتم أحدهما "إيه؟" قال الآخر "أو^(الم) Au (نعم)" كرر وُلُدو سمبات سؤاله.

قال العبدان دفعة واحدة "استدر، عد إلى الخلف".

خيمنا في حقل القطن وأمطرت السماء،

بعد ذلك بفترة وعندما أوقفت القهوة هى والأمل المرتقب فى الحصول على مرشد جديد تماماً، إحساسنا بالمزاح، كان جونز قد راح يبدى ملاحظات مريرة على الطريق المختصر الذى وافقت عليه، حدثت جلبة خارج المخيم.

صاح جابرا جورجس "جاء أحد الأعيان لزيارتكم"، تعين علينا ونحن بلا اغتسال وملطخين بالوحل وممزقين استقبال هذه الشخصية، التى ترتدى عباءة شديدة السواد، وتحمل مظلة شديدة البياض، وبنطال غاية فى النظافة؛ ذلك هو الفيترارى تاباجا Tabaja، ومن حوله عشرون بندقية وابتسامة تتلألأ مشرقة مثل مواسير تلك البنادق، تبادلنا أحلى ما عندنا من كلام وتحيات معقدة لمدة نحو نصف ساعة، ثم بدأ حوارنا يصطبغ بصبغة الواقع، لأن الرجل عرض علينا مرشداً.

سأله جونز "ما نوع هذا المرشد؟"

أخيراً اقترح علينا الفيترارى وهو يدخن من باب الفضول سيجارة مذهبّة الطرف، مرافقته عند عودته فى اليوم التالى، إلى منزله على "طريق" جُندار، وافقت على ذلك شاكرة له زيارته وانصرف الزائر إلى حال سبيله، بعد أن أرسل إلى مجموعة من الدواجن، على أن يأخذ فى مقابلها صابونة واحدة، قال "السبب فى ذلك أن خدمى يقولون: إن ملابسهم متسخة تماماً وإنهم سيشعرون بالحرج أثناء المرور أمامك، وأنهم يتعين عليهم الابتعاد". لم ترق لى فكرة لعبة الاستغماية بين التلال مع مرشد عقد العزم على عدم الظهور، وعليه ضاعفت مساهمتى فى عملية النظافة.

كان رحيلنا في صباح اليوم التالي مؤثراً جداً وقد شاهده القرويون جميعاً؛

Au 🖈 كلمة أمهرية بمعنى تعم (المترجم)

الذين تبعونا إلى مراحل تناسب مقاماتهم، في البداية انصرف الفيترارى على بغل غارق في سرج من القماش فضى اللون والقماش قرمزى اللون، ومعه غلام ظريف، أغلب الظن أنه يماني، يرتدى غطاء رأس مخططا ومن فوقه عمامة تجمع بين اللونين الأبيض والأحمر، وخلفه كان هناك شابان أحدهما يحمل على رأسه قبعة التاباجي التي تحميه من الشمس؛ جرت العادة أن يحمل الشاب هذه القبعة على رأسه الذي يختفي تماماً داخل تلك القبعة؛ أما الشاب الثاني فكان يحمل غطاء رأس صوفياً أسود وفرشاة ملابس، أما الحذاء والبندقية فكان يحملهما زوج آخر من الشبان الأكبر سناً، أما المؤخرة فكانت عبارة عن حملة البنادق والخدم الذي يحمل الواحد منهم نبوتاً طوله ثماني أقدام.

فى قرية تلا Talla الكبيرة، أكدوا لنا أننا كنا فعلاً على الطريق الرئيسى، لكن، من سوء الحظ أن الناس لم يهتموا مطلقاً بزراعة القطن أو الحبوب عبر هذا الطريق، ولذلك شق علينا التحقق من صحة العبارة، تجاوزنا أعداداً كبيرة من القرى، التى حصلت على أسمائها كلها لمعلوماتى الخاصة، لكن لم تظهر أى قرية من تلك القرى على الخارطة، ولم يستطع أحد بدءاً من الفيترارى إلى أكبر السكان سناً تعرف أى مكان من الأماكن الموقعة على الخارطة باستثناء دابوسج Dabosje وواحة مريم اللتين قالوا عنهما إنهما بعيدتان جداً، وعليه بدأنا نتشكك في المكان الذي كنا فيه، وبدأنا أيضاً نفكر في الوقت الذي سنصل فيه إلى جُندار.

عند كوخ من الأكواخ باعنى صبى صغير ربع جالون من الحليب لقاء قلم من أقلام الرصاص، ولما كان الصبى لا يعرف القراءة أو الكتابة تعجبنا من طلبه للقلم الرصاص.

قال حاسن "سيأخذه إلى رجل حكيم كى يكتب له رقية تشفى بطنه". "ألم يكن أبسط لو أنى أعطيته شيئاً من الدواء؟"

حثنى المترجم "أفضل ألا تفعلى ذلك، هؤلاء الناس جهلة تماماً".

خطر ببالى ذلك المجهود الذى بذلته من قبل فى علاج دُمّل، باستعمال مرهم حمض البوريك، عندما جاءنى المريض ليقول لى: إنه لم يعجبه طعم الدواء، لكنه أفلح فى أكل العلاج، أى الأنبوب كله، بأن أضاف إليه شيئاً من العسل!

ابتسمت الأرض لنا فى ذلك اليوم بذهب الشعير والزهور البرية وشجرة بازلاء ارتفاعها نحو ١٢ قدماً، تحمل قروناً مثل البالونات الخضراء، عندما بدأت الجبال الملونة بلون الخريف الأمريكى، هى والأشجار الشوكية قرمزية اللحاء تطوق المزارع، كانت تلك المزارع عامرة بالغزال والدجاج الغينى، حاول أحد جنود الفيترارى إطلاق طلقة على قطيع من الطيور السمينة رمادية اللون، عندما كانت تلك الطيور واقفة تراقبه من مسافة خمس عشرة ياردة، أخطأ الجندى هذه الطيور، على الرغم من أن بندقيته كانت ترتكز على شجرة من الأشجار، وكان هو بدوره جالساً أرضاً، وراح يصوب تصويباً دقيقاً طوال بضع دقائق.

قال حاسن "الحبشى لا يستطيع مطلقاً الإمساك بالبندقية محافظاً على ثباتها؛ يده تهتز دائماً، لأنه يتناول قدراً كبيراً من الفلفل والملح اللذين يجعلانه عطشاناً ومن ثم يشرب كثيراً".

وصلنا عند منتصف فترة الظهيرة إلى مقاطعة تباجا، وبعد أن أخفق التباجا فى حثنا على تمضية الليل فى مقاطعته، حتى يمكنه أن يزودنا بكل صنوف الطعام والعلف اللازم للماشية، ترك القافلة تمضى فى طريقها بعد أن قدم لها هدية وداع من البيرة، لكنه أصر على حتمية زيارتنا له فى منزله.

كان منزل التباجا عبارة عن كوخ كبير، فيه قسم معزول ليقيم فيه حمار، ليكون ذيله بمثابة منبة عندما يجلس الإنسان على ذلك الجانب من نار الحطب، كان ثلث المساحة المتبقية مشغولاً بكمية كبيرة من القطن الخام ونحو سنة براميل كبيرة مصنوعة من الطين ومملوءة بالمنتج نفسه.

"أنا لا أفعل شيئاً لمزارعى، أتركها وشأنها وهى تعطينى ثلاثة محاصيل فى العام، الريف كما ترون الآن يكتسى اللون الأبيض لأن الزرع أصبح ناضجاً، لن أجنى هذا القطن، ما الذي يمكن أن أفعله؟ منزلى مملوء بالفعل بالقطن".

"بوسعك الحصول على سعر طيب لهذا المحصول في أديس أبابا".

قال تباجا بلا مبالاة: "أديس أبابا بعيدة جداً عن هنا".

جلسنا على قرمة خشبية مغطاة بجلود عدة، إلى أن قام أحد الأشخاص بإحضار كرسى مصنوع من مثلث من الأغصان المغضنّة، مقعده مصنوع من شرائط من الجلد، وفى ركن من الأركان كانت تجلس سمراء مثل سمرة المكسرات، مضفورة الشعر، عارضة أعظم الجمال الحبشى، وجميلة الرأس، كانت تتسج سلة من الحشائش متعددة الألوان، لم تلق لنا بالاً سوى أنها أعطت قرعة مفرَّغة إلى عبد من العبيد مع إشارة منها فى اتجاهنا، كان الحليب الموجود داخل هذه القرعة عامراً بمادة غريبة لكنه كان منعشاً للغاية، سرنا اعتماداً على قوة هذا الحليب، حتى الساعة الرابعة وخيمنا فى الأجمة القريبة الموجودة تحت سلسلة التلال الموجودة فى الخلف، والتى أكدوا لنا أنها جُندار.

قال السايس: "مسير يوم".

قال حاسِن متنبئاً "سنكون هناك قبل دخول وقت الظهر".

غمغم آتو بيلاكو، الذي أصيب بقطع في رجله "لن تروا جُندار أثناء الليل".

أغار اللصوص فى تلك الليلة إغارة ناجحة على بغالنا ونجحوا فى سرقة أفضل هذه البغال، ساعة أن كانت تلك البغال عائدة من السُّقيا، وهذا هو أتُّو بيلاكو، الذى ليس لديه استعداد لإضاعة ولو طلقة واحدة أو حتى ذرة ملح فى سبيل إطعام القافلة، مرتكناً فى ذلك على العناية الإلهية أو على فى توفير الشعير المطلوب، ينظر إلى هذه الخسارة بابتسامة وهو يهز كتفيه.

قال: "إنه الحظ". وتركنى مندهشة من العقلية التى لن تخاطر بشىء من أجل النجاح، لكنها تقبل أبشع أشكال الفشل برياطة جأش، الحبشى مقامر سيىء لكنه خاسر جيد، أرسلنا على الفور رسالة إلى الفيترارى، نطلب منه العون فى استرداد بغلنا، وجاء رده مقنعاً لنا إذ أبلغنا أن الحبشى يتحمل خسائر الآخرين أكثر من تحمله لخسائره الشخصية.

رد علينا حارس القانون "إن كل ما يضيع فى هذا الحى لا يعود مطلقاً، لأن اللصوص، والقرويين، ورؤساء القرى متحالفون فيما بينهم ويقتسمون الأرباح".

لم يكن أمامنا شىء سوى الابتعاد قدر المستطاع عن هذه المقاطعة، وعليه سرنا مدة عشر ساعات ونصف الساعة فى اليوم التالى، تجاوزنا خلالها دنكاز Dankaz عند الظهر، لكن جُندار ظلت بعيدة عنا بشكل غامض.



الجدران المهدُّمة في جُندار،



العقد الموجود فوق الممر الذي يُطوِّق الحطام الرئيسي في جُندار

سألنا فلاحاً عند الظهر "كم تبعد جُندار عن هنا؟"

رد علينا مستبشراً "ساعتين"؛ واستدار ليضيف "لن تصلوا إليها هذه الليلة".

وفى ضوء حيرتنا سألنًا عابر السبيل التالى.

قال "ستكون جُندار على بعد مسير ساعة واحدة من المكان الذى ستخيمون فيه هذه الليلة".

ما المكان الذى تقصده؟ أين، في رأيك، المكان الذي من المفترض أن نخيم فيه الليلة؟"

أجابني "كيف أعرف ذلك، هذا يعتمد على سيركم".

أمضينا فترة الصباح فى الصعود إلى الأرض الضيقة المستوية التى تجثم عليها دنكاز Dankaz التى تهب عليها الريح، شاهدنا بحيرة تسانا Tsana التى بدت لنا من بعد وكأنها صفحة من الأوبال (*) والفيروز (**)، وأمضينا فترة العصر فى النزول من الرفوف الصخرية التى على الجانب الآخر البعيد، انه مر علينا المطر أثناء وصولنا لأحد الوديان وإرشادنا للقافلة، ونحن جاهزون لاستخدام مسدساتنا إذا ما تطلب الأمر ذلك، عبر نهر كان يتلوى إلى الخلف وإلى الأمام عبر المسار الذى كنا نسلكه، الأمر الذى كان يوحى باحتمال اصطدامنا باللصوص.

خيمنا فى مكان خال من السحب، مما عجل بحلول الظلام العامر بالبرق المتشعب من ناحية ووميض مصابيحنا التى كانت تتحدى الأعاصير، لكنها كانت تتوء بالحياة الحَشَريَّة التى كانت تلوذ بها، كنت أنا وهارولد جونز قد اتفقنا على أن أقوم أنا بقتل الحشرات التى يقل طولها عن بوصتين، فى حين يقوم هو بالتعامل مع "الحيوانات"، التى لا يمكن تسميتها فى واقع الأمر، باسم الحشرات، التى من قبيل أفراد الجراد الكبيرة، وكذلك الأشياء بنية اللون الضارب إلى الحمرة، والتى تعيش فى الوحل، والتى تكون على شكل ديدان كبيرة الحجم، ولها رؤوس شبيهة برؤوس النحل، وأجنحة مثل أجنحة الخنافس.

هو ما يسمونه عين الهر، وهو حجر كريم لبنى متعدد الألوان. (المترجم)
 الفيروز حجر نفيس ازرق مُخْضرٌ. (المترجم)

أيقظت القافلة عند الساعة الخامسة، ورحت أستحثها على الوصول إلى جُندار، وبعد مسير ساعتين ظهرت لنا أول معالم الأطلال البرتغالية القديمة فوق جبل تنتشر فوقه الكنائس، تعجب وُلدو جورجس بشكل واضح؛ "هذا هو المكان نفسه الذي جئت إليه في المرة الأخيرة"، كما لو كانت قلاع القرن السابع عشر قادرة على القفز في سائر أنحاء البلاد،

سأله هارولد جونز وهو ينظر إلى ساعته كما لو كانت تقويماً "ماذا عن طريقك المختصر؟"

"لقد وفّر علينا نصف يوم وأعطانا قدراً كبيراً من الخبرة".

"هذا ثمن غال، لقد تمزقت ملابسنا وتعكرت أمزجتنا".

رددت عليه قًائلة: "قد لا تكون الألاشين المصنوعة من الدانتيل، هى والأحذية التى لها نعال طرية، غير مناسبة لهذا المكان؛ لكنها فى كل الأحوال تكون أبرد عن الأحذية الأخرى".

أخيراً وصلنا إلى جُندار، في اليوم الثلاثين من مغادرتنا لأديس أبابا، المصادف لليوم الحادي والستين من مغادرتنا لداير داوا Dire Dawa بعد أن قطعنا مسافة ٨٧٣ ميلاً.

وتحت أسوار قصور فاسيل، مررنا فى الأسفل على الشجرتين الكبيرتين من أشجار الجميز، والتى تسمى إحداهما شجرة العدالة، والأخرى بالمقصلة التى تتدلى من أغصانها الثمار .

صاح جونز قائلاً: "لقد عثرت على مكان رائع للتخييم، هنا، في الداخل، خلال هذا العقد"! ودخلنا إلى مكان ربما كان فناء بين قصرين توأمين بُنيا على هذا الجبل.

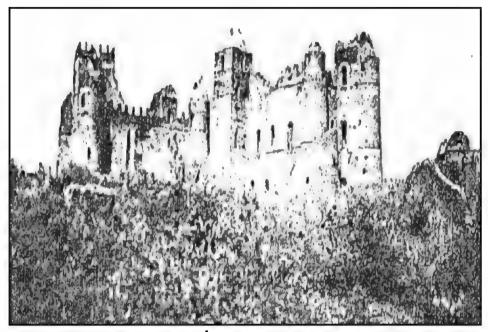
واصل جونز كلامه متناسياً شدته والخدوش المتورمة بفعل الأشواك، وهو ممسك بآلة التصوير ومتجه إلى نقطة الأفضلية، "يا له من خطر رائع، عندما تخيمين هنا ومن ورائك هذه الخلفية".

كانت جُندار مبهجة من الناحية الجمالية، كانت جُندار عالماً من الأنقاض التى تحجبها عيدان قصب السكر والشجيرات المزهرة متعددة الأغصان، كانت القلعتان المغربيتان الكبيرتان تقعان خارج هذه المتاهة من الأسوار

المهدمة، التي فيها أبراج، وأعمدة، وقباب مهدمة مبعثرة هنا وهناك، كان لون القلعتين مثل لون الذهب الشاحب خاصة القباب الصغيرة، والاستحكامات التي كانت على امتداد سطحي هاتين القلعتين فيما بين العقود، المنحوتة والرائعة، والمؤدية إلى مجموعة من درج السلم، المنحني صعوداً إلى الطابق الأول، حيث النوافذ الشبيهة بالمداخل المؤدية إلى ممرات الكاتدرائية، البوابات الرئيسة الموجودة في الأسفل مُسوَوَّرة هي الأخرى وفيها مزاغل، حتى يمكن الاحتماء بها في الدور الأرضى، في حال إغارة اللصوص على القلعة، منذ سنوات قلائل، وعندما أُجبر الحاكم المحلى Dejezmatch بواسطة رئيس العصابة (本) على اللجوء إلى الدور الأرضى، ولجأ معه القسم الأكبر من السكان، وراحوا يتفاوضون مع العصابة من خلف الجدار الذي يبلغ سمكه أربع أقدام، هذه البنايات التي تبلغ من العمر ثلاثمائة عام جرى تشييدها من الحجر الغشيم الذي يغطى الجبال، والمثبت بملاط غير منتظم وصلب وشديد التحمل، والذي يجرى تقويته باستعمال الفقاقيع في بعض الأحيان، عقود النوافذ والأبواب مصنوعة من الطوب اللبن، مدخل القلعة الرئيس يمكن الوصول إليه عن طريق جسر منحني من فوق ممر غائر ريما كان واحداً من الخنادق التي تملأ بالماء كنوع من الحماية للقلعة؛ وتوجد على جانبي هذا المدخل أبراج على شكل قباب يمر الداخل من خلالها ليدخل القلعة الأولى من هاتين القلعتين المربعتين،

معروف أن الملك فاسيل الشاوى Shoa، سليل سليمان Solomon، استعان بنحو خمسمائة برتغالى فى حروبه ضد المسلمين، وعندما انتهت معاركه فى العام ١٦٤٠ الميلادى لم يحولوا سيوفهم إلى أسنة للمحاريث، وإنما صنعوا منها أدوات وعدد البناء وعدد يستعملها العاملون فى التجصيص، بنى هؤلاء المحاربون هذين القصرين التوأم، للسيدات اللاتى فى بلاط راعيهم، كما بنوا أيضاً المنزل المجاور الذى يسمى "منزل الحب الكثير"، ببوابته الجميلة بعقودها الرباعية الشكل، من تحت دروة شبيهة بالدانتيل المنحوت، الكنيسة الموجودة هنا أيضاً ترجع إلى هؤلاء المحاربين، وحال هذه الكنيسة أفضل من حال القلعتين اللتين كانتا ذات يوم مملوكتين لملك عظيم، وفي هذا المكان

[🖈] بلغ رئيس العصابة هذا من القوة حداً كان يُوصف معه 'بملك الجبال'. (المترجم)



القلعة التوام في جُندار،



المدخل الرئيسي المؤدى إلى القلعة التوام في جُندار

أيضاً، يوجد المكان الذى دُفن فيه زيبول Zeboul، أحب خيول الملك فاسيل إليه، وعلى مقربة من مدفن هذا الحصان يوجد أسكوام Usquam، وإن شئت فقل بيت المتعة والفرح الذى كان حاكم جُندار يُسَرِّى فيه عن نفسه بطرق سرية، جانب الجبل فى هذه المنطقة مغطى بآثار صناعة هؤلاء المحاربين، وآثار القلاع الضخمة وآثار جدرانها المسننَّة التى تمتد إلى مسافة أميال عدة، والأبراج ذات القباب، والبوابات والجسور، والخزانات، والحصون التى هى على النقيض تماماً من الأكواخ، التى تزحف على المنطقة على شكل مجموعات غير منظمة من حول أقدام هذه الفخامة العظيمة.

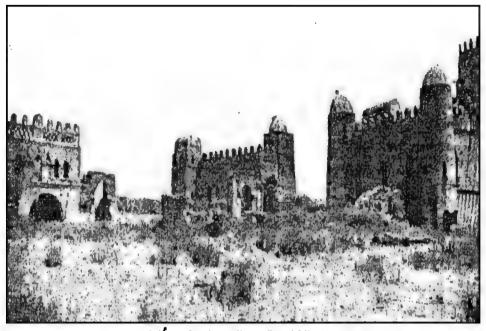
هناك قلعة أصغر من هذه القلاع، مقامة فى مكان منعزل على سلسلة من الصخور؛ هذه القلعة تنتمى إلى تاريخ أقدم، لكن بناتها كانوا من غير المحاربين البرتغاليين الذين بنوا القلاع السابقة، وهم مسئولون أيضاً عن بناء الجسر الذى عبرنا النيل الأزرق من فوقه ونحن فى طريقنا إلى دبرا تابور، كما أنهم مسئولون أيضاً عن مبان أخرى، التى لا تزال آثارها على جانب الجبل، وفى مجرى النهر فى الشمال الغربى من الحبشة، أصبح للبرتغاليين نفوذ كبير فى الحبشة، اعتباراً من العام ١٤٩٠ الميلادى، عندما أرسل بدرو دى كوفلهاو Pedro de Covilhao فى مهمة إلى نجيوس الإسكندر Negus Alexander فى تجيوليت Tegulet والسبب فى ذلك أن سلسلة طويلة من الجنود البرتغاليين الشجعان والمحظوظين نذروا أسلحتهم لمساعدة الحبشة؛ وقد انتهت هذه المعارك فى العام ١٥٤٣ بهزيمة محمد جران Gran، أمير هرر، جاءت تلك الحملات فى أعقاب بهزيمة محمد جران والحبشة مدينة للبرتغال لا بعمارتها فحسب التى صنعت عظمة جُندار يوم أن كانت هى الحاكمة، وإنما أيضاً بأفضل أدبياتها الدينية.

جاء مخيمنا بمثابة مكان للأحلام، إذ من المؤكد أن أشباح هؤلاء المحاربين الأجانب، لابد أن تسكن الأحواش والصالات التي بناها أتباعهم ومن جاءوا بعدهم؟ لم يكن هناك قمر في تلك الليلة، لكن النجوم فيما بين انكسارات السحب كانت تضيء الحواجز الأمامية ومتاريس تلك القلعة شبه الكاملة التي تقع أسفل القصر المزدوج، في أي لحظة من اللحظات التي تخرج خلالها

فرقة من الجنود من بيت الحرس الذي على شكل برج، يظهر يشير ومعه بوق في الممر، أو قد تظهر امرأة منحنية على النافذة المغربية وهي تضع برقعاً أو قناعاً على وجهها، وتتحول هذه الأشباح إلى خيالة من البرتغاليين أو المغاربة، الذين سرق منهم مهندسو جُندار عظمتهم الكبيرة، الأحباش شعب عملي وليس شعباً رومانسياً، وعليه لم يكن منطقياً أن أحاول تصوير شبح حليق أو شبح أشعث من أبراج عاصمة الملك فاسيل.

لم تكن جُندار مقنعة من الناحية العملية، بعد أن استهلكت قافلتنا مقداراً من السكر والقهوة والأرز أكبر مما يجب، كان أفراد القافلة يؤكدون لى أن هناك في جُندار رجلاً هندياً يمكنني أن أشترى منه كل شيء، استرحت أنا وجونز لهذا الكلام، وعليه عندما كانت القافلة تعرب عن رغبتها في تناول شيء حلو المذاق، كنا نضع هبابة صغيرة من السكر في كل كوب من الأكواب، وكان من الطبيعي أن يصبح ذلك الهندي شيئاً خيالياً شأنه شأن تلك المسافات المرنة، كان القنصل الإيطالي قد زودنا بشيء من الخبز، نظراً لأننا قمنا بتوزيع آخر ما معنا من بسكويت، للتخفيف من أثر مجاعة من المجاعات التي نجمت عن عمى بصيرة واحد من الثقات المرافقين لنا، الذي كان يتطلع دوماً إلى أن تكون القرية التالية هي محطة الوصول، أو على حد تعبير حاسن أن "مريم العذراء سترسل لنا الخبز".

كل ما استطعنا شراءه كان خليطاً محلياً من البن والتوابل القوية، والعسل، والبصل، والدقيق المر المحلى. وعندما أردنا دفع ثمن هذه الأشياء بعد أن نفد ملحنا وطلقاتنا، قدم لى وُلدو جورجس بعضاً من اللفافات العجيبة التى كان يحتفظ بها ملفوفة فى خرق من القماش كان يضعها فى جيبه، كانت تلك اللفافات تحتوى على نتف من البخور، وربع بوصة من الكحل، ومجموعة من الحبوب الكبيرة، التى تستخرج النساء منها زيتاً يستعملنه فى دهن شعورهن، لكن القيمة الشرائية لهذه اللفافات كانت كبيرة جداً، ما إن ذاع خبر حيازتى لتلك المعينات الجمالية، حتى قامت مجموعة من "السيدات الجميلات بتطويق مخيمنا، ورحن يقدمن لنا الدجاج والبيض مقابل ذلك المجدد المؤقت عند هؤلاء السيدات وجمالهن، لم تكن القسمات الجمالية واضحة تماماً عند هؤلاء السيدات نظراً لأن وجه المرأة الأفريقية يحمل تعبيراً يدل على عند هؤلاء السيدات نظراً لأن وجه المرأة الأفريقية يحمل تعبيراً يدل على



حطام الفناء، قصر السيدات في جُندار



قلاع الملك فاسيل التوامية في جُندار

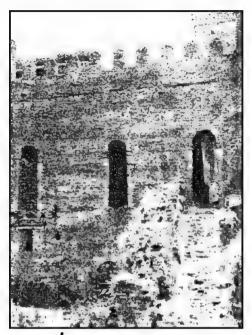
الخوف والفزع خاصة على وجوه البنات الأفريقيات، ربما كان ذلك التأكيد ناجماً عن الدم الشمالي الذي يجري في عروقهن؛ وأنا أرى أنه نظراً للتخفف العرقي الناجم عن الزواج من الأجانب، فقد أدى ذلك إلى زيادة حدة السمات العرقية غير المناسبة، معروف أن سكان شمال الحبشة كانوا مستقلين بطريقة فيها شيء من الغطرسة، وغير مبالين، وكثيري الكلام، ولا مبالين، لم تكن بين أهل الشمال أي إشارة تدل على الرق أو العبودية، كان أعيان أهل الشمال مضيافين ومؤدبين، لكنهم يفتقرون إلى السحر التلقائي الذي يتمتع به الجنوبيون، كان الرجال الصغار جشعين، لكنهم بلغوا من الاستغلال حداً لم يستطيعوا معه كسب أو الحصول على البقشيش الذي كانوا يتحرقون إليه شوقاً، كان من عادة الحاكم أو الريُّس أن يرسل معنا مرشداً؛ لكن هذا الرجل، كان يبدو عليه الضجر، بعد أن يقضي معنا نصف يوم، ويتركنا منحنياً لنا إشارة إلى احترامه لنا، على الرغم من وعدنا له بأننا سنعطيه أجر أسبوع إذا ما أمضى معنا ساعة أو ساعتين أخربين، ومع ذلك كان هذا الرجل نفسه يجلس إلى منتصف الليل مقابل خيمتنا ويروح يطلب مناكل شيء بدءاً من مظلة جديدة (شملة) إلى أعواد الثقاب، أهل الشمال شحاذون متكبرون، يتملقون سادتهم، كما أن عضالات ظهورهم تمكنهم من الانتناء احتراماً بصورة دائمة، ومع ذلك يفلحون في البقاء بلا قيود، هم أناس مرنون، ومستعدون للتمرد على سيد من سادتهم من أجل أن ينادوا بسيد آخر، قال لنا واحد من أولئك المرشدين، غير الراغبين في الاستمرار معنا، والذي كان موفداً من قبل الحاكم المحلى، والذي عقد العزم على عدم الانتقال أو التحرك إلى ما بعد الجبل التالي: "أنا أقاتل من أجل هذا الحاكم، لكني لست عبداً له"،

حدثت فى صباح اليوم الذى غادرنا فيه جُندار مشاجرات كثيرة ومعقدة بين القافلة وأهل المنطقة إلى حد أننا وجدنا صعوبة بالغة فى التحرك، كان الإيطالى قد أكد لنا أن المسافة إلى آدوا Adua تستغرق مسير خمسة عشر أو ستة عشر يوماً، وذلك اعتماداً على الطرق والمدقات الوعرة أصررت على أنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من السكك الصاعدة النازلة والعامرة بالأشواك فى منطقة الخروج من لالبيلا، وأصررت أيضاً أن تسع مسيرات

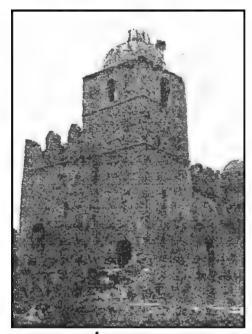
ستكفينا تماماً ونصل بعدها إلى آدوا، نظراً لأننا كنا نقترب من نهاية الفترة المحددة لتحميض الأفلام، كان هارولد جونز قلقاً وراح يعد الأيام اعتباراً من اللقطات الأولى في داير داوا Dire Dawa، مما جعلني أكرر عشرات المرات سؤالي عن الوقت الذي ستستغرقه هذه المسافة، سواء أكان ذلك بطريق البر أم بطريق البحر، حتى يمكن أن نصل إلى الحضارة، التي كان يعني بها العثور على غرفة مظلمة وأميال من أحواض هيبوسلفات الصوديوم التي تستخدم في التحميض.

بدت القافلة عند الساعة الثامنة صباحاً وكأنها في مأزق لا فكاك منه مع رجال يتصايحون ونساء يصرخن، أنقذت آتو دايويتو Atto Daiwitu من جمهور من الناس أرادوا أن يبيعوه بغلاً بثلاثة أضعاف ثمنه ويشترون منه بغلاً من بغاله المرهقة بتسعة شلنات، كما أنقذت السايس أيضاً من وغدين عرضا عليه شراء خيولنا الثلاثة نظير أربعة عشر شلناً لكل واحد منها، من منطلق أننا لن نستطيع استعمال هذه الخيول في الجبال، ارتفع صوت بالينا الحاد مغطياً على الأصوات كلها، هذه سيدة وقور كبيرة القسمات وقوية البنية كانت تحاول جذب بالينا من فوق حصانه، في الوقت الذي كانت فيه امرأة شابة، شديدة البأس، قد أمسكت بلجام جابرا جورجس، ولما كنت غاضبة بسبب تجوال البغال المحملة على غير هدى من الأنقاض، كنت على وشك ترك الأفراد لحال سبيلهم، اقتناعاً منى بأن جرائمهم هي التي عرتهم وكشفت أحوالهم، رأيت بعد ذلك مباشرة، الدقيق الذي كنت قد اشتريته للزبانية يجرى سحبه بشدة من السرج الخلفي ويجرى أيضاً في شملة Chamma (مظلة) جرى سحبها بعنف هي الأخرى من فوق كتفي الطباخ، ومن حسن الحظ أن تغير شكل تدخلي عندما شرح لي حاسن، أنه على الرغم من قيامي بدفع ثمن الدقيق فإن جابرا جورجس كان قد سرق الجوال!

تخلصنا فى نهاية المطاف من المفسدين، والشىء المحزن أننى كانت تراودنى شكوك حول هؤلاء المنهوبين، ووسط هذه الشروح والاتهامات، والتعليقات التى توحى بالازدراء والاحتقار بين الحين والآخر من حاسن "هذا هو الأسلوب الحبشى"، واصلنا مسيرنا عبر التلال والجبال، هذه هى أسكوام Usquam، تبدو



مدخل إلى احد القصور في جُندار.



برج بوابة في جُندار

لنا للحظة واحدة من داخل بيارتها، مثل مئذنة وحيدة جميلة، ثم تختفى بعد ذلك بين الأشجار، لكن بعد ذلك بساعات، وبينما كنت أنظر إلى الخلف أثناء توديع المرشد لنا "أشكرك، حفظك الله يا جُندار،" رأيت القلعتين الحارستين، وهما وحيدتان على الجبل الذي جرى بناؤهما عليه.

كان يوماً من أيام النظرات الخاطفة التى ألقيناها على تسانا، بحيرة الأوبال، التى بدت لنا مثل قوس قزح عند الأفق، وهذه أنتلوب Antelope وقد أومضت بين الأجمات، رأى مرشدنا عصابة من اللصوص، وأنا لا أعرف كيف تمكن المرشد من معرفة أن تلك كانت عصابة، لكن الرجل سارع وخلع نعله ليجد قصاصة من الورق مطوية بحرص في كل فردة من فردتي نعله.

سألت حاسن "ما هاتان القصاصتان؟"

"هاتان تعويذتان كتبهما أحد القساوسة، هو يعتقد أن هاتين التعويذتين تمنعان الأحجار من إيذاء قدميه، وتجعلانه يسير على الطريق الرئيسى، وبذلك يستحيل عليه أن يضل طريقه".

"لكن هل هاتان التعويذتان تساعدانه أيضاً على مقاتلة العصابات؟"

ارتسم الشك على وجه حاسن، "أظن أن هذا أمر مرجح، لأنهما طالما هما في حذائه فسوف بساعدانه على الهرب"!

🔷 الفصل الثامن عشر

المعارل مع الكساليس

انتهت الجبال الحجرية التى لها أفرع تمتد مرتفعة مثل قرابيس سرُبُ الخيول عبر المر، عند بلدة أجريف Agrif، وواصلنا سيرنا راكبين دوابنا بعد أجريف، مدة يومين عبر منطقة ريفية معشوشبة، تحولت تدريجياً إلى سلاسل جبلية مريحة كان الفلاحون يزرعون فيها حبوبهم وسط أكوام شبيهة بالدوائر، أو وسط أجمات تختفى فيها المجارى المائية، هذا واحد من البغال أصيب بالعرج بسبب الصخور، وتمزق ظهره بسبب سقوطه على الأرض، وكان من المحتم علينا إعدامه رمياً بالرصاص، اشترينا بغلين جديدين نظير أسعار أكدت أن الحبشة كانت يهودية في أساسها، وتخلصنا من خيولنا كلها نظير ثلاثة جنيهات إنجليزية دفعها لنا شخص ساذج قال لنا: "أنا أبيع بثمن كبير وأشترى بثمن قليل جداً". وهذا أسلوب من أساليب الأحباش.

قلت له: "هذا شيء طيب، وعلى سبيل الافتراض، وطبقاً لما تقول: أنا أشترى بغلك بثمن قليل جداً"!

ضحك.

"لكن هذه ليست طريقة إنجليزية".

"هل تعرف الكثير من الأساليب والطرق الإنجليزية؟"

"أنت أول من رأيت من الإنجليـز، لكن والدى يقـول لى، بع دائمـاً بسـعـر مرتفع للرجل الأوروبي".

كان الطعام هو الشئ الذي لم نستطع شراءه، كانت مخزوناتنا على وشك النفاد، كانت الأبقار أيضاً جافة (*)، وكان الدجاج لا يبيض، ولم يكن أحد من

[🖈] بمعنى "لا تعطى حليباً". (المترجم)

أهل الريف على استعداد حتى لبيع ديك عجوز لاستعماله في عمل الحساء، والمؤسف أننا تناولنا المكرونة والأرز في الإفطار، وأرزاً ومكرونة في الغداء، وكلاهما كان له مذاق الماء المحمل بالغرين الذي اضطررنا إلى استعماله في سلق هذا الأرز والمكرونة، كان مذاق البن المحلى الذي حصلنا عليه من جُندار حريفاً مثل الفلفل، إلا أننا تعجبنا إذ ريما يكون حاسن قد حدث لديه خلط وهو يسوى لنا القهوة، بين الفلفل والبن، كل من شرب الكوب الأول أحس بالعطش.. أما الكوب الثاني فقد جعله يحس بالإعياء والمرض، كنا أكثر حظا فيما يتعلق بالدقيق، تلك المادة التي يشبه لونها لون الشاى الثقيل، وبفضل ذكرياتي عن أستراليا، أريت جابرا جورجس طريقة صنع عجينة غير مخمورة يجرى تسويتها في الرماد المتخلف عن النار، والتي تؤكل ساخنة، وتكون مقبولة الطعم، على الرغم من ثقلها والآلام التي تنتج عنها ويحس بها الإنسان في صدره.

قلت لهارولد جونز: "لا تقلق، هذه الكعكة لا تؤذى، ومرشدنا يعرف كيف يصنعها، مرحباً لهذا هو أكبر طائر شاهدته في حياتي".

رأيت مخلوقاً ضخماً رمادى اللون تطاول قامته قامة عجل من العجول الصغيرة، وأرجله مغلفة ببنطال محكم من الريش الأسود، وذيله مكون من قضيبين طويلين مدببين في نهاية كل منهما لفافة بيضاء، وكانت هناك حول رأس هذا المخلوق لمسة قرمزية اللون، وكان يقف في طريق مرورنا.

لاحظت ونحن كنا لا نزال نتناقش حول النوع الذي ينتمى إليه ذلك المخلوق أن "ريشه كان شبيهاً بمعطف تم تفصيله تفصيلاً جيداً". ومررنا من خلال قرى ديفارك Devark لنجد أنفسنا نواجه من جديد تلك العادات والتقاليد الأمية، أبرزت بلا مبالاة التصريح الممزق الذي كنا نحمله ورحت أركز على أختام الحكومة، وأنا أشير إلى القافلة الحاملة لأمتعتنا بالتقدم، لكن لامبالاتي اختفت: أعلنت ستة أصوات أنها لا علاقة لها بالحكومة، ولم يلقوا بالاً للتصريح، وأصروا على ورقة موقعة من حاكمهم المحلى، الذي لم أسمع عنه قط، وبعد شد وجذب دام ساعة، تشكلت حلقة من البنادق حول أمتعتنا، في الوقت الذي أصبحت فيه أنا موضع الخلاف بين اثنين من رؤساء القرى وأتباعهما الآخذين في التزايد، اتضح لنا أن منزل الحاكم كان على بعد

مسافة مسير يوم واحد، بعيداً عن الطريق المعتاد، وأننا لابد من احتجازنا رهائن إلى أن يعود إلينا رسول بأوامر تفيد إطلاق سراحنا أو القبض علينا وحبسنا، كان من الصعب علينا تحمل ذلك كله والصبر عليه، وهنا وجدتنى أتخلى عن التفسيرات المعقولة كلها ورحت ألجأ إلى اللف والدوران.

رحت أقول بلغة حماسية "أنتم لا تجرؤون على لمس أى شخص إنجليزى يتقل في بلادكم بتصريح كتابي من حكومتكم".

"سنحافظ على متاعكم".

"سأذهب وحدى إلى الحاكم"،

"لن نتركك تذهبين".

لن تستطيعوا إيقافي إلا إذا فتحتم النار عليّ، وأنتم لن تجرؤوا على فعل ذلك".

"جرى حوار غير مفهوم بين الفيترارى ماكونن، الذى هو من النوع السيئ تماماً، كما أنه جشع وعنيد وحليفه بازاب Bazab الذى بدا عليه الخوف".

"انصبوا خيامكم هنا، وسوف نضع حولها كثيراً من الجنود، وسوف نوفد رسولاً راكباً إلى الدجيزماتش (الحاكم)، وعندما يصلنا رده سيكون بوسعكم المضى إلى حال سبيلكم".

كنت عند هذا الحد قد وصلت من الغضب حداً يمكن أن تحدث معه معركة لو لم يختف الزبانية هم ومقاولو البغال في وسط حشد من الناس كان من الصعب إنقاذهم منه، أمضينا ساعتين أخريين في جدل لا طائل من ورائه، كان كل طرف يلف ويدور ويهدد، لكن الموقف بقى على ما هو عليه، لم يحدث أي شيء سوى زيادة عدد الدهماء والشد والجذب، وزيادة في الجلبة والضوضاء، تقدم اثنان من المجادلين وقد ربطا نفسيهما بشملتيهما، وكان كل واحد منهما يمسك بعرف الفرس الذي كانا يطالبان به، ووضعا نفسيهما هما والحيوان المناضل أمام الفيتراري، وحاولا أن يكون صوتهما أعلى من أصوات الجمهور، ترتب على تفرق الجمع المحيط بالبغل الذي كنت أركبه وتمكنت من التصوير السينمائي.

قال هارولد جونز: "هيا بنا نُشَمِّع الفتلة".

رددت عليه "على بغل"، لكن على الرغم من أن الجنود كانوا يجرون بجانبنا، مانعين مرورنا ببنادقهم، فإن أحداً منهم لم يمسنا أو يلمسنا بسوء.

تأوه حاسن، وهو يلوح بيديه من فوق رأسه "يجب أن تبقيا"، زاد صراخ جابرا جورجس من الضوضاء والجلبة، كانت بعض أجزاء من كلام كل من وُلدو جورجس، آتُو بيلاكو، تركز على أهميتنا وعلى الاستقبالات الحارة التى لقيناها من قبل كبار المستولين، كان وُلدو سيلاسيِّ هو الوحيد الذي أحتفظ بهدوئه.

همس لى وُلدو سيلاسى "الذى حدث أنهم، سمعوا أنكم أناس عظماء وخلقوا من ذلك مشكلة للحصول على مبلغ كبير على سبيل البقشيش، لكن المرشد لا يجرؤ على أخذ البقشيش لأن هناك كثيرين يراقبونه، وعليه غضبوا ويودون أن ينزلوا بكم الضرر، يزاد على ذلك أن الجنود كلهم منفعلون، وعندما يوجد عدد كبير منهم مع بعضهم البعض، فإن هؤلاء الناس غير المتحضرين يفتحون النار بلا أى تفكير".

رجانى حاسن قائلاً: "لا تعرضى البقشيش الآن، فإن الأمر سيبدو كما لو كنت أرتكبت خطأ ما".

كدت أستشيط غضباً "تقول بقشيش! لن أعطى مليماً واحداً لأى أحد منهم"!

وبشئ من الإلهام تناولت من الحقيبة التى أعلقها على ظهرى، جواز سفر إنجليزياً مستعملاً ورحت ألوِّح به في وجه الفيترارى بازاب (الله)، ضعيف الشخصية الذي يود التملص من الشجار، ييدو أن جواز السفر كان وثيقة لها أهميتها، فقد كان مختوماً، ومُعلَّماً بكثير من الأحبار مختلفة الألوان، وفيه تأشيرات لنصف دول أوروبا والشرق بكامله، ومن حسن الحظ أن أقل البلاد شهرة كانت هي الأكبر مساحة في تأشيرتها . تأثر الفيترارى بمنظر جواز السفر لكني لست متأكدة ما إذا كانت أسود تشيكوسلوفاكيا أو أن طلاسم بلاد فارس هي التي دفعته إلى التحرك، كان خاتم العراق أخضر اللون قد أسكت شريكه المتواطئ معه، قال الفيترارى بازاب "أمامي رحلة طويلة يجب أن أقطعها، وأنا سوف أعود إلى منزلي".

[🖈] واحد من البشر الأقرباء للإمبراطور والمقربين إليه وهم من أصحاب الهيبة والمكانة. (المترجم)

انسل المرشد خفية ومعه حملة البنادق التابعين له، في حين أدرك ماكونن أن الشئ الوحيد المتبقى له هو الوفاء بتهديده والكتابة إلى الحاكم المحلى.

تمنيت لو أنى استطعت قراءة الرسالة التى كلفته نصف ساعة من التفكير، وهو جالس على الحشيش الأخضر بجوار كاتب يحمل نباتاً زنبقياً متخشباً، أسفرت كتابة ماكونن لتلك الرسالة عن هدوء الرجل بما فيه الكفاية مما جعله يسمح لوُلدو جورجس بمرافقة رسوله إلى الحاكم المحلى.

قلت بصوت عال "بلّغ الحاكم المحلى أن الحكام كلهم استقبلونا استقبال الأمراء، لكن هذا الرّجل الصفير تعامل معنا كما لو كنا لصوصاً". عاتب المرشد صديقه.

قلت غاضبة "إذا كنت تعتقد أن ليس من حقنا الترحال فامنعنا منه، وإلا قُم بمرافقتنا لبضع ساعات قلائل، طالما أنك تقول أن الرُّسُل سيعودون قبل دخول الليل".

ريما كان المرشد، لا يزال أسيراً لخطته الأصلية، على الرغم من اختلاف تحقيقها اختلافاً كبيراً عن مفهومها، ويتطلع إلى إشباع جشعه عندما يصبح معنا على انفراد، قام المرشد في شيء من الصعوبة، واستعراض القوة بتفريق الجمع، وأخذ حصاناً من متسكع متردد، ومضينا في طريقنا بعد تأخير وصل إلى نحو أربع ساعات، ومعنا اثنا عشر جندياً يحرسون أمتعننا، وعدد مماثل كانوا يجرون خلف رئيسهم، لم ينطق أحد بكلمة واحدة، كنت أنا وهارولد جونز ساخنين وجائعين إلى الحد الذي لم نطق معه رؤية المزاح الذي انطوى عليه ذلك الموقف، كنا واعيين تماماً لتوتر الموقف إلى حد أننا سحبنا بعضاً من حبوب الأرز الوسخة المنظر من بين الأشياء التي في الحقائب التي نحملها على ظهورنا ورحنا نمضغ تلك الحبوب على الملأ، قام المرشد بمحاولة فاترة أوقفنا فيها في المنطقة التي نفضت الأرض المنبسطة عن نفسها عباءتها الخضراء وانحدرت بصورة مفاجئة عند حافة صخرة أولكفت Ulkefit.

"هذا جبل شديد الارتفاع، والبغال يمكن أن تنزل الواحد بعد الآخر، ويتعين إنزال الأحمال كلها، ويتعين على الرجال حمل كل هذه الأحمال".

وبلا رحمة ودون أن أنظر إلى معذِّبينا، رحت أسوق القافلة أمامي، وراحت

الحيوانات تنزل الواحد بعد الآخر، من فوق هذا المنحدر غير العادى، وكنا نلاحظ الحيوانات وهي تهتز فوق قطع الأحجار الضخمة، وهي تنزلق وتتعثر كما لو كانت قطعاً من فلين في بحر عاصف.

وتنفتح أمامنا أروع المناظر الطبيعية الحبشية، عندما نظرنا عبر واد عميق بين جبلين، كان المنظر عبارة عن ظل بنفسجى اللون لقمم سمين Simyen منذ آلاف الآلاف من السنين عندما كان الأرباب القدماء يحكمون الحبشة، لايد أنهم كانوا يلعبون الشطرنج مع هذه الصخور الضخمة، لأننا شاهدنا فلوسات (*) الأساقفة منحوتة في حجر لازوردي، وشاهدنا قلاعاً لها حُمرة الشمس الغاربة على الأبراج الصغيرة التي على أسطح هذه القلاع، ورأينا أيضاً فارساً من الزمرد في المنطقة التي زحفت الغابة فيها على الصخر، أيضاً فارساً من الزمرد في المنطقة التي زحفت الغابة فيها على الصخر، وعن بعد شاهدنا، ملكاً، متوجاً من حجر الياقوت يحرسه صف من العسكر، وعن بعد شاهدنا، ملكاً، متوجاً من حجر الياقوت يحرسه صف من العسكر، الذين يصيحون أمام بواباتهم، حولوا قطع الشطرنج إلى جبال، هذه القطع الذين يصيحورة في سمين Simyen، إلى أن تعود الدنيا إلى الوثنية من جديد، وتنزل التيتانات (** أن والهة الأرض من ضفاف السحاب الهائلة لكي يراهنوا على نجم أو نجمين في رياضتهم.

تعين علينا النزول من فوق جبل أولكفت Ulkefit مستخدمين فى ذلك ما تبقى لنا من أقدام، كانت رجل من رجليَّ قد تشوهت بسبب رفسة البغل، لكن على الرغم من أن هارولد جونز كان فى المقدمة حاملاً معه آلة التصوير السينمائى، فلم يكن هناك مكان صعب يحتم علينا تنزيل الأحمال.

بدأت متاعبنا من جديد عندما وصلنا حيداً (المه الله الله التنشر فوقه الأكواخ، ظهر لنا للوهلة الأولى على أنه سفح الجبل، كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة، لكنى صممت على مواصلة السير على أمل الخروج من منطقة الحاكم المحلى، قرأ المرشد أفكارى، وأكد لى في شيء من الإصرار،

[🖈] فلُوسة: بتشديد اللام وضمها، هي التاج الذي يرتديه الأسقف. (المترجم)

التيثانات: في الميثولوجيا الإغريقية هم الجبابرة الذين حكموا العالم قبل آلهة الأولمب. (المترجم)

^{*} الحَيْد: بفتح الحاء وتسكين الياء، هو ما نتا من الجبل. (المترجم)

"إذا سرت مدة أربعة أيام ستظلين أيضاً في ممتلكاتي" الأمر الذي جعلني أخمِّن أن تلك كانت "البوابة" الأخيرة في مقاطعته.

قلت لهارولد جونز "فلنبذل المزيد من الجهد" لكن أتباعنا كانوا مثل معجون تثبيت الزجاج في النوافذ، أكثر من ذي قبل، قام هؤلاء الأتباع بمحاولة غامضة لحث البغال على السير، لكن عندما قام رجال المرشد Feterari بضرب البغال بمؤخرات طابانات بنادقهم، ليعيد البغال إلى الخلف، كانوا يتثاءبون، وكانت بنادقهم عديمة النفع على ظهور البغال، وكانت تنبعث من أفواههم المفتوحة على مصاريعها كلمات لا جدوى منها ولا طائل من ورائها، لم يشارك في تغيير اتجاه الحيوانات الخائفة مع هارولد جونز سوى وُلدو سيلسِّي هو والطباخ، في الوقت الذي كنت أنا فيه أعيد وأزيد في الأسانيد القديمة التي كنت أسوقها على ماكونن، عند هذه المرحلة أصبحنا نحن الاثنين عنيدين مثل البغال تمامِاً، فقد عرف ماكونن أنه لن يحصل على بقشيش، وظن أنه جعل من نفسه أضحوكة أمام الناس، وخشى أن يصبح عرضة للمساءلة أمام الحاكم، أو السلطات الغامضة، الأعلى من الحاكم، وعلى الرغم من كل هذه المنغصات كان مصراً على أن ندفع له شيئاً، وأنا بدورى أيضاً كنت مصممة على عدم تمضية يومين أو ثلاثة أيام وكأننا سجناء في هذه القرية شديدة الوساخة، في الوقت الذي كان فيه الزبانية ومقاولو البغال يشربون فيه إلى حد الشجار، فضلاً على الحشرات كريهة الرائحة بدءاً من رائحة الشحاذين إلى رائحة البق الذي كان يزحف إلى خيامنا.

كان واضحاً أننا نستطيع بفضل المسدسين وبندقية السايس، إنقاذ أمتعتنا من قبضة الجنود العشرين، الذين استولوا من جديد على هذه الأمتعة، والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الجنود العشرين عقدوا العزم على عدم المسير إلى أبعد من المكان الذى وصلوا إليه تحت أى عذر من الأعذار، وهنا أحسست بأن الوقت قد حان للعب آخر ورقة من أوراقي.

"حسن جداً، أنا لا أستطيع منعكم من سرقة أمتعتى، لكنكم لن تجرؤوا على إيقافى، هيا بنا يا جونز، سنواصل مسيرنا".

تحدث المرشد محاولاً إقناعنا.

"لن تستطيعا المضي قدماً وحدكما، ستموتان في الجبل، الجبل عامر

بالضباع واللصوص".

لم يجد حاسن سبباً لاستبعاده من هذه الميلودراما (*)، قال: "سنذهب جميعاً بصحبتكما، سنمشى إلى أن توافينا المنية".

هرش ماكونن رأسه بطرف عكازه الذي يبلغ طوله نحو سنة أقدام.

قال: "يا لها من امرأة عنيدة وعنيفة، لم تر عيناى أحداً بمثل هذه الغلظة، الإنسان يمكن أن يحسبها رجلاً لولا قسمات وجهها".

عند هذه المرحلة كان اثنان يمسكان بلجام بغلى، وعليه نزلت من فوق البغل، وأخرجت زمزميتي، وناديت على جابرا جورجس وطلبت منه إحضار جوال الأرز، وتناولت جراب مسدسى، وبدأت المسير، كان يقف أمامى طابور من حملة البنادق التابعين للمرشد، وفي غضون ثانية من المزاح المستعاد، كنت أتعجب مما لو تركوني أمر، وإذا لم يتركوني أمر، سوف يتعين على فتح النار أو الوقوف، وأدركت أن الحالتين هما مثار للسخرية والتهكم، كان هارولد جونز يتبعني، وحقيبته التي يحملها على ظهره، تتدلى من كتفيه، من سوء الحظ أن وُلدو سياستًى أتلف هذه اللمسة الفنية، عندما قام بإزالة المخدة المزقة التي كنت أضعها بين عامود سرج بغلى، وراح يجرى متثاقلا، وقام حاسن بإحضار مؤخرة، القافلة، والمعروف أن حاسن هذا في لحظات الانفعال تفرورق عيناه بالدموع، ويعرى رأسه، ويروح يستعمل الحركة والإشارة للتعبير عما يريد، كما شارك جابرا جورجس أيضاً في إحضار المؤخرة، إذ كان يحتضن حزمة هي عبارة عن خوذ من خوذات النوم، لابد أن درجة الحرارة كانت تزيد عن ١٠٠ ٌ فهرنهيتيه، كما كان يحمل أيضاً قمعاً من السكر وغلاية بلا غطاء، من يُمِّن الطالع أن حملة بنادق المرشيد كانوا متأثرين مثل حاسن بكل مظاهر الشفقة والرثاء المحيطة بالموقف، تَعَّينَ على تحاشى نظرات هارولد جونز إليَّ، وأتذكركم كنت جوعانة تماماً، وأحس بالحرارة الشديدة، وكم كنت مُتْعَبِة وغاضبة، حتى أتمكن من منع نفسي من الضحك من مظهرنا السخيف، لكن الجنود استسلموا، وهنا وبدون أن ننظر إلى المرشد Feterari، بدأت أنا وجونز تحركنا، وغمغمات حاسن ترافقنا، بعد أن عاد إلى الخلف فجأة لإحضار حرام صوفى، وليؤكد من جديد على

مسرحية تبالغ في إثارة العواطف وتنتهى بنهاية سعيدة. (المترجم)

المرشد ماكونن الذي كان محرجاً:

"ستسقط من فوق الصخور، وسوف نُعدم جميعاً، نحن ليس معنا مصباح، والمكان عامر بالحيوانات البرية والرجال غير المتحضرين، وهي لن تتوقف مطلقاً، سيقيدونك بالسلاسل، لقد ضاعت قبعتي، وليس لدى بطانية، الجو شديد البرودة، نحن نكاد نتجمد، لو ماتت، فذلك يعني ضياعنا كلنا، الزمزميات ليس فيها ماء، والجو حار، ونحن نشعر بالعطش، سنضل طريقنا، ونموت جميعاً،" وعندما أحس المرشد بمدى الكارثة التي يمكن أن تتهددنا لحق بنا.

قال المرشد وهو كسير العينين: "لن تستطيع الذهاب معهما، وإذا لم تتوقف فسوف يقوم رجالي بتوقيفك".

لم نلق بالاً لذلك التهديد، لكن الجلبة والضوضاء القادمة من الخلف أزعجتنا، كان أتو بيركو قد فك بندقيته، وكان الزبانية يستعدون لمؤازرته.

تأوه حاسن: "ستقوم الحرب، وسوف نُقُتَل قبل أن نموت على الصخور، لقد ضاعت بطانيتي منذ يومين".

كنت متجهمة إلى الحد الذى جعلنى لا ألقى بالا لكل ما يدور، لكنى قلت لهارولد جونز: إنى خشيت أن تكون ورقتنا الأخيرة قد فشلت.

قال هارولد جونز بصورة قاطعة "لن أعود إلى الوراء، ألا تستطيعين فعل أى شئ؟ تفتحين النار على ذلك الوغد أو.. "ثم خطرت له فكرة "تصيحين! هذا هو المطلوب، عليك بالصياح".

نظرت إلى جونز نظرة شك، ثم نظرت بعد ذلك إلى حاسن الذى غمغم قائلاً: "إنه رجل سيئ للغاية، هو رجل مخيف. أكاد أبكى".

سحبت منديلاً كبيراً، كنت أستعمله تحت قبعتى على رأسى عندما تشتد حرارة الشهس، وغطيت وجهى بذلك المنديل، وبكيت كان ذلك العمل هيستيريا في بدايته، وهنا تحولت الدهشة المرتسمة على وجه وُلدو سيلاسي إلى ضحك، لكنى عندما تذكرت الألم الذي في قدمي، والوقت الذي أضعناه، أفلحت في اعتصار شيء من الرطوبة من عيني، وبعد ذلك بدقيقة واحدة انفجرت في البكاء.

جاء تأثير ذلك البكاء سريعاً وغير متوقع، لم أر في حياتي من قبل رجلاً

يشعر بالقلق وعدم الارتياح مثل هذا الرجل، وبدون أن ينظر إلينا، ورأسه مطرق وعيناه مثبتتان على الأرض، أشار لى بالمضى قدماً.

حثنى بقوله "استمرى في السير، استمرى اسوف أرسل لك أمتعتك، وكل ما أطلبه منك هو أن تتوقفي عن الصياح والبكاء".

لكن الشكوك راحت تراودنى حول هذا النجاح السهل، وزاد شكى فى قدرتى على استئناف مسيرى مرة ثانية، مما جعلنى أتوقف على وجه السرعة، اتخذت من المنديل قناعاً، ورحت أواصل سيرى، وأنا مدركة أن القافلة تسير خلفى، لكن من حسن الحظ أن واقعية دموعى، جعلتى لا أدرك أن حاسن كان يبكى منفطراً إلى حد جعل جونز لا يتحمل ذلك البكاء، سقط الطريق فجأة من الحافة إلى منحدر من الأحجار السائبة، وهنا انفجر قائلاً:

"أظن أنك غير متعاطفة إلى أبعد الحدود، لقد وفرت عليك ثلاثة أيام وسط هذه الفوضى وسببت لنفسى صداعاً، وأتلفت منديلى النظيف الوحيد، وأنت تضحكين".

رد جونز قائلاً: "انظرى إلى حاسن، إنه يفعل ما تفعلينه بطريقة أحسن، هل سبق لك رؤية مثل هذه القطرات؟"

واصلنا السير متلكئين من شدة التعب، نازلين من فوق إلجبل، وقد غطانا الغبار، أقمنا مخيمنا بعد أن دخل علينا الظلام، وعندما أصبح آتُودايويتو Daiwitu غير قادر بعد على القيام بقفزاته الطويلة مثل الجرادة، عندما كان يقوم بعد البغال، "واحد، اثنان، ثلاثة، وهذا هو البغل الرمادى، خمسة، سنة، وأين يوجد الحيوان ذو الأذن الواحدة؟ سنة، سبعة، أطلب العون منك يا مريم، لقد نسيت! واحد، اثنان، يا وُلدو جورجس، هل البغل الجديد معك، أم أنه مع بالينا؟"

كانت هناك على رف من الرفوف الصخرية قطعة أرض عامرة بأشواك الجمال التى يبلغ طول الواحد منها نحو ست أقدام، وكانت تلك المنطقة تطل على الوادى، نصبنا خيامنا بين هذه الأشواك وأمضينا القسم الأول من الليل في البحث عن مختلف مقتنياتنا، وفي تسوية الأماكن والفراغات التى يمكن أن نوازن هذه الأشياء عليها، فضلاً على نزع الأشواك من الأشياء التى انفرست فيها، لم يكن في المنطقة ماء وبالتالى لم نستطع تناول الطعام.

قال جونز: "النصر حلو المذاق، لكن تناول حبتين من الأسبرين لايُعدُّ عشاء كافياً، هل تظنين أن بوسعى قتل دجاجة غينية باستعمال المسدس؟"

رجوته ألا يحاول ذلك، وأردفت قائلة: "الإنسان ينام نوماً عميقاً عندما يكون جوعاناً".

هذا المثل لا ينطبق على الحال التى نحن عليها، لأن القردة كانت تتوافد علينا خلال الفترات القليلة التى كانت الضباع ومقاولو البغال يتوقفون عن عزف ألحانهم، وفى فترة الهدوء التى تسبق الفجر، راحت البغال بحكم تعبها من وسادة الأشواك، تتجول وتدوس حبال خيامنا وقطعت منها حبلين قبل أن تندفع داخله إلى الأيك، أخيراً لابد أن أكون قد رحت فى النوم، لأنى لم أسمع بعد ذلك شيئاً سوى صيحة جونز التى يطلقها فى الصباح:

"يا حاسن، أيقظ الزبانية".

رد عليه المترجم بطريقته المعتادة "أجل"، لكن ربما كانت هناك نغمة غريبة في رده الإيجابي، أو أن المخيم كان هادئاً على نحو غير طبيعي.

صحت قائلة: "أطلب من مقاولى البغال إحضار سُرج الأمتعة، لأنى أود أن نبدأ التحرك".

تلت ذلك فترة صمت، وبعدها جاء رد حاسن "كيف تبدئين التحرك في غيبة البغال؟"

"تقول: البغال غير موجودة" ١

"لا، لقد ذهبت البغال كلها لحال سبيلها".

ولما كنت قد تملكتنى شكوكى فى المرشد، الذى كان يؤرقنى فى أحلامى، فقد اندفعت خارجة من خيمتى، وفى قدمى فردة حذاء، وأحمل الفردة الأخرى فى يدى، رحبت بى أشواك الجمال، ودار مزيد من الحوار وأنا أقفز هنا وهناك ممسكة بقدمى التى كانت تشبه قدم القنفذ.

"من الذي أخذ البغال؟ هل سروقت، _ أم _"

تعجبت من مسألة تكييفى لهذه المؤامرة، كان واضحاً أن حاسن كان عديم النفع.

"لقد هربت البغال كلها، ربما كانت بحاجة إلى الماء، أو قد يكون الرجال

قد أخذوها، هذه المنطقة ليست من مناطق الأماهرة، الناس هنا كلهم غير متحضرين، هم يأخذون كل شيء، ويقتلونك نظير قليل من الملح".

عند هذا الحد كنت قد لاحظت بعض الأشكال المعتمة، تتحرك بين الأيك. قلت: "أنا أرى بعض البغال".

قال حاسن: "أنت ترين البغال الميتة".

"حسن، سوف يتعين عليهم السير على أرجلهم فى يومنا هذا، حسن، سنأخذ الخيام، وأكياس البراغيث، وعلب السيد/ هارولد جونز، وسوف يتعين على جابرا جورجس الاكتفاء بصندوق واحد من صناديقه، وسنترك كل ما عدا ذلك".

قال حاسن، وهو يردد كلامه كما لو كان جوقة إغريقية مملة: "لا توجد بغال للركوب".

ولما كنت أعزو كل ما يحدث إلى مكائد ماكُونن، فقد صممت على التغلب على هذه المكائد وإحباطها، وعليه قلت:

"ما الذي يعنيه ذلك؟ بوسعنا الاستمرار في السير".

وافق حاسن "أجل، لكن كيف ستُحمِّلين هذه الأشياء في ظل عدم وجود الزبانية".

"ماذا تقول؟"

"لقد ذهب الزبانية جميعهم مع أتَّو بيلاكو ليبحثوا عن البغال".

"في أي اتجاه ذهبوا؟"

لوح حاسن بيديه وبذقنه إلى الأعلى فى اتجاه المنطقة التى فيها عدونا. قلت "هذا ينهى الأمر، سنبدأ على الفور".

قوضنا الخيام ولففنا الفراش أسرع من المعتاد، لكن عندما جاء وقت التحميل على بغل "نافق" بدأت متاعبنا في الظهور، كان جابرا جورجس متعاوناً، على الرغم من أنه كان يصدر تعليماته وهو متعلق بالشفة السفلي لواحد من الحيوانات الغاضبة، ويمسك حيواناً آخر من عرفه، ويرفس الحبال هنا وهناك برجليه، إلى حد أننا عجزنا عن اتباع تلك التعليمات لأنها كانت

أكثر من اللازم، وهذا هو «بالينا» بطبيعة الحال، عضه واحد من البغال، وراح حاسن يدور هنا وهناك وهو يغمغم "أنا لا أظن أن هذا الذي نضعله هو الصحيح".

من حسن الحظ، وبينما كنا نقاوم بغلاً من البغال كانت لديه قوى الانقباض والانبساط التى تتوفر لآله الكونسرتينة (大)، تناهت إلى مسامعنا صيحات كانت قادمة من الأعلى، كانت تلك الصيحات تفيد أن البغال جرى العثور عليها! ورد جابرا جورجس على هذه الصيحات بسلسلة من الأسئلة جاءت على شكل صرخات حادة، وكانت صادرة من عرف الصخرة أو بالأحرى الجبل، إلى الوادى؛ عرفنا من الصرخات الأثيوبية غير العادية أن الحيوانات راحت تتجول بحثاً عن الماء، وجرى الإمساك بها بجوار ثقب طينى من ثقوب الماء يبعد نحو ميلين عن قمة الصخرة.

أبدى جونز ملاحظة "ظننت أنكم كنتم تسرفون فى حفرة المرشد". كان جونز يقصد ما يقول عندما أضاف "تخيلت أن مقاولى البغال أحسًا بالإعياء بعد أن قطعا معنا مسيرة طويلة بالأمس، وأن ما حدث اليوم كان مجرد حيلة أملاً فى الحصول على مسيرة هينة اليوم، ظننت أنهما طردا الحيوانات ودفعوها إلى الأيك، وأنهما كانا نائمين مرتاحين تحت الأشجار فى ذلك المكان". وأشار جونز إلى الأحراش الموجودة فى الأسفل.

قلت وأنا أسيفه "وخزات كثيرة بحق".

الة موسيقية يطلق عليها ايضاً اسم الاكورديون الصغير. (المترجم)

🔷 الفصل التاسع عشر

(أنسول. العاصم مملكة سبأ

مشيناً في ذلك اليوم واليوم الذي يليه تسع ساعات ونصف الساعة قطعنا خلالها خمسة وثلاثين ميلا ونصف الميل من المدقات الجبلية الملتوية، نزلنا من هضبة ديفارك نحو خمسة آلاف قدم كي نعبر نهر زاريما Zarima، وبينما كنا نسقى البغال، مر علينا قرد ضخم يقود قافلة من القردة يصل عددها إلى نحو مائة قرد من القردة الصغيرة رمادية اللون، وكان من بين هذا القطيع أيضاً بعض القردة وردية اللون، يزاد على ذلك أن القرد الكبير كان يقود القطيع بمسحة من الاحترام المضحك، صعدنا إلى بور مريم Burr Mariam وخيمنا بجوار طين بنز منه الماء، تحت شجرة من شجر القيقب الجميزي، بدا لنا ذلك النز وكأنه ماء، جرى في ميتاكليت Maitaklit نقاش بيننا وبين المسئول عن الجمارك، وقد أنقذنا من ذلك النقاش مقاول من مقاولي البغال كان يمر على ذلك المكان مصادفة، والذي كان يتباهى بعلمه، وقرأ التصريح الذي نحمله فراءة خاطئة إلى حد أخاف مسئولي الديوان، مما جعلهم يعطوننا هدية نحو عشرين بيضة شديدة الفساد، وفي اليوم السادس من مسيرتنا الاضطرارية نزلنا إلى تكازي Takkazye. وهنا وجدنا أنفسنا نعبر النهر أخضر اللون الضارب إلى اللون الرمادي، للمرة الثالثة، والذي كان بخاره يتصاعد بين الأشجار، والنباتات الزاحفة، إلى الأعلى حيث كانت أنفاس الصخر الأسود تحرفنا، كانت الأشجار الخالية من الأوراق بلا لون شأنها شأن التراب الذي كان يلهب أجسامنا، لم يكن في المكان نصل واحد من الحشائش، وكان الشرخ متجعداً على شكل سلسلة من الصخور الجافة شبيهة بالندوب الملتئمة التئاماً سيئاً، مشيناً فوق هذه السلسلة من الصخور، ونحن نتصبب عرقاً، إلى أن خارت قوى البغال واضطررنا إلى التخييم في مكان بلا ماء أو علف للحيوان، وتحت شفة (حافة) الهضبة.

قال جونز "هذا هو اليوم الثالث من الأيام الثلاثة بالغة السوء التي واجهتنا."

وافقته قائلة "كانت حرارة مميتة بين النيل (الأزرق) وذلك اليوم الذى أمضيناه بين أشواك الجمال، لكنى أعتقد أنك على حق فيما ذهبت إليه".

"لا، يا بالينا Balaina، لن تستطيع غسل أى شىء، ولا حتى الأكواب، لكن إذا أحضرت لى المكرونة القذرة فى درجة الحرارة هذه، فذلك يعنى أننى سوف أنهار".

بعد ذلك بدقائق معدودات رأيت خادمنا يبصق على الأطباق وهو سعيد ويروح بعد ذلك يجفف الأطباق في طرف قميصه، الذي اكتسب لون الرمل وأصبح قوامه مثل قوام الشحم نظراً لأنه لم يغسله أو يغيره طوال خمسة أسابيع، ونتيجة إحساسي بالغثيان، دخلت خيمتي أبحث عن زمزمية الماء، كانت الزمزمية مليئة إلى منتصفها بالماء، وأنا أذكر أن المرشد رجاني مرات عدة يطلب الشرب أثناء عملية الصلّب التي لقيناها بين الصخور، وتذكرت أيضاً أن المكرونة لابد من سلقها في شيء ما.

بلغت الحرارة فى تلك الليلة حداً تعذر معه النوم داخل الخيام، وعليه نقلنا أسرة المخيم إلى خارج الخيام وجلسنا تحت النجوم، بينما كان جونز، الذى نفذ تبغه هو والأشياء الأخرى، يضع فى شىء من الحرص بعض أعقاب السجائر فى غليونه، أحضر إلينا بالينا شيئاً لزجاً له مذاق طين الصلصال وتفوح منه رائحة الطين ورائحة البغال ورائحة البشر! غمرنا الفرح عندما طلع علينا الفجر، وتمكنا من مواصلة صعود القمم الصخرية فى اتجاه الهضبة، وأمل البراد الذى نعلقه عليها، كانت آخر حافة من الحواف مغطاة بأشجار شاحبة اللون ناعمة اللحاء، وكانت تلك الأشجار على شكل عقد مكونة من ملفات مما جعلها تبدو لنا كأنها أنواع من الثعابين أو الحبال مكونة من ملفات مما جعلها تبدو لنا كأنها أنواع من الثعابين أو الحبال المطوية طياً أنيقاً على ظهر المركب، كان الزبانية سعداء بتلك الأشجار، لأنها التى تبدأ عندها السيقان والأغصان فى الانبعاج، كانت هناك أعداد كبيرة التى تبدأ عندها السيقان والأغصان فى الانبعاج، كانت هناك أعداد كبيرة

من القردة مختلفة الأنواع، وكانت طيور الليل ممثلة بصوت شبيه بالصوت الناتج عن الصنوج النحاسية، كان أيك الأشواك والحشائش الموجودة على قمة الصخرة متخشبة مثل القصب، وبعد مسير ميل آخر بدأت القرى تتبدى لنا إلى حد أن جابرا جورجس استطاع أن يبدأ جولاته بحثاً عن الطعام، جاءت تلك الجولات بلا جدوى، ووصلنا آدانكاتو Adankato ومحطة جمركية أخرى ونحن عطشانين وبلا إفطار.

كنا نسأل الناس: "أين الماء؟"

وكانوا يردون علينا "بعيد جداً، إذا ما صمدت بغالكم معكم إلى وقت الظهيرة فستصلون إليه".

كان رئيس القرية متضايقاً في بداية الأمر، لكن منظر الوثائق الست التي تحمل أختام حكومته، أثارت عداءه بشكل واضح.

قال "أنا لا أقرأ اللغة الأمهرية، يجب أن تنتظروا معنا هنا إلى أن يمر علينا شخص يترجم لنا ذلك".

سأله جابرا جورجس بطريقة هادئة "كم سيدوم انتظارنا هنا". كان جابرا جورجس الشخص الوحيد في القافلة القادر على الكلام باللغة التجرينيه، التي لا يفهم أحد من أهل القرية غيرها، كان رئيس القرية ينظر نظرة غامضة إلى الطريق.

"فى بعض الأحيان قد يأتى مقاولو البغال من هذا الطريق، وهم متعلمون ويعرفون لغات غريبة".

كان الموقف أكثر مما يمكن تحمله، بل إن آتَّو بيـ لاكـو كان على وشك الانفجار، أدرك رئيس القرية أنه لم تكن لديه بنادق كافية لإزعاج أو مداهمة ما هو أكثر من بغالنا التعيسة، التى يجرى ضربها الآن من هنا إلى هناك بين التجرينيين، وبين البغالة الغاضبين غضباً شديداً.

قال رئيس القرية "بوسعى أن أكتب للحاكم".

"كم يبعد عنا الحاكم؟"

"نحو ثلاثة أيام، إذا ما كان في منزله".

رئيس القرية هذا لم يكن عنيداً ولا سليطاً مثل المرشد Feterari، وبعد

ساعة من اللت والعجن، تركنا نمضى لحال سبيلنا، لكن جابرا جورجس هو وواحد من الزبانية ذهبا لشراء الطعام، كان الصوم قد مضى منه أسبوع في ذلك الوقت، وكان مخزون البيض الفاسد يتزايد كل يوم، جلس طباخنا أرضا ومعه قرعة مفرغة مليئة بالماء وراح يختبر كومات البيض التى أحضرت له، بعد أن رفض الطباخ المجموعة الأولى من البيوض، أمسك به رئيس القرية وهدده بوضعه فوراً في السجن، تحتم على الزباني هو الآخر أن يعاني المصير نفسه، من منطلق أن قرية آدنكاتو Adankato قد تثأر لنفسها من تلك "المرأة القاسية" التي أهانت جمارك القرية، اللهم إلا إذا كان ذلك التصرف مقصوراً دوماً على الحبشة، كان جابرا جورجس قد استنفد كل معرفته بلغة التجرى، وأنفق أيضاً كل دولار معه، قبل أن يُفرج عنه أولئك المفسدون.

لحق بنا جابرا جورجس عند دخول الليل، بعد مسير دام أكثر من عشر ساعات، كان قسم منها خلال عاصفة برديَّة عنيفة، وكنا مخيمين بجوار بعض أشجار الدوم التى كانت تخفى الماء، كانت البغال مرهقة ولم تكن الفرصة سانحة لنا بشراء أى شىء من علف الحيوانات، كان العشب نادراً وكريه الرائحة، كانت هناك عاصفة مريعة تهب علينا ولم يكن لدينا طوال أربع وعشرين ساعة أى شىء يمكن أن نأكله، كنت أحاول عنوة فتح الجوال المغلق الذى بداخله الأوانى والمواعين والمكرونة الأبدية، عندما وصل إلى الطباخ.

قال متعجباً، "ليس هناك طعام، هذا شيء مستحيل"! وراح بعد ذلك يروى حكاية الإساءة إليه.

ابتسمت ابتسامة شاحبة، وأشرت له على كومة من الخشب كنا جمعناها. "لا عليك (本)، ولا يهمك، اطبخ أي شئ".

خطرت ببال جابرا جورجس ذكرى مفاجئة.

قال "أنا معى طائر".

تهلل وجهى وأنا أتحسس شملته (مظلته)، وأخرج بعد بحث طويل فرخاً من فراخ الحبارى، لا يزال ساخناً وأكبر قليلاً من العصفور.

استخدمت الكاتبة الكلمة Maleshوهي كلمة امهرية، واصلها عربي 'معلهش' اي 'خلُ عنك'، او 'ما عليك من شيء'. (المترجم)

قال: "لقد ضربته على رأسه بعصاى"،

تشكل مسألة الجمارك في الشمال عقبة خطيرة أمام الرَّحال الذي ليس على استعداد لرشوة رهط كبير من المستولين الجشعين، أو الجلوس هادئاً تحت أشجار الزيتون في القرية، أو أشجار القيقب الجميِّزي إلى أن ينفد صبر هؤلاء المسئولين وتتبدد آمالهم، المعاملات الحكومية في الحبشة لها اليد الطولى مثل الأوامر الكثيرة التي تصدر عن الحكام المحليين، الذين لا يقف أتباعهم على حقيقة شخصية رئيس رئيسهم، والغريب في الأمر، أنه كلما بعد المكان عن أديس أبابا، زادت أيضاً أعداد بوابات تحصيل الرسوم، إلى أن يصل المرء إلى منطقة التجرى Tigré، حيث يجد هذه البوابات على بعد مسافات متساوية تقدر بنحو عشرين ميلاً بين البوابة والأخرى، هذا يعني أن مقاولي البغال الذين ينتقلون فيما بين أسمرة وجُندار يضطرون إلى دفع الرسوم، لا مجرد مجموعة واحدة من الجمارك عند الحدود، وإنما يجرى دفع ضرائب عند منفذ كل منطقة من المناطق بواقع دولار واحد عن كل أربعة أحمال من الجلد الخام أو المدبوغ، ونصف دولار عن حمولة السكر التي يحملها بغل من البغال، أو العسل أو البن ويجرى أيضاً دفع نصف دولار عن كل ثلاثين قالباً من قوالب الملح، ونحن عندما نعمل الفكر في أن كل بغل يحمل ما قيمته أربعة وعشرين دولاراً من العسل أو ما تترد قيمته بين خمسة وعشرين وثلاثين دولاراً من الجلود، وأن هناك نحو سبع أو ثماني بوابات لتحصيل الجمارك في الرحلة الواحدة، فإن ذلك يعنى أن التجارة الفعلية الجادة تعد أمراً مستحيلاً على هذه الشاكلة، عندما كنا في جُندار كان السكر يباع بسعر سبعة شلنات وست بنسات لقمع السكر الواحد الذي يزن رطلين.

فى اليوم الثامن من مغادرتنا المدينة البرتغالية القديمة، وبينما كنا نحبو بمعدل ميلين فى الساعة، ومعنا البغال المُجّهدة، نظر المرشد إلينا مبتسما ليقول لنا: "هناك بوابة أخرى عند المنعطف القادم، وسوف تحدث بعض المتاعب لأن الحاكم المحلى القديم نُقِل ولم يأت الحاكم الجديد بعد".

كانت تحدونا آمال الوصول إلى أكسيوم فى صباح الغد، ولذلك كانت تراودنا أحلام اليقظة عن الأغنام، بنية اللون وكثيفة الصوف، قال جونز: "خروف لكل واحد منا، من فضلك". دجاج سمين، وجوالات مملوءة بالشعير

للحيوانات التي تتضور جوعاً، طلبت وأنا غاضبة معرفة منزل الحاكم المنقول، وشققت طريقي عنوة داخل ذلك المنزل، وأنا ألوح بيدي وفيها الوثائق المختومة كما لو كانت أعلاماً ترفرف في يدى، كان الجميع مندهشين من تلك الطاقة الصباحية الباكرة، الأمر الذي جعل الحاضرين يقتادونني مباشرة إلى رجل طاعن في السن، شخصية لا تعرف الابتسام، وغير مهتم بشكل واضح بتلك العظمة والأبهة التي ستغرب عنه، كانت القافلة قد توقفت خارج البرج الطيني الموجود في فناء ذلك الرجل، وأنا أتصور انقضاء الساعات علينا، عندما راح سيادته هو وحاشيته يعبرون لنا على شكل جوقة وفي آن واحد، عن عجزهم، وسط احتجاجنا أمامهم بثلاث لغات: احتجاج باللغة الأمهرية قام به واحد من الزبانية، واحتجاج بلغة التجرى واللغة العربية تقدم به جابرا جورجس، واحتجاج تقدم به حاسن فيما يظن أنه لغة إنجليزية. من حسن الحظ، أن أحد المستولين كان يتكلم اللغة الإيطالية، وقد انشرح صدره عندما استطاع ممارسة المجاملات الكثيرة التي تعلمها من تلك اللغة، مما جعله يهب لإنقاذنا، ولوح لي في شيء من العظمة، بوضع التصريحات التي أحملها، في جيبي من جديد، وأن أعود إلى البغل الذي كنت أركبه، والذي كان وُلدو سيلاسي متكنًا عليه، وهو غارق في التفكير في مسألة عودته إلى أكسيوم أم "أنه سيموت خلال السير"،

تشكل الموكب المرهق من جديد، وطوال النهار الذى مررنا خلاله على قرى صغيرة، كنا نسأل الناس "هل لديكم شعير، أو شمبورا، أو الماشيلا (* أ؟ وكان الرد الذى نحصل عليه "لا، ليس لدينا شيء نبيعه،" إلى أن وصلنا في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، إلى آداجاستنى Adagasunni، حيث الأرض المستوية مزودة بذؤابات من التلال والأكواخ فوق منحدرات حقول هذه التلال، هنا، استطعنا في نهاية المطاف، شراء وجبة جافة لماشيتنا ورحنا نراقبها وهي تأكل وعلى وجهنا تعبير رئيس خدم الأسرة وهو يحاول إعطاء التلميذ ولى العهد مزيداً من كعكة زواج شقيقته.

أمطرت السماء علينا من جديد في تلك الليلة، أو بالأحرى انفجرت علينا سلسلة من السحب، وأغرقت الأمطار الخيام؛ إذ وصل ارتفاع الماء داخلها إلى

[🖈] الشمبورا والماشيلا: نوعان من الاعشاب يستخدمان غذاء للماشية. (المترجم)

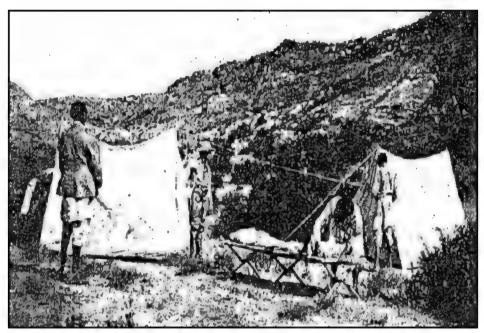
نحو بوصتين وتركتنا نحن وممتلكاتنا مشبعين بالماء، إلى حد استحال علينا معه حزم أمتعتنا أو حتى ارتداء مالبسنا، كل الأشياء كانت متورمة أو منكمشة، إلى حد أننا كنا ممنونين لذلك الحال الشبيه بالظلام، الناجم عن العاصفة والساعة المبكرة من النهار، التي كانت تطوق اجتماعنا مع الحاكم الجديد، امتد مرور موكب الحاكم الجديد خلفنا مدة نحو ساعة، كانت عامرة بأمتعة ذلك الحاكم، وعبيده، وحملة بنادقه، كانت النساء كبيرات السن يحملن القرع المفرَّغ، وكان الصبية الصغار لا يرون شيئاً بسبب السلال التي فوق رءوسهم، وكانت البنات يحملن حُزماً، وهذا شخص يحمل قارورة شبيهه إلى حد بعيد بقوارير الويسكي الأمر الذي أسال لعاب جونز، وكانت هناك أيضاً حيوانات مختلفة الأنواع بدءاً بزوج من الثيران وانتهاء بكلب من كلاب الصيد، وفي منطقة يضيق عندها مسار الطريق، وعندما كنا نحاول فصل أنفسنا عن قافلة قوامها نحو مائة بغل محملة بالجلود، التقينا الحاكم. ولما كنا نحمل له خطاباً من خطابات التزكية من راس تفارى، جرى نزول الجميع من فوق مطاياهم، حيث جرى الكثير من الانحناءات، والتحيات، التي أفسدت بسبب الفوضي التي انتابت الرجال والحيوانات، ومسارعة بغالتنا هم والغرباء إلى وضع أنفسهم على شكل حزم مزدوجة عند حوافر البغال حتى يتمكنوا من تقبيل أقدام صاحب السعادة، بعد أن أعدنا تصنيف أنفسنا اكتشفنا أن الحاكم، هذا الشخص اللطيف، متين البنية، وأشقر إلى حد ما، وأسنان كبيرة مربعة كي تناسب فكه، قد أوفد واحداً من أتباعه إلينا، وعليه كان الجزء المتبقى من مسيرنا إلى أكسيوم آمناً، وكنا عندما نمر على بوابة من بوابات تحصيل الرسوم، لا يبدى الحراس أي اهتمام بنا سوى الانحناء لنا من منطقة الوسط.

بدأت تطالعنا فى فترة العصر تلك الأكواخ التى كانت تسمى ذات يوم باسم عاصمة مملكة سبأ، شاهدنا دوائر إثر دوائر من تلك الأكواخ، وكانت كل مجموعة من تلك الأكواخ داخل مجمع سكنى جدرانه من الحجر، له بوابة موصلة إلى الطابقين، تُمكن من تفتيش الزائرين قبل الدخول، ويجرى ذلك التفتيش من خلال نافذة صغيرة فوق المدخل مباشرة، مررنا من خلال هذه البوابة وسط سحابة من الغبار وأكبر جمع من الصبية الصغار الذين أفلحنا

فى تجميعهم، لنصل بعد ذلك إلى السوق، كانت السوق عامرة بالقوافل المتجهة إلى جُندار وإلى أسمرة، والتى توقفت كى تبيع القطن الأبيض والسكر، أو الجلود، والزيت والعسل، وذلك اعتماداً على هذه القبائل ومجيئها من الشمال أو الجنوب. تقع على جانب من الأجناب المنازل المكونة من طابقين والمليسة بالجبس وهي منازل الحاكم، وعلى الجانب الآخر توجد كنيسة مريم القديمة، التى أتلفت بعمل واجهة حديثة لها من الخشب والجبس، وعمل برج مربع الشكل يميل لونه إلى اللون الوردى، أما باقى الجدران الحجرية التى ترك الزمن بصماته عليها فقد بناها البرتغاليون وهى توجى بأنها ليست مكاناً مقدساً من أماكن العذراء، تقول الأساطير، إن ألواح العهد الأصلية التى سرقها منليك، ولد سليمان، بعد أن ترك القدس ومعه ألف شاب من قبيلة من القبائل الإثنى عشرة، محفوظة هنا، كى يجرى تأسيس مملكة يهودية فى إفريقيا، هناك قصة أخرى تقول: إن تابوت العهد، الذى كانت الألواح المقدسة محفوظة فيه، مدفون فى صخور أكسيوم، التى الفتحت على سبيل المعجزة، لكى تسمح بمرور منليك، أثناء مطاردة جيش والده الغاضب عليه، له، لكن هذه الصخور أطبقت على الفاسدين من أتباعه.

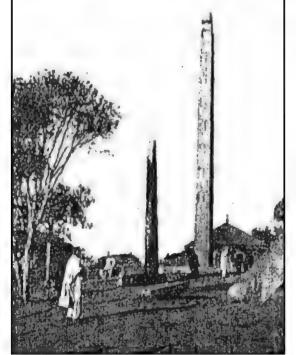
ظل ملوك الحبشة، على امتداد ثلاثة آلاف عام تقريباً، يُتَوَّجُون فى أكسيوم، واعتباراً من القرن الرابع، وعندما جرى تقديس فريمنتوس Frumentius كأول أسقف حبشى لاكسيوم، بواسطة أثناسيوس Athanasius بطريرك الإسكندرية، فقد جرى حفل التقديس هذا داخل حدود كنيسة مريم، التى يُحَّرم على النساء دخولها، لا يسمح بدخول كل ما هو أنثوى إلى داخل مسورات كثيرة في الكنيسة المخصصة لمريم العذراء، وتنفذ هذه القاعدة تنفيذاً دقيقاً وصارماً إلى حد أن الفرس، أو البقرة أو الدجاجة، أو الأوزه، لا يجوز الاحتفاظ بأى منها في منازل القساوسة المجاورة للكنيسة، وأنا هنا أتساءل إذا ما قامت عصفورة ببناء عش لها تحت طنف بارز من طنف الكنيسة، هل ستطرد من الرحمة بالجرس، والكتاب والشمعة؟!

يرجع تاريخ أكسيوم إلى زمن الحميريين، الذين غادروا اليمن السعيد، ليؤسسوا فى الحبشة ييها Yeha، كما أسسوا أكسيوم Axum بعد ذلك، فى فترة لاحقة، جاء الحميريون ومعهم دينهم القديم، عبادة الشمس والحجر؛





مخیم فی اکسیوم عند سفح الصخس، تقول الأساطیر إنه جری شقه لمرور ولد سلیمان، الهارب هو وتابوت العهد عند الیهود



المسلات التى فى اكسيوم

وفي مطلع القرن الرابع عندما قام ملك من الأكسوميين، اسمه إيزانس Aizanes بإقامة منايث (م) تأبيناً لانتصاراته، كان وجه من وجهي المنليث بحمل نقوشاً سبئية، والوجه الثاني بحمل نقوشاً بونانية: "إلى آريس Ares الذي هو والدي"، وهو يرد على الشكر كما أن العملات المعدنية الحبشية مزينة، لا بمجرد كرة على هلال، وهذا هو رمز الحميريين، وإنما أيضاً بحروف يونانية، وبعد دخول المسيحية، الذي جاء أمراً سهلاً بسبب معرفة اللغة اليونانية، التي فيها علامة الصليب، "كانت كل من أكسيوم وآديولس Adulis المراكز الرئيسية لتجارة تير الذهب، والعاج، والجلد، والجلد المدبوغ والنباتات العطرية". يكتب نوناسوس، هو والراهب كوسماس في القرن السادس عشر، ويصفان الحملات السنوية التي كان الملك أكسيوم يرسلها كل عام لتبادل الملح، والحديد، ولحم الثيران مقابل سبائك الذهب "السَّاسويَّة" Sasou، أرسل قنسطنطين Constantine في العام ٣٨٦ بعد الميلاد بعثة من "الثيوفيلين" Theophilus لزيارة ملك أكسيوم "الذي يسكن بالقرب من مدخل البحر الأحمر". هناك أسطورة تقول: إن الأحباش عندما عبروا البحر الأحمر في العام ٥٢٢ الميلادي لنجدة المسيحيين المضطهدين في الجزيرة العربية، استخدموا في ذلك أطوافاً صنعوها من ألواح ربطوها إلى بعضها بالحبال، بعد ذلك بثلاث سنوات هيمن صولجان أكسيوم على اليمن كلها، التي حكمها من خلال حاكم مُناب، وبعد ذلك بقرن من الزمان، بدأت مدينة أكسيوم تؤوى أتباع النبي المضطهدين، وهذا هو السبب وراء عدم غزو محمد للحبشة مطلقاً، وعلى الرغم من أن أتباع محمد من الأفارقة المتشددين شنوا حرياً على الحبشة، وربما كان ذلك بسبب ذهبها الأسطوري من ناحية وعقيدتها المحددة من الناحية الأخرى، فإن الحبشي في أيامنا هذه يلقى ترحيباً أكيداً في معظم البلدان الإسلامية.

استولى يهود الفلاشا بقيادة جوديث Judith، ملكة سمين Simyen، على أكسيوم من خلف سليمان فى القرن العاشر، وحكموا أكسيوم لمدة تزيد على المائة عام، وعندما طردهم تكلا Tekla المائة عام، وعندما طردهم تكلا

[🖈] منلیث: حجر ضخم مفرد یکون عادة علی شکل عمود او مسلة. (المترجم)

من أكسيوم، حكم من جاءوا بعده الحبشة كلها باستثناء شوًّا Shoa التى كانت موالية دوماً لسلالة منليك، إلى أن قام أحدهم في العام ١٢٦٨ بالتنازل عن العرش لصالح الأسرة المالكة الحقيقية. وبدءاً من ذلك الوقت، بدأ ورثة مقيودا Maqueda، ملكة سبأ، يحاربون وينتصرون، ويحاربون وينهزمون، لكنهم كانوا في كل الأحوال يحكمون جزءا من الحبشة، إلى أن جرى الاعتراف بهم على أنهم "ملوك الملوك"، ومن باب تجنب الصراعات العائلية جرى التعارف على سجن كل أقارب الإمبراطور الحاكم من الذكور، أولا في أكسيوم ثم بعد ذلك في سجن خاص، وعند وفاة الملك يجتمع الحكام Rases أكسيوم ثم بعد ذلك في سجن خاص، وعند وفاة الملك يجتمع الحكام ويختارون خلفاً من بين المسجونين الملكيين، كان الملك الصنيعة يذهب من الزنزانة إلى العرش وتظل السلطة في يدى الوصى على العرش هو والحاكم، الذي كان يخلع الحكام الذين جرى اختيارهم، كما يحلو له هو، من هذا المنطلق، حدث ذات مرة أن كان هناك، في آن واحد، نحو ستة من الأباطرة السابقين، الذين كانوا يعيشون في أجزاء مختلفة من الحبشة.

أجبرت جُندار، في القرن السابع عشر، أكسيوم على التخلى عن مكانتها باعتبارها عاصمة، ومع ذلك ظلت المدينة القديمة هي التي تتوج حاكم الحبشة، من بين بقايا أفراد سلالته النسبية المدهشة الآخذة في الانقراض السريع، ونحن اليوم ننظر إلى الأكواخ المبنية من الطين والطنف المتخلفة البارزة من أسقفها المصنوعة من القش والعشب، ونحن راكبو مطايانا خلال الطرق الفرعية التي تتشر فيها الفضلات والروث، وعظام الفك، والجماجم المتبقية عن الحيوانات النافقة، والتي تزدحم وتتزاحم فيها الروائح المتباينة إلى حد أنها يمكن تمييز الواحدة منها عن الأخرى، شأنها في ذلك شأن الروائح الصادرة عن الشحاذين الذين لا يغتسلون ومن ثم يزيدون من تلك الروائح الكريهة، الأمر الذي يجعل مسألة تصور أو تخيل الحال التي عليها الواصمة السبئية أمراً مستحيلاً علينا.

لا يزال هناك أثر من آثار أكسيوم القديمة، ويتمثل فى المناليث الضخمة، التى تهيمن من الفراغ الواقع خلف كنيسة مريم، على الأكواخ الحقيرة والكنائس، الأصل فى هذا الموضوع، هو أنه لابد أنه كان هناك خط من تلك القواعد التمثالية الضخمة، وسبب ذلك هو أن هذا الطرف من القرية تتشر

فيه كتل حجرية ضخمة مكسرة، ووسيعة بشكل لا يصدق، ومنحوتة على شكل حلية ورأس عمود، بعض هذه المناليث عبارة عن مجرد أعمدة، كبيرة الحجم مثل ركائز دائرة الدرويد، بعض آخر من هذه المناليث منحوتة بتصميمات زينية ولابد أنها انطلقت في العلو، مدببة ومستدقة نحو السحب الأولى، لا تزال قلة قليلة من الكتل الصخرية المنتصبة بين كثير من الكتل الساقطة على الأرض، ومبعثرة على طول حافة الأكواخ، كما أن هناك مجموعة من هذه الكتل الصخرية لا تزال واقفة متشامخة، هذه المجموعة مكونة من خمسة أعمدة منليثية، والأعمدة الأربعة الخارجية عبارة عن أعمدة عادية ومنخفضة عن الرمح المركزي المحفور، الذي لابد أن ارتفاعه يتردد بين ٦٠ و٧٠ قدماً.

هذا المنايث هو أفخم المنايثات الواقفة، وهو مثل إخوانه من المنايثات الأخرى، المكسَّرة إلى عدة ألواح، يقع في غور قريب من خزان المياه، وهو يمثل بناية من طوابق كثيرة، قاعدة هذا المنايث تمثل هيكل الكنيسة، الصف الأول له باب زائف، ومن فوق هذا الباب نجد أن كل دور مُعَلَّمٌ بما يوحى بوجود أطراف دعامات، كما لو أن النموذج الأصلى مصنوع من الخشب، كل منايث من تلك المناليث يواجه الشمس المشرقة، وعند قمة المنايث يوجد فراغ على شكل شبه دائرة مثبت فيه من الأمام قرص معدنى، ومن خلف رأس واحد من هذه الأعمدة يوجد تمثيل خافت للشمس.

وهذا هو تيودور بنت Theodore Bent، الذى زار أكسيوم فى العام ١٨٩٣، والذى ضمن رحلته كتابا مهما اسماه "المدينة المقدسة عند الأحباش" يصف لنا المغزى الديني من تلك المناليث:

تقع المذابح عند السفح...، أحد هذه طوله نحو سبع أقدام وعشر بوصات، وعرضه نحو تسع أقدام، وله حلبة مرتفعة، محفور فيها وعاء يشبه بطريقة غريبة وعاء الكايلكي kylix اليوناني، ويستخدم في استقبال الدم الناجم عن الأضحية المذبوحة، وهناك قناتان منحوتنان في ركنين يمكنان الدم من الانسياب إلى الحلبة السفلي، التي نجد فيها هي الأخرى ثلاثة أوعية استقبال أخرى جرى شقها هي وسلسلة كاملة من الثقوب في المنطقة المحيطة، وهناك أيضا قناتان أخريان عند الأركان ليمكنا الدم من الانسياب على الأرض، المذابح

التى من هذا القبيل كانت شائعة فى عبادة الميتريك Mittiraic، حيث كان يجرى نحر الأضحيات لإله الشمس العظيم.

يبرز السيد «بنت» ما مفاده أن المسلة الواقفة العظمية هى بلا شك كبرى المسلّلات، لأن فيها قطعاً ضخمة عرضها نحو أثنى عشرة قدماً وثمانى بوصات ونصف البوصة بالمقارنة مع المنليث الواقف الذى يصل عرضه إلى نحو ثمانى أقدام وسبع بوصات والموجود فى حديقة من الحدائق المجاورة.

يجرى في معظم الأحيان ترميم المجمعات السكنية والكنائس باستخدام كتل قديمة التي ربما كانت جزءا من سلسلة مدهشة من المسلات، التي يمكن رد أصلها إلى الأحجار المحفورة الغشيمة والباكرة، التي تكون قمتها خالية من التشكيل، والتي مرت بمراحل معمارية وزينية متباينة إلى أن وصلت إلى القاعدة التمثالية الرائعة المكونة من تسعة طوابق مثلما قلنا من قبل، هذا الصف من الأحجار الهائلة الذي يمتد في اتجاه أعالى الوادي، صخوره بدائية مثل صخور زيمبابوي Zimbabwe أو ستونهنج Stonehenge، ومع ذلك فإن القواعد التمثالية تتشكل بصورة متدرجة وتأخذ شكل الفروض، ثم يجرى قطعها على شكل أحزمة أو سيور، بحيث يمثل كل حزام دوراً محمولاً على قطعها على شكل أحزمة أو سيور، بحيث يمثل كل حزام دوراً محمولاً على دعائم، في حين نجد أن بعض الأدوار الحديثة لها أقفال، وترابيس، أو مقابض على الأبواب الهيكلية، ومن ثم يصبح بوسع المرء تخيل الصالات الخيالية الموجودة في الداخل، المدينة الحالية محاطة بالأعمدة الساقطة على الأرض من كل جانب، أو بالصخور التي تبدو كأنها قواعد لأعمدة أو تماثيل افي يوم من الأيام.

يمتد من الحجر الذي يحمل نقوشاً إغريقية وسبئية، يصف فيها أيزانس Aizanes نفسه بأنه "ملك الأكسوميين، والحميريين، والسبئيين، والزيليين Zeila.، إلخ إلخ،" والإعراب عن تقديره لمارس (ألم) وتنويهه بشلاثة من آلهة سبأ، صف من هذه الأحجار ليصل إلى قلب مدينة أكسيوم القديمة، ونقلاً عن الأستاذ ميولر Müller، فإن هذه الأحجار من تاريخ لاحق لتاريخ المسلات، إضافة إلى أن هذه الصخور كانت قواعد لتماثيل معدنية، "العروش" الحقيقية

إله الحرب عند اليونان. (المترجم)



"التى أقيمت فى صعدة Sada" لتأبين الانتصارات التى حققتها أكسيوم، ناظر السيد «بنت» على واحدة من تلك الصخور آثاراً وعلامات تدل على المكان الذى كانت قدما التمثال ترتكزان عليه، هناك بعض الأحجار التى فيها أخاديد (فروض) التى ربما كانت أشكال معدنية مثبتة فيها فى يوم من الأيام.

الأرجح أن مختلف الأحجار الحاملة للنقوش، كانت مقامة بالقرب من التماثيل التى تنتمى إليها، وقد ترك لنا كل من روبل Rüpell، وداباداى D'Abadie، وبنت، وديلمان، وميولر صور التراجم لنتف وُجدت فى فترات من الحملات المختلفة التى قاموا بها، صور التراجم هذه تصف حملات، ومعارك، وأسلاب ملوك أكسيوم، كما تصف أيضاً تاريخ أزمان هؤلاء الملوك، والعهود التى قطعوها على أنفسهم أمام مختلف الآلهة، وإهدائهم لثلاثة تماثيل لهؤلاء الآلهة "تمثال من الذهب، وآخر من الفضة، وثالث من النحاس الأصفر"، كما تصف صور هذه التراجم أيضاً حدود ممتلكات ملوك أكسيوم.

لابد أن المبانى المبنية من الطين فى أيامنا هذه، تخفى وراءها كنزاً لعلماء الآثار، هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن كنيسة مريم، المنشأة على موقع هو فى الأصل موقع لسلسلة من البنايات القديمة، وفيه أيضاً أساسات لكتل ضخمة يرجح لها أنها كانت قاعدة لمعبد حميرى من معابد الشمس، هى الأخرى عامرة بالتذكارات المهمة، لم يسمح لى سوى باختراق الفناء الخارجى، حيث يوجد صف من قواعد التماثيل الحجرية الضخمة، التى لابد أنها كانت تحمل تماثيل شبيهة بالتماثيل الموجودة فى ميدان إله الحرب، الموجود خارج المدينة، وعلى مقربة من بوابات الفناء الداخلى، يوجد ذلك الحجر الذى كان يجرى عليه تتويج الأباطرة؛ ويزاد على ذلك أن المكان كله تتبعثر فيه الأحجار القديمة وبقايا نحت بدائى.

يوجد على بعد مسير ساعة على ظهور المطايا فى اتجاه الشمال الغربى هيكل تخطيطى لأسد على صخرة من الصخور، وتوجد على مبعدة من هذا المكان قمة جبل متوجة "بكنيسة سليمان" House of Solomon حيث يظهر رأس الأسد من جديد.

نصبنا مخيمنا تحت صخور كانت في يوم من الأيام فلَقاً مر من خلاله ولد سليمان، تجمع عشرات من العفاريت شبه العراة على قمة الصخرة وراحوا

يصرخون بتعليقاتهم كما لو كانوا زرازير صغيرة داخل مدخنة من المداخن، ويضيع تشكيّ بالينا وسط صوت جابرا جورجس، وراحت البغال تتمرغ في التراب وتعض ظهورها الملتهبة على مبعدة قدم أو اثتين من الطبق الذي كان الزبانية يضعون فيه خبزهم، ارتفعت فوق الأكواخ الحقيرة سحابة من الدخان، حولت تلك الأكواخ إلى ما يشبه الفطر عند سفح هذه الأعمدة المستدقة القديمة قدم الدهر.

حاولت الإمساك بعبق التاريخ وعراقة الأسطورة كما هي في أنقاض قصور جُندار، وكما هما في لالبيلا التي لها حمرة الورد البلدي، لكني ضُللت فيما حاولته، مر كلب يجرى خلال حبال الخيمة وهو يحمل رأس غنمه مغطى بالتراب، كان هناك بعض من الرجال حملة البنادق يحاجون شحاذين ربطا أثمالهما إلى بعضها البعض في إشارة منهما إلى أن هناك نزاعاً بينهما يودان إخراجه إلى العلن، كان هناك حصان أعرج، معقول من ظهره ومن أطرافه الأمامية ببعض الأشرطة.

صرخ جابرا جورجس قائلاً: "أنتم أيها الكلاب، ويا أبناء اللصوص! هل يعد مسيحياً ذلك الذى قدم لى دجاجتين ليستا سوى عظام محشوة بالريش، وبيضاً أسود من صوم العام الماضى، مقابل دولار؟"

جاءنى بعد ذلك صبى، طويل وواسع العينين وصريح، وراح يتحدث معى حديثاً لطيفاً وهو يمسك في طرف شملته (مظلته) Chamma.

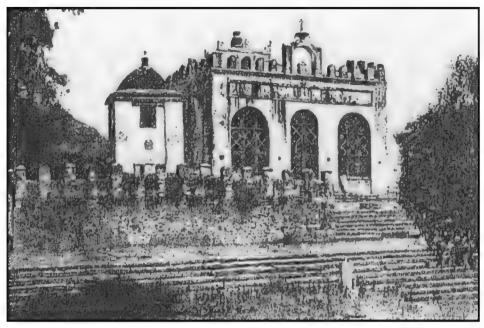
"لقد أحضرت لك هدية لأنهم يقولون إنك جئت من طريق طويل".

نظرت إلى أعلى وأنا مندهشة، قام الصبى بحرص وفك طرف الشملة ليخرج منه شيء صغير جد وضعه على راحة بده المفرودة، كان ذلك الشئ عملة نحاسية صغيرة، أصغر من عملة الفارذنج (ألله متآكلة، ومخضرة اللون بفعل الزمن، وأنا أعتقد أنها عملة حميرية، بل وريما تكون سبئية.

قال الصبى "هى قديمة جداً؛ لقد عثرت عليها هناك فى الجبال، لكنى ليس لدى العلم الذى يمكننى من تقييمها".

شكرته وقدمت له نقوداً، لكنه ابتسم وهو يضع طرف شملته على كتفه.

[🖈] قطعة نقد بريطانية تساوى ربع بنس. (المترجم)



كنيسة اكسيوم التي يُتَوِّج فيها الأباطرة الأحباش



الكنيسة المبنية بجانب المدفن الأسطوري لملكة سبا.

"لا، إنها هدية؛ ولتبارك العذراء قدميك".

جاعت انحناءته سريعة إلى حد أن رأسه احتك بتنورتى، وانصرف لحال سبيله ثانية، رافعاً ذقنه إلى أعلى، ويؤرجح عكازه الطويل، قبل أن أتمكن من الرد عليه، وقفت مدة دقيقة، أنظر إلى هذه القطعة المعدنية، التى حفرها الزمن وقولبها، مثلما فعل الناس فيها قبل أربعة عشر قرناً.

كان الدخان قد غطى الأكواخ تماماً، وتحول فى ظل الهواء الرطب إلى حشد من الأشباح، كان هناك شيء من الهدهدة حول المخيم، وكانت تتناهى إلينا من بعد إيقاعات مزامير تُغنى قادمة إلينا من دير من الأديرة، كانت المناليث تبدو كأنها ذرى من الغموض تخترق العاصفة التى أظلمت وقت الغروب، فى الوقت الذى كانت فيه أغنية داود، جد ولد سليمان «الذى كان أول من حكم أكسيوم»، تتجرف خلال حلقات الضباب مثلما تتجرف أصوات موسيقى المعركة أمام فرقة من الأشباح.

همس جابرا جورجس فجأة فى أذنى "لقد اشتريت عنزة، وأنا أظن أنها مريضة بسبب الحال الذى تبدو عليه عيناها المغلقتان، لكنى سوف أذبحها قبل أن تموت وسوف أصنع منها حساءً طيباً".

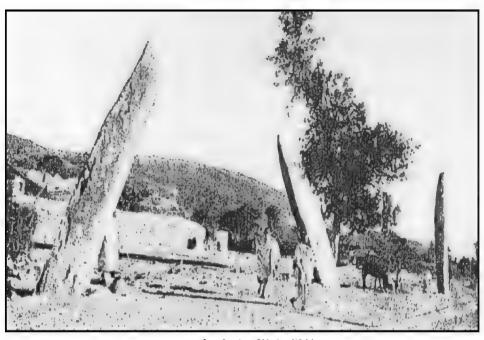
لم تكن آلة التصوير تحظى بشعبية فى أكسيوم، لم يُنظر إليها أول مرة على أنها ليست إلها يُسترحم أو يُسنترضى، وإنما كشى شرير ينبغى تدميره، وعندما نصبنا آلة التصوير السينمائى أمام المسلات، ثارت بين أفراد الجمهور غمغمات توحى بالغضب وجرى إلقاء بعض الأحجار علينا، تزايدت تلك الأحجار إلى أن أصبحت وابلاً من الأحجار، بعد أن وجد الأطفال أنهم لا يمنعون من ذلك بواسطة آبائهم، لكن من يمن الطالع أن اليد المرتعشة تكون وراثية، وعليه فإن الصواريخ التى كانت توجه إلينا كانت بلا حول أو طول ولا ضرر منها شأنها فى ذلك شأن الطلقات الحبشية التى يطلقها الأحباش على الدجاج الغينى وعلى الغزال،

حدثت أثناء صعودنا الجبل لحظة من لحظات انعدام الوقار والاحترام، عندما أحاط بنا جمع من الشكّائين، الذين لا يعرفون لهم هدفاً أو مقصداً سوى المضايقة، وحدثت لحظة فاشلة أخرى، عندما جرى جنود الحاكم المحلى خلفنا وهم يمطرونا بسيول الاعتذار التي انتهت بالنغمة المتوقعة المعتادة.

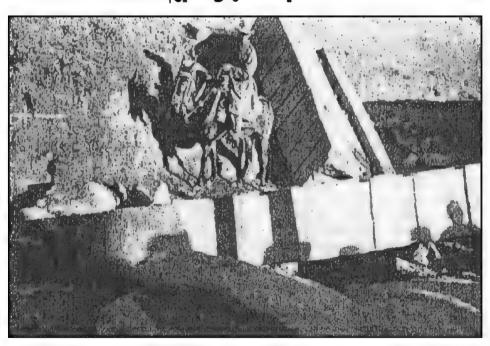
كان ضوء الشمس متقداً عبر السهل ونحن نغادر آخر المناليث المقامة تكريماً لإله الشمس طوال قرون سابقة لعصرنا، كان ذلك المنايث الأخير يقف وحيداً عند سفح جبل من الجبال، ليكون بمثابة موقع متقدم للمواقع الثلاثة والأربعين التى كانت تزين المدينة في يوم من الأيام، لما كانت أكسيوم مدهشة مثل الزمن فقد دفنت أسرارها مع العظمة التي كانت عليها في يوم ما، كما أن تاريخها يظل غامضاً مثل تاريخ المسلات العظيمة.

قلت ونحن نركب مطايانا متجهين صوب الشرق إلى الجبال الفريبة، حارسة الاستقلال الحبشى، وميدان المعركة التى أمّنت ذلك الاستقلال للحبشة "إذا ما سرّعنا الخطى سنصل آدوا في غضون أربع ساعات". لكن البغال رفضت الإسراع، وبعد أميال قلائل؛ يضاف إلى ذلك أن الحيوان الذي أحضرني من أنكوبر Ankober وقاوم صخوراً على امتداد ٨٠٠ ميل، بدأ يعرج على الأرض المستوية، كنا نفحص أرجل البغل عندما مرت علينا بعض النساء التجرينيات، وكن يحملن أطفالهن على ظهورهن في أكياس من الجلد، لابد أن هؤلاء النساء زرن مؤخراً حلاق النساء المحلى لأن شعورهن كانت مدهونة بالزيت وملفوفة، تقدمت صاحبة أنعم الضفائر من بين هؤلاء النساء، والتي كان في أذنيها قرط من ذهب، وزهرة في كل فتحة من فتحتى أنفها، وقطعت صدفة من سلسلة أحجبتها، ثم قامت بوضع هذه الصدفة في أذن البغل.

قالت: "ستجرى الآن مثل الريح، لا تخافى"، لكن الحيوان بقى أعرج كما هو، وتحتم على أن أوازن نفسى على بغل من بغال الأمتعة، إلى أن كشف منعطف من المنعطفات المفاجئة عن منظر طيب غير متوقع بالمرة مجموعة من حيوانات الركوب الراقية عليها سُرج أوروبية كانت تحت شجرة من الأشجار في حراسة بعض من حملة البنادق يرتدون ثياباً بيضاء، وفي اللحظة التي شاهدت فيها تلك الشملات البيضاء، أدركت أن أبيض الحبشة هو رمادي في حقيقة الأمر، أو "لون اللحم البشرى المحلى" على حد قول هارولد جونز، شخصية، أهلها حجم قبعتها المصنوعة من اللباد، وحذاؤها الأصفر اللامع البراق أن تكون أهلاً لهذا الوصف، اقتربت منا وهي تنحنى الأ



المناليث الأصغر في أكسيوم



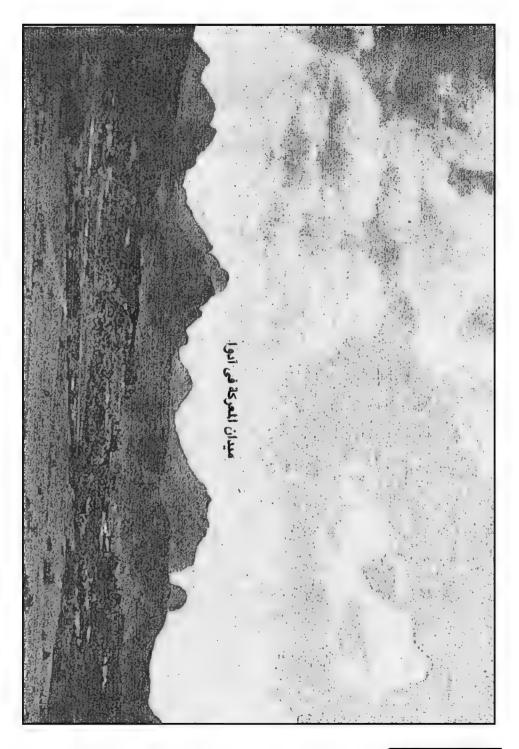
السيد/ هارولد جونز بالقرب من مسلة ساقطة في اكسيوم.

"أحمل لكم تحيات الكومنداتور بوليرو Commendatore Pollero، وهو يتمنى أن تكونوا قمتم برحلة طيبة، وأن تتفضلوا بإنهاء الرحلة على بغاله".

لقد صببنا كثيراً من البركات والتشكرات على رأس ذلك القنصل الإيطالى الحنون، أثناء ركوبنا هانئين مرتاحين ونحن متجهون إلى آدوا، التى تعد مركزاً لمملكته، والسبب في ذلك أن هذا "الإفريقي" Africano الذي لديه خبرة ثلاثين عاماً، له نفوذ أكبر على الحدود الحبشية أكثر من الحكام أو الحكام المحليين الذين يتلاعبون مع لصوص الحدود والجمارك الأخرى.

اقتربنا بسرعة من جبل فريمونا Fremona، يعلو هذا الجبل حصن ضخم وبعض أطلال الجدران التى بناها البرتغاليون قبل طردهم من ذلك المعقل الأخير من الحبشة، بسبب الخلافات الدينية والتآمر السياسى، تسلقنا ونحن نشق طريقنا بين الأكواخ المبنية من اللبن لنلقى نظرة على الأحجار المجوَّفة عن طريق النحت التى تشكل منازل المنطقة الغربية من الحبشة؛ هذه المنازل مبعثرة حالياً خلال جدران غير متجانسة تتتمى إلى تاريخ لاحق، هناك جانب من الاستحكام القديم لا يزال بلا مساس، وهو يحيط بربوة، مغطاة بالحشائش، ويخترقها شىء ربما كان خزاناً عميقاً جداً، ويرجح له أن يكون متصلاً بمجرى مائى تحت الأرض.

ونقلاً عن الأساطير يُقال إن مقيودا، «ملكة سبأ»، مدفونة في هذا المكان بواسطة ولدها اليهودي، وهناك قصة أخرى تجعل هذه الربوة موقعاً لأول كنيسة مسيحية بناها فريمنتوس في الحبشة التي حولها إلى المسيحية قبل نحو ١٦٠٠ عام مضت، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبحت هناك سلسلة من الكنائس التي قاومت الرياح والعواصف في ذلك المكان المرتفع، والكنيسة الحالية، مربعة الشكل، المبنية من الأحجار بطريقة بدائية ويعلوها صليب من بيوض النعام هي أيضاً من ضمن الآثار الضاربة في القدم، الكنيسة الحالية عبارة عن مبنى عجيب منخفض ومربوع، ولها أربعة أركان وهي شديدة القصر ومنبسطة كيما تبدو مثل لعبة الداما الملصقة بأركان صندوق من الصناديق، يجرى الاقتراب من أو الوصول إلى هذه الكنيسة عن طريق سلم، عريض، منحدر وغير منتظم الدرجات، التي تبدو أكثر تأثيراً من الكنيسة ذاتها، غريض، منحدر وغير منتظم الدرجات، التي تبدو أكثر تأثيراً من الكنيسة ذاتها، غطراً لأنها تشغل جانباً كاملاً من الربوة، كما أنها أطول من الكنيسة ذاتها،



يوجد داخل المبنى ممر مستطيل ضيق فيه مجموعة رباعية من الأبواب، المؤدية إلى معبد مربع خاص مصنوع من جذوع ضخمة منشورة نشراً بدائياً، ويبدو أن هذه الجذوع جرى قطعها وتجويفها من أشجار الجميز التى فى مكان بعيد، وسبب ذلك أنى لم أر فى آدوا خشبا بمثل هذا الحجم حتى يمكن أن تقطع منه دعامات من هذا القبيل.

عندما خرجنا من المبنى، الذى غسلته الشمس وحولته إلى لون الذهب الشاحب الشبيه بالعشب الأبيض الموجود على الربوة، كانت هناك عملية تعميد، كان هناك برج من اللبن، تتساقط من سقفه بعض قطرات الماء، على خباء جرى فرده لاستقبالها، على هذا الخباء كانت تجلس فتاة عمرها خمسة عشر عاماً، واضعة رجلاً فوق الأخرى وطفلها ملفوف فى جلد تيس مزين بالأصداف والأحجبة، كان هناك صبى يؤرجح مبخرة بجوار القسيس، الذى كان يعلق صليبه الطويل فى كتفه ويقرأ فى سره من مجلد، وعندما مررت عليه، استدار وظل يقرأ، وقدم لى الصليب كى أقبله.

♦ الفصل العشرون

فأعلما مضي

قال جونز: "الغداء! لا عمل إلا بعد أن انتهى من أكل الدجاجة رقم ثمانين، أقصد بذلك بدءاً من تحركنا من أديس – لأنى لم أحاول العد قبل ذلك". تجادلنا جدلاً ودوداً بشأن هذا الرقم.

قلت: "دجاجتان اليوم يعد رقماً كبيراً إلى حد ما؛ لقد ولت أوقات كثيرة خالية من الدجاج ..."..

قال جونز وفي عينيه المزركشتين بفعل الشمس بريق "الخبزا"

قلت: " حمَّام ودش! "

خرج الكومينداتور للترحيب بنا، تجاهل كل ثقوبنا وأثمالنا، وقدم لنا أسخن الماء وأبرد المشروبات، ودهن خدوشنا بالمرهم، وقابل عبثنا بالتعجب: " بلغنى أنكم غادرتم جُندار، لكن كيف لى بتوقع وصولكم خلال أسبوع؟ لا

^{*} نبات امریکی مُعترش. (المترجم)

أحد يستطيع، باستثناء المراسلين الوطنيين، يستطيع القيام برحلة سريعة من هذا القبيل".

ابتسمنا بطبيعة الحال، ثم اغتسلنا، ولصقنا البلاستر، وقدم لنا غداء رائعاً، كانت هناك كئوس مستدقة من الفضة لمشروب آستى سبومانت Asti Spumante الذي تفوح منه رائحة العنب، كان نبات البوغنفيلية منشوراً على طول مفرش مائدة الطعام الذي شدني لونه إلى أن تذكرت أن اللون الأبيض كان شيئاً نسبياً عندى لفترة من الوقت، كان جميلاً بحق أن نستمع إلى لغة إيطالية ناعمة مثل القطيفة التي تغلف سيف فكر هذه اللغة، لم تعد الكلمات مبعثرة في أكبر قدر ممكن من الصوت وأقل قدر ممكن من المعنى، الكلمات لها بشكل عام معان عديدة، وكل هذه المعاني مسلية، لكني كنت منغمسة كلية في الطعام عليَّ نحو منعني من المشاركة في تبادل الهجوم والتخلص من الإجابة عن الأسئلة المحرجة، في الحديث الذي كان يدور بين الكومينداتور واثنين من مواطنيه، كان على المائدة لحم دجاج بطبيعة الحال، لكن لا وجه للشبه بينه وبين ذلك الدجاج الذي أتعب فكينا، صحيح أيضاً أن المائدة كانت تحتوي على المكرونة، لكن الصلة بعيدة جداً بين المكرونة رمادية اللون التي كنا نتناولها وكان إعلانها أو اسمها يحمل ساقاً مشئومة، الأجمل من ذلك كله أن المائدة كان عليها زباجون Zabagone، له رغوة من البيض والسكر، فضلا على المارسالا Marsala التي لا يجيد صنعها إلا الأيدي الإيطالية، هذا الصنف فيه حرارة المجاملة الإيطالية، وفيه أيضاً لسعة ذكائهم، وفيه أيضاً نضج خبرتهم، وفيه أيضاً ذهب توضيحاتهم وتصويراتهم السرمدية.

قال الكومينداتور أخيراً، عندما أفرغت الكئوس الفضية من محتوياتها، وعندما راح جونز يطيل النظر إلى سيجارة كاملة كما لو كانت ستختفى بمجرد لمس الكبريت لها: "حسن، ما هي انطباعتكما عن الحبشة؟"

كان السؤال صعباً نظراً لأن كل ولاية أحدثت لدينا انطباعاً جديداً، عدَّل أو قوَّى انطباعاً قديماً.

قلت في نهاية المطاف، ظناً منى أن ذلك هو ما حاول القيام به كل الأوروبيين، والسياسيين، والتجار، والمولين، الأرض والسكان بحاجة إلى

التتمية البطيئة، وأن مسألة اختراق ذهن الحبشى تعد عملية صعبة فيما يتعلق بجعله يحدث انفتاحاً في بلده، الفارق كبير جداً بن شمال الحبشة وجنوبها، على الرغم من أن الخصائص والسمات تعد واحدة، الشمال يتشكك في الغرباء، وجرى تعزيز نوع من الاستقلال مثير للشكوك وانعدام الثقة عن طريق عزل مجتمع كل قرية من القرى، جرى في الجنوب تعديل هذه الخصائص والسمات عن طريق الإكثار من الاتصالات بالعالم الخارجي، مما جعل الناس في الجنوب، أكثر وداً وأحسن طبعاً وضيافة، الإحساس بالمسئولية الشخصية غير موجود، بأى شكل من الأشكال، في أية منطقة من الحبشة، ورأى أي إنسان لا قيمة له شأنه في ذلك شأن الإحساس بالوقت لدى هؤلاء الناس، مسألة توفير الضامن، تعد مسألة قومية، وهي تشير إلى انعدام ثقة الإنسان بأخيه الإنسان.

"الساعات لا وجود لها فى الجبال".. كنا نسمع هذه العبارة مرات فى اليوم الواحد، وهى تدل على عرق من البشر يستطيع المداومة على القيام بعمل منتظم، وهذا واحد من العوائق الكبيرة فى طريق التجارة، وسبب ذلك أن الحبشى على استعداد لدفع أى مبلغ على سبيل البقشيش بدلاً من دفع راتب دورى منتظم.

البلاد تكاد تكون خلواً من الوعى الحديث، وإذا ما نحينا جانباً كلا من ولى العهد وربما معه واحد أو اثنان آخران، نجد أنه ليس هناك فرق فى مفهوم الحياة الأساسية بين الحاكم والفلاح، وبين الجاهل والمتعلم، وعلى حد قول واحد من زبانيتنا "الجلوس، والأكل، والحديث عن النقود هو أساس الحياة الحبشية". وربما يكون قد أضاف أيضاً "والشراب"، وفيما عدا ذلك، تسيطر على الحبشي فكرتان هما: قليل من الشجار وأكبر قدر ممكن من الاستعراض والتباهى، هناك فارق واضح وصارخ في كل من سوريا، وفلسطين، والعراق، بين نظرة المسلم الجاهل التقليدي القديم أو المسيحى وبين ناتج المدارس البيروتية، قد نستغرب أن جيلاً واحداً من التعليم استطاع تحويل طفل الأسواق المؤمن بالخرافات إلى طلاب يجيدون لغات عدة، وأطباء، وصحفيين، قادرين على دراسة سياسة أوروبا باعتبار ذلك دليلاً لهم إلى آمالهم القومية، هناك في العالم العربي الحديث رغبة خلك دليلاً لهم إلى آمالهم القومية، هناك في العالم العربي الحديث رغبة صادقة في التعلم، الناس يتطلعون إلى منافسة أوروبا، ويتطلعون أيضاً إلى

الدخول إلى الأسواق العالمية، وهم على وعى بالعقبات التى تعترض طريقهم، وهم يرحبون بالنقد الألمعي البناء.

العربى الذى يلتقى أى رحال من الرحالة الأوروبيين يسأله "ما رأيك فى بلادنا؟"، لكن الحبشى لا يطرح مثل هذا السؤال مطلقاً، الفلاح الحبشى الذى يشكل القسم الأكبر من الأمة، والراضى عن نفسه وعن طريقة تصريفه لأمور دنياه، غير مهتم تماماً بالشئون الأجنبية، أو الأساليب الأجنبية، أو آراء هؤلاء الأجانب الذين يعبرون أفقة المحدود، هذا الفلاح الحبشى ليست لديه الرغبة فى التعلم، كما أنه غير واع بالدونية، وربما كان ذلك ناتجاً عن عدم معاناته من الحاكم الأجنبى، الذى ربما حرك طبائعه العرقية وولد فيه الرغبة فى الاستقلال، وربما حثه أيضاً على بذل الجهد وطلب الوحدة، واقع الأمر، أن كل ولاية أو مقاطعة، وإن شئت فقل منطقة من مناطق الحبشة تعد الأمر، أن كل ولاية أو مقاطعة، وإن شئت فقل منطقة من مناطق الحبشة تعد مستقلة، وليس لديها رغبة فى تغيير أى شىء اللهم باستثناء صغار مسئوليها وطراز بنادقها، ويتمثل جواز السيفر الحقيقى فى الفضة، وهو يحمل صورة ماريا تريزا، والرياضى هو واللتّات، وكذلك المحارب والطفيلى الكسول، بل وكل قروى حبشى، يحمل كل واحد منهم بندقية ومظلة ملونة، وذلك من باب إدراك كل منهم لطبيعيته المزدوجة.

يقول هذا الإنسان لأى مقترح من مقترحات التغيير "هذا هو الأسلوب الحبشى".

فيما يتصل بالآمال المرتقبة في التجارة، نجد أن الجنوب فيه خط سكة حديد، فضلاً على ولى عهد يود أن يجعل من أديس أبابا عاصمة زاهرة على درجة عالية من الكفاية، في ظل وجود هذه الأصول، وفي ضوء الإحساس بقيمة العلاقات الأجنبية، يستطيع الحبشي، بصورة متدرجة، منافسة التجار العرب، والتجار الهنود والأرمن، لكني على قناعة من أن الحبشي ليس محبا للتجارة، ولما كان الشمال مبالغاً في السمات والخصائص الأساسية كلها، فإن فلاح الشمال صاحب الدم الحبشي الخالص، والذي يعيش في الجبال يكشف، وعلى أفضل نحو ممكن، عن سمات وخصائص الحبشي التي لا علاقة لها بدنيا المال والأعمال، الفلاح الحبشي الشمالي يبلغ من الحرص حداً يحول بينه وبين الاستثمار، وهو أيضاً يبلغ من البطء حداً يمنعه من انتهاز الفرص التي تسنح له، وهو أيضاً يبلغ من الوضاعة حداً يمنعه من

الرضا بريح معقول، الحبشى لا يثق بشريكه أو عملائه، وهو كثير الحشو فى الكلام إلى حد أنه لا يستطيع القيام سوى بأمر من الأمور العامة. من الممكن أن تؤدى الضغوط الأجنبية إلى جعل الحبشى يغير نظرته إلى الأمور، لكن هذه النظرة متأصلة فى ثلاثة آلاف عام من الاستقلال من ناحية، وفى عزلة جغرافية، وسياسية ودينية استمرت قروناً عدة، من الناحية الأخرى.

تشكل البنية البركانية لبلاد الحبشة كل العوائق المكنة التى تقف فى وجه التطور فى هذه البلاد، تقع المناطق المزروعـة هى والقـرى فى الأراضى المستوية وعلى الحواف التى ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ستة إلى عشرة آلاف قدم؛ فى حين نجد الأنهار التى تتخفض عن مستوى سطح البحر بنحو ٠٠٠ قدم، هى والشروخ المقطوعة فى الصخور والخالية من الممرات وشديدة الانحدار، تشكل عقبة كأداء أمام التنقل، الطرق والسكك الحديدية أمور مهمة للتجارة، نظراً لأن التجارة فى الوقت الحالى تعتمد على قواقل البغال أو الجمال ويصل معدل سرعة البغل إلى خمسة أميال فى اليوم الواحد، فى الأراضى الوعرة ونحو سبعة أو ثمانية أميال فى اليوم الواحد فى الأرض غير الوعرة، يقطع مقاولو البغال، فى الظروف العادية، الطريق من جُندار إلى أدًى كوالا Addi Quala، وهو يقدر بنحو ٢٢٦ميلاً، فى زمن مدته شهر واحد، ويتعين على هؤلاء المقاولين الاختيار ما بين التخييم بالقرب من الأنهار فى ظل حرارة وبوار الأخاديد العميقة، أو الأراضى العالية حيث يوجد العشب ويقل الماء، يتباهى بعض الأحباش بأنهم لم يشربوا الماء مطلقاً فى حيواتهم، وهم بكل تأكيد لا يستعملونه فى أى شىء آخرا

هناك شكوك حول مدى كفاية التجارة فى الوفاء بسداد تكلفة شق الطرق السريعة التى ستكون من قبيل المفاخر الهندسية، أرض الحبشة ليست جبلية بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة، الأرض هنا عبارة عن فلق فى صدوع ومكوّمة على شكل صخور وعرة، وليس هناك تواصل بين هذه الصخور، اللهم باستثناء طريق شديد الاستدارة يعرف باسم طريق الماعز، وقريب من البروزات الصخرية المأهولة بالسكان، الحبشة التى يبلغ عدد سكانها نحو عشرة ملايين نسمة ليس فيها مدن غير أديس أبابا، والناس هنا مبعثرون فى أكواخ، يسهل إنشاؤها من الطين والعشب المحليين إلى حد أن أصحاب هذه الأكواخ يكادون يكونون خفيفى الحركة مثل بدو الجزيرة العربية، تتغير مواقع يكادون يكونون خفيفى الحركة مثل بدو الجزيرة العربية، تتغير مواقع

الأسواق الأسبوعية طبقاً للمواسم والمحاصيل، الحبشة ليس فيها لغة مشتركة، إلى حد أن المناطق المتجاورة من التجرى والأماهرة لا يفهمون بعضهم بعضاً، وليست هناك أيضاً عملة عامة، يزاد على ذلك أن الدولارات المنليكية يندر قبولها، أما القروش فلا يجرى التعامل بها سوى في الجنوب، خراطيش الذخيرة مختلفة الأنواع، هي وقضبان الملح، والأزرار المصنوعة من الطين، والزيت، والبخور، والكحل، والقطن الأبيض، والأدوية ، كل ذلك عبارة عن عملات في إطار وضع واحتياجات المنطقة.

تتمثل العقبة النهائية التى تقف فى طريق التجارة فى ذلك العدد الكبير من النقاط الجمركية التى سبقت الإشارة إليها بالفعل، وفى منظومة الفساد التى يعيش منها المسئولون، نظراً لأنهم لا يتسلمون مرتبات، ولكن يتعين عليهم التريح كيما يعيشون، والحاكم يفعل ذلك خارج مقاطعته، والمرشد يفعل ذلك خارج الحى الذى يعيش فيه، ورئيس القرية يفعل الشئ نفسه خارج قريته، وهم يجبرون التجار على دفع مبالغ كبيرة على سبيل البقشيش حتى يسمحوا لهم بالتجارة، الأمر الذى يقلل من أرياحهم على نحو يعجزون معه عن تطوير أى عمل من الأعمال المالية تطويراً كبيراً، سألت مقاولاً ذكياً من مقاولى البغال عن سبب عدم إضافة الأحذية الجاهزة إلى بضاعته، طالما أن الأثيوبيين جميعاً يستخدمون هذه الأحذية، وبالتالى يدفع ثمن جلد النعل لوحده، وثمن الأربطة والشرائط لوحدها، الأمر الذى يؤدى إلى ارتفاع كلفة مثل هذا الحذاء إلى الضعفين فى البادية وفى المحضر، على الرغم من أن الجلود يجرى إنتاجها فى البادية.

قال: "تفسير هذا التغيير يحتاج إلى وقت طويل" وهنا تذكرت أن الوقت والكلام لا قيمة لهما عند الفلاح الحبشى.

أسررت ببعض هذه الأفكار إلى الكومينداتور، ورماد السيجارة يتجمع بجانبنا، انتقد أو وافق، لكنه كان يوضح الأمور دوماً من واقع خبرته.

قلت وأنا أقلل من قيمة ذلك "هذا مجرد انطباع سطحى، لقد عملنا وترحلنا بكل جد واجتهاد طوال فترة وجودنا هنا".

قاطعنى مُضيِّفنا: "الانطباع أمر له قيمته، سنوات الدراسة عديمة القيمة، لكن أى شيء يكون بين هذا وذاك يكون عديم النفع".

"ما الذي تقصده بهِذا الكلام؟"

لقد ترحلت كثيراً، وهل أنت بحاجة إلى السؤال؟ ألا تعرفين كيف أن

حقائقك الأولى القاطعة يمكن أن تبهت بسبب خبرة قليلة؟ أنت تعرفين الأشياء بالفطرة في بداية الأمر، لكن بعد فترة من الشك قد تستغرق مسألة استعادة تلك المعرفة زمناً طويلاً".

تدخل في الحديث إيطالي آخر، مساعداً بذلك في بناء القصة "الخبرة تعمى الإنسان عن الضروريات".

سألت الكومينداتور: "ما رأيك في هذا الكلام؟"

قال: "المال يلغى كل ما عداه في هذا البلد".

"شيء مضحك، ألا يكون للنقود قيمة".

جاء الرد ثاقباً، وأدركت أن الكلمة الأخيرة قد قيلت بالفعل "يندر أن يكون الأطفال سيئى الطوية".

ودَّعنا في صبيحة اليوم التالي حرس من الديوك الرومية بيضاء اللون وهي تكركر.

راح الكومينداتور يشرح لنا، في الوقت الذي اندفع فيه حشد مدهش من الأوز، والدواجن، والحمام عندما سمعت صوت الرجل "حريمي".

سألته وأنا أستعيد ذكرى رسالته المقصورة على الحبشيات "أنت ليست لك امرأة أخرى؟"

التمع جبينه "هذا أمر جد خطير، اتفقنا على أن التجربة هى شكل من أشكال العمى".

بدت آدوا لنا زرقاء زرقة الضباب، ونحن راكبون مطايانا متجهون صوب الشمال وسائرون محاذون لسلسلة قممها ذات الأشكال الغريبة، يقع بين هذه القمم ميدان القتال الذي غيَّر مستقبل وتوازن القوى في إثيوبيا بين هذه القمم، هنا في هذا الميدان، وفي شهر مارس على وجه التحديد من العام القمم، هنا في هذا الميدان، وفي شهر مارس على وجه التحديد من العام المقتضاها الإيطاليون فرض معاهدة أوتشياللي Uccialli، التي فرضوا بمقتضاها الحماية على منليك، لكنهم أُنزلت بهم الهزيمة بواسطة جيش تباين تقدير عدده وتراوح بين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ مقاتل، و لما كان التفوق العددي بنسبة خمسة إلى واحد، فقد فشل الإيطاليون بخرائطهم غير الدقيقة في تحقيق الحشد بعد مسير ليلة حسب تقديرات قائدهم باراتاري، وأمضى حكام إثيوبيا، وهم تكلا حيمانوت حاكم جوجام، والحاكم ميكائيل هو وخيالة ولا جُلا Mangasha التجرّي، وفي المؤخرة وخيالة ولا جُلا Wolla Galla التجرّي، وفي المؤخرة

منليك هو والإمبراطورة، أمضوا الليل يُصلُون من أجل أن يبدأ الإيطاليون بالهجوم، كانت جيوشهم تتناقص ساعة بعد أخرى، نظراً لأن الجوع واللامبالاة كانا يعيدان حملة البنادق إلى قراهم، وكان القساوسة المرافقون للقوات يدعون القديس جورج والقديس ميكائيل، قديسى الحرب والقتال، أن يُسرِعًا من معركة خلاصهم.

" فلنترك الأجانب يبادئون بالهجوم!" وتحقق هذا الطلب ونُفِّذت تلك الأستراتيجية، واتضح في الصباح بعد سلسلة من الهجمات المنفصلة، أن الإيطاليين قد انهزموا، فقد بلغ عدد القتلى، والجرحى والأسرى عشرة آلاف، وألفيت معاهدة أوتشياللي واعترفت الدول باستقلال الحبشة التي لم تنهزم.

وصلنا فى ذلك اليوم على ظهر مطايانا إلى بلدة مارب Mareb، الحد النهرى لإريتريا، واستغرقت القافلة عشر ساعات ونصف الساعة فى قطع واحد وعشرين ميلاً، كنا نتقدم القافلة على ظهر البغال التى اقترضها القنصل المضياف، وعندما وجدنا قطيعاً من الماعز، دفعنا خرطوشة إلى عفريت صغير كى يقوم بجلب هذه الماعز لنا، لم أعرف قط أن الماعز يمكن أن تكون خادعة بهذه الطريقة، أطلقنا الزبانية بين هذه الحيوانات الخادعة، وعادوا إلينا يسحبون وراءهم أسمن هذه الحيوانات، لكن هذه الماعز لم تعطينا سوى ملاعق قليلة من الحليب، واستغرق أربعة رجال ساعة كاملة فى ملء قارورة واحدة بحليب الماعز.

جرى الترحيب بنا فى مارب Mareb بواسطة حرس من العسكر الإيطاليين الذين كانوا يرتدون طرابيش حمراء.

قال الرقيب بلغة إيطالية عجيبة "المكان هنا فيه لصوص كُثر، وعليه أوفدنا منجاشا، الحاكم المحلى لحراستكم". قاموا بالحراسة على أحسن وجه, وفى خلال دقيقتين كانوا قد أخلو الأرض استعداداً لنصب خيامنا، واحضروا لنا الخشب والماء، وسارعوا إلى جلب العلف المطلوب للحيوانات.

"هذه أيضاً، يا سيدتى، بيوض، وأثنتا عشرة دجاجة يرسلها منجاشا، الحاكم المحلى، لتكون عشاءً لكم".

نظر جونز مشمئزاً إلى مجموعة الدواجن التى توقوق، وغمغم قائلاً: "الشاني والثمانين"، لكنى تذكرت الأيام العجاف لكنى رفعت يدى شكراً وامتناناً.

नाचा। जाष्ट्

عل صفحة	الفص
الترجمة	مقدمة
ل الأول: التوقع	الفصا
ل الثانى : توابيت العهد فى هرر ٣٩	الفص
ل الثالث: بَركَةُ المياه " ٥٥	
ل الرابع : الضيافة في الجبال ٧١	الفصا
ل الخامس: البغال والزواج بصفة اساسية	الفصا
ل ا لسادس : ما يخص النساء • • ا	الفص
ل السابع: فزع دنكالي بين المرشدين	الفص
ل الثامن : أنكوبر ووفاة عمر	الفصا
ل ا لتاسع : مدينة الغابة: اديس أبابا	الفصا
ل ا لعاشر : قىس الحبشة	الفص
ل الحادي عشر: أول لقاء مع النيل الأزرق	الفص
ل الثاني عشر: ليلة مخيفة	الفصا
ل الثالث عشر: الأشباح والطمع	الفصا
ل الرابع عشر: من النيل إلى شوشا الخالية من الماء ٩٣	الفص
ل الخامس عشر: لالبيلا الحمراء 10	الفص
ل السادس عشر؛ اخطار الطريق المختصر	الفص
ل السابع عشر؛ قصور جُنداره٣٠	
ل الثامن عشر: المعارك مع الشماليين	
ل التاسع عشر: أكسيوم، عاصمة مملكة سبا	
ل العشرون: تامل ما مضى	



المؤلف في سطور

الدكتور/صبرى محمد حسن

● استاذ اللغويات المتفرغ، وله اكثر من ثلاثين بحثاً ومقالاً، نشرت في المجلات الدولية والعربية والمحلية.

● له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات:

الفيصل فى المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبدالعزيز الحربية، والمجلة العربية فى الرياض بالمملكة العربية السعودية، وكتاب الهلال بجمهورية مصر العربية. وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

أ، كتب نشرتها دور نشر عربية

١. التفكيكية: النظرية والممارسة.

٧. الشباعر والشبكل.

 ٣. الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه.

٤. الأطفال والمخدرات.

٥. الإخوان السعوديون.

هذه الكتب من منشــورات دار المريخ في المملكة العربية السعودية.

«ب» كتب نشرتها دار آف اق الابداع العالمية للنشر بالملكة العربية السعودية.

١- الموظف المشاكس.

٧- عمل الفريق الفعال.

«ج» كتب نشرتها دار الهلال في جمهورية مصر العربية.

١۔ هارون الرشيد.

٢. الكوكائين والمراهقين.

«د» روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال:

١. حلم ليلة إفريقية.

«هـ» كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة.

١. سبعة أنماط من الغموض.

٢. وسط الجزيرة العربية وشرقها.

٣. قلب الحزيرة العربية.

اختراق الجزيرة العربية.

ه ترحال في صحراء الجزيرة العربية.

٦. حركات التحرر الإفريقي.

٧. إرادة الإنسان في علاج الإدمان.

٨ تفهم ذهنية مدمن المسكرات.

۹ سیرتی الذاتی «أحمد بللو». « ه » دوایات مت حیمة نش

« و» روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة.

١ـ سكين واحد لكل رجل.

٢. نجوم حظر التجوال الجدد.

٣. المهمة الاستوائية.

٤. الجماليات لم يولدن بعد.

«ن» كتب نشرها المركز القومي للترجمة.

١- ملاحظات عن البدو والوهابيين.
 ٢- ترحال في الحزيرة العربية.

٣ـ مكة في أواخر العام ١٨٨٥.

٤. الشفاهية والكتابية

ه بنات مدمني ومدمنات المسكرات.

٦. التاريخ السرى للاحتلال الانجليزي لمصر

روايات نشرها المركز القومى للترجمة

١- تجار اللحم البشرى

٧- بلا خوف

٣- في انتظار ماريا

« ح» كتب نشرت ضمن كتاب الجيفورية ١- بلاد العرب.

٢. مغامرة في الجزيرة العربية.

٣. حاج في الجزيرة العربية .

٤. محاكمة اليهودية.

٥. ايران في عيون الإنجليز

٦. كتابة الرواية من الحبكة إلى الطباعة.

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١١٥٩٩ الترقيم الدولي : I.S.B.N - 977-236-734-3



